

شرح
تكملة البحار

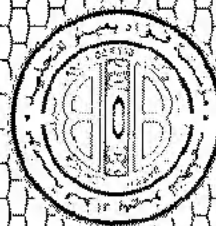
تأليف
كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم
البحراني
المتوفى ٦٧٩ هـ

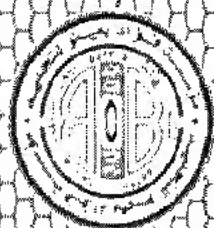
الجزء الخامس

مشتورات
دار الثقلين
بيروت - لبنان



www.haydarya.com





٨٠٥
بطاقة

شرح

نهج البلاغة

تأليف

كمال الدين قميثم بن علي بن ميثم

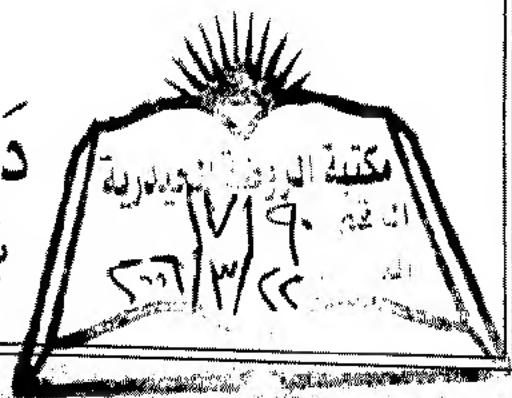
البحراني

المتوفى ٦٧٩ هـ

المجلد الخامس

دار الثقلين

بيروت - لبنان

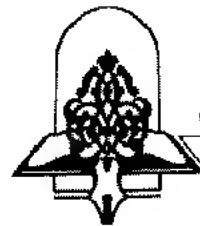


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

BP
٣٨١/٠٢
٢٨ ألف /
م ٦
١٤٢٠ ق

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ
الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م



دار الثقلين

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

دار الثقلين للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان - ص : ب ١٧٩ / ٢٥ تليفاكس ٢٧١٦٣٠
DAR AL THAKALAIN Printing, Publishing and Distribution BEIRUT-LEBANON P.O. BOX: 179/25 - Telefax : 271630

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣١ - ومن وصية له (عليه السلام)

للحسن بن علي عليه السلام كتبها اليه بحاضرين منصرفاً من صفين :

أقول : روى جعفر بن بابويه القمي - رحمه الله - أن هذه الوصية كتبها عليه السلام إلى ابنه محمد ابن الحنفية - رضي الله عنه - وهي من أفصح الكلام وأبلغه وأشمله [أجمعه خ] لدقائق الحكمة العملية ولطائفها ، وأكمل عبارة يجذب بها إلى سبيل الله . وحاضرين : اسم موضع بالشام . وفيها فصول :

الفصل الأول : قوله :

مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ ، الْمُقَرَّرِ لِلزَّمَانِ ، الْمُدَبِّرِ الْعُمَرِ ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ ،
الذَّامِّ لِلدُّنْيَا ، السَّاكِنِ مَسَاكِينَ الْمَوْتِ ، وَالظَّاعِنِ عَنْهَا غَدًا ، إِلَى الْمَوْلُودِ
الْمُؤَمَّلِ مَا لَا يُدْرِكُ ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ ، غَرَضِ الْأَسْقَامِ ، وَرَهِينَةِ
الْأَيَّامِ ، وَرَمِيَةِ الْمَصَائِبِ ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا ، وَتَاجِرِ الْغُرُورِ ، وَغَرِيمِ الْمَنَايَا ،
وَأَسِيرِ الْمَوْتِ ، وَخَلِيفِ الْهُمُومِ ، وَقَرِينِ الْأَحْزَانِ ، وَنُصْبِ الْآفَاتِ ،
وَضَرِيعِ الشَّهَوَاتِ ، وَخَلِيفَةِ الْأَمْوَاتِ .

أقول : الرهينة : ما يرهن . والرمية : الهدف ، والتاء لنقل الاسم من الوصفية إلى الاسمية الصرفة . والحليف : المحالف . والنصب : الشيء المنصوب .

وهذا الفصل كالعنوان للوصية ، وقد ذكر لنفسه أوصافاً سبعة ، ولولده

أربعة عشر في معرض الوعظ والتنفير عن الدنيا والركون إليها ، وضاعف الأوصاف لولده لأنه المقصود بالوصية والموعظة :

فالأول : من الفان ، واللفظ هنا مجاز تسمية له باسم غايته ، ووقف على المنقوص بحذف الياء لمراعاة القرينة الثانية ، وقد علمت جوازه .

الثاني : المقر للزمان : أي بالغبلة والقهر المعترف بالعجز في يد تصريفاته كأنه قدره خصماً ذا بأس يقرّ الأقران له .

الثالث : المدبر العمر ، وذاك انه كان عليه السلام قد ذرف على الستين .

الرابع : المستسلم للدهر ، وهو أبلغ من المقر للزمان .

الخامس : الدام للدنيا ، ولم يزل عليه السلام نافراً عنها ومنفراً بذكر معايها .

السادس : الساكن مساكن الموتى ، وهو تنفير عن الركون إلى الدنيا والمقام بها بذكر كونها مساكن الموتى ، إذ من كان من مساكنهم يوشك أن يلحقه ما نزل بهم ، وتقرب في التنفير من قوله تعالى : ﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ﴾ ^(١) الآية .

السابع : الطاعن عنها غداً ، وهو تذكير بالمفارقة ، وغداً كناية عن وقتها ، ولفظ الطاعن مستعار له . وأما أوصاف المولود :

فالأول : المؤمل ما لا يدرك ، وفيه تنفير عن طول الأمل . إذ كان ينسى الآخرة ، وجعل وجه التنفير تأمله ما لا يدرك ، وظاهر أن الإنسان ما دام في هذه الدار موجه أمله نحو مطالبها كما أشار إليه سيد المرسلين عليه السلام : يشيب ابن آدم ويشبّ فيه خصلتان : الحرص والأمل . وذلك يستلزم انقضاء مدته دون بلوغها .

الثاني : السالك سبيل من قد هلك ، وسبيلهم سفرهم في الدنيا إلى الآخرة وقطعهم لمنازل الأعمار ، وأضافها إلى من هلك تذكيراً بالموت .

الثالث : غرض الأسقام ، واستعار لفظ الغرض له باعتبار كونه مرمياً
بسهم الأمراض كالغرض .

الرابع : رهينة الأيام ، واستعار له لفظ الرهينة باعتبار أن وجوده مربوط
بالأوقات ، وداخل في حكمها كما يرتبط الرهن بيد مرتته .

الخامس : ورمية المصائب ، وهو كقوله : غرض الأسقام .

السادس : وعبد الدنيا ، ولفظ العبد مستعار لأن طالب الدنيا منقاد
بطبعه إليها ، وعامل لها كما ينقاد العبد لسيده ويعمل له .

السابع : وتاجر الغرور : أي تجارته لها غرور وغفلة عن المكاسب
الحقيقية الباقية ، ولفظ التاجر مستعار له باعتبار بذله لما له وأعماله في شر
الدنيا على وهم أنها هي المطالب الحققة المربحة .

الثامن : وغريم المنايا ، ولفظ الغريم مستعار له باعتبار طلب الموت له
كالمتقاضي بالرحيل كما يتقاضى الغريم .

التاسع : استعار له لفظ الأسير باعتبار انقياده للموت وعدم تمكنه من
الخلاص .

العاشر : وحليف الهموم .

الحادي عشر : وقرين الأحزان ، واستعار لفظي الحليف والقرين له
باعتبار . عدم انفكاكه عن الهموم والأحزان كما لا ينفك الحليف والقرين عن
حليفه وقرينه .

الثاني عشر : ونصب الآفات ، كقوله : ورمية المصائب .

الثالث عشر : وصريع الشهوات ، ولفظ الصريع مستعار له باعتبار كونه
مغلوباً لشهوته مقهوراً لها كالقتيل .

الرابع عشر : وخليفة الأموات ، وفيه تنفير عن الدنيا بتذكير الموت لأن
خليفة الأموات في معرض اللحق بهم ، ونحوه قول بعض الحكماء : إن
امرء أليس بينه وبين آدم إلا أب ميت لمعرق النسب في الموت .

الفصل الثاني : قوله .

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنَتْ مِنْ إِدْبَارِ لَدُنِّيَا عَنِّي ، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ ، وَإِقْبَالَ الْآخِرَةِ إِلَيَّ . مَا يَزْعُمُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ ، وَلَا هُتَمَامٍ بِمَا وَرَائِي غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدْتُ بِي - دُونَ هُمُومِ النَّاسِ - هَمُّ نَفْسِي ، فَصَدَّقَنِي رَأْيِي . وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ ، وَصَرَحَ لِي مُحَضَّرُ أَمْرِي ، فَأَفْضَى بِي إِلَى جَدِّ لَا يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ . وَصَدَّقَ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ ، وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي ، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي . حَتَّى كَانَ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابِي . وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْينُنِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي ، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنَّ أَنَا بَقِيْتُ لَكَ أَوْ فَنَيْتُ .

أقول : جمح الفرس : إذا غلب صاحبه فلم يملكه . ويرعني : يمنعني . والمحضر : الخالص . وأفضى : أي انتهى . والشوب : المزج والخلط . وقابل في لفظه بين الإقبال والإدبار والآخره والدنيا .

وقد أشرنا إلى معنى إدبار الدنيا وإقبال الآخرة في قوله : ألا وإن الدنيا قد أدبرت ، واستعار لفظ الجموح للدهر باعتبار عدم تمكنه من ضبطه في تغييراته وتصريفاته الخارجة عن اختياره كالجموح من الخيل ، وما لأولى بمعنى الذي ، ويحتمل أن تكون مصدرية ، وعلى المعنى الأول يكون من للتبيين ، وعلى الثاني لابتداء الغاية ، وما الثانية بمعنى الذي ومحلها الرفع بالابتداء ، وفيما تبين خبره ، ومستظهِراً حال ، ومدار الفصل على إعلانه إيّاه أنه في معرض الزوال عنه وأن ذلك الوقت هو وقت الاهتمام بحال نفسه وبحاله لينزله منزلة نفسه وأنه شديد الاهتمام بحاله ليكون ذلك أدعى لقبول وصيته وهو كالتوطئة والتمهيد لها .

ثم أعلمه أن فيما تبين له من أمور المذكورة قرب رحيله إلى الله وذلك هو الذي وزعه ومنعه عن ذكر ما سواه والاهتمام بما وراءه من المصالح المتعلقة بصلاح الخلق ونظام لعالم . إذ كان ذلك هو وقت التصيق على الإنسان فيما هو أهم عليه من الاستكمار بالفضائل ، والاستعداد للقاء الله

دون ما سبق من أوقات الشبيبة واستقبال العمر لاتساعها لصلاح حال الغير والاشتغال بالأمور المباحة ، غير أنه حين تبيّن له ذلك وتفرّد به هم نفسه دون غيرها ، ومن صدقه رأيه بكشفه له عما ينبغي أن يكون اشتغاله به من أمر نفسه ووجوب العمل لها فيما يهّمها ، وصرفه عن هواه فيما يخرج عنها . إذ كان أجود الآراء وأصدقها في الأمر عنده شدة الاهتمام به ، وصرح له خالص أمره وما ينبغي له ، وانتهى به إلى جد وصدق خالصين من شائبة اللعب والكذب . وجده ~~سبح~~ بعضاً منه وهو كناية عن شدة اتصاله به وقربه منه ومحبته له كما قال الشعر :

وإنما أولادنا بيننا أكادنا تمشي على الأرض

بل وجده كله : أي عبارة عن كله . إذ كان هو الخليفة له والقائم مقامه ووارث علمه وفضائله ، ودلّ على شدة قربه منه وأنه بمنزلة نفسه بذكر الغائتين في قوله : حتى . إلى قوله : أدني ، ووجه التشبيه بين ما يصيب ولده وبين ذلك الشيء وإن لم يصبه ~~سبح~~ شدة تألمه به .

واعلم أن ذلك الوجدان وإن كان له طبعاً كما يحصل للوالد في أمر ولده لكنه مما لزم التمعّن له في آخر العمر عند تذكير انقطاع الدنيا لما في ضبعه من محبة بقاء الذكر الجميل والحرص على دوام الخير والآثار الصالحة في العالم ولذلك جعله لازماً لتفرّد هم نفسه به وصدق رأيه في النصيحة .

وروي : محض . مرفوعاً على الفاعلية ومنصوباً بإسقاط حرف الجر ، والتقدير عن محض أمري ، ثم نبه على أن من لوازم وجدانه لما وجده من أمره أن عناء وأهمّه مه ما يهّمّه من أمر نفسه فكتب إليه هذه الوصية لتكون له ظهراً ومستنداً يرجع إلى العمل بها في حالتي بقائه له وفائته عنه . إذ كان ما اشتملت عليه هذه الوصية من الحكم والآداب ومكارم الأخلاق ، وتعريف سلوك الله مما رضى به نفسه في مدة عمره اقتفاءً لأثر الرسول ﷺ واقتداءً به فاقتضت عنايته به أن يحثه على العمل بها . وبالله التوفيق .

الفصل الثالث : قوله :

فإني أوصيك بتقوى الله ولزوم أمره ، وعِمارة قلبك بذكره ،

وَالْأَعْتَصَامَ بِحَبْلِهِ ، وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ ؟؟

أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ ، وَأَمِّتَهُ بِالزَّهَادَةِ ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا ، وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ ، وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، وَأَعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ ، وَسِرِّ فِي دِيَارِهِمْ وَأَثَارِهِمْ ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا . وَعَمَّا انْتَقَلُوا ، وَأَيْنَ خَلُّوا وَنَزَلُوا ، فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدْ انْتَقَلُوا عَنِ الْأَحْبَةِ وَخَلُّوا دِيَارَ الْغُرْبَةِ ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ ، فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ ، وَدَعْ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ . وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلِّفْ وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقِ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ ؛ فَإِنَّ لَكَفَّ عِنْدَ خَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ ، وَأُمِرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ ، وَبَايِنَ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهِدِكَ ، وَجَاهِدْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَأَئِمٍ ، وَخُضِرَ الْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ ، وَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ ، وَغَوَّدَ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ ، وَنَعِمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ ، وَاللَّجِيءُ نَفْسَكَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى إِلَهِكَ فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفٍ حَرِيْزٍ ، وَمَانِعٍ عَزِيزٍ ، وَأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءَ وَالْحَرَمَانَ ، وَأَكْثَرَ الْإِسْتِخْرَةِ وَتَفْهَمَ وَصِيَّتِي ، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْهَا صَفْحًا ؛ فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ ، وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحَقُّ تَعَلُّمُهُ .

أقول : الغمرات : الشدائد . والمثوى : محل الشواء والإقامة . وهذا حين افتتح ما يريد أن يوصي به .

واشتمل هذا الفصل من ذلك على أمور :

أحدها : تقوى الله ، وقد علمت حقيقتها فيما سلف ، ويشبه أن يكون المراد بها هنا الخوف منه تعالى .

الثاني : لزوم أمره وهو من لوازم تقواه .

الثالث : عمارة قلبه بذكره ، واستعار لفظ العمارة لتكميل قلبه بذكر الله ، وإكثاره منه لأنه روح العبادات ، وكمال النفس كما أن العمارة كمال للدار وهو داخل في لزوم ذكره لقوله تعالى : ﴿ واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ (١) .

الرابع : الاعتصام بحبله ، واستعار لفظ الحبل لما يوصل إليه من دينه فيكون التمسك به سبباً للنجاة كالحبل ، وأراد بالاعتصام الامتناع بالتمسك به من عذاب الله . ثم استفهم عن سبب أوثق منه استفهام إنكار وتعجب من وثاقته ، ويدخل في لزوم أمره لقوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ﴾ (٢) .

الخامس : أمره أن يحيي قلبه بالموعظة ، واستعار وصف الإحياء له باعتبار تكميله لنفسه بالعلم والاعتبار الحاصل عن الموعظة كما يكمل المرء بالحياة .

السادس : قوله : أمتة بالزهادة ، والذي يمينه هي النفس الأمارة بالسوء ، وإماتتها كسرهما عن ميلها المخالفة لأداء العقل بترك الدنيا والإعراض عنها وتطويعها بذلك ، ويحتمل أن يريد به النفس العاقلة أيضاً ، وإماتتها قطعها عن متابعة هواها .

السابع : أن يقويه باليقين : أي من ضعف الجهل للصعود إلى أفق عليين والنهوض إلى مقام الأبرار ، ولما كان اليقين درجة اشتداد وقوة في العلم ناسب أن يجعله تقوية للقلب .

الثامن : وأن ينوره بالحكمة ، واستعار لفظ التنوير بالحكمة لتحمله لها باعتبار أن ذلك سبب هدايته لسبيل الله في ظلمات الجهل كحامل النار . وقد عرفت الحكمة وأقسامها .

التاسع : أن يذله بذكر الموت ، وذلك لأن كثرة إخطاره بالبال يستلزم الخوف ويسكن القلب عن جماحه في ميدان الشهوات ، ويذل من عزة الكبر وهزة العجب وحمية الغضب .

(١) ١٢ - ٧ .

(٢) ٣ - ٩٩ .

العاشر : أن يقرّره بلفناء : أي يحمله على الإقرار به ويديم ذكره له ليتأكد علمه به .

الحادي عشر : أن يبصره فجائع الدنيا : أي يحمله على النظر بعين البصيرة والاعتبار برزايا الدنيا وآفاتھا .

الثاني عشر : أن يحذره صولة الدهر وفحش تقلّب الليالي والأيام . ولفظ الصولة مستعار له ملاحظة لشبهه بالسبع في أخذه وما يكون بسببه من الأذى .

الثالث عشر : أن يعرض عليه أخبار الماضين ، ويذكره ما أصابهم لينظر ما فعلوا وعما انتقلوا من الآثار العظيمة والملك الجسيم ، ويحصل من ذلك عمرة وقياساً لحاله بحالهم . ويستقرب لحاقه بهم وصورته كأحدهم فيما صاروا إليه ، ووجه لتشبيه قرب حاله من حال أحدهم . وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا ﴾ ^(١) الآية .

الرابع عشر : أن يصلح مثواه ، وهو الدار الآخرة بلزوم الأعمال الصالحة ولا يبيع آخرته وما وعد فيها من الخيرات الباقية بما وجد في دنياه من اللذات الوهمية الفانية ، ولفظ البيع مستعار .

الخامس عشر : أن يترك القول فيما لا يعرفه . إذ القول بغير علم يستلزم رذيلتي الكذب والجهل ، ويلحق به الذم . ونحوه قول الرسول ﷺ لبعض أصحابه : كيف بك إذا بقيت في حثالة من الناس خرجت عهودهم وأماناتهم وصاروا هكذا : - وشبك بين أصابعه - قال : فقلت : مرني يا رسول الله ﷺ . فقال : خذ ما تعرف ودع ما لا تعرف ، وعليك بحويصة نفسك . وكذلك قوله : والخطاب فيما لا تكلف كقوله ﷺ : من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه .

السادس عشر : أن يمسك عن طريق إذا خاف ضلالته ، والمراد التوقف عند الشبهات وعدم التسرع إلى سلوك طريق يشك في تأديته إلى

الحق فإن توقفه وتثبتته عند طلب الحق إلى أن يتضح له طريقه خير له من التعسف وركوب ما يخاف الضلال به من الطرق .

السابع عشر : أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فعلاً وقولاً ، وبيان من فعله بقدر مكانه ، وهو من فروض الكفاية ، وعليهما مدار نظام العالم ، ولذلك كان القرآن لكريم والسنة النبوية مشحونين بهما واستدرجه إلى ذلك بقوله : تكن من أهله . لأنهم أولياء الله الأبرار المرغوب في الكون منهم .

الثامن عشر : أن يجاهد في الله أعداء دينه الجهاد الحق ، وإضافة حق إلى جهاده إضافة الصفة إلى الموصوف لأن الصفة من باب الأهم .

التاسع عشر : أن لا يأخذه في الله لومة لائم ، وهو كناية عن نهيه عن التقصير في طاعة الله . إذ كان من لوازم لمقصر استحقاق لوم اللائمين .

العشرون : أن يخوض الغمرات إلى الحق حيث كان ، ولفظ الخوض مستعار لمعاناة الشدائد والدخول فيها لطلبه الحق .

الحادي والعشرون : أن يتفقه في الدين ، ويتعلم الأحكام الشرعية ومبادئها .

الثاني والعشرون : أن يعود نفسه الصبر على المكروه . وقد علمت أن احتمال المكروه فضيلة تحت الشجاعة وهو من مكارم الأخلاق .

الثالث والعشرون : أن يتجنى نفسه في أموره كله إلى الله تعالى ، وهو أمر بالتوكل على الله والإنابة إليه في كل مرغوب أو مرهوب ، وقد علمت حقيقة التوكل وما يستلزمه . واستدرجه إلى ذلك بقوله : فإنك تلجئها إلى كهف حريز ومابع عزيز ، واستعار لفظ الكهف له تعالى باعتبار أن من توكل عليه كفاه ومنعه مما يخاف كما يمنع الكهف من يلتجئ إليه .

الرابع والعشرون : أن يخلص في دعائه ومسألته لربه . إذ كان ذلك من شرائط الإجابة ، واستدرجه إلى الإخلاص بقوله : فإن بيده العطاء والحرمان ليستد الانجذاب إليه ولإعراض عن غيره . والفاءات الثلاث : فنعم ، وقوله : فإنك . وقوله : فإن بيده . جواب الأوامر الثلاثة .

الخامس والعشرون : أن يكثّر الاستخارة : أي الطلب إلى الله تعالى أن يخيّر له فيما يأتي ويذر .

السادس والعشرون : أن يتفهم وصيته ولا يعرض عنها ، وكنى عن الإعراض وترك العمل بها بالذهاب صفحاً ، وانتصب صفحاً على الحال : أي ولا تذهبن معرضاً ، واستدرجه للإقناع بها بقوله : فإن خير القول ما نفع ، والتقدير فإن وصيتي نافعة . وما نفع فهو خير القول . فإذا وصيتي خير القول .

ثم نبّهه بقوله : واعلم . إلى قوله : تعلّمه . على أن من العلوم ما لا خير فيه لئلا يتشوّق إلى معرفته فيصدّه ذلك عن سلوك سبيل الله والعلم المؤدي إليه ، وتلك هي العلوم التي نهت الشريعة عن تعلمها كالسحر والكهانة والنجوم واليرنجات وبحوها مما لا يكون سبيلاً إلى المقاصد الحقيقية النامة .

وتقدير الكلام : واعلم أن كل علم لا يحقّ تعلمه : أي لا يثبت في الشريعة تعلمه وجوباً ولا ندباً فهو علم لا ينتفع به في طريق الآخرة فلا خير فيه لأن الخير الحقيقي هو المنفعة الباقية عند الله فما لا منفعة فيه لا خير فيه ، ولذلك استعاذ الرسول ﷺ منه فقال : وأعوذ بك من علم لا ينفع . فينتج أن كل علم لا يحقّ تعلمه فلا خير فيه . وبالله التوفيق .

الفصل الرابع : قوله :

يٰ بَنِيَّ ؛ إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنّاً ، وَرَأَيْتُنِي أَرْزَادُ وَهْنًا ؛ بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ ، وَأَوْزَدْتُ خِصَالاً مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُونَ أَنْ أَقْضِيَ إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي ، وَأَنْ أَنْقُصَ فِي رَأْيِي كَمَا نَقَصْتُ فِي جِسْمِي ، أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى ، أَوْ فِتْنِ الدُّنْيَا ، فَتَكُونَ كَالصُّعْبِ النَّفُورِ ، وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدِيثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ : مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبْلَتْهُ ، فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُو قَلْبُكَ وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ ؛ لِتَسْتَقْبَلَ بِحَدِّ رَأْيِكَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجَرِبَتُهُ ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِّتَ مَوْوَنَةَ الطَّلَبِ ، وَعُوفِيتَ

مِنْ عِلَاجِ التَّجَرِبَةِ ، فَاتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ .

أَيُّ بَنِي ؛ إِنِّي - وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمَرْتُ عُمَرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي - فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ . وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ ، وَسِرَّتُ فِي آثَارِهِمْ ، حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا أَنْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمَرْتُ مَعَ أَوْلَاهُمْ إِلَى آخِرِهِمْ ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدْرِهِ ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَجِيلَهُ وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ ، وَرَأَيْتُ - حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ - أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمَرِ ، وَمُقْتَبِلُ الدَّهْرِ ، ذُوْنِيَّةٌ سَلِيمَةٌ وَنَفْسٌ صَافِيَةٌ ، وَأَنْ أُبْتَدِيَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ وَتَأْوِيلِهِ . وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ ، [وَ] لَا أَجَاوِزُ لَكَ إِلَى غَيْرِهِ ، ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبَسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي أَلْتَبَسَ عَلَيْهِمْ ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَى أَمْرٍ لَا أَمْرُ عَلَيْكَ فِيهِ الْهَلَكَةُ ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُرَفِّقَكَ اللَّهُ لِرُشْدِكَ ، وَأَنْ يَهْدِيكَ لِقَصْدِكَ ، فَعَهَدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ .

وَأَعْلَمُ ، يَا بَنِي ، أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي ، تَقْوَى اللَّهِ وَالْاِقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَالْأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدْعُوا أَنْ نَظَرُوا لَأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاطِرٌ ، وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ ، ثُمَّ رَدَّاهُمْ آخِرُ ذَلِكَ الْأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا وَالْإِمْسَاكُ عَمَّا لَمْ يُكَلِّفُوا ، فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَمِمُوا فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ بِتَفْهَمٍ وَتَعْلَمٍ ، لَا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ ، وَعُلُوِّ الْخُصُوصِيَّةِ وَآبَدًا - قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ - بِالِاسْتِعَانَةِ بِالْإِلَهِ ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ ، وَتَرْكِ كُلِّ شَائِئِيَّةٍ أَوْ لَجْنَتِكَ فِي شُبُهَةٍ ؛ أَوْ أَسْلَمْتُكَ إِلَى ضَلَالَةٍ ؛ فَإِذَا أَيقَنْتَ أَنَّ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذَلِكَ

هَمًّا وَاجِدًا ؛ فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ ؛ وَإِنْ أَنْتَ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ
نَفْسِكَ وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ ، فَاغْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخِيطُ الْعَشَوَاءَ ، وَتَتَوَرَّطُ
الظُّلُمَاءَ ؛ وَلَيْسَ طَلِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ ! وَالْإِمْسَاكُ عَنْ ذَلِكَ أَمْثَلُ .

فَتَفْهَمُ ، يَا بَنِي ، وَصِيَّتِي ؛ وَأَعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ ،
وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ ، وَأَنَّ الْمُفْنِي هُوَ الْمُعِيدُ ، وَأَنَّ الْمُبْتَلِي هُوَ
الْمُعَافِي ، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَى مَا جَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ لِنَعْمَاءِ .
وَالْإِيتِلَاءِ وَالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا نَعْلَمُ . فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ
مِنْ ذَلِكَ فَحِمْلُهُ عَلَى جَهَالَتِكَ بِهِ ، فَإِنَّكَ أَوَّلَ مَا خَلَقْتَ جَاهِلًا ثُمَّ عَلَّمْتَ .
وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الْأَمْرِ ، وَتَخَيَّرُ فِيهِ رَأْيَكَ ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصْرُكَ ، ثُمَّ
تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ . فَاغْتَصِمَ بِالَّذِي خَقَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ .
وَالْيَهُ رَغْبَتُكَ ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ .

وَأَعْنَمُ ، يَا بَنِي ، أَنَّ أَحَدًا نَمَّ يُنْبِئُ عَنْ اللَّهِ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ .
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَارْضَ بِهِ رَأْدًا ، وَإِلَى النِّجَاةِ قَائِدًا ، فَإِنِّي لَمْ
أَلِكْ نَصِيحَةً ، وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ - وَإِنْ جُتْهَدْتَ - مَبْنَعُ نَظَرِي
لَكَ .

أقول : الوهن : الضعف . والمبادرة : المسارعة والمسابقة .
وأفضى : وصل . والبغية : الطلبة . والتوخي : القصد . وأجمعت :
صممت العزم . وأسلمته إلى كذا : خلّيت بينه وبينه . وأمثل : أقرب إلى
الخير .

وهي هذ الفصل مقاصد :

الأول : أنه أشار إلى بعض العلل الحاملة له على هذه الوصية ، وهي
كونه قد بلغ سنًا عاليًا وأخذ ازديادًا في الضعف ، وذلك أنه كان قد جاوز
الستين فلزم من ذلك خوفه لأحد الخصال المذكورة فادرها وسابقها إليه .
وخصالاً مفعول به . وعدّ من تلك الخصال ثلاثًا :

الأولى : أن يعجل به أجله إلى الآخرة قبل أن يوصل إليه ما في نفسه من الحكمة .

الثانية : أن ينقص في رأيه ، وذلك أن القوى النفسانية تضعف عند علو السن لضعف الأرواح الحاملة لها فينقص بسبب ذلك تصرف العقل وتحصيله للأراء الصالحة .

الثالثة : أن يسبقه إليه بعض غلبات الهوى فإن الصبي إذا لم يؤخذ بالآداب في حدائته ولم ترض قواه لمطاوعة العقل وموافقته كان بصدد أن تميل به القوى الحيوانية إلى مشتبهاتها ، وينجذب في قياد هواه إلى الاستعمال بها فيفتنه ويصرفه عن الوجهة الحقيقية وما ينبغي له فيكون حينئذ كالصعب النفور من الإبل ، ووجه التشبيه أنه يعسر حمله على الحق وجذبه إليه كما يعسر قود الجمل الصعب النفور وتصريفه بحسب المنفعة . ثم به على وجوب المبادرة إليه بالأدب ، وزرعه في قلبه بضمير صغراه قوله : وإنما قلب الحدث . إلى قوله : قبلته .

وأشار إلى وجه التشبيه بقوله : وما ألقى فيها من شيء قبلته . وذلك أن قلب الحدث لما كان خاليًا من الانتقاش بالعقائد وغيرها مع كونه قابلاً لم يلقي إليه من خير أو شر فيتشبه به أشبه الأرض الخالية من النبات والزرع القابلة لما يلقي فيها من البذر ، وتقدير الكبرى : وكل قلب كان كذلك فيجب أن يسبق إليه ببذر الآداب وعرس الحكمة .

فلذلك بادره بالأدب قل أن يقسو قلبه عن الانقياد للحق والاشتغال بالأمور الباطلة . ثم أشار إلى العلة الأخرى من العلة الغائية لمبادرته بالأدب وهي أن يستقبل بجدر رأيه وقوة فكره ما قد كفاه أهل التجارب بغيته من العلوم وعوفي فيه من علاج التجربة ومعاناتها فأتاه من ذلك العلم التجربي ما كان أهل التجربة يأتونه ويطلبونه ، واستبان له ما ربما أظلم عليهم منه ، وفرق بين من يأتيه العلم صفواً ، ويلقى إليه بيناً واضحاً ، وقد كفى فيه مؤونة الاكتساب ، وبين من سعى إليه وشقى في تحصيله وخاض إليه غمرات الشكوك وظلمات الشبهات . وكل ذلك من الأمور المقنعة له في قبول الوصية

والعمل بما اشتملت عليه من الحكم والأداب لأن أهل التجارب إذا كانوا قد جدّوا في تحصيله مع ما وجدوا فيه من المشقة . فلإن يجد هو ويقبله خالصاً من الكلفة أولى .

المقصود الثاني : أشار إلى فضيلة نفسه واستكمالها بالعلوم . ثم إلى كونه في غاية العناية والشفقة عليه وإلى ما رآه أصلح في تعليمه إيّاه من العلوم غير متجاوز إلى غير ذلك ، وغايته من الجميع استدراجه لقبول قوله كما علمت من غرض الخطيب في ذكر فضيلته ، وما يستدرج به للانفعل مما يريد أن يقنع به من الآراء وغيرها . فنبه على فضيلته بقوله : أي بني ، إلى قوله : مجهولة .

وقوله : وإن لم أكن .

في قوة جواب اعتراض مقدر كأن قائلًا قال له : فكيف حصلت العلوم عن تجارب الأمور مع حاجة التجربة إلى عمر طويل يشاهد فيه الإنسان تغيرات الأمور وتقبات الدهور ؟ فقال : إني وإن لم أكن عمّرت عمر من كان قبلي وشاهدت أحوالهم لكنني نظرت في أعمالهم وفكرت في أخبارهم الماثورة وسرت في آثارهم سيرا محسوساً ومعقولاً حتى صرت كأحدهم في عيان أمورهم .

وقوله : فعرفت .

عطف على قوله : وسرت .

وقوله : ذلك .

إشارة إلى ما انتهى إليه من أمورهم . وكنى بلصفو عن الخير وبالكدر عن الشر : أي فعرفت خير أمورهم من شرها ونفعها من ضرّها ، واستخلصت لك من كل أمر جليله وهو خيره وما ينفع منه عند الله من العلوم والعبر النوافع ، وروي : نخيلته أي خلاصته . وقصدت لك جميله : أي الأمر الحسن منه دون قبيحه ، وصرفت عنك مجهولة : أي ما اشتبه عليك أمره والتبس الحق فيه .

وقوله : ورأيت حيث عناني . إلى آخره .

إشارة إلى كمال عنايته وشفقته عليه ووجوه اختياراته له ما هو أولى به من العلوم ، وأجمعت عطف على يعني ، وأن يكون في محل النصب على أنه مفعول أول لرأيت ، وتكون هنا تامة ، والواو في قوله : وأنت للحال ، وأن ابتدئك عطف على أن يكون ، والمفعول الثاني لرأيت محذوف تقديره أنفع وأصلح ، وتقدير الكلام : ورأيت حيث عناني من أمرك ما يعني الوالد الشفيق من أمر ولده من النظر في مصالحه والاهتمام بأحواله ، وما صممت عزمي عليه من تأديبك أن يكون ذلك التأديب حال إقبال عمرك حال كونك ذا نية سليمة من الأمراض النفسانية والأخلاق الذميمة ، وكونك ذا نفس صافية من كدر الباطل ، وأن أبتدئك بتعليم كتاب الله وتأويله وما يشتمل عليه من شرائع الإسلام : أي قوانينه وأحكامه وحلاله وحرامه ، وأقتصر بك على ذلك كما اقتصر عليه كثير من السلف .

وقوله : ثم أشفقت .

عطف على رأيت : أي كنت رأيت أن أقتصر بك على ذلك ولا أتجاوز بك إلى غيره من العلوم العقلية . ثم خفت أن يلتبس عليك ما اختلف الناس فيه من أهوائهم وآرائهم مثل ما التبس عليهم : أي التباساً مثل الالتباس عليهم فكان إحكام ذلك : أي ما اختلف الناس فيه على ما كرهت من شبهك له أحب إلي من اسلامك إلى أمر لا أمن عليك فيه الهلكة في الدين ، وذلك الأمر هو ما اختلف الناس فيه من المسائل العقلية الإلهية التي يكثر التباس الحق فيها بالباطل ، ويكتنفها الشبهات المغلطة التي هي مظنة الخطر والانحراف بها عن سبيل الحق إلى سبيل الهلاك ، وإحكام ذلك الأمر ببيان وجه البرهان فيه وكيفية الخلاص من شبهة الباطل ومزاجه .

وقوله : ورجوت أن يوفقك .

عطف على أشفقت ، والضمير المجرور بفي يعود إلى ما اختلف الناس فيه .

المقصود الثالث : الإشارة إلى بيان ما هو الأحب إليه أن يأخذ به من

وصيته ، والإرشاد إلى كيفية أخذه وما ينبغي أن يبدأ قبل الشروع من الاستعانة بالله والرغبة إليه في التوفيق . إلى غير ذلك من الآداب التي يتم بها الاستعداد للبحث والتعلم . فمن الأحب إليه تقوى الله الذي هو الزاد المبلغ إليه . ثم الاقتصار على ما افترضه الله عليه من النظر في ظواهر الأدلة دون التوغل في الفكر وخوض الشبهات مما لم يكلف به أخذاً بما مضى عليه الصالحون من أهل بيته كحمزة وجعفر والعبس وعبيدة بن الحرث وغيرهم من بني هاشم .

وقوله : فإنهم إلى قونه : لم يكلفوا .

ترغيب له في الأخذ بمأخذهم ، وتنفير له عن التوغل والتعمق بضمير صغراه ما ذكر ، وتقدير الكبرى : وكل من كان كذلك فينبغي لاقتداء به في الأخذ بما عرف والإمساك عما لم يكلف .

وقوله : فإن أبت . إلى آخره .

بيان للكيفية التي ينبغي أن يكون عليها طلبة العلوم العقلية ، والتدقيق فيها إن أبت نفسه الاقتصار على ما افترضه الله عليه : أي فليكن طلبك لما أنت طالب له من ذلك على وجوه :

أحدها : التفهم لمقاصد ، والتعلم للحق ، والطلب له لا عنى وجه تعلم الشبهات والتورط فيها والمشاعبة بها فإن ذلك مما يصد عن تعم الحق ويمنع من قبوله .

الثاني : أن يبدأ قبل نظره في ذلك الطلب بالاستعانة بالله والرغبة إليه في توفيقه لإصابة طريق الحق والوصول إليه .

الثالث : أن يترك كل شائبة أولجته في شبهة كالعادات في نصرة المذاهب الباطلة بحسب اتباع الهوى والآراء التي يطلب بها الرئاسات فإن النفس إذا كنت فيها شائبة محبة لأمر جسماني لم يتضح لها طريق الحق . بل كانت إلى الانحراف في طرق الضلال والشبه المناسبة للمطالب الباطلة أقرب ، وتلك الطرق أعرف عندها لمكان تلك الشائبة . فينبغي للسالك أن يحذف عن نفسه كل شبهة تقود إلى ضلالة . ولفظ الإسلام مستعار لإهماله وعدم جذبه عما يتورط فيه من الأمور المضلة .

ثم قال : فإذا أيقنت . إلى آخره : أي فإذا أعددت نفسك للطلب والنظر بما ذكرت لك ، وتحققت أن قد صفا قلبك من كل شائبة تنافي النظر ، فخشع من خشية الله أن يؤاخذك بتركه ، وتم رأيك وعزمك عليه فاجتمع متفرقة حتى لا يبقى لك إلى تركه التفات ، وكان همك فيه همّاً وحداً لا ينقسم إلى غيره . فانظر حينئذ فيما فسّرت لك ونبهتك عليه من المسائل العقلية الإلهية كم سيأتي ، وإن أنت لم يجتمع لك ما تحب من نفسك وفراغ نظرها وفكرها عن الشوائب المنافية للعلم وطلبه ونظرت . فاعلم أنك في حوضك وطلبك له إنما تخطب خبط عشواء وتتورط الظلماء ، وكل من كان كذلك فليس أهلاً لطلب الدين من أصوله . وحذف المضاف إلى العشواء وأقام المضاف إليه مقامه ، واستعار وصف الخبط له باعتبار أنه طالب للعلم من غير استكمال شرائط الطلب ، وعنى غير وجهه فهو متعسف سالك على غير طريق المطلوب كالناقة العشواء . وكذلك لفظ الظلماء للشبه باعتبار أن الذهن لا يهتدي فيها لطلب الحق كالماشي في الظلماء .

المقصود الرابع : أمره بتفهم وصيته . ونبهه على جملة من صفات الله وفعاله التي قد يتوهم لتضاد والتناهي في إسنادها إلى مبدأ واحد ، وأشار إلى أنها ليست بمتضادة . وأن مبدأها واحد . فأما الصفات فهو أن القادر على الموت ومن له أن يميت فهو القادر على الحياة وله أن يحيي باعتبار أن أسباب الموت والحياة تنتهي إليه ، وكذلك لخلق هو المميت فإن فاعل الخلق هو مقدر لموت الذي ينتهي إليه أسبابهم ، وإلى هذين الاعتبارين الإشارة بقوله تعالى : ﴿ يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ فيحيي ويميت باعتبار أنه الفاعل الأول لهما وباعتبار أنه الرب المطلق هو المالك الأول لهما ، وكذلك المفني هو المعيد والمبتلي هو المعافي باعتبار انتهاء أسباب الفناء والإعادة والابتلاء والمعافة إليه .

وقد علمت أن كل هذه الأمور اعتبارات عقلية تلحق معقولة الواجب سبحانه بالقياس إلى مخلوقاته وآثاره كما استقصيناه في الخطبة الأولى ، وأما الأفعال فهو أنه تعالى لما خلق الدنيا لم يمكن خلقها واستقرار وجودها إلا على ما خلقها الله عليه من إفاضة ما يعد نعمة في حق بعض العبيد من مال

وصحة ونحوهما ، والابتلاء بما يعد بلاء من الفقر والمرض ونحوهما ، وإن كانت النعماء أيضاً ابتلاء كما قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾^(١) . ثم لزوم الجزاء في المعاد لنفوس المبتلين والمنعم عليهم بحسب طاعتهم ومعصيتهم في النعمة والابتلاء ، وكذلك خلقه لها على ما شاء مما لا يعلم وجه الحكمة فيه ، واعلم أنه قد ثبت في أصول الحكمة أن المقصود من العناية الإلهية بالذات . إنما هو الخير .

وأما الشرور الواقعة في الوجود فكأثمة بالعرض من حيث إنه لا يمكن نزع الخير وتجريده عنها . ولما كان الخير أغلب في الوجود ، وكانت الشرور أموراً لازمة أقلية لم يمكن ترك الخير الكثير لأجلها لأن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير في الجود والحكمة ، وذلك معنى قوله ﷺ : وإن الدنيا لم تكن لتستقر إلا على ما جعلها الله عليه مما عددناه مما يعلم كونه خيراً أو شراً أو لا يعلم حاله : أي لم يكن خلقها إلا على ما فيها من خير مراد بالذات وشر مراد بالعرض . ولزوم الجزاء على السيئة وعقاب النفوس في المعاد عليها من الشرور اللازمة لما حصلت عيه من الهيئات البدنية والملكات لردية في الدنيا كما يعلم ذلك من موضعه .

وقوله : فإن أشكل . إلى آخره .

أي فإن أشكل عليك شيء من أسرار القدر ، وخفي عليك وجه الحكمة فيه فلا تتوهم خلوه عن حكمة بل احمله على جهالتك به فإنك أول ما حلقت جاهلاً ثم عمت كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونِ أُمَهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾^(٢) الآية . ونصب أول على الظرف . وجاهلاً على الحال ، وروي أول مرفوعاً بابتداء وجاهل بالرفع خبراً له .

ثم نبهه على أكثرية ما يسبق جهله به من الأمور ثم يدركه فيما بعد ليجعل ما لا يدرك وجه الحكمة فيه من ذلك القبيل . ثم أمره بالاعتصام بالله واللجأ إليه في موته ، وأن يجعل له تعبده وإليه رغبته ومنه شفقتة لأنه تعالى

(١) ٢١ - ٣٧ .

(٢) ١٦ - ٨٠ .

أحق موجود بذلك وأولاه بالأمور المذكورة .

المقصود الخامس : الإشارة إلى فضيلة الرسول ﷺ على سائر الأنبياء لزيادته عليهم في إيضاح الخبر عن الله تعالى ، وبيان المطالب الحقيقية التي اشتمل عليها الكتاب العزيز من أسرار التوحيد والقضاء والقدر وأمر المعاد فإن أحداً من الأنبياء السابقين ﷺ لم يفصح عن هذه الأمور كإفصاحه ، ولذلك كانت هداية هذه الأمة بتمام ما جاء به ﷺ أتم وأكمل من هداية سائر الأمم السابقة عما جاءت به أنبيائها وكانت عيون بصائرهم أبسط أنواراً وأكثر انتشاراً . وغاية ذكر فضيلته ﷺ هنا أن يرضى برأيه ودلالته على طريق النجاة في الآخرة ، واستعار له لفظ الرائد باعتبار أنه قد اختبر ما في الآخرة من الثواب المقيم والسعادة الباقية ، وبشربه أمته كما يبشر الرائد أهله بوجود الكلاء والماء بعد ارتياده .

ثم أردف ذلك ببيان أنه لم يزل ناصحاً له وأنه لم يبلغ نظره لنفسه وإن اجتهد في ذلك مبلغ نظره له ليتأكد الإقناع برأيه وشوره عليه فيما يراه له . ونصيحة نصب على التمييز .

الفصل الخامس : قوله :

وَأَعْلَمَ ، يَا بُنَيَّ ، أَنَّهُ لَوْ كُنَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ ، وَلَكِنَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ ! كَمْ وَصَفَ نَفْسَهُ ، لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ ، وَلَا يَزُولُ أَبَدًا ، وَلَمْ يَزَلْ ، أَوَّلُ قَبْلِ الْأَشْيَاءِ بِلاَ أَوَّلِيَّةٍ . وَخَرُبْ بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلاَ نِهَآيَةٍ . عَظُمَ عَنْ أَنْ تَتَّبِتَ رُبُوبِيَّتَهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ . فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صَغَرِ خَطَرِهِ ، وَقِلَّةِ مَقْدَرَتِهِ ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ ، وَعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ . وَالْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ : فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَنِ ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قُبْحٍ .

أقول : أشار في هذا الفصل إلى الحجة على وحدانية الصانع سبحانه ، وعلى جملة من صفاته . ثم إلى ما ينبغي أن يفعله من ملاحظة

عظمته تعالى من الصفات المذكورة فإذن هاهنا أبحاث :

البحث الاول : الحجة على وحدة الصانع ، وهي شرطية متصلة مقدمها قوله : لو كان لربك شريك ، وتاليها لأنتك رسله . إلى قوله : ولعرفت أفعاله وصفاته ، ويستنتج منها استثناء نقيض اقسام التالي لينتج نقيض المقدم . بيان الملازمة : أنه لو كان له شريك لكان شريكه إلهاً مستجمعا لجميع شرائط الإلهية وإلا لم يصلح للشركة لكن من لوازم الإلهية أمور :

أحدها : الحكمة في وجوب بعثة الرسل إلى الخلق ووصولهم إليه لما علمت من برهان وجوب البعثة في موضعه .

الثاني : يلزم أن يكون آثار ملكه وسلطانه وصفات أفعاله ظاهرة مشهدة .

الثالث : أن يعرف أفعاله وصفات ذاته . لكن هذه اللوازم كلها باطلة : أما الأول : فلأنه لم يأت رسول ذو معجزة يدل على الثاني ويخبرنا عنه .

وأما الثاني : فهو أن آثار الملك والسلطان وعظمة الملك وإحكامه إنما يدل على حكيم قادر فأما على التعدد فلا .

وأما الثالث : فلأن مجرد الأفعال التي شاهدها إنما يدل على فاعل فأما التعدد فلا ، وكذلك صفات الإلهية المكتسبة بواسطة لأفعال من العلم والقدرة والإرادة وغيرها . إنما يدل على صانع موصوف بها فأما على صانعين أو أكثر كذلك فلا . فإذن القول بأن لربنا شريك قول باطل لا برهان عليه كما قال تعالى : ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به ﴾ (١) الآية .

وقوله : إله واحد كم وصف نفسه . من لوازم النتيجة لأنه إذا بطل القول بثاني الإله ثبت أنه إله واحد كما وصف هو نفسه بقوله : ﴿ قل هو الله

أحد . وهو الله الواحد القهار ﴿ وأنه لا يضاده في ملكه أحد : أي يعانده في أفعاله وينازعه في ملكه كما هو عادة الملوك . واعلم أن هذه الحجة إقناعية كما هو غاية الخطيب من الخطابة وليست برهانية لأنه إن أريد في الشرطية أن وجود الثاني يستلزم وجود آثار وأفعال وصفات تخصه ويعلم اختصاصه به . فالملازمة ممنوعة لأن الإلهين سواء كانا متفقي الحقيقة أو مختلفي الحقيقة لا يلزم أن يختلف أفعالهما ولوازمهما بالنوع ويتخصص كل منهما بلازم خاص وفعل خاص لا يوجد للآخر بل جاز أن يتفقا في اللوزم والآثار ، وإن أريد أن وجوده يستلزم أن يعرف آثار وأفعال ولوزم لا تخصه . بل جاز أن يشاركه فيها الإله الآخر فهذا مسلم لكن لا يمكن لاستدلال ببطلان التالي هاهنا ، وهو ظاهر لأننا نرى آثار ملك وأفعال ولوازم وصفات لا تدل على أحدية فاعلها والموصوف بها ولا على إثنيته وإنما يدل على مطلق فاعل وملزوم ما . فلا يمكن بطلانها ورفعها لأن رفعها يستلزم رفع وجود لإله المطلق لاستلزام عدم اللازم عدم الملزوم لا رفع التالي خاصة .

البحث الثاني : كونه تعالى لا يزال أبداً وأنه لم يزل ، وهو إشارة إلى دوام وجوده وثباته أزلاً وأبداً ، وبرهانه أنه تعالى واجب الوجود ، وكل واجب الوجود لذاته فهو دائم الوجود وثابته أزلاً وأبداً : أما الصغرى فقد مرّ برهانها ، وأما الكبرى فلأنه لو جاز عليه لزوال والعدم لما كان واجب الوجود لذاته ، وفساد التالي يستلزم فساد المقدم . فإذا هو دائم الوجود أزلاً وأبداً .

البحث الثالث : كونه أولاً قبل الأشياء بلا أولية لوجوده ، وكونه آخراً بعد الأشياء بلا نهاية لوجوده .

أما الأول : فلأنه لو كان لوجوده أولية لكان مسبوقاً بالعدم فكان محدثاً فكان ممكناً . هذا خلف .

وأما الثاني : فلأنه لو كانت آخريته منقطعة بنهاية لكان ملحقاً بالعدم فلم يكن واجب الوجود لذاته . هذا خلف .

البحث الرابع : كونه أعظم من أن يثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر : أي هو أعظم أن يطلع أحد بقلبه أو بصره على كمال صفات ربوبيته

والاعتبارات المعتبرة فيها ، ووجه الشبه على ذلك أنك علمت أن صفة الربوبية وسائر صفات الإلهية باعتبار الخارج نفس حقيقته تعالى ، وباعتبار العقل أمور يعتبرها لمعقولية ذاته بالقياس إلى مخلوقاته وآثاره وعلى الوجهين فهو أعظم من أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر .

أما في الخارج فلأن صفة ربوبيته هي نفس ذاته فكانت إحاطة العلم بها موقوفة على إحاطته بكنه ذاته ، وقد علمت أنها بريئة عن وجوه التركيب فيمتنع الإحاطة بها لغيرها ، وأما في العقل فلأن اعتبار صفة الربوبية وإحاطة العقول بها موقوفة على الإحاطة بجميع اعتبارات صفات الكمال ونعوت الجلال . إذ اعتبر ربوبيته المطلقة مستنزم لاعتبار الإلهية المطلقة المستلزم لاعتبار جميع ماله من صفات الإلهية ، وقد علمت أن تلك الإعتبارات غير متناهية فهي أعظم أن يحيط بها عقل بشري فضلاً أن يتعلق بها إدراك بصري .

البحث الخامس : اعلم أنه لما نبّه على عظمة الله سبحانه وكمال ذاته في الاعتبار المذكورة أمره أن يفعل كما ينبغي أن يفعله من هو مثله في النقصان بالنسبة إلى عظمة الله سبحانه فيطيعه حق طاعته ويعبده بكمال عبادته ، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزّ جلاله . وعدد له وجوه النقصان ليعتبر حله في كل منها بالقياس إلى كمال ذاته تعالى ليعلم صغر منزلته بالنسبة إلى عظمته تعالى ، وقلة مقدرته وكثرة عجزه بالنسبة إلى كمال قدرته . وكذلك عظم حاجته إلى ربه في كل حال من طلب توفيقه وإعداده لطاعته والرهبة من عقوبته والإشفاق من سخطه كل ذلك بالنسبة إلى غنائه المطلق في كل شيء عن كل شيء .

وقوله : فإنه . إلى قوله : قبيح .

تنبيه إجمالي على وجوب طاعته تعالى في كل ما أمر به ونهى عنه . وجذبه إلى فعل كل مأمور به بكونه حسناً وإلى الانتهاء عن كل شيء منهى عنه بكونه قبيحاً . وقد علمت أن الغاية من بعثة الرسل ووضع الشرائع والسنن هي نظام أحوال الخلق في معاشهم ومعادهم . فلا بد إذن في كل أمر أو نهى

من سرّ وحكمة يوجب حسن المأمور به وقبح المنهي عنه ، ولهذا الكلام ونحوه تعلقت المعتزلة بمسألة الحسن والقبح العقليين ، وبالله التوفيق .

الفصل السادس : قوله :

يَا بُنَيَّ ؛ إِنِّي قَدْ أَنبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا ، وَزَوَالِهَا وَأَنْتَقَالِهَا ، وَأَنبَأْتُكَ عَنِ الْآخِرَةِ وَمَا أُعِدُّ لَأَهْلِهَا فِيهَا ، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الْأَمْثَالَ لِتَعْتَبَرَ بِهَا ، وَتَحْذُو عَلَيْهَا ! إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا ، كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفَرُوا نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيدٌ فَأَمُّوا مَنْزِلًا خَصِيْبًا ، وَجَنَابًا مَرِيْعًا ، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ ، وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ ، وَخُسُونَةَ السَّفَرِ ، وَجُشُوبَةَ الْمَطْعَمِ ، لِيَأْتُوا سَعَةً دَارِهِمْ وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلْمًا ، وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً مَغْرَمًا ، وَلَا شَيْءَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ ، وَأَدْنَاهُمْ مِنْ مَحَلِّهِمْ . وَمَثَلُ مَنْ أَغْتَرَبَهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيْبٍ فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيدٍ ؛ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلَا أَفْضَعَ عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ !

يَا بُنَيَّ ، أَجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ ، فَأَحِبِّ لْغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ، وَكَرَهُ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا ، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ ، وَاسْتَقْبَحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبَحُ مِنْ غَيْرِكَ ، وَأَرْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ ، وَإِنْ قُلْ مَا تَعْلَمُ وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ .

وَأَعْلَمْ أَنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ ، وَأَفَّةُ الْأَلْبَابِ ؛ فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ ، وَلَا تَكُنْ خَازِنًا لِغَيْرِكَ ، وَإِذَا أَنْتَ هَدَيْتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ .

أقول : يحذو : يقتدي . والسفر : المسافرون : وأموا : قصدوا . والجناب : الفناء والمنزلة . والمريع : ذو الكلاء والخصب . ووعثاء السفر : مشقته . وجشوبة المطعم : غلظته . وهجم : وقع بغته . والكدح : الكسب .

وفي الفصل مطلوبان :

أحدهما : أنه نبه على حالتي الدنيا والآخرة ، وذكره بما أخبره به
عنهما من ضرورة زوال الدنيا وانتقالها وبقاء الآخرة ، وما أعد لأهلها فيها من
السعادة الباقية التي اشتمل على تعدد أنواعها الكتاب العزيز والسنة الكريمة ،
وضرب لطالبهما مثلين ليكون ممن أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة .
فالمثل الأول : مثل من خر الدني وعرف زوالها وانتقالها ، وخبر الآخرة
وعرف بقاءها وما أعد فيها لأهلها ، ومثلهم يقوم مسافرين فارقوا منزلاً جديداً
إلى منزل خصب ، ووجه مطابقة هذا المثل أن النفوس البشرية لما كانت في
عالم لمجردات ، وكانت الحكمة في هبوطها إلى هذا العالم ومقارنتها لهذه
الهايكل الجسمانية الكثيفة في دار الغربة ومحل الوحشة من علمها هو أن
يحصل بواسطتها الكمالات العقلية التي إنما تمكن لها بواسطتها ، ثم يرجع
بعد الاستكمال عنها إلى عالمها الأعلى طاهرة عن علائق هذه الهياكل
وهيئاتها لردثة كما أخذ عليها في العهد القديم كانت كل
نفس حفظت عهد ربها وبقيت على صراطه المستقيم وهي المدة المضروبة
لها ناظرة بعين الاعتبار إلى أن الدنيا كالمنزل الجديب خال
عن المطاعم الحقيقية والمشارب العذبة الهنيئة فهو لذلك غير صالح
للاستيطان والإقامة ، وأن عالم الآخرة كالمنزل الخصب ولجناب المريع من
وصل إليه مستقيماً على أوامر الله ونواهيته فاز بالمقاصد السنية واللذات الباقية
فكانت أبداً في طريق السفر في منازل طريق الله والاستعداد للوصول إلى
بهجة حضرته الشريفة محتملة مشقة ذلك السفر من معاناة الجوع والظمأ
ومقاساة السهر قصداً إلى سعة الدار . ومنزل الفرار لا تجد من ذلك ألماً ولا
تعد ما تنفقه من لمال والعمر فيه مغرم ولا شيء أحب إليها من وسيلة تقربها
إلى ذلك المنزل الذي أمته والجناب الذي قصده فأنشبت في ذلك من وصل
إلى منزل حديب . ثم علم أن أمامه منزلاً خصباً فاقضى رأيه الحسن أن
يحتمل وعناء السفر ومشقته إليه ليحصل على الراحة الكبرى .

وأما المثل الثاني : فهو مثل أهل الدنيا الذين قادتهم نفوسهم الأمرة
بالسوء إليها فغفلوا فيها عما وراءها ونسوا عهد ربهم وأعرضوا عم ذكره به

من آياته ، وشبَّههم بقوم كانوا في منزل خصيب فبنا بهم إلى منزل جديب ، فالمنزل الخصيب في هذا المثل هو الدنيا لأنها محل سعادة أهلها ونعيمهم ، والمنزل الجديب هو الآخرة . إذ لم يكونوا قد استعدوا لدرك السعادة فيها ، ووجه تشبيههم بالقوم هو ما ذكره من أنه ليس شيء أكره إليهم . إلى آخره : أي ليس شيء أكره إليهم ولا أفضع عندهم من مفارقة ما هم فيه من الدنيا إلى ما يهجمون عليه بغتة من الأهوال ، ويصيرون إليه من مقاساة السلاسل والأغلال كما أنه ليس شيء أكره إلى القوم من مفارقة منزل خصيب كانوا فيه إلى منزل جديب يهجمون عليه . وإلى هذين المثلين أشار الرسول صلى الله عليه وسلم ،
لدى سجن المؤمن وجنة الكافر .

المطلوب الثاني : الوصية بإصلاح معاملته مع الخلق . فأشار عليه أن يجعل نفسه ميزاناً بينه وبين غيره ، ووجه استعارة لفظ الميزان له أنه يكون ذا عدل بين نفسه وبين الناس كالميزان . ثم شرح وجوه العدل والتسوية التي أمره أن يكون ميزاناً باعتبارها فمناً أمور ثبوتية . ومنها أمور سلبية :

فالأول : أن يحب لغيره ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لها ، وفي الحديث المرفوع : لا يكمل إيمان عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه . وسرّ الحديث أن ذلك من كمال فضيلة العدالة التي هي من كمال الإيمان .

الثاني : أن لا يظلم كما لا يحب أن يُظلم فيسلم من رذيلتي الظلم والانظلام .

الثالث : أن يحسن إلى الغير كما يحب أن يُحسن إليه ، والإحسان فضيلة تحت العفة .

الرابع : أن يستقبح من نفسه ما يستقبح من غيره فيترجر عن جميع مناهي الله وهو من لوزم المروة ، ولذلك قال أحنف إذ سئل عن المروة : هي أن تستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك .

الخامس : أن يرضى من الناس ما يرضاه لهم من نفسه : أي كل ما

رضي أن يفعله بهم من خير أو شر إن فعله فينبغي أن يرضى بمثله منهم ، وفيه تنبيه على أنه لا يجوز أن يفعل الشر لعدم لازمه وهو الرضا منهم به .

السادس : أن لا يقول ما لا يعلم وإن قلّ ما يعلم ، وإنما قال : وإن قل ما يعلم لأن تصور قلة العلم قد يكون داعية لبعض الناس إلى أن يقول بغير علم لئلا ينسب إلى الجهل فيضل ويضل كما قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾^(١) .

السابع : أن لا يقول لأحد ما لا يحب أن يقال له كالمواجهة بالعيوب والألقاب المكروهة وكل كلام مؤذٍ .

الثامن : نبه على وجوب ترك الإعجاب بأنه ضد الصواب . ولم كان الصواب هو سلوك طريق الله باستجماع مكارم الأخلاق وكن الإعجاب من رذائل الأخلاق كان مضاداً للصواب مضادة لرذيلة للفصيلة ، وبأنه آفة للعقول . إذ هو من أكبر أمراض العقل وآفاته المهلكة له كما أشار إليه الرسول ﷺ : ثلاث مهلكات : إلى أن قال : وإعجاب المرء بنفسه .

التاسع : أن يسعى في كدحه : أي فيما ينبغي له من كسب الطاعات ، وقيل : أراد بالكدح ما كتسبه من الما وما ينبغي فيه إنفاقه في سبيل الله .

العاشر : أن يكون عند هداية الله إياه لرشده خشع ما يكون لربه ، وذلك أن الهداية للرشد هي العلم بالطريق إلى الله تعالى في جميع ما عدد من مكارم الأخلاق . والعلم بالطريق المؤدية إليه حين سلوكها يستلزم ملاحظة جلاله وعظمته وهناك يكون الخشوع الحق والخشية التامة لقوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾^(٢) .

الفصل السابع : قوله :

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقاً ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ . وَأَنَّهُ لَا غِنَى لَكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الْارْتِيَادِ ، وَقَدَّرَ بِلَاغِكَ مِنَ الزَّادِ مَعَ خِفَّةِ الظُّهْرِ فَلَا تَحْمِلَنَّ

(١) ٢٠ - ٣١ .

(٢) ٢٥ - ٣٥ .

عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَائِفَتِكَ فَيَكُونُ ثَقُلُ ذَلِكَ وَبَالًا عَلَيْكَ . وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ
الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيُؤَافِيكَ بِهِ عَدَا حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ
فَاغْتَنِمْهُ وَحَمَلْهُ إِيَّاهُ ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَرْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلَا
تَجِدُهُ ، وَاعْتَنِمْ مَنْ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ
عُسْرَتِكَ وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَثُودًا ، الْمُخَفُّ فِيهَا أَحْسَنُ خَالًا مِنَ الْمُثْقِلِ
وَالْبَطِيءُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ خَالًا مِنَ الْمُسْرِعِ ، وَأَنَّ مَهَبْطَكَ بِهَا لَا مُحَالَةَ عَلَى جَنَّةٍ
أَوْ عَلَى نَارٍ ، فَارْتَدِّ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ ، وَوُطِيءِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ ،
فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ ، وَلَا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أُذِنَ لَكَ فِي
الدُّعَاءِ ، وَتَكْفُلُ لَكَ بِالْإِجَابَةِ ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيكَ ، وَتَسْتَرجِمَهُ
لِيَرْحَمَكَ ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ . وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ
يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ . وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ ، وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالْإِنَابَةِ ، وَلَمْ
يُعَاجِلْكَ بِالنَّقْمَةِ ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَى ، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ
فِي قَبُولِ الْإِنَابَةِ ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ ، وَلَمْ يُؤْثِرْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ ، بَلْ
جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً ، وَحَسَبَ سَيِّئَتِكَ وَاجِدَةً وَحَسَبَ حَسَنَتِكَ
عُشْرًا ، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ ، وَبَابَ الاسْتِعْتَابِ ، فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاءَكَ ،
وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ ، فَافْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ ، وَأَبْشَيْتَ ذَاتَ نَفْسِكَ ،
وَشَكَّوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ ، وَاسْتَعْنَيْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ ، وَسَأَلْتَهُ
مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ : مِنْ زِيَادَةِ الْأَعْمَارِ ، وَصِحَّةِ
الْأَبْدَانِ ، وَسَعَةِ الْأَرْزَاقِ . ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أُذِنَ لَكَ فِيهِ
مِنْ مَسْأَلَتِهِ ، فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالْدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ ، وَاسْتَمْطَرْتَ شَاطِئَ
رَحْمَتِهِ . فَلَا يُقْبِطُكَ إِطَاءُ إِجَابَتِهِ ، فَإِنَّ الْعُطْيَةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ ، وَرُبَّمَا أُخْرَتْ
عَنْكَ الْإِجَابَةُ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْآمِلِ ، وَرُبَّمَا
سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ ، وَأَوْتَيْتَ خَيْرًا مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ أَجَلًا ، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ

لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ ، فَلَرَبُّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَكَ دِينُكَ لَوْ أُوْتِيْتَهُ . فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ ، وَالْمَالُ لَا يَبْقَى لَكَ ، وَلَا تَبْقَى لَهُ .

أقول : الإرتياد : الطلب . والطوق والطاقة : ما يتسع له قدرتك . والوبال : الهلاك . وكؤد : شاقة المصعد . والنزوع عن الذنب . الخروج منه . والإفضاء : الوصول . والبت : النشر والكشف . والشايب : جمع شؤبوب وهو لدفعة من المطر . ولقنوط : اليأس . والاستعتاب : طلب العتبي وهي الرجوع إلى الرضا .

وفي الفصل مطالب :

أحدها : الوصية بالسعي في تحصيل الكمالات النفسانية الباقية .

والثاني : طرح الرذائل المنقصة فنبه على الأول بأن أمامه : أي في سفره إلى الله طريقاً طويلاً شديداً ، وظاهر أن الطريق الذي يكون لذلك لا بد لسالكه من حسن طلب القصد فيه إلى مطلوبه ، ومن قدر مبلغ له من الزاد ، واستعار له لفظ الطريق لما يسير فيه الإنسان من أحوال الدنيا ويعبر منها إلى الآخرة ، وأشار بطولها وشدتها إلى عسر الحاجة فيها والسلامة من خطرهما . إذ كان ذلك إنما يكون بلزوم القصد والثبات على سنن العدل والاستقامة على حاق الوسط من مكارم الأخلاق . إذ علمت أن لكل من القوة التمييزية والشهوية والغضبية حد يجب وقوف الإنسان عنده وهو العدل ، وعلمت أنه أدق الحدود وأصعبها إذ هو محتوش بطرفي تفريط وإفراط قل ما يسلم الإنسان من الوقوع في أحدهما ، وهما طريقا جهنم .

فبالحري أن يكون طريقاً ذا مسافة لا يصل الإنسان منها إلى غايته إلا على بعد بعيد ، ولا يحصل منها على خير إلا بجهد جهيد ، واستعر لفظ الزاد للتقوى والكمالات التي هي بلاغ الإنسان في تلك الطريق إلى الله تعالى ، وبهذا تكون النجاة فيها والحلاص من مهلكها ، ونبيه على الثاني بقوله : مع خفة الظهر . إلى قوله : وبالأعلى عليك . واستعار لفظ الخفة لتقليل

اكتساب الآثام وحملها على النفس ، ولفظ الحمل لاكتسابها .

ووجه الاستعارة الأولى : أن مقلل الآثام سريع القطع لتلك الطريق قريب إلى النجاة فيها من مخاوفها كما قال عليه السلام : تخففوا تلحقوا . وكما أشار إليه الرسول ﷺ : نجا المخفون .

ووجه الثانية : أن مكتسب لآثام يثقل بها ويبطئ عن لحوق المخفين ويهلك بها في طريقه ، وكثرة تخلفه تابعة لكثرة اكتسابه كما يكون حال المثلث في الطريق البعيدة ، ولفظ الظهر ترشيح المطلوب .

الثالث : التنبيه على وجوب إنفاق المال في وجوه الصدقة والبر لمن يحتاج إليه من أهل الفاقة ، وذلك قوله : وإذا وجدت . إلى قوله : عسرتك . وجذبه وأعدده لذلك بأمرين :

أحدهما : كون ذلك زاداً يحمله ذو الفاقة إلى يوم القيامة ، ويلقاه به هناك في موضع الحاجة إليه . واستعار لفظ الزاد هنا لما يحصل من فضيلة السخاء وانكرم بالإنفاق ، ووجه الاستعارة كونه سبباً لسلامة النفس من الهلاك في طريق الآخرة ووسيلة إلى السعادة الباقية كالزاد المخلص للمسافر في طريقه والمبلغ له إلى مطالبه ، واستعار للمتصدق عليه وصف الحامل لذلك الزاد باعتبار أنه سبب لحصول الفضيلة بتلك الصدقة ووصول ثوابها إلى المتصدق يوم القيامة فوجدانه لتلك الفضيلة وظهورها في صحيفة أعمال المتصدق يوم القيامة هو المشار إليه بالموافاة بها غداً .

ثم أمره أن يغتنم ذا الفاقة عند وجدانه ، وأن يحمله ذلك الزاد ويكثر من تزويده وتحميله للراد حينما هو قادر على تحصيله ، وجذب إلى اغتنامه والمصارعة إلى الصدقة بقوله : فلعلك تطلبه فلا تجده . لأن الوسيلة إلى أمر عظيم إذا كان في معرض أن يطلب فلا توجد ثم وجدت في وقت فمن الواجب أن يغتنم تحصيلها ولا تهمل .

الثاني : كون الصدقة . على ذي الفاقة قرضاً للمتصدق في حال غناه بالمال يقضي له يوم عسرتة وفقره ، واستعار وصف المستقرض هنا لله باعتبار أنه هو المجازي بالثواب من أنفق ماله في طاعته ، وإليه الإشارة بقوله

تعالى : ﴿ إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعَفْهُ أُضْعَافاً كَثِيراً ﴾ ^(١) . ونبه بكون القرض في حال الغناء ، والقضاء في حال العسرة ليكون القضاء أفضل فيرغب في القرض لغاية الربح المطلوب .

الرابع : التنبيه على شدة طريق الآخرة وعلى وجوب الاستعداد لها بالخفة من حمل الآثام والسرعة فيها قبل نقضاء الأيام ، واستعار لفظ العقبة لما فيها من الصعود والارتقاء في درجات الكمال بالفضائل عن مهبط الرذائل ، ووصفها بشدة الصعود باعتبار ما في ذلك الارتقاء من التعسر وكثرة الموانع .

وجذب إلى الاستعداد بأمور ثلاثة :

أحدها : كون المخفّ فيها أحسن حالاً من المثقل ، وهو ظاهر كما قدمناه .

الثاني : كون المبضّء فيها أقبح حالاً من المسرع وهو أيضاً ظاهر . إذ كان المبطّء فيها واقفاً في أحد طرفي الإفراط والتفريط مشغولاً بما يلهيه ملتفتاً عما يعيه حتى إذا تصرّم أجله بقي في مهاوي الهلاك أسيراً وعلى ما فاته من سرعة السير حسيراً .

الثالث : ذكر الغايتين منها وهي الجنة والنار . وأنه لا بد من تأديتها وهبوطها بسالكها على أحدهما ، وهو ظاهر أيضاً . فإن حوض الإنسان في أحوال الدنيا والتصرف فيها إلى غاية انقطاعها ووصول الآخرة . إما أن يكون على وجه القصد ، ولزوم سمت القبلية الحقيقية وتجنب طريق طرفي الإفراط والتفريط وبذلك يكون هجوم تلك الطريق وهبوطها بسالكها على الجنة .

وإما أن يكون على وجه الانحراف عن ذلك القصد ، والتعريج عنه إلى ما في تلك الطريق من مناهي الله وأبواب محارمه ، وبذلك يكون هبوطها بسالكها على النار ، ونسبة لهبوط إليها مجاز باعتبار تأديتها إلى إحدى الغايتين كالهابط بالشيء ليوصله إلى قراره .

ثم أمره أن يرتاد لنفسه ويطلب ما يكون سبباً لنجاته فيها وحسن حاله قبل نزول أحد المنزلين اللذين هما غايتها ليكون هبوطها به على الجنة ، وأن يوطىء المنزل الذي يريد سكناه بالاستعداد له . وروي : يوطن - بالنون - أي يتخذ وطناً .

المطلوب الخامس : التنبيه على الدعاء والترغيب فيه ، وسره دوام ملاحظة جلال الله والانقطاع إليه . إذ هو مبدأ كل محبوب ومعطي كل مطلوب .

ورغب في ذلك بأمور :

أحدها : أن بيده تعالى خزائن السماوات والأرض ، وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان كذلك كان أحق بالرغبة إليه من كل أحد .

الثاني : أنه تعالى أذن في الدعاء وتكفل بالإجابة فقال : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ ^(١) وتقدير الكبرى فكأول .

الثالث : انه أمر الخلق أن يسألوه ليعطيهم في قوله تعالى : ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ ^(٢) وكذلك أن يطلبوا منه الرحمة ليرحمهم ، وذلك أن إفاضة الرزق والرحمة وكل فضل منه إنما يوجد بعد الاستعداد له بالإخلاص في الطلب والاسترحام وغيره كما علم في مظانه ، وتقدير الكبرى : وكل من كان كذلك فواجب أن يسأل ويسترحم .

الرابع : أنه لم يجعل بينه وبين الراغب إليه حاجباً ولا بواباً لتقدسه سبحانه عن الجسمية والجهة وصفات المحدثات . بل تجلى في كل شيء لكل من فتح عين بصيرته ووجهها إلى مطالعة كبريائه وعظمته ، وتقدير الكبرى : وكل من كان كذلك فهو أولى من يُسأل ويسترحم .

الخامس : أنه لم يلجئه إلى من يشفع إليه لأن الشفيع إنما يضطر إليه

(١) ٤٠ - ٦٣ .

(٢) ٤ - ٣٦ .

عند تعذر المطلوب من جهة المرغوب إليه إما لبلخه أو جهله باستحقاق الطالب . والباري تعالى لا بخل فيه ولا منع من جهته ، وإنما يتوقف فيضه على استعداد الطالب له ولم يجعل سبحانه لمرغبين إليه ضرورة إلى الشفعاء . إذ مكّنهم من الاستعداد لنيل مطلوباتهم منه وهياً لهم أسبابها ، وفتح لهم أبواب رحمته فإن عرضت لهم حاجة إلى شفيع فليس ذلك عن ضرورة وإلجاء منه إلى ذلك .

السادس : أنه لم يمنعه إن أساء من التوبة بل أمره بها ووعدده عليها فقال : يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم الجنة ، وقال بعد أن عدد الكبائر وتوعد عليها : إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات الآية .

السابع : أنه لم يعاجله بالنقمة مع اطلاعه عليه حين معصيته ولم يفضحه في مقامه الذي تعرض فيه للفضيحة بل أمهله على ظلمه وأسبل عليه ستر كرمه وحلمه .

الثامن : أنه يشدد عليه في قبول الإنابة ، والرجوع إليه كما يفعله الملوك في حق من أساء وطلب الإقالة ، ولم يناقشه بجريمته وذنبه فيستقصي في حسابه بل سهل عليه في ذلك وقبل توبته متى شاء لأنه تعالى لا مضرة عليه بإساءة مسيء ولا نفع بصل إليه من إنابة منيب . إذ هو الغني بالمطلق .

التاسع : أنه لم يؤيسه من لرحمة حيث قال : يا عبدي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . الآية .

العاشر : أنه جعل نزوعه عن ذنبه وتوبته منه حسنة حيث قال بعد ذكر التوبة : فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وحسب سيئته واحدة وحسنه عشر حيث قال : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثله .

الحادي عشر : كونه فتح له باب المتاب حيث قال : غافر الذنب وقابل التوب وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، وباب الاستعتاب حيث أمره وأرشده إلى طلب الرضا عنه بعد توبته .

الثاني عشر : كونه إذا ناداه سمع ندائه لقوله تعالى : ﴿ إِنْ رُبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾^(١) . وإذا ناجاه علم نجواه لقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾^(٢) فأوصل إليه حاجته إن شاء سرّاً وإن شاء جهراً ، وطلب منه إعانتته على أموره ، ونشر له ما كان في نفسه من مهماته ، وسأله كشف كرويه . فوهب له من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائه غيره من زيادة الأعمار ، وصحة الأبدان ، وسعة الأرزاق .

الثالث عشر : أنه جعل في يديه مفاتيح خزائنه بما أدت له من مسالته ، واستعار لفظ المفاتيح للأدعية باعتبار أنها أسباب لتحصيل النعمة وكمال الرحمة متى شاء استفتح بها أبواب خزائنها ، وكذلك استعار لفظ الأبواب لأسباب جزئيات النعم الواصلة إلى العبد . و خزائن نعمه هي خزائن السماوات والأرض . إذ الكل منه ويبيده ، ويحتمل أن يشير بها إلى المعقول من سماء جوده وما تحويه قدرته من الخيرات الممكنة ، واستعار وصف الاستمطار لطلب نعم الله تعالى ملاحظة لشبهها بالمطر في كونها سببين للحياة وصلاح الحال في الدنيا ويشبه طاليهما بالمستمطر ، ورشح بذكر الشآبيب ، وتقدير الكبرى في كل واحد من هذه الضمائر : وكل من كان كذلك فهو أحق بأن يرغب إليه ويوجه الطلب نحوه ، واعلم أنه لما رغبه في الدعاء بهذه لجواذب نبهه على أن الإجابة في الدعاء قد تبطئ وتتأخر . ثم عدد ما يصح أسباباً لتأخرها ليلحظها عند تأخرها فلا يقنط منها :

أحدها : أن العطية على قدر النية : أي أن الإجابة موقوفة على الاستعداد بإخلاص النية فإذا تأخرت الإجابة فلعل تأخرها لأن النية لم تكن خالصة .

الثاني : أنها ربما أخرت لعلم الله تعالى أن تأخيرها من أسباب استعداد السائل والمؤمل استعداداً أعلى لعطاء ما هو أعلى وأشرف مما سأل

(١) ٤٢ - ١٤ .

(٢) ٧ - ٢٠ .

فيعطاه عند كمال استعدادده لأنه على قدر أهل العزم تأتي العزائم ، وبقدر الكد يكتسب المعالي .

الثالث : أن المطلوب قد لا يكون فيه مصلحة للعبد لاشتماله على مفسدة في دينه لو أعطي إياه كالغنى والجاه مثلاً وسائر المطالب الدنيوية الخالصة فلا يجيب الله سؤاله فيه بل يعطيه خيراً منه إما في عاجل دنياه أو في آجل آخرته ويصرف ذلك الأمر عنه لما هو مصلحة له أو خير . ثم ختم ذلك بتعريفه مواقع مسألته لله وما ينبغي أن يسأله إياه وهو ما يبقى له جماله وينفى عنه وباله من التوفيق لأسباب السعادة الباقية وجميل الاحدوثة في الأعقاب دون المال .

الفصل الثامن : قوله :

وَأَعْلَمُ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا ، وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ ، وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ ، وَأَنَّكَ فِي مَنْزِلِ قُلْعَةٍ ، وَدَارِ بُلْعَةٍ . وَطَرِيقٌ إِلَى الْآخِرَةِ ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ . وَلَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ . وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ قَدْ كُنْتَ تَحْدُثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ فَيَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ .

يَا بُنَيَّ ؛ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ ، وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ ، وَتُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ ، حَتَّى يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَرْكَ ، وَلَا يَأْتِيكَ بَغْتَةً فَيَهْرَكَ ! وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا ، وَتَكَالِبَهُمْ عَلَيْهَا ؛ فَقَدْ نَبَأَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَنَعَتْ لَكَ نَفْسُهَا ؛ وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيئِهَا ؛ فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ ، وَسِبْغٌ ضَارِيَةٌ ، يَهْرُ بَعْضُهَا بَعْضًا . وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا ، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا ، نَعَمْ مُعَقَّلَةٌ ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ قَدْ أَضَلَّتْ عَقُولَهَا ، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا ، سُرُوحٌ عَاهَةٌ ، بِوَادٍ وَعَثٍ ! لَيْسَ لَهَا رَاعٌ يُقِيمُهَا ، وَلَا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا ! سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى ، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى ، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا ، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا ، وَاتَّخَذُوهَا رَبًّا فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا !

رُويْدًا يُسْفِرِ الظَّلَامَ كَأَنَّ قَدْ وَرَدَتِ الْأَطْعَامُ ! يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ .

أقول : منزل قلعة : لا يصلح للاستيطان . والبلغة : ما تبلغ به من العيش . الأزر : القوة . ويبهره : غلبه وأتعبه ، وأصل البهر تتابع النفس من التعب . وأخلد إلى كذا : استند إليه . والتكالب : التواثب . والمساوي : المعائب . والضراوة : تعود الصيد والجرأة عليه . والمعقلة : المقيدة . والمجهول والمجهل : المفازة التي لا أعلام فيها . وواد وعث : لا يثبت به خف ولا حافر لكثرة سهولته . والمسيم : الراعي .
وقد نبهه في هذا الفصل على أمور :

أحدها : أن العلة الغائية من خلقه ووجوده هي الآخرة دون الدنيا والموت والفناء دون الحياة والبقاء ، وهذه الأمور علل عرضية من وجود الإنسان لكونها من ضرورات وجوده ، وأما العلة الحقيقية الأولى من وجوده فهي استكمالها ووصوله إلى حضرة ربه طاهراً عن علائق الدنيا ، وذكره بهذه الغايات التي يجزم بالوصول إليها ليعمل لها ولما بعد الموت ، ويقل العرجة على الدنيا وعمارتها ولا يركن إلى البقاء فيها لكونها أموراً عرضية زائلة .

الثاني : نبهه بكون الدنيا منزل قلعة على أنها منزل عبور لم تخلق للاستيطان والإقامة ، وبكونها دار بلغة على أنها إنما خلقت ليتخذ منها الإنسان بلاغاً للوصول إلى الآخرة وزاداً لكونها طريقاً إليها .

الثالث : نبهه على أنه طريد الموت ، واستعار له لفظ الطريق ملاحظة لشبهه بالصيد يطرده السبع وغيره . ثم وصف الموت بكونه لا ينجو منه هارب ولا بد أنه مدركه تحذيراً منه وجذباً إلى الاستعداد له بطاعته المقاومة لأهواله وشدائده ، ولذلك قال : فكن منه على حذر . إلى قوله : نفسك : أي ببقائك على الحال السيئة تحدث نفسك فيها بالتوبة إلى أن يدركك ، ويحول عطف على يدركك ، وإذا للمفاجأة .

الرابع : أمره بالإكثار من ذكر الموت وما يهجم عليه فإن ذلك يستلزم

العبرة والانتزجار والأخذ في الأهبة والاستعداد له ولما بعده ، ولذلك قال :
حتى يأتيك وقد أخذت منه حذرک وشددت له قوتك : أي بالكمالات التي
استعددت بها ولا يأتيك بغتةً فيتبعك ، وقوله : ولا يأتيك عطف على قوله :
حتى يأتيك ، والواو في قوله : وقد للحال ، وكذلك بغتة حال ويبهرك
منصوب بإضمار أن بعد الفاء في جواب النفي .

الخامس : نهاء أن يغترّ باستناد أهل الدنيا إليها وتوائبهم عليها ، ونبيه
على أنه لا ينبغي له ذلك الاغترار بقياسات ضمير .

فقوله : فقد نبأك الله . إلى قوله : عنها .

هو صغرى القياس الأول كقوله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعب
ولهو ﴾ ^(١) في مواضع كثيرة من كتابه العزيز وقوله : ﴿ إنما الحياة الدنيا كماء
أنزلناه من السماء ﴾ ^(٢) الآية وأمثاله .

وقوله : ونعت لك نفسها .

صغرى القياس الثاني ، وروي : ونعت . بمعنى أن الله وصفها له ،
ومعنى نعتها لنفسها وصفها بلسان حالها لنفسها ، وبيان أنها محل الهموم
والغموم والأعراض والأمراض ودار كل بلاء ومترل كل فتنة .

وقوله : وإنما أهلها . إلى آخره .

صغرى القياس الثالث ، وتقدير الكبرى في القياس الأول : وكل من
أخبر الله تعالى عنه بذلك فلا ينبغي أن يغترّ به ، وتقديرها في الثاني : وكل
من وصف نفسه كذلك فلا ينبغي أن يغترّ به ، وتقديرها في الثالث : وكل من
كان كذلك فلا ينبغي أن يغترّ بفعله ، واعلم أنه أشار في هذين المثليين إلى
قسمة أهل الدنيا أولاً بقسمين بحسب اعتبار قواهم الغضبية والشهوية
واتباعهم لها : أي فمنهم من اتبع قوته الغضبية وأعطاه مقتضاها ، ومنهم من
اتبع قوته الشهوية واسترسل في قيادها وغفل عما خلق لأجله ، وضرب المثل

(١) ٦ - ٣٣ .

(٢) ١٠ - ٢٥ .

للأولين بالكلاب العاوية والسباع الضارية . وأشار إلى وجه مطابقة المثل بقوله : يهر . الى قوله : صغيرها .

ووصف الهرير مستعار لتنازعهم عليها ، وكذلك لفظ الأكل لغلبة بعضهم على بعض . وضرب للآخرين مثل النعم باعتبار غفلتهم عما يراد بهم كالبهائم ، ثم قسم هؤلاء إلى قسمين : معقلة ومهملة ، واستعار لفظ المعقلة للذين تمسكوا بظواهر الشريعة والإمام العادل فقيدهم بالدين عن الاسترسال في اتباع الشهوات والانهماك فيها وإن لم يعقلوا أسرار الشريعة فهم كالنعم التي عقلها راعيها . وأشار بالمهملة إلى الذين استرسلوا في اتباع شهواتهم وخرجوا عن طاعة إمامهم ولم يتعبدوا بأوامره فهم كالبهائم المرسله .

وأشار إلى وجه المشابهة بقوله : التي أضلت عقولها . إلى آخره ، ويحتمل أن يريد بعقولها عقلها جمع عقل فأشيع الضمة وقلبها واواً متابعة لقوله : مجهولها ، ويحتمل أن يريد به جمع عقل وهو الملجأ : أي أنها ضيعت من يلجأ إليه ، وهو إمامها ، ووجه مطابقة هذا المثل أن هؤلاء في عدم انتفاعهم بعقولهم وركوبهم لأهوائهم الفاسدة وشروعهم في مشترياتهم الدنيوية مكتسبين للردائل والعاهات النفسانية ليس لهم إمام يقيمهم على طاعة الله في طرق الهدى إلى مكارم الأخلاق قد أشبهوا النعم المهملة التي أضلت عقلها وركبت المفازة فهي سروح مترددة متحيرة بواد وعث ليس لها راع يرعاها ويقيمها إلى المرعى .

وروي سروح آفة : أي فهي سارحة عن آفة قد خرجت بها عن الانتفاع .

والرواية الثانية أقرب إلى الصواب وأراد بطرق العمى طرق الجهل ومسالك البطل التي لا يهتدى فيها لشيء كما لا يهتدى الأعمى للطريق ، ونسب السلوك بهم إليها باعتبار أنها سبب لغرورهم وغفلتهم عما وراءهم ، وكذلك أخذها بأبصارهم : أي بأبصار عقولهم عن منازل الهدى وهي آيات الله ومنازل الطريق إليه ، وأشار بتيههم في حيرتها إلى ضلالهم عن طرق

الحق ، واستعار لفظ الغرق باعتبار استيلاء نعيمها على عقولهم وتملكه لها
كما يستولي الماء على الغريق ، واتخاذهم لها رباً باعتبار خدمتهم لها .
فلعبت بهم إذ كانوا عبيداً لها ، ولعبوا بها إذ اشتغلوا بها غير منتفعين ،
وضيعوا ما الأولى بهم فعله ، ونسوا ما وراءها مما خلقوا لأجله .

الفصل التاسع : قوله :

وَأَعْلَمُ يَابِتِي أَنْ مَنْ كَانَتْ مَطِئَتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَإِنَّهُ يُسَارِ بِهِ وَإِنْ كَانَ
وَاقِفاً ، وَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيمًا وَإِدْعَا .

وَأَعْلَمُ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمْلَكَ ، وَلَنْ تَعْدُو أَجَلَكَ ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ
مَنْ كَانَ قَبْلَكَ ، فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ ، وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ ؛ فَإِنَّهُ رَبُّ
طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرْبٍ ، فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ
بِمَحْرُومٍ ، وَأَكْرَمُ نَفْسِكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرِّغَائِبِ ؛ فَإِنَّكَ لَنْ
تَعْتَاظَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عَوْضاً ، وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ
حُرّاً ، وَمَا خَيْرٌ خَيْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ ، وَيُسِرُّ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرِ ؟ !

وَأَيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ ، وَإِنْ
اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ ، فَإِنَّكَ مُدْرِكُ قِسْمِكَ ،
وَأَخِذْ سَهْمَكَ ! وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ
خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلُّ مِنْهُ .

وَنَلَايِكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ ،
وَحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ ، وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا
فِي يَدِ غَيْرِكَ . وَمَرَارَةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى الدَّسْرِ ، وَالْجِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ
خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ ، وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسَرِّهِ . وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ ! مَنْ
أَكْثَرَ أَهْجَرَ ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ ! قَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ ، وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ
تَبَيَّنْ عَنْهُمْ ! يَشْسُ الطَّعَامُ الْحَرَامُ ، وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ . إِذَا كَانَ
الرَّفْقُ خُرْقاً كَانَ الْخُرْقُ رِفْقاً . رَبِّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً وَالِدَاءُ دَوَاءً ، وَرَبِّمَا نَصَحَ

غَيْرُ النَّاصِحِ وَغَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ . وَإِيَّاكَ وَاتَّكَالَكَ عَلَى الْمُنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ
النُّوْكَى ، وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ . وَخَيْرٌ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظْتَ ! بَادِرِ الْفُرْصَةَ
قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً . لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ ، وَلَا كُلُّ غَائِبٍ يُؤُوبُ ، وَمِنْ
الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ ، وَمَقْصَدُهُ الْمَعَادُ ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ
لَكَ ، التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ ! وَرُبُّ يَسِيرٍ أُنْمَى مِنْ كَثِيرٍ ، وَلَا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مِهِينٍ ،
وَلَا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ ، سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ ، وَلَا تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ
رَجَاءً أَكْثَرَ مِنْهُ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِئَةُ اللَّجَاجِ ! اَحْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ
أَخِيكَ - عِنْدَ صَرْمِهِ - عَلَى الصَّلَةِ ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللُّطْفِ وَالْمُقَارَبَةِ ،
وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبَدَلِ ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللَّيْنِ
وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ .

وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ ؛ لَا
تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقًا فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ ، وَآمَحِضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ
حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً ، وَتَجَرَّعْ الْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرْ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا
عَاقِبَةً وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً ، وَلَنْ لِمَنْ غَالَطَكَ ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ ، وَجُدْ عَلَى
عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَى الظُّفَرَيْنِ وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبِقْ لَهُ مِنْ
نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعْ إِلَيْهَا إِنْ بَدَأَ لَهُ ذَلِكَ يَوْمًا مَّا ، وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدَّقْ
ظَنَّهُ ، وَلَا تُضَيِّعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ
بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ ، وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشَقَى الْخَلْقِ بِكَ ، وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ
زَهَدَ عَنْكَ ، وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ عَلَى مُقَاطَعَتِكَ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى صَلَاتِهِ ، وَلَا
يَكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ ، وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ
ظَلَمَكَ ؛ فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوَّهُ .

أقول : تعدوه : تجاوزه . والتخفيض : التسهيل على النفس .
والحرب : سلب المال . والإجمال في الطلب : التسهيل فيه حتى يكون
جميلاً . وأوجفت : أسرعت . والمناهل : المعاطش . والحرفة : الضيق في
الرزق والحرمان . وأهجر الرجل : إذا أفحش في منطقه . والرفق : اللين .

وضده الخرق . والنوكى : الحمقى ، جمع أنوك . والفرصة : وقت
الإمكان . والظنين : المتهم . والصرم : القطع . ومحضه النصيحة :
أخلصها له . والمغبة : العاقبة .

وقد اشتمل هذا الفصل على الوصية بلطائف من الحكمة العملية
ومكارم الأخلاق التي بها ينتظم أمر المعاش والمعاد ، وصدره بالتنبيه على
ضرورة الموت ليبني عليه ما يريد أن يوصيه به من مفردات الحكم . وذلك
التنبيه بأمرين :

أحدهما : أن الإنسان في مدة عمره مسافر إلى الآخرة ، وأن ذلك السفر
ليس على مطايا محسوسة ولا في طرق محسوسة . بل المطية فيه الليل
والنهار ، واستعار لفظ المطية باعتبار أنهما أجزاء اعتبارية للزمان يعقب بعضها
بعضاً وينقضي بانقضائها الزمان فينتقل الشخص بحسبها في منازل مدته
المضروبة لمقدرة له منه إلى أن تفتى مدته ويتم سفره إلى الآخرة . كما ينتقل
في منازل طريقه المحسوسة إلى أن يتم سفره فيها ، وكذلك لفظ المسافة
مستعار لمدته المضروبة . ولذلك كان سير الزمان به سيراً اعتبارياً ، وإن كان
واقفاً وقوفه المتعارف ويقطع مسافة أجله راكباً تلك المطايا وإن كان وادعاً قاراً
قراره الحسي .

الثاني : أمره أن يعلم يقيناً أنه لن يبلغ أمله . وذلك أن الإنسان أبداً في
توجيه أمله في المطالب كلما حصل مطلوب منها أو أفسد وجه أمله فيه وجهه
إلى مطلوب آخر وإن اختلفت المطالب ، فالأمل أبداً متوجه إلى مطلوب ما
ليس مدركاً في الحال ، والإحالة في ذلك على الوجدان . فإذن ليس كل
بمدرك ، وكذلك لا يمكن أن يتجاوز الإنسان أجله لمضروب له ، وإلا لما
كان أجلاً له . وهذان الأمران في قوة صغريين لقياسي ضمير من الشكل
الأول ، وتقدير كبرى الأول : وكل من يسرى به كذلك فيوشك أن ينقطع
مدته ويصل إلى الآخرة ، وتقدير كبرى الثاني : وكل من لا يبلغ أمله ولا
يتجاوز أجله وهو سالك بطريق من كان قبله فيوشك أن يلحق بهم ، ولما نبه
على ضرورة مفارقة الدنيا والوصول إلى الآخرة رتب على ذلك الوصية
بالحكم المذكورة ، وذكر منها جملة :

الأولى : أن يخفض في طلب الدنيا ولا يحرص عليها بل يجعل طلبه لها بقدر حاجته إليها .

الثاني : أن يفعل الجميل فيما يكتسبه منها ، وذلك أن يضع كل شيء منه موضعه فيمسك منه قدر ضرورته وينفق فاضله في وجوه البر ومصارف القربة ، ويحتمل أن يريد بالمكتسب الاكتساب فأطلق اسم المفعول على المصدر مجازاً ، ونحوه قول الرسول ﷺ : إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فأجملوا في الطلب .
وقوله : فإنه رب طلب . إلى قوله : محروم .

تنفير عن الخوض في الطلب بأمر ثلاثة :

أحدها : أنه قد تجرّ إلى الحرب ، وذلك كما شوهد في وقتنا أن تاجراً كان رأس ماله سبعة عشر ديناراً فسافر بها إلى الهند مراراً حتى بلغت سبعة عشر ألفاً فعزم حينئذ على ترك السفر والاكتفاء بما رزقه الله فسوّلت له نفسه الأمارة بالسوء في العود ، وحبيبت إليه الزيادة فعادوا السفر فلم يلبث أن خرجت عليه السراق في البحر فأخذوا جميع ما كان معه فرجع وقد حرب ماله . وذلك ثمرة الحرص المذموم . وهو في تقدير صغرى ضمير ، وتقدير كبراه : وكل ما جرّ الى الحرب فلا ينبغي ان يحرص عليه .

الثاني : قوله : وليس كل طالب بمرزوق ، وهو تمثيل نبه فيه على أن الطلب على الحرمان في بعض الطالبين حتى يقيس نفسه عليه فلا يحرص في الطلب .

الثالث : قوله : ولا كل مجمل بمحروم . تنبيه على تمثيل آخر كذلك نبه فيه على أن الإجمال علة للرزق في بعض الناس ليقيس نفسه عليه فيجمل في الطلب .

الرابع : أن يكرم نفسه عن كل دنية وإن استلزمت وصوله إلى ما يرغب فيه ويتنافس عليه ، وذلك كأن يكذب مثلاً أو يغدر ليصل إلى الملك ونحوه ، والإكرام لها عن ذلك يستلزم فضائل كالسخاء والمروءة وكبر الهمة . إذ كل

واحد من رذيلة البخل والندالة وصغر الهمة يستلزم مقارفة الدنيا. فإكرام النفس عنها يستلزم الامر بالحصول على فضائلها ونفّره عن مقارفة الدنيّة بقوله : فإنّك . إلى قوله : عوضاً : أي أن ما تبذله من نفسك من الفضيلة وتعديل عنه الى الرذيلة لا يقاومه عند الله وعند اهل الفضائل من خلقه شيء وإن جُلّ ، ولا يكون لك عنه عوض . وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل ما لا يحصل له عوض يقابله ويساويه فلا ينبغي ان يبذل في مقارفة الدنيا .

الخامس : أن لا يكون عبد غيره : أي لا يجعل لغيره عليه فضل إحسان يسأله إياه فيسترقه به ، ويستوجب بذلك على نفسه خدمته والاشتغال بشكره عن الله .

وقوله : وقد جعله الله حراً .

في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من جعله الله حراً فيقبح أن يجعل نفسه عبداً لغيره ، وكذلك قوله : وخير خيره إلى قوله : إلّا بعسر استفهام في معنى الاستنكار : أي لا خير في خير لا يوجد إلّا بشر ، ويسر لا ينال إلّا بعسر ، وكُنّي بذلك الخير واليسر عما يطلب في مقارفة الدنيا ويصير الإنسان بسببه عبداً لغيره كالمال ونحوه ، وبالشّر والعسر المقارن له كبذل ماء الوجه في السؤال والذلة وغيرها من الدنيا ، وهو أيضاً في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل ما لا خير فيه فلا ينبغي أن يطلب ويتعبد للغير من أجله .

السادس : حذره من الطمع ، واستعار لفظ المطايا لقواه الأمانة بالسوء كالوهمية والخيالية والشهوية والغضبية ، ووجه المشابهة كونها حاملة لنفسه العاقلة وموصلة لها إلى المشتبهات وما يطمع فيه من متاع الدنيا كالمطايا الموصلة لراكبها إلى أغراضه ، وكذلك وصف الوجيف لسرعة انقياده معها إلى المطامع الرديئة .

وقوله : فتوردك مناهل الهلكة .

فاستعار لفظ المناهل لموارد الهلاك في الآخرة كمنازل جهنم وطبقاتها ، ووجه المشابهة كونها موارد شراب أهل النار المهلك كما قال تعالى :

﴿ فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم ﴾^(١) والفاء في جواب النهي اللازم للتحذير المذكور ، وهو في قوة متصلة هي صغرى ضمير تقديرها فإنك إن أوجفت بك مطايا الطمع أوردتك مناهل الهلكة ، وتقدير الكبرى : وكل مطية كذلك فيحرم ركوبها .

السابع : نهاه أن يجعل بينه وبين الله واسطة في وصول نعمته إليه إن استطاع ذلك وهو نهى عن مسألة الغير والتعرض لنواله بل ينتظر قسمه من رزق الله المفروض له من غير سؤال ذي نعمة يكون فيه بذل ماء الوجه والذلة والمنّة إن أعطى وبذله ، والحرمان والذل إن حرم . ورغبه في ذلك بضميرين :

أحدهما : قوله : فإنك مدرك قسمك وأخذ سهمك : أي من رزق الله ، وتقدير كبراه : وكل من كان كذلك فلا ينبغي أن يجعل بينه وبين الله واسطة يطلب منه رزقه .

الثاني : قوله : وإن اليسير . إلى قوله : خلقه : أي ما حصل من جهة يحمد حصوله منها وهي الجهة التي أمر الله تعالى بطلب الرزق منها وإن كان يسيراً أكرم عنده وأشرف من الكثير من غير تلك الجهة كسؤال الغير والتعرض له ، وتقدير الكبرى وكل ما كان أعظم فينبغي أن يكون هو المطلوب . وقوله : وإن كان كل منه .

أي وإن كان الرزق من الخلق أيضاً من الله إلا أنه ينبغي أن يوجه الرغبة إليه ابتداء دون غيره . إذ هو مبدأ الكل وعنايته بالجميع واحدة .

الثامن : قوله : وتلافيك . إلى قوله : منطلقك . تنبيه على وجوب ترجيح الصمت وتغليب على كثرة الكلام بضمير هذه صغراه ، وتقريرها أن الفارط من الصمت وإن استلزم الخطأ كالسكوت عما ينبغي أن يقال من الحكمة أو ما يترتب عليه بعض المصالح إلا أنه يمكن استدراكه غالباً بما ينبغي من القول . وأما فارط القول فإن الخطأ فيه قد لا يمكن استدراكه .

وإن أمكن فعلى غاية من العسر . فلذلك كان تلافي فارط الصمت بالقول أسهل من تدارك فارط القول ، ولقوة الخطأ في القول أكثر الناس في ذم الإكثار ومدح الصمت ، والمنطق هنا يحتمل أن يريد به المصدر فيكون من لبيان الجنس ، أو محل النطق فيكون لابتداء الغاية . وتقدير كبرى الضمير : وكل ما كان أيسر فهو أولى بك . ينتج أن تلافي فارط الصمت أولى بك ، وذلك مستلزم لرجحان الصمت .

التاسع : نبهه على حفظ ما في يده من المال الحفظ الذي ينبغي وهو الوساطة بين التبذير والبخل . والكلام في قوة صغرى ضمير أيضاً وتقدير كبراه : وكل ما كان أحب إلي من طلبك ما في يدي غيرك فهو أولى بك .

العاشر : نبهه على فضيلة قطع الطمع واليأس عما في أيدي الناس بضمير أيضاً صغراه قوله : ومرارة ليأس . إلى قوله : الناس ، وتقدير كبراه : وكل ما كان خيراً فهو أولى أن يلزم ويكرم لنفس به ، وأطلق لفظ المرارة على الألم الذي تجده النفس بسبب اليأس من المطالب إطلاقاً لاسم السبب على المسبب . وكونه خيراً لما يستلزمه من إكرام النفس عن ذل السؤال ورذيلة المهانة . وإليه أشار الشاعر بقوله :

وإن كان طعم اليأس مرّاً فإنه الذواحلي من سؤال لأراذل

الحادي عشر : نبهه على وجوب الصبر في ضيق الرزق والحرمان إذا كان مع فضيلة العفة . وأن لزومه أولى من طلب الغنى المستلزم للفجور بضمير أيضاً صغراه ما ذكر ، وتقدير كبراه : وكل ما كان خيراً من الغنى مع الفجور فلزومه أولى من طلب ذلك الغنى . وإنما كان كذلك لاستلزام تلك الحرفة الفضيلة واستلزام ذلك الغنى الرذيلة . وقد علمت أن العفة فضيلة القوة الشهوية وأنها بين رذيتي تفريط يسمى خمود الشهوة وإفراط يسمى فجوراً .

الثاني عشر : نبهه على أنه لا يجوز إفشاء سره بتمثيله أصله المرء ، والفرع هو المخطب ، والحكم كونه أحفظ لسره ، والعلة كونه أكثر عناية بنفسه من غيره .

إذا ضاق صدر المرء من سر نفسه فصدر الذي يستودع السر أضيق

الثالث عشر : نبهه بطريق التمثيل أيضاً على التحرز في السعي والتثبت في ارتياد المصالح بقوله : رب ساع فيما يضره . فالأصل هو الساعي ، والفرع هو المخاطب ، والعلة هي السعي ، والحكم هو التضرر .

الرابع عشر : نبه على وجوب ترك الإكثار في القول بتمثيل أيضاً أصله المكثّر ، وفرعه المخاطب ، وعلته الإكثار ، وحكمه الهجر . والغرض أن يعتبر نفسه في حقوقها بالمكثّرين في لزوم الهجر لهم فيترك الإكثار لما يلزمه من الهجر ولحوق الذم به .

الخامس عشر : نبه على فضيلة التفكير في الأمور بقوله : من تفكّر أبصر : أي أدرك بعين بصيرته حقائق الأمور وعواقبها .

السادس عشر : أمره بمقارنة أهل الخير بضمير دلّ على صغراه بقوله : تكن منهم ، وتقديرها أن مقارنتهم تستلزم الكون منهم ، وتقدير الكبرى : وكل ما استلزم الكون منهم فواجب أن يفعل .

السابع عشر : وكذلك أمره بمباينة أهل الشر ومفارقتهم لما يستلزمه المباينة لهم من عدم العدا في جملتهم في الدنيا والآخرة ، ووجه الحجة كالذي قبله .

الثامن عشر : نبهه على قبح أكل الحرام لغاية اجتنابه بذمه بضمير صغراه ما ذكر ، وإنما كان أقبح الظلم لكون الضعيف في محل الرحمة فظلمه لا يصدر إلّا عن قلب قاس ونفس بعيدة من الرقة والرحمة والعدل ، ولأنه غير مقابل من الضعيف بمدافعة وممانعة فكان أبعد عن العدل ، وتقدير كبراه : وكل ما كان أفحش الظلم كان أولى أصناف الظلم بالترك والاجتناب .

التاسع عشر : نبهه على أن الرفق في بعض المواضع كالخرق في كونه مخلاً بالمصلحة غالباً ومفوّتاً للغرض فكان استعمال الخرق في ذلك الموضع كاستعمال الرفق في استلزامه للمصلحة وحصول الغرض غالباً فكان أولى من الرفق في ذلك الموضع . ولفظا الخرق الأول والرفق الثاني مستعاران للرفق

الأول والخرق الثاني لما ذكرناه من المشابهة، وإلى هذا المعنى أشار أبو الطيب:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلی مضر كوضع السيف في موضع الندى
العشرون: نبهه على ان بعض ما فيه مصلحة ظاهرة قد
يشتمل على مفسدة بقوله: ربما كان الدواء داءً، وعلى أن بعض ما هو
مفسدة في الظاهر قد يستلزم مصلحة بقوله: والداء دواءً. ولفظا الدواء
مستعاران للمصلحة، ولفظ الداء للمفسدة، ووجه الاستعارتين أن المصلحة
من شأنها نظام حال الإنسان، ومن شأن المفسدة فساد كالدواء والداء،
وإلى هذا المعنى أشار المتنبي:

فربما صحت الأجساد بالعلل.

الحادي والعشرون: نبه على انه لا ينبغي ان يعرض عن مشورة احد
عليه بأمر هو مظنة مصلحة وإن كان من شأنه أنه غير ناصح له بل ينظر في
رأيه وشوره فربما كان نصيحة. وكذلك لا ينبغي أن يركن إلى قول من يعتقده
ناصحاً. إذ من الجائز أن يغشه.

الثاني والعشرون: نهاه عن لاتكال على المني ونفره عنها بضمير
صغراه قوله: إنها بضائع النوكى [الموتى خ]. واستعار لفظ البضائع لها
باعتبار أن الأحقق يحصل منها لذة خيالية من أمور المتمنة وهي فرعها كما
يحصل عن البضاعة الربح. وأضافها إلى النوكى لعدم الفائدة في المني
كعدم الربح عن بضائع النوكى.

الثالث والعشرون: رسم العقل بأنه حفظ التجارب. والاشارة الى
العقل العملي وهو القوة التي للنفس بحسب حاجتها إلى تدبير بدنها الموضوع
لتصرفاتها وتكميله، وهي التي بها تستنبط الآراء المصلحية مما يجب أن
يفعل من الأمور. إذ كان الشروع في العمل الاختياري المختص بالإنسان
إنما يتأتى بإدراك ما ينبغي أن يعمل في كل باب وهو إدراك رأي كلي أو جزئي
يستنبط من مقدمات بعضها جزئية محسوسة وبعضها كلية أولية أو تجريبية أو

ذائعة أو ظنية يحكم بها العقل النظري من غير أن يختص بجزئي دون غيره ،
والعقل العملي يستعين بالنظري في ذلك ثم ينتقل منه باستعمال مقدمات
جزئية إلى أن ينتقل إلى الرأي الجزئي الحاصل فيعمل بحسبه ويحصل بعمله
مقاصده في معاشه ومعاده . وإرادته لهذا العقل أظهر لأنه المتعارف ولأنه في
معرض الأمر بتحصيل مكارم الأخلاق التي هي كمال هذه القوة . وحفظ
التجارب إشارة إلى ضبط هذه العلوم المنتزعة عن مشاهدات متكررة من أمور
جزئية تتكرر فيفيد حكماً كلياً ككون السقمونيا مثلاً من شأنها الإسهال .
وعرف العقل بذلك لكونه من خواصه وكمالاته .

الرابع والعشرون: نبهه على أنه ينبغي أن يقتصر من التجارب على
ما وعظه : أي من شأنه أن يفيد موعظة واعتباراً كالنظر في حال من تكرر
ظلمه فأسرعت عقوبة الله إليه ، أو تكرر كذبه فأدركه المقت بضمير صغراه ما
ذكر ، وتقديرها : ما وعظك فهو خير التجارب ، وتقدير الكبرى : وخير
التجارب أولى بك . ينتج فما وعظك من التجارب أولى بك ، ونحوه قول
أفلاطون : إذا لم تعظك التجربة لم تجرب بل أنت ساذج كما كنت .

الخامس والعشرون: أمره بانتهاز الفرصة فيما ينبغي أن يفعل ، ونفاه
عن تركها بم يستلزمه من الأسف المغص ، وأطلق اسم الغصة على الفرصة
مجازاً تسمية لشيء باسم ما يؤول إليه .

السادس والعشرون: نبه على ما ينبغي من ترك الأسف على ما يفوت
من المطالب بضمير صغراه ما في قوة هذا السلب من الإيجاب ، وتقديره :
بعض الطالبين لا يصيب مطلوبه ، وتقدير الكبرى : وكل من لا يصيب
مطلوبه فلا ينبغي أن يأسف على فواته . ليقدر السامع نفسه أنه من ذلك
البعض فلا يأسف على فائت ، وكذلك قوله : ولا كل غائب يؤوب .

السابع والعشرون: نبه على لزوم التقوى بضمير تقدير صغراه : إضاعة
الزاد ومفسدة المعاد من الفساد ، وتقدير الكبرى : وكل ما كان من الفساد
وجب تركه . ولفظ الزاد مستعار للتقوى كما سبق .

الثامن والعشرون: نبه على وجوب النظر في عواقب الأمور واختيار

أحسنها بضمير ذكر ما هو في قوة صفراء ، وتقديرها : كل أمر له عاقبة نافعة أو ضارة ، وتقدير كبراه : وكل ما له عاقبة كذلك فينبغي أن يلمح ليفعل ما يوصل إليها أو يجتنب .

التاسع والعشرون : نبه على وجوب ترك الحرص وكد النفس في طلب المال ونحوه بضمير ذكر صفراء ، وتقدير كبراه : وكل ما سوف يأتيك فينبغي أن لا تحرص في طلبه .

الثلاثون : نبه على وجوب الاحتراز في المعاملات كالبيع والشراء ونحوه بضمير صفراء ما ذكر ، ووجه كون التاجر مخاطراً أنه لما كان محباً للمال ومتوجهاً إلى اكتسابه كان حال البيع في مظنة أن يحيف فيأخذ راجحاً ، ويعصي ناقصاً مع أن تكليفه لزوم العدل والاستقامة على سواء الصراط فلا جرم كان على خطر من وقوعه في طرف التفريط والتقصير من سواء السبيل ، وتقدير الكبرى : والمخاطر يجب أن يحترز في فعده المخاطر فيه .

الحادي والثلاثون : لما نبه على وجوب الاحتراز في التجارة والتحفظ من الظلم ، وكان ذلك الظلم إنما هو لغرض كثرة المال نبه في هذه الكلمة على أن من المال اليسير ما هو أنمي من الكبير ليقتصر عليه ، وأراد باليسير الحلال فإنه أغنى للعاقل من الكثير الحرام في الآخرة لاستلزامه زيادة الثواب ، وهي في قوة صغرى ضمير تقديره : اليسير الحلال أغنى من الكثير الحرام وتقدير الكبرى : وكل ما كن أغنى من الكثير الحرام فيجب أن يقتصر عليه .

الثاني والثلاثون : نبه على ترك الاستعانة في المهمات بالمهين من الناس بضمير تقدير الكبرى : وكل من كان كذلك فالأولى اجتنب الاستعانة به ، والخير المنفي عنه هو النافي في الاستعانة به ، ومعلوم أنه منتف عنه لما أن مهانته تضاد النهوض في مهمات الأمور وعلياتها ، ولأن ذلته تستلزم قهره وضعفه عن المقاومة ، ونحو قولهم : إذ تكفيت بغير كاف وجدته للهم غير شاف .

الثالث والثلاثون: نبه على مجانية الصديق المتهم بضمير تقدير صغراه كالتي قبلها ، وأراد أنه لا خير فيه لصديقه . إذ كان من جهة الباطن مظنة الشر له .

الرابع والثلاثون: أمره أن يصبر على ما يقتضيه الدهر ولا يتسخط من ذلك وإن كان دون رضاه . إذ كان ذلك هو المتمكن في الطبيعة ، وما بمعنى المدة ، واستعار لفظ القعود للزمان الذي تيسر فيه رزقه وتسهل فيه بعض مهماته ، ووجه المشابهة أن ذلك الزمان يمكنه من بعض مهماته وحوائجه . وطلب ما لا يمكن فيه وما لم يعد لحصوله من المطالب ربما يستلزم تغييره وامتناع ما كان ممكناً فيه كما أن القعود من شأنه أن يمكن من ظهره واقتعاده وهو بمعرض أن ينفر براكبه إذا استزاده وشدّ عليه ، ولفظ الذلة مستعار لسكون الزمان وإمكان المطلوب فيه ، وأراد بمساهلته الجريان معه بقدر مقتضاه من دون تشدد وتسخط عليه فإن ذلك يستلزم تعب النفس من غير فائدة ، وإلى مثله أشار القائل :

إذا الدهر عطاك العنان فسربه رويداً ولا تعنف فيصبح شامساً

الخامس والثلاثون: نهاه أن يخاطر بم يملكه رجاء أكثر منه . إذ كان في مظنة أن لا يعود فيوشك أن يضيع الأصل ، ويحمل ذلك على كون الإنسان يلقي ما في يده للغرض المذكور مع شكه في سلامته أما مع ظن السلامة فلا خطر . ونحوه قولهم : من طلب الفضل حرم الأصل .

السادس والثلاثون: حذره من اللجاج في طلب الأمر عند تعسره ، ونفره عنه بأن استعار له لفظ المطية الجموح ، ووجه المشابهة كونه يؤدي بصاحبه إلى غاية ليست بمجهوده [بمحمودة خ] كالجموح من المطايا .

السابع والثلاثون: أمره أن يلزم نفسه ويحملها في حق صديقه الحق على أن يقابله ويجازيه برذائله فضائل كالقطيعة بالصلة ، وسائر ما ذكر ليعود إلى العتبي وتدوم المودة ، وحذره أن يضع ذلك في غير موضعه أو يفعله بغير أهله من اللثام . لأن ذلك وضع الشيء في غير موضعه وهو خروج عن العقل ، وقد علمت أن الأمور المذكورة من لوازم الصداقة الحقة . وإلى

نحوه أشار الشاعر بقوله :

وإن الذي بيني وبين بني أبي
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم
وإن زجروا طيراً بنحس تمرى
ولا أحمل الحقد القديم عليهم
وبين بني أمي لمختلف جدا
وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
زجرت لهم طيراً يمر بهم سدا
وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

الثامن والثلاثون: نهاء أن يتخذ عدو صديقه صديقاً، ونبه على قبح ذلك بضمير استثنائي تقديره : فإنك إن فعلت ذلك عادت صديقك ، ويستدل فيه بقبح اللازم على قبح ملزومه : أي لكن معاداة الصديق قبيحة منهي عنها فاتخاذ عدوه صديقاً كذلك ، ووجه الملازمة أن مصادقة عدو الصديق يستلزم نفرة الصديق عمن يصادق عدوه لنفرته عن عدوه وتوهمه مشاركة العدو وموافقته في جميع أحواله ومن جملة أحواله عداوته فهي إذن توهمه الموافقة على عداوته فيوجب له النفرة والمجانبة ، وإليه أشار بذكر القائل :

تودّ عدوي ثمّ تزعم أنني صديقك إن الرأي عنك لعازب
التاسع والثلاثون: أن يخلص نصيحته لآخيه في جميع أحواله سواء كانت النصيحة حسنة أو قبيحة: أي مستقبحة في نظر المنصوح ضارة له في العاجل باعتبار استحيائه وانفعاله له من المواجهة بها . ونحوه قوله تعالى : ﴿ وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم ﴾ (١) فعدها بالنسبة إليهم سيئة .

الأربعون: أمره بفضيلة كظم الغيظ ، وقد رسمت بأنها الإمساك عن المبادرة إلى قضاء وطر الغضب فيمن يجنى عليه جناية يصل مكروهاً إليه . وقد يرادفه الحلم والكرم والصفح والتثبت والعفو والتجاوز والاحتمال ، وربما فرّق بعضهم بين هذه المفهومات ، واستعار وصف التجرّع للتصبر على مضمض الألم الموجود منه ملاحظة لما يشرب من دواء مر .

ثم نبه على فضيلته بضمير صغراه قوله: فأني لم أر. الى قوله: مغبة. واستعار لفظ الحلاوة لما يستلزمه من العاقبة الحسنة، ووجه المشابهة ما يستلزمانه من اللذة. والضمير في قوله: منها يعود إلى ما دلّ عليه قوله: تجرع من المصدر، وتقدير الكبرى: وكل ما لا يرى من المتجرع أحلى منه فينبغي أن يتجرّع. وعن زين العابدين عليه السلام وصية لابنه الباقر عليه السلام: يا بني عليك بتجرّع الغيظ من الرجال فإن أباك لا تسره بنصيه من تجرّع الغيظ من الرجال حمراً النعم.

الحادي والاربعون: أمره أن يلين لمن غالظه وخاشنه، ونبه على حسن ذلك بضمير صغراه قوله: فإنه يوشك أن يلين لك: أي بسبب لينك له حال غلظته: وتقدير كبراه: وكل من قارب أن يلين لك بسبب لينك له فالأولى بك أن تلين له، ونحوه قولهم: إذا عزّ أخوك فمن واصله وقوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (١).

الثاني والاربعون: أمره ان يأخذ على عدوه بالفضل من عوارفه. ونبهه على أحسنه باستلزامه لأحد الظفرين فإن للظفر سببين: أحدهما: الرهبة بالقوة والغلبة وهو الأظهر.

الثاني: الرغبة بالإفضال عليه بحيث يسترق به ويدخل في الطاعة بسببه.

وقوله: فإنه أحد الظفرين.

صغرى ضمير، وتقدير الكبرى: وكل ما صدق عليه أنه أحد الظفرين فينبغي أن يفعل.

الثالث والأربعون: أمره إن أراد مقاطعة أخيه ان يبقي له من نفسه بقية من صداقته ولا يفارقه مفارقة كلية، ونبه على ذلك بضمير أشار الى صغراه بقوله: يرجع اليها: أي فإنه يرجع اليها لو بدا له الرجوع، وتقدير الكبرى: وكل ما يرجع به فواجب ان يبقيه له، ونحوه قولهم: أحب حبيبك هوناً ما عسى أن

يكون بغضك يوماً ما، وأبغض بغضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما،
وقولهم : إذا هويت فلا تكن غالياً ، وإذا تركت فلا تكن قالياً .

الرابع والأربعون : أن يصدق من ظن به خيراً في ظنه وذلك
التصديق بفعل ما ظنه فيه من الخير كأن يظن به الجود فيفضل عليه .

الخامس والأربعون : نهى أن يفعل بأهله شراً . ونفّره بضمير تقدير
صغراه : فإن أهلك حينئذ يكونون أسعى الخلق بك ، وذلك لملازمته لهم
وقربه منهم ، وتقدير كبراه : وكل من كان كذلك فهو مذموم .

السادس والأربعون : أن لا يضيع حق أخ له اعتماداً على ما بينهما من
الأخوة ونبه على ذلك بضمير قوله : فإنه . إلى قوله : حقه ، والمعنى أن من
أضعت حقه لا بد أن يفارقك لتضييعك حقه فلا يكون أخاً لك : وتقدير
كبراه : وكل أخ يفارقك لتضييع حقه فلا ينبغي أن تضييع حقه لتسلم لك
مودته وأخوته . ونحوه قولهم : إضاعة الحقوق داعية العقوق .

السابع والأربعون : نهاه عن الرغبة فيمن زهد فيه وأراد بمن زهد فيه من
ليس للصنعة موضعاً ، ولا للمودة أهلاً . وليس بأخ قديم ولا لناقض ما قبله
وما بعده من الأمر بصلة من قطعه والدوم ممن تباعد عنه والإحسان الى من أساء
إليه .

الثامن والأربعون : ولا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على
صلته . إلى قوله : الإحسان . وأشار إلى وجوب ذلك بالتنفير عن نقيضه
بضمير صغراه شرطية متصلة تقديرها فإنك إن لا تفعل ذلك لكان أخوك أقوى
على فعل الإساءة منك إلى فعل الإحسان ، وبيان الملازمة أن الإساءة والشر
له صوارف كثيرة تصرف عنه ، والإحسان وفعل الخير له بواعث كثيرة تبعث
عليه فإذا لم تفعل الإحسان مع كثرة البواعث عليه وأساء أخوك مع كثرة
صوارفه عن الإساءة كان هو أقوى على الإساءة منك على الإحسان ، وتقدير
كبراه : وكل من كان كذلك فهو عاجز مذموم .

التاسع والأربعون : نهاه عن استعظام ظلم الظالمين في حقه ، وهونه
عنده بضمير صغراه قوله : فإنه يسعى في مضرتّه ونفعك أي أن سعيه في ظلمه

يستلزم مضرتة في الآخرة بما توعد الله به الظالمين ونفعك بما وعد الله به الصابرين على بلائهم ، وتقدير الكيرى : وكل من سعى في مضرتة ونفعك فلا ينبغي أن يكبر عليك صنيعه في حقك .

الخمسون : نبهه على وجوب مقابلة الاحسان بمثله دون الكفران بقوله : ليس جزاء من سرك أن تسوءه : وهو في قوة صغرى ضمير تقديرها : من سرك فليس جزاؤه أن تسوءه ، وتقدير كبراه : وكل من لم يكن جزاؤه ذلك فينبغي أن لا تسوءه ، وقيل : إن هذه الكلمة من تمام التي قبلها ، والتقدير لا يكبرن عليك ظلم من ظلمك فتقابله بسوء فإنه يسعى في مضرتة ونفعك وكل من كان كذلك فليس جزاؤه أن تقابله بالإساءة .

الفصل العاشر : قوله :

وَأَعْلَمْ ، يَا بُنَيَّ ، أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ : رِزْقٌ تَطْبُهُ ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ ، فَإِنَّ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ . مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى . إِنَّ لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ ؛ وَإِنْ جَزَعْتَ عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ . اسْتَدَلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهُ ، وَلَا تَكُونَنَّ بِمَنْ لَا تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَعْتَ فِي إِسْلَامِهِ ؛ فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَعِظُ بِالْآدَابِ ، وَالْبَهَائِمَ لَا تَتَعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ . إِطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ ؛ مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ ؛ وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ ، وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ ، وَالْهَوَى شَرِيكَ الْعَنَاءِ ، رَبٌّ قَرِيبٌ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ ، وَرَبٌّ بَعِيدٌ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ ؛ وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ . مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ ، وَمَنْ أَقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ . وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ ، وَمَنْ لَمْ يَبَالِكْ فَهُوَ عَدُوُّكَ ، قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكًا إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكًا . لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ ، وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ ، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ ، وَأَصَابَ الْأَعْمَى رُشْدَهُ . آخِرُ الشَّرِّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ ، وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ . مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ ! لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ . إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ

الرِّمَانُ ، سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ . إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ
مِنَ الْكَلَامِ مَا كَانَ مُضْجِكًا ، وَإِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِكَ ، وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ
النِّسَاءِ ؛ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ وَعَزَمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ ، وَآكُفُّنَّ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ
بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ ؛ فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ
إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثِقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ ، وَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَعْرِفَنَّ غَيْرَكَ فَأَفْعَلْ ، وَلَا
تَمْلِكِ الْمَرْأَةُ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرْمَانَةٍ ،
وَلَا تَعُدُّ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا ، وَلَا تَطْمَعُهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لغيرِهَا ، وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي
غَيْرِ مَوْضِعٍ غَيْرَةٍ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السُّقْمِ ، وَالتَّبَرُّثَةَ إِلَى
الرَّيْبِ ، وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ ، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ لَا
يَتَوَاكَلُوا فِي خَدَمَتِكَ ، وَأَكْرَمُ عَشِيرَتِكَ فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ ، وَأَصْلُكَ
الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ .

اسْتَوْدِعْ اللَّهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ ، وَأَسْأَلُهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ ،
وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

أقول : المشوى : المقام . وتفلت : تخلص . وعزائم الصبر : ما
جزمت به منه ولزمته . والعورة هنا : الإسم من أعور الصيد إذا أمكنك من
نفسه ، وأعور الفارس : إذا بدا منه موضع خلل الضرب . والأفن :
الضعف . والقهرمانة : فارسي معرب .

وفي الفصل تنبيهات على لطائف من الحكمة ومكارم الأخلاق :

الأولى : أنه قسم مطلق الرزق إلى قسمين مطلوب وطالب ، وأراد
بالرزق المطلوب ما لم يجر في القضاء الإلهي كونه رزقاً له ، وبالمطالب عما
علم الله أنه رزقه وأنه لا بد من وصوله إليه . وترك بيان أحكام القسمين للعلم
به إيجازاً . والتقدير فأما الذي تطلبه فلا تدركه لكون القضاء الإلهي لم يجر
به ، وكل ما لا تدركه فينبغي أن لا تحرص عليه .

وأما الذي يطلبك فإنه لا محالة يأتيك وإن لم تأته ، وهي صغرى ضمير

تقدير كبراه : وكل ما كان آتيك لا محالة فينبغي أن لا تحرص في طلبه .

الثانية : نبه على فضيلة عزة النفس عند الحاجة ، وعلى مواصلة الإخوان في الغنى بالتعجب من قبح ضديهما ، وهما الخضوع في الحاجة والجفاء في الغنى للتنفير عنهما . إذ كانا رذيلتين ، وهي في قوة ضمير تقديرها : أن الذلة في الحاجة وجفاء الإخوان في الغنى قبيحان جداً ، وتقدير كبراه : وكلما كان كذلك وجب اجتنابه .

الثالثة : نبه على بذل المال في وجوه البر والقربات لغاية إصلاح آخرته بقوله : إنما لك . إلى قوله : مثواك ، وأراد بما له من دنياه ما يملك نفعه دائماً ولذلك حصره بإنما لأنه القدر المتفجع به على الحقيقة ، والذي تبقى ثمرته لاستلزام بذله تحصيل الملكات الفاضلة المستلزمة للشواب الدائم والنعيم المقيم في الآخرة ، وهو صغرى ضمير تقديرها : ما أصلحت به مثواك من دنياك هو الذي يبقى لك منها ، وتقدير الكبرى : وكل ما هو الباقي لك منها فينبغي أن تحضه بعنايتك ، ويحتمل أن تكون هذه الكلمة تنبيهاً على ما قبلها من المواصلة في الغنى داخلة في إصلاح المشوى بالمال المنبه عليه ههنا .

الرابعة : نبه على ترك الأسف والجزع على ما يخرج من يده من المال بقياس استثنائي ، وذلك قوله : فإن جزعت . إلى قوله : إليك . وبيان الملازمة أن الذي خرج من يده كالذي لم يصل إليه في أنه ليس برزق له وليس مما قضى الله له به . وتقدير الاستثناء : لكن الجزع هناك قبيح وغير محقق فينبغي أن لا يحصل الجزع هاهنا .

الخامسة : أمره أن يستدل بقياس ما لم يكن أي ما لم يحدث من أمور الدنيا وأحوالها وتغيراتها على ما كان وحدث منها ، وذلك أن يقيس نفسه وما ترغب فيه من متاع الدنيا على ما سبق من أهلها ومتاعها فتجده مثله فيحكم بلحوق حكمه له وهو التغير والزوال فيستلزم ذلك الاعتبار الرغبة عن الدنيا ومتاعها ، ونبه على إمكان ذلك بضمير صغراه قوله : فإن الأمور أشباه ، وتقدير الكبرى : وكل ما هو متشابه فيمكن قياس بعضه على بعض ، وكأن

يقال : إذا أردت أن تنظر الدنيا بعدك فانظرها بعد غيرك .

السادسة : حذره أن يكون ممن لا ينفعه النصيحة فيما نصح به من الرأي إلا إذا بالغت النصيحة والتوبيخ في إيلامه وأذاه ، وروي بالغت بالتاء المخاطب : أي في إيلامه بالقول وغيره ، وضرب له العاقل مثلاً في اتعاضه بالأدب وتذكيره بالنصيحة ليقس نفسه عليه فيتعظ بالأدب ، والبهايم مثلاً في عدم اتعاضها وتذكرها إلا بالضرب ليعتبر نفسه بالقياس إليها وقد رفعه الله عنها بالعقل فيجب أن ينزه نفسه عن لازمها فلا يحتاج إلى إيلام بقول أو فعل كأن يقال : النائم كالعبد والعبد كالبهيمة عتبتها ضربها .

السابعة : أن يحذف عن نفسه ما يرد عليها من الغموم والهموم ومصائب الدنيا بالصبر الجازم الثبت عن حسن اليقين بالله تعالى وبأسرار حكمته وقضائه وقدره ، وذلك أن يعلم يقيناً أن كل أمر صدر عن الله وابتلى به عباده من ضيق رزق أو سعته وكل أمر مرهوب أو مرغوب فعلى وفق الحكمة والمصلحة بالذات ، وما عرض في ذلك مما يعد شراً فأمر عرضي لا يمكن نزع الخير المقصود منه . فإن ذلك إذا كان متيقناً استعدت النفس بعلمه للصبر ومفارقة الهوى في الغم والجزع ونحوه . والغرض من الكلمة الأمر بالصبر وهي في قوة صغرى ضمير تقديره : إن عزائم الصبر وحسن اليقين بالله يستلزمان طرح واردات الهموم وحذفها عن النفس . وتقدير لكبرى : وكل ما استلزم ذلك فينبغي أن تستعد به وتستكمل به نفسك .

الثامنة : نبه على لزوم القصد والعدل في أفعاله وأقواله بضمير ذكر صغراه وتقدير كبراه : ومن جاز هلك .

التاسعة : نبه على حفظ صاحب الحق والرغبة فيه بضمير ذكر صغراه ، واستعار له لفظ التنسيب باعتبار مودته وحسن معاضدته كالنسيب ، وتقدير كبراه : والمناسب ينبغي أن يحمى عليه ويصطنع عنده .

العاشرة : عرّف الصديق لحق بعلامته ليعرف بها فيصادق ، وأراد بصدقه في غيبه صدقه في ضميره وما غاب من باطنه عن غيره .

الحادية عشر : نبه على مجانبة الهوى والميول الطبيعية بضمير صغراه

قوله : الهوى شريك العمى ، ووجه كونه شريكاً له استلزامه للضلال وترك
القصد كالعمى ، وتقدير الكبرى : وكل ما هو شريك العمى فينبغي أن
يجتنب ، ونحوه قولهم : حبك للشيء يعمي ويصم .

الثانية عشر : نبه على أن في البعداء من هو أقرب وأنفع من النسيب ،
وفي الأقرباء من هو أبعد من البعيد وهو مشهور ، وإلى المعنى الثاني أشار
القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم
فاحذروهم ﴾ .

الثالثة عشر : نبه على أن التحقيق باسم الغريب هو من لم يكن له
نسيب : أي محب يحبه ، وإليه أشار القائل :

أسرة المرء والداه وفي ما بين حضنهما الحياة تطيب
فإذا وليا عن المرء يوماً فهو في الناس أجنبي غريب
وذلك باعتبار محبة الوالدين له .

الرابعة عشر : نبه على لزوم الحق بما يلزم نقيضه وهو تعديه وتجاوزه
إلى الباطل من ضيق المذهب ووعارة المسلك ، وذلك أن طريق الحق واضح
مأمور باتباعه وقد نصبت عليه أعلام الهداية ، أما طريق الباطل فهي ضيقة
وعرة على سالكيها لما فيها من التحير والخط وعدم الهداية إلى المصلحة
والمنفعة مع كونها ممنوعة بحرسه طريق الحق من حاد إليها عنه أخذوا عليه
مذهبه وضيّقوا عليه مسلكه حتى يعود إلى طريق الحق ، وهو صغرى ضمير
تقدير كبراه كما في قوله : من ترك القصد جار .

الخامسة عشر : نبهه على وجوب الاقتصار على قدره وهو مقداره
ومحله في خلق الله ، واقتصره عليه مبني على معرفته وهو أن يعلم الفطرة
التي فطر لإنسان عليها من الضعف والجور والنقص فيعلم أنه كذلك فيمنع
نفسه حينئذ عن الترفع عن أبناء نوعه والاستطالة على أحد منهم بفضل قوة أو
إعجاب بقية جسمانية أو نفسانية ويقتصر على ما دون ذلك من التواضع ولين

الجانب والاعتراف بما جبل عليه من العجز والنقص ، وهو في قوة صغرى ضمير تقديرها : من اقتصر على قدره كان اقتصاره أبقي له ، وذلك أن المتناول إلى قدر غيره والمتجاوز لقدره في مظنة أن يهلك لقصد الناس إياه بالمكاره والنكير . قيل : من جهل قدره قتل نفسه . والاقتصار على القدر يستلزم عدم هذه الأمور فكان أبقي على صاحبه وأسلم ، وتقدير الكبرى : وكل من كان اقتصاره على قدره أبقي له فواجب أن يقتصر عليه .

السادسة عشر : نبهه على لزوم سبب بينه وبين الله تعالى وهو كل ما قرب إليه من علم وقول وعمل ، ولفظ السبب مستعار لذلك باعتبار إيصاله إلى الله والقرب منه كالحبل الذي يتوصل به إلى المقصود ، وظاهر أنه أوثق الأسباب لثباته دائماً ونجاة المتمسك به في الدنيا والآخرة ، والكلمة صغرى ضمير تقديرها السبب بينك وبين الله تعالى هو أوثق الأسباب المأخوذ بها ، وتقدير الكبرى : وكل ما كان كذلك فينبغي أن يتمسك به . ونحوه قوله تعالى : ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ (١) .

السابعة عشر : نبهه على مجانية من لا يبالي به بضمير ذكر صغراه ، وتقديرها : من لم يبالك وقت حاجتك إليه وقدرته على نفعك فهو عدوك ، ولفظ العدو مستعار له باعتبار أن عدم المبالاة من لوازم العدو ، وتقدير الكبرى : وكل عدو ينبغي مجانيته .

الثامنة عشر : نبه على أن اليأس من بعض مطالب الدنيا قد يكون سبباً للسلامة من الهلاك وإدراك النجاة منه ، وذلك عندما يكون الطمع في ذلك المطلوب مستلزماً للهلاك كالطمع في نيل ملك ونحوه .

التاسعة عشر : نبه بقوله : ليس كل عورة . إلى قوله : رشده . على أن من الأمور الممكنة والفرص ما يغفل الطالب البصير عن وجه طبعه فلا يصيبه ولا يهتدي له ، ويظنفر به الأعمى ، واستعار لفظ البصير للعاقل

الذكي ، والأعمى للجاهل الغبي . وغرض الكلمة التسلية عن الأسف والجزع على ما يفوت من المطالب بعد إمكانها .

العشرون : أمره بتأخير الشر وعدم الاستعجال فيه ، ونبه عليه بضمير ذكر صغراه : ومعناها : أنك قادر على تعجيله أي وقت شئت ، وتقدير الكبرى : وكل ما كن كذلك فينبغي أن لا يعجل فيه . إذ لا يفوتك ، ونحوه من الحكمة قولهم : يبدأ بالحسنة قبل السيئة فلست بمستطيع للحسنة في كل وقت وأنت على الإساءة متى شئت قدر .

الحادية والعشرون : نبه على وجوب قطيعة الجاهل بضمير ذكر صغراه ، وتقدير كبراه : وكل ما يعدل صلة العاقل فينبغي أن يرغب فيها ويفعلها وإنما كانت تعدلها باعتبار استلزامها للمنفعة ، ومنفعة قطيعة الجاهل بالقياس إلى ما في صحبته من المضرّة .

الثانية والعشرون : نبه على وجوب الحذر من الزمان ودوام ملاحظة تغيّراته ، والاستعداد لحوادثه قبل نزولها بالأعمال الصالحة ، واستعار له لفظ الخيانة باعتبار تغيّره عند الغفلة عنه والأمن فيه والركون إليه فهو في ذلك كالصديق الخائن . والكلمة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من خان الزمان فينبغي أن يكون منه على حذر ، وفي الحكمة : من أمن الزمان ضيّع ثغراً مخوفاً .

الثالثة والعشرون : نبه بقوله : من أعظمه أهانه على وجوب ترك إعظامه . ولم يرد الزمان المجرد . بل من حيث هو مشتمل على خيرات الدنيا ولذاتها ومعدّ لطيب العيش بالصحة والشباب والأمن ونحوها ، وبذلك الاعتبار يكرم ويستعظم فيقال في العرف : زمان طيب وزمان عظيم .

وأما استلزام ذلك لإهانة من يستعظمه لأن إعظامه له يستلزم استنامته إليه واشتغاله بما فيه من اللذات الدنيوية فغفل بسبب محبتها عن الاستعداد لما وراءه . ثم إن الزمان مكر عليه بمقتضى طباعه فيفرّق بينه وبين ما كان يغترّ به من مال أو جاه أو رجال فيصبح حقيراً بعد أن كان خطيراً وصغيراً بعد أن كان كبيراً وقليلاً بعد أن كان كثيراً ، والكلمة في قوة صغرى ضمير تقدير

كبراه : وكل من أهانه الزمان فينبغي له أن يستهين به ولا يعظمه .

الرابعة والعشرون : قوله : ليس كل من رمى أصاب ، وقد سبق مثله في قوله : ليس كل طالب يصيب . وغرضه التنبيه على ما ينبغي من ترك الأسف على ما يفوت من المطالب والتسلي بمن أخطأ في طلبه . أو توبيخ الغير وتبكيته بأنه ليس بأهل لذلك المطلوب وأن له قوماً آخرين . وإلى نحوه أشد أبو الطيب :

ماكل من طلب المعالي نافذاً فيها ولا كل الرجال فحولاً

الخامسة والعشرون : نبه على أن تغير السلطان في رأيه ونيته وفعله في رعيته من العدل إلى الجور يستلزم تغير الزمان عليهم . إذ يغير من الإعداد للعدل إلى الإعداد للجور . وروي أن كسرى أنوشيروان جمع عمال السواد ، وبيده درة يقبها . فقال : أي شيء أضرب بارتفاع الأعمال وأدعى إلى محققها ، ومن أجباني بما في نفسي جعلت هذه الدرة في فيه . فقال كل منهم قولاً من احتباس المطر والجراد واختلاف الهواء . فقال لوزيره : قل أنت فيني أظن عقلك يعادل عقول الرعية ويزيد عليها . فقال : إنما يضر بارتفاعها تغير رأي لسلطان في رعيته ، وإضممار الحيف لهم والحدور عليهم . فقال : لله أبوك بهذا العقل هلك لملوك لما أهلوك له . ودفع إليه الدرة فجعلها في فيه .

السادسة والعشرون : أمره بالسؤال عند إرادته لسلوك طريق عن الرفيق فيها لغاية أن يجتنبه إن كان شريراً ، ويرافقه إن كان خيراً . فإن الرفيق إما رحيق وإما حريق ، وكذلك عن الجار عند إرادته لسكنى الدار للغاية المذكورة . وروي هذا الكلام مرفوعاً .

السابعة والعشرون : حذره أن يذكر من الكلام ما كان مضحكاً سواء كان عن نفسه أو عن غيره لما يستلزم ذلك من الهوان ، وقلة الهيبة في النفوس .

الثامنة والعشرون : وصه في النساء بأمور :

أحدها : الحذر من مشاورتهن ، ونبه على وجوب الحذر بضمير صغراه

قوله : فإن رأيهن . إلى قوله : وهن . وذلك لنقصان عقولهن ، وتقدير الكبرى : وكل من كان كذلك فينبغي أن يحذر من استشارته لما أن ضعف الرأي مظنة الخطأ وعدم إصابة وجه المصلحة فيما يستشار فيه .

الثاني : أن يكف عليهن من أبصارهن بحجابه إياهن ، وهو من أفصح الكنايات عن الحجب . ومن زائدة ، ويحتمل أن تكون للتبويض . ونبه على وجوب حجبهن بضمير صغراه قوله : فإن شدة الحجاب أبقى عليهن : أي أبقى للستر والعفة من الخروج والتبرج وأدوم لحفظهن ، وتقدير الكبرى : وكل ما كان كذلك وجب فعله .

الثالث : نبه على أنه لا يجوز أن يرخص في إدخال من لا يوثق به عليهن ، وهو أعم من الرجال والنساء، والكلام في قوة ضمير دل به على ذلك المنع ، وتقديرها : إن إدخال من لا يوثق به عليهن إمساو لخروجهن في المفسدة أو أشد وتقدير الكبرى : وكل ما كان كذلك فلا يجوز الرخصة فيه ، وإنما كان أشد في بعض الصور لأن دخول من لا يوثق به عليهن أمكن لخلوته بهن والحديث معهن فيما يراد من الفساد .

الرابع : أمره أن يحسم أسباب المعرفة بينه وبين غيره لكون معرفتهن لغيره مظنة المفسدة . وقرينة الحال يخرج غير أولي الإربة كالوالد والمحرم ، وإنما شرط في ذلك الاستطاعة لأنه قد لا يمكن الإنسان دفع معرفتهن لغيره مطلقاً .

الخامس : نهاه أن يملك لمرأة من أمرها ما خرج عن حد نفسها من مأكول أو ملبوس ونحوه ، وما جاوز ذلك كالشفاعات ، ونبه على عدم صلوحها بضمير صغراه قوله : فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة . واستعار لفظ الريحانة باعتبار كونها محلاً للذة والاستمتاع بها ، ولعل تخصيص لريحانة بالاستعارة لأن شأن نساء العرب استعمال لطيب كثيراً ، وكنى بكونها غير قهرمانة عن كونها لم تخلق لتكون حاكمة متسلطة بل من شأنها أن تكون محكوماً عليها ، وتقدير الكبرى : وكل من كان كذلك فلا ينبغي أن يجاوزونه أمر نفسه ، وتمكن من التصرف في أمر غيره .

السادس : وكذلك نهيه أن يجاوز بكرامتها نفسها : أي لا تكرمها بكرامة تتعدى صلاح نفسها ، وهي كقوله : ولا يملك المرأة . إلى آخره .

السابع : وكذلك نهيه أن يطمعها في الشفاعة لغيرها لأن ذلك مجاوزة منها لحد نفسها ، وقد نبّه على أنها ليست بأهل لذلك لما هي عليه من نقصان الغريزة وضعف الرأي .

الثامن : نهاء عن التغاير في غير موضع الغيرة ، ونبه على ما في ذلك من المفسدة بضمير صغراه قوله : فإن ذلك . إلى قوله : السقم ، وكفى بالصحيحة عن البريئة من الخيانة والفساد . وبالسقم عنهما وإنما كان كذلك لأن المرأة حين براءتها من الفساد يستقبح ذلك ويستكره كره المواجهة ، ويستشعر خوف الفضيحة والعقاب فإذا نسبت إلى ذلك مع براءتها منه عظم عليها في أول الأمر فإذا تكرر ذلك من الرجل هان عليها أمره وصار لومه لها في قوة الإغراء به بذلك . وقد علمت ما في الطباع لحيوانية من الحرص على الأمر الممنوع منه فكانت الغيرة في غير موضعها واللائمة بسبب لتخيّل الفساد على ما لم يفعل أمراً داعياً إلى قوله : وتقدير الكبرى : وكل ما كان كذلك لم يجز فعله .

التاسع والعشرون : أمره أن يجعل لكل إنسان من خدمه شغلاً يخصه . وبأخذه بفعله ويؤاخذه على تركه ، وذلك من الحكمة المنزلية . ونبه على سر ذلك بضمير صغراه قوله : فإنه أخرى . إلى قوله : خدمتك ، وذلك أنهم إذا شركوا في التكليف بفعل واحد يقوم به كل واحد منهم فالغالب عليهم أن يكل كل واحد منهم فعله إلى الآخر فيستلزم ذلك أن لا يفعل . قال كسرى أنوشيروان لولده شيرويه : وانظر إلى كتابك فمن كان منهم ذا ضياع قد أحسن عمارتها فولّه الخراج ، ومن كان منهم ذا عبيد فولّه الجند ، ومن كان منهم ذا سراري قد أحسن القيام عليهنّ فولّه النفقات والقهرمة ، وهكذا فاصنع في خدم دارك ولا تجعل أمرك فوضى بين خدمك فيفسد عليك ملكك .

الثلاثون : أمره بإكرام عشيرته ، ونبه على ذلك بضمير صغراه قوله :

فإنهم . إلى قوله : تقول . واستعار لهم لفظ الجناح باعتبار كونهم مبدء نهوضه وقوته على الحركة إلى المطالب كجناح الطائر ، ورشح بذكر الطيران ، وكذلك لفظ اليد باعتبار كونهم محل صولته على العدو ، وتقدير الكبرى : وكل من كان كذلك وجب عليك إكرامه .

ثم ختم الوصية بوداعه واستودع الله دينه ودنياه وسؤاله خير القضاء له في عجلته وأجلته وداريه دنياه وآخرته حسب إرادته تعالى ومشيتته ولفظ الاستيداع مجاز في طلب الحفظ من الله لما استودعه إياه . وبالله التوفيق والعصمة .

٣٢ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى معاوية :

وَأَرْدَيْتَ جَيْلًا مِنَ النَّاسِ كَثِيرًا : خَدَعْتَهُمْ بِغَيْكِ ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجٍ نَحْرِكَ ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ ، وَتَتَلَاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ ، فَجَاوَزُوا عَنْ وَجْهِتِهِمْ . وَنَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ، وَعَوَّلُوا عَلَى أَحْسَابِهِمْ ، إِلَّا مَنْ فَاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَصَائِرِ ؛ فَإِنَّهُمْ فَارَقُوكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ ، وَهَرَبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ مُوَارَظَتِكَ ؛ إِذْ حَمَتَهُمْ عَلَى الصُّعْبِ ، وَعَدَلَتْ بِهِمْ عَنِ الْقَصْدِ ، فَاتَّقِ اللَّهَ يَا مَعَاوِيَةُ فِي نَفْسِكَ ، وَجَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطَعَةٌ عَنْكَ ، وَالْآخِرَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ وَالسَّلَامُ .

أقول : أول هذا الكتاب : من عبد الله أمير المؤمنين إلى معاوية ابن أبي سفيان أما بعد فإن الدنيا دار تجارة وربحها الآخرة . فالسعيد من كانت بضاعته فيها الأعمال الصالحة ، ومن رأى الدنيا بعينها وقدرها بقدرها وإنني لأعظك مع علمي بسابق العدم فيك مما لا مرد له دون نفاذه ، ولكن الله تعالى أخذ على العلماء أن يردوا الأمانة ، وأن ينصحوا الغوي والرشيدي . فاتق الله ولا تكن ممن لا يرجو الله وقاراً ، ومن حقَّت عليهم كلمة العذاب فإن الله بالمرصاد ، وإن دنياك ستدبر عنك ، وستعود حسرة عليك فانتبه من الغي والضلال على كبر سنك وفناء عمرك فإن حالك اليوم كحال الثوب المهيل

الذي لا يصلح من جانب إلا فسد من آخر . ثم يتصل به وقد أردت .
الفصل .

والمهيل : المتداعي في التمزق ، ومنه رمل مهيل : أي ينهال
ويسيل . وأردت أهكت . والجيل : الصنف ، وروي جبلاً : وهو الخلق .
وجاروا : عدلوا . والوجهة : القصد . والنكوص : الرجوع . وعول على
كذا : اعتمد عليه . وفاء : رجع . والموازرة : المعاونة .

وفي الكتاب مقاصد :

الأول : موعظته وتذكيره بحال الدنيا وكونها دار تجارة والغاية من
التجارة فيها إما ربح الآخرة بصلاح البضاعة وهي الأعمال ، وإما خسران
الآخرة بفسادها .

الثاني : تنبيهه على أن يرى الدنيا بعينها : أي يعرفها بحقيقتها ، أو
يراها بالعين التي بها تعرف وهي عين البصيرة ، ويعلم ما هي عليه من الغير
والزوال وأنها خلقت لغيرها ليقدرها بمقدارها ويجعلها في نظره لما خلقت
له .

الثالث : نبهه على أن الله تعالى علماً لا يد من نفاذه فيه فإن ما علم الله
تعالى وقوعه لا يد من وقوعه ، وإنما وعظه امثالاً لأمر الله ووفاء بعهده على
العلماء أن يؤدوا أمانته ، ويبلغوا أحكامه إلى خلقه وأن ينصحوا ضالهم
ورشيدهم .

الرابع : أمره بتقوى الله ، ونهاه أن يكون ممن لا يرجو الله وقاراً : أي
لا يتوقع لله عظمة فيعبده ويطيعه . والوقار : الاسم من التوقير : وهو
التعظيم . وقيل : الرجاء هنا بمعنى الخوف فيكون مجازاً إطلاقاً لاسم أحد
الضدين على الآخر ، وأن يكون ممن حقت عليه كلمة العذاب .

وقوله : فإن الله بالمرصاد .

تنبيه له على اطلاعه عليه وعلمه بما يفعل ليرتدع عن معصيته .

الخامس : نبهه على إدبار الدنيا ، وعودها حسرة عليه يوم القيامة فقدها

مع عشقه لها ، وعدم تمسكه في الآخرة بعصم النجاة ، وفناء زاده إليها .

السادس : أمره بالانتباه من رقدة الجهل والضلال على حال كبر سنه وفناء عمره فإن تلك الحال أولى الأحوال بالانتباه منها ، ونبيه على أنه غير قابل للإصلاح في ذلك السن بعد استحكام جهله وتمكن الهيئات البدنية من جوهر نفسه ونهكها له فهو كالثوب الخلق لا يمكن إصلاحه بالخياطة بل كلما خيط من جانب تمزق من آخر .

السابع : أخبره في معرض التوبيخ على ما فعل بأهل الشام من خدعته لهم وإلقائهم في موج بحره ، ولما كان ضلاله عن دين الله وجهله بما ينبغي هو سبب خدعته لهم نسبها إليه ، واستعار لفظ البحر لأحواله وآرائه في طلب الدنيا والانحراف عن طريق الله باعتبار كثرتها وبعد غايتها ، ولفظ الموج للشبه التي ألقاها إليهم وغرقهم بها فيما يريد من الأغراض الباطلة ، ومشابقتها للموج في تلعبها بأذهانهم واضطراب أحوالهم بسببها ظاهرة ، وكذلك استعار لفظ الظلمات لما حجب أبصار بصائرهم عن إدراك الحق من تلك الشبهات ، ولفظ الغشيان لطريانها على قلوبهم وحجبها لها . ومحل تغشاهم نصب على الحال . وكذلك لفظ التلاطم لتلعب تلك الشبهات بعقولهم .

وقوله : فجزوا .

عطف على ألقيتهم ، وأراد أنهم عدلوا عن الحق بسبب ما ألقاه إليهم من الشبه واعتمدوا في قتالهم على أحسابهم حمية الجاهلية في الذب عن أصولهم ومفاخرهم دون مراعاة الدين والذب عنه إلا من رجع إلى الحق من أهل لعقول فإنهم عرفوك وما أنت عليه من الضلال . فارقوك وهربوا إلى الله من مؤازرتك فيما تريده من هدم الدين حين حملتهم على الأمور الصعبة الهادمة له وعدلت بهم عن قصد الحق . وقد كان استغوى العرب بشبهة قتل عثمان والطلب بدمه . فلم عرف عقلاؤهم والمتمسكون بالدين منهم أن ذلك خدعة منه لإرادة الملك فارقه واعتزلوه .

وقوله : على أعقابهم ، وعلى أدبارهم .

ترشيح لاستعارة لفظي النكوص والتولي من المحسوسين للمعقولين ، والاستثناء هنا من الجيل الذين خدعهم ، ولفظ الصعب مستعار لما حملهم عليه من الأمور المستصعبة في الدين باعتبار أن ركوبهم لها يستلزم عدولهم عن صراط الله ووقوعهم في مهوي الهلاك كما يستلزم ركوب الجمل الصعب النفور العدول براكبه عن الطريق وتقحم المهالك ، وكذلك لفظ القصد مستعار للطريق المعقول إلى الحق من الطريق المحسوس . ثم كرر عليه الأمر بتقوى الله ، وأن يجاذب الشيطان قياده . واستعار لفظ لمجاذبة للممانعة المعقولة ، ولفظ القياد لما يقوده به من الآراء الباطلة وكواذب الآمال ، وممانعة الشيطان لذلك القياد بتكذيب النفس الأماره فيما يوسوس به من تلك الآراء .

وقوله : فإن الدنيا . إلى آخره .

تنبيه له على وجوب قطع آمال الدنيوية لانقطاع الدنيا . وعلى العمل للأخرة بقربها . وهو في قوه صغرى ضميرين تقدير كبرى الأول : وكل ما كان منقطعاً زئلاً وجب أن يقطع الأمل فيه لانقطاعه وتجاذب الشيطان في دعوته إليه ، وتقدير كبرى الثاني : وكل ما كان قريباً فينبغي أن يستعد لوصوله بالعمل . وبالله التوفيق .

٣٣ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى قثم بن العباس . وهو عامله على مكة :

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ عَيْنِي بِالْمَغْرِبِ ، كَتَبَ إِلَيَّ يُعَلِّمُنِي أَنَّهُ وَجَّهٌ إِلَى الْمَوْسِمِ
أَنْسُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ . الْعُمِّيِّ الْقُلُوبِ ، الصُّمِّ الْأَسْمَاعِ ، لُكْمِهِ
الْأَبْصَارِ ، الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ
الْخَالِقِ ، وَيَحْتَلِبُونَ الدُّنْيَا ذَرْهًا بِالْدِّينِ ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِأَجْلِ الْأَبْرَارِ
الْمُتَّقِينَ ، وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عَامِلُهُ ، وَلَا يُجْزِي جَزَاءَ الشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ ، فَأَقِمْ
عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ لِحَارِمِ الصَّلَيبِ ، وَالنَّاصِحِ اللَّيِّبِ ، التَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ
الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ ، وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ ، وَلَا تَكُنْ عِنْدَ النِّعَمَاءِ بَطْراً ، وَلَا عِنْدَ
الْبِئْسَاءِ فَتَيْلاً .

أقول : هو قثم بن العباس بن عبد المطلب ، ولم يزل والياً لعلی عليه السلام على مكة حتى قتل عليه السلام واستشهد بسمرقند في زمن معاوية ، وسبب هذا الكتاب أن معاوية كان قد بعث إلى مكة في موسم الحج واجتماع العرب بها دعاء يدعون إلى طاعته ويشبطون العرب من نصرة علي عليه السلام ، ويلقون في أنفسهم أنه إما قاتل عثمان أو خاذل له وعلى التقديرين فلا يصلح للإمامة ، وينشرون محاسن معاوية - بزعمهم - وأخلاقه وسيرته في العطاء . فكتب عليه السلام هذا الكتاب إلى عامله بمكة ينبهه على ذلك ليعتمد عليه فيما تقتضيه السياسة ، وقيل : إن الذين بعثهم بعض السرايا التي كان يبعثها ليعير على أعمال علي عليه السلام .

والعين : الجاسوس . والموسم : مجمع الحاج . والأكمه : الأعمى خلقة . والبطر : شدة المرح وكثرة النشاط . والبأساء : الشدة بني على فعلاء ولا أفعل له لأنه اسم غير صفة . والفشل : الجبن والضعف .

وحاصل الكتاب إعلامه أولاً بما كتب إليه عينه بالمغرب ، وأراد الشام لأنها من البلاد المغربية ، وقد كان له عليه السلام في البلاد جواسيس يخبروه بما يتجدد من الأمور عند معاوية ، ولمعاوية عنده كذلك كما جرت عادة الملوك بمثله . ثم وصف أهل الشام بأوصاف يستلزم البعد عن الله لغرض التنفير عنهم :

أحدها : شمول الغفلة بهم من كل وجه عما خلقوا لأجله ، واستعار لقلوبهم لفظ العمى باعتبار عدم عقليتهم للحق وإدراكهم لما ينبغي من طريق الآخرة كما لا يدرك الأعمى قصده ، ولفظ الصم لأسماعهم والكمه لأبصارهم باعتبار عدم انتفاعهم من جهة الأسماع بالمواعظ والتذاكير . ومن جهة الأبصار بتحصيل العبرة بها من آثار الله سبحانه كما لا ينتفع بذلك فاقد هاتين الآلتين .

الثاني : كونهم يلبسون الحق بالباطل : أي يخلطونه ويعمون فيه . والمراد أنهم يعلمون أنه على الحق وأن معاوية على الباطل ثم يكتُمون ذلك ويغبطونه بشبهة قتل عثمان والطلب بدمه إلى غير ذلك من أباطيلهم ، وروي

يلتمسون الحق بالباطل . إذ كانوا يطلبون حقاً بحركاتهم الباطلة .

الثالث : كونهم يطيعون المخلوق : أي معاوية في معصية خالقهم .

الرابع : كونهم يحتلبون الدنيا درها بالدين ، واستعار لفظ الدر لمتاع الدنيا وطيباتها ، ولفظ الاحتلاب لاستخراج متاعها بوجوه الطلب من مظانه ملاحظاً لشبهها بالناقة . ودرها منصوب بدلاً من الدنيا . وإنما كان ذلك بالدين لأن إظهارهم لشعاره وتمسكهم بظواهره لغرض تحصيل الدنيا وأخذهم ما لا يستحقونه منها فإن محاربتهم له سنة إنما كانت كما زعموا للأخذ بثأر الخليفة عثمان وإنكار المنكر على قاتليه وخاذليه ، ولذلك تمكنوا من تألف قلوب العرب وأكثر جهال المسلمين على حربه سنة ، وأخذ البلاد .

الخامس : شراؤهم عاجل الدني ساجل الأبرار ، وهو ثواب الآخرة ، ولفظ الشراء مستعار لاستعاضتهم ذلك العاجل من ذلك الآجل ، ولما كان ذلك في شعار الإسلام هو لخسران المبين ذكره في معرض ذمهم ، ثم ذكر في مقام الوعد والوعيد لهم انحصار الفوز بالخير ممن عمل الخير ترغيباً فيه والمجازاة بالشر في فاعله تنفيراً عنه . ثم ختم بأمره وتحذيره أما أمره فبأن يقيم على ما في يديه من العمل مقام من هو أهل ذلك وهو الحازم المثبت في آرائه ، الصليب في طاعة الله ، الناصح اللبيب له ولأوليائه ، التابع لسلطانه ، المطيع لإمامه . وأما تحذيره فمما يعتذر منه وهو كل أمر عد في الشرع معصية وتقصير عن أداء حقه ، ويروى الكلمات مرفوعة . ثم من البطر في النعمة والفشل والضعف عند البأساء والشدة لكون ذلك معداً لزوال لنعمة وحلول النقمة . والبطر رذيلة تستلزم رذيلتي الكبر والعجب ، وتقابل فضيلة التواضع ، والفشل رذيلة التفريط من فضيلة الشجاعة . وبالله التوفيق .

٣٤ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى محمد ابن أبي بكر ، لما بلغه توجده من عزله بالأشتر عن مصر ثم توفي الأشتر في توجده إلى مصر قبل وصوله إليها .

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَقَدْ بَلَغَنِي مَوْجِدَتُكَ مِنْ تَسْرِيحِ الْأَشْتَرِ إِلَى عَمَلِكَ ، وَإِنِّي

لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ اسْتِبْطَاءً لَكَ فِي الْجُهِدِ ، وَلَا اِزْدِيَاداً لَكَ فِي الْجِدِّ ، وَلَوْ نَزَعْتُ
مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَوْوَنَةً ، وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ
وَلَايَةً .

إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَلِيَّتُهُ أَمْرٌ مِصْرَ كَانَ رَجُلًا لَنَا نَاصِحًا وَعَلَى عَدُوِّنَا
شَدِيدًا نَاقِمًا ، فَرَحِمَهُ اللَّهُ فَلَقَدْ اسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ ، وَلَا قَى جِمَامَهُ ، وَنَحْنُ عَنْهُ
رَاضُونَ ، أَوْلَاهُ اللَّهُ رِضْوَانَهُ ، وَضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ ، فَأَصْجَرَ لِعَدُوِّكَ ، وَآمَضَ
عَلَى بَصِيرَتِكَ ، وَشَمَّرَ لِحَرْبٍ مِنْ حَارَبِكَ ، وَأَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ، وَأَكْثِرْ
الاسْتِعَانَةَ بِاللَّهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ ، وَيُعِينَكَ عَلَى مَا نَزَلَ بِكَ ، وَالسَّلَامُ .

أقول : السبب أن محمد ابن أبي بكر كان يضعف عن لقاء العدو ، ولم
يكن في أصحاب علي عليه السلام أقوى بأساً في الحرب من الأشتر - رحمه الله -
وكان معاوية بعد وقائع صفين قد تجرد للإغارة على أطراف بلاد المسلمين ،
وقد كانت مصر جعلت طعمة لعمر بن العاص ، وعلم عليه السلام أنها لا تتحفظ
إلا بالأشتر فكتب له العهد الذي يأتي ذكره ووجهه إليها فبلغه أن محمداً تألم
من ذلك . ثم إن الأشتر مات قبل وصوله إليها فكتب عليه السلام إلى محمد هذا
الكتاب ، وهو يؤذن باقراره على عمله واسترضائه ، وتعريفه وجه عذره في
تولية الأشتر لعمله ، وأنه لم يكن ذلك لموجدة عليه ولا تقصير منه .
والموجدة ما يجده الإنسان من الغضب والتألم عنه . والتسريح : الإرسال .
وأصح له : أي أخرج له إلى الصحراء . والبصيرة هنا : الحجة والهدى في
الدين .

وحاصل الفصل أمور :

الأول : فقد بلغني . إلى قوله : عملك كالاقرار له بما يشبه الإساءة
في حقه ليرتب عليه ما يشبه الاعتذار إليه .

الثاني : قوله : وإني لم أفعل ذلك . إلى قوله : ناقماً . أخذ فيما يشبه
العذر فنفي عنه التقصير والاستبطاء في الجهاد ونحوه مما عساه يتوهمه سبباً
لعزله . ثم وعده على تقدير تمام عزله بولاية أمر هو أسهل عليه كلفة وأحب

إليه ولاية تسكيناً لقلبه عن مصر بالترغيب فيما هو خير منها . ثم أشار إلى وجه بعثه الأشتر في معرض ذلك الثناء عليه بما استجمعه من الخصال الحميدة المذكورة ، وهي كونه لإمامه ناصحاً ، وعلى عدوه شديداً ناقماً : أي منكراً ومغيراً ، ومحمد وإن كان له الأمر في الأول إلا أنه في الثاني ضعيف .

الثالث : قوله : فرحمه الله . إلى قوله : الثواب له . إعلام بأنه مات وهو عنه راض لأن لا يظهر به شماتته .

الرابع : قوله : فأصحر . إلى آخره أمر له بالاستعداد للعدو ، وأمره بالإصهار لإشعاره بالقوة دون الاستتار في لمدينة المشعر بالضعف ، وأن يمضي في محاربته على حثته في الحق واستبصاره فيه ، وكفى وصف التشمير عن الاستعداد للحرب ، وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة التي هي أحسن ، وأن يكثر الاستعانة بالله فإن الرغبة إليه ، والاستعانة به تعد لإفاضة النصر وكفايته ما أهم من أمر العدو ومعاونته على ما نزل من الشدائد . وبالله التوفيق والعصمة .

٣٥ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى عبدالله بن العباس ، بعد مقتل محمد بن أبي بكر :
أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ مِصْرَ قَدْ أَفْتِخَتْ وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ
أَسْتُشْهِدُ ، فَعِنْدَ اللَّهِ نَحْتَسِبُهُ وَلَدًا نَاصِحًا ، وَغَامِلًا كَادِحًا ، وَسَيْفًا قَاطِعًا ،
وَرُكْنًا دَافِعًا ؛ وَقَدْ كُنْتُ حَثْتُ النَّاسَ عَلَى إِحْقَاقِهِ ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ
الْوَقْعَةِ ؛ وَدَعَوْتُهُمْ سِرًّا وَجَهْرًا ، وَعَوْدًا وَبَدَأً ؛ فَمِنْهُمْ الْآتِي كَارِهًا ، وَمِنْهُمْ
الْمُعْتَلُّ كَاذِبًا ، وَمِنْهُمْ الْقَاعِدُ خَاذِلًا . أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ فَرَجًا عَاجِلًا ،
فَوَاللَّهِ لَوْ لَا طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ ، وَتَوَطُّي نَفْسِي عَلَى
الْمَنِيَّةِ ؛ لَأَحْبَبْتُ أَنْ لَا أَبْقَى مَعَ هَؤُلَاءِ يَوْمًا وَاحِدًا ، وَلَا أَلْتَقِيَ بِهِمْ أَبَدًا .

أقول : احتسبت كذا عند الله : أي طلبت به الحسبة بكسر الحاء وهي

الأجر . والشهادة : القتل في سبيل الله . واستشهد : كأنه استحضر إلى الله .
ومدار الكتاب على أمور :
أحدها : إعلامه بفتح مصر .

الثاني : إخباره عن قتل محمد ابن أبي بكر ليساهمه في الهم بهذه المصيبة ، ومدحه في معرض التفجع عليه والتوجع له ، وولداً وعاملاً وسيفاً وركناً أحوال ، وتسميته ولداً مجاز باعتبار تربيته في حجره كالولد ، وذلك أنه كان ربيباً له ، وأمه أسماء بنت عميس الخثعمية كانت تحت جعفر بن أبي طالب وهاجرت معه إلى الحبشة فولدت له محمداً وعوناً وعبدالله بالحبشة ، ولما قتل جعفر تزوجها أبو بكر فولدت له محمداً هذا . فلما توفي عنها تزوجها علي عليه السلام فولدت له يحيى بن علي ، واستعار له لفظ السيف باعتبار كونه يجمع به العدو ويصال به عليه ، ورشح بذكر القاطع ، وكذلك لفظ الركن باعتبار كونه يستند إليه في الحوادث فتدفع به ورشح بقوله : دافعاً .

الثالث : إعلامه بحاله مع الناس في معرض التشكي منهم ، وأنه قد حثهم على لحاقه وإغاثة فلم يسمعوا ، وأشار إلى وجه تقصير كل منهم ، وقد كان حاله عليه السلام مع الناس كحال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع قومه فالآتون كارهين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، والمعتلون كذباً كالذين قالوا لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم أنهم لكاذبون ، ومن تأمل حالهما وسيرتهما إلى أن قبضا تحقق وجه الشبه بينهما في أكثر الأحوال . وهذه القسمة لهم بحسب ما وجدهم .

الرابع : سؤاله الله تعالى أن يعجل له منهم الفرج وهو في معرض التشكي أيضاً والإشارة إلى وجه عذره في المقام بينهم على هذه الحال وهو طلبه للشهادة وتوطينه نفسه على الموت عند لقاء العدو ، ولولا ذلك لفرقهم . وبالله التوفيق .

٣٦ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى عقيل بن أبي طالب ، في ذكر جيش أنفذه إلى بعض الأعداء وهو

جواب كتاب كتبه إليه .

فَسَرَّحْتُ إِلَيْهِ جَيْشًا كَثِيفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ شَمَّرَ هَارِبًا ،
وَنَكَصَ نَادِمًا ، فَلَحِقُوهُ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ ، وَقَدْ طَفَلَتِ الشَّمْسُ لِلْإِيَابِ ؛
فَاقْتَتَلُوا شَيْئًا كَلًّا وَلَا ؛ فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضًا بَعْدَمَا أُخِذَ
مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ ، وَلَمْ يَتَّقِ عِنْدَهُ غَيْرَ الرَّمَقِ ، فَلَأْيًا بِلَأْيٍ مَا نَجَا فَدَعَّ عَنْكَ قُرَيْشًا
وَتَرَكَاظَهُمْ فِي الضَّلَالِ وَتَجَوَّالَهُمْ فِي الشَّقَاكِ ، وَجَمَّاحَهُمْ فِي التَّيِّهِ ؛ فَإِنَّهُمْ
قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كِإِجْمَاعِهِمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَالِهِ وَسَلَّمَ قَبْلِي ؛ فَجَزَتْ قُرَيْشًا عَنِّي الْجَوَازِي ؛ فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي ،
وَسَلَبُونِي سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّي .

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي الْقِتَالِ ، فَإِنَّ رَأْيِي قِتَالُ الْمُجَلِّينَ حَتَّى
أَلْقَى اللَّهُ ، لَا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً ، وَلَا تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَخْشَةً ، وَلَا
تَحْسَبَنَّ ابْنَ أَبِيكَ - وَلَوْ أَسْلَمَهُ النَّاسُ - مُتَضَرِّعًا مُتَخَشِّعًا ، وَلَا مُقْرَأً لِلضَّيْمِ
وَاهِيًا ، وَلَا سَلِسَ الزَّمَامِ لِلْقَائِدِ ، وَلَا وَطِيءَ الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ الْمُقْتَعِدِ ، وَلَكِنَّهُ
كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي سُلَيْمٍ :

فَإِنْ تَسَالَيْنِي : كَيْفَ أَنْتَ ؟ فَإِنِّي صُبُورٌ عَنِّي رَيْبُ الزَّمَانِ صَبِيبُ
يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَابَةٌ فَيَشِمْتَ عَادِ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ

أقول : طفلت الشمس بالتشديد : إذا مالت للمغيب . وآبت : لغة في
غابت . والجريض : المغموم الذي يتلع ريقه على همّ وحزن بالجهد ويكاد
يموت لذلك . والمخنق بالتشديد : هو من العنق موضع الخنق بكسر النون .
والرمق : بقية النفس . واللأي : الشدة والعسر . والإجماع : تصميم العزم .
والجوازي : جمع جازية وهي النفوس تجزى بالسيئة . والمحيين : من نقض
البيعة . يقال لمن نقض عهده وبيعته : محل ، ولمن حفظه : محرم .
والمقتعد : الراكب لاقتعاده لأظهر البعير .

وحاصل الفصل أمور :

أحدها : قوله : فسرحت ، إلى قوله : ما نجا . حكاية حال عدو وقد أغار على بعض أعماله فنفذ إليه جيشاً من المسلمين فهرب حين علم توجههم نحوه ثم لحقوه فقاتلوه قليلاً ثم أفلت منهم على شدة وعسر من الخلاص ، وألفاظه عليه السلام أفصح العبارات عما ذكره ، وهارباً ونادماً وجريضاً أحوال .
وقوله : كلا ولا .

تشبيه بالقليل السريع الفناء ، وذلك لأن لا ولا لفظان قصيران سريعان الانقطاع قليلان في المسموع من المتخاطبين . فشبه بهما ما كان من محاربة العدو للجيش الذي نفذه . ونحوه قول ابن هاني المغربي :

وأسرع في العين من لحظة وأقصر في السمع من لا ولا
وموقف مصدر أي فم كان ذلك القتال إلا كوقوف ساعة ، وروي : لا
وذا . ولأياً مصدر والعامل محذوف ، وما مصدرية في موضع الفاعل ،
والتقدير : فلأيي لأياً نجاؤه أي عسر وإبطاء .
وقوله : بلأي .

أي لأياً مقروناً بلأي .

الثاني : قوله : فدع عنك إلى قوله : ابن أمي .

كالجواب لكلام ذكر فيه قريشاً ومن انضم منهم إلى معاوية فأمره عليه السلام بالإضراب عن ذكرهم على سبيل الغضب منهم ، والواو في قوله : وتركاؤهم . يشبه أن يكون بمعنى مع ، ويحتمل أن تكون عاطفة ، واستعار لهم لفظ التركاؤ باعتبار خبط أذهانهم في الضلال عن سبيل الله وخوضهم في الباطل يتسرع فيه من غير توقف ، وكذلك لفظ التجوال ، ولفظ إجماع باعتبار كثرة خلافهم للحق وحركاتهم في تيه الجهل والخروج عن طريق العدل كالفرس يجمع ويجول .

وقوله : فإنهم . إلى قوله : رسول الله صلى الله عليه وسلم .

في قوة صغرى ضمير نبه به على أنه لا خير فيهم وأنه يجب الإعراض عنهم ، وتقدير الكبرى ، وكل من كان كذلك فينبغي تركه والإعراض عنه إذ

لا خير فيه . وأما حقيقة الصغرى فظاهرة لأن قريشاً صمم عزمهم على حربه منذ بويع بغضاً له وحسداً وحقدأ عليه واتفقوا على شقاقه كما كانت حالهم في بدو الإسلام مع رسول الله ﷺ لم يفترق الحالان في شيء من ذلك .

وقوله : فجزت قريشاً عني الجوازي .

دعاء عليهم بأن يجازوا بمثل فعلهم به من قطيعة الرحم وسلبه سلطان الإسلام والخلافة التي هو أولى بها . وهي تجري مجرى المثل .

وقوله : فقد قطعوا رحمي .

كالتعليل لحسن الدعاء عليهم ، وهو في قوة صغرى ضمير أيضاً ، وتقدير كبراه : وكل من فعل ذلك فهو حقيق بالدعاء عليه ، وأراد بابن أمه رسول الله ﷺ لأنهما ابنا فاطمة بنت عمرو بن عمران بن عائذ بن مخزوم أم عبد الله وبني طالب ، ولم يقل ابن أبي لأن غير أبي طالب من الأعمام يشركه في النسب إلى عبد المطلب . وقيل : إن أمه فاطمة بنت أسد كانت تربي رسول الله ﷺ حين كفله أو طالب يتيماً فهي كالأم له فأطلق عليه البتوة لها مجازاً .

الثالث : قوله : وأما ف سألت عنه . إلى آخره . فهو تقرير بسؤاله والجواب عنه ، وفيه تنبيه على فضيلته من وجوه :

الأول : قوته في الدين على من أحل دمة الله ونقض عهداً من عهوده .

الثاني : شجاعته التي لا يزيده معها كثرة الناس حوله عزة ولا تفرقهم عنه وحشة . ولا يوحد معها بالصفات المذكورة من الجبن والعجز والانقياد للعدو ، ولكنه معها كالقائل . والشعر منسوب إلى العباس بن مرداس السلمي وهو في قوة تمثيل أصله القائل ، وشرعه هو سكت ، وعلته ما ذكر من الأوصاف ، وحكمه كونه شجاعاً يجب الحذر من صولته . وبالله التوفيق .

٣٧ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى معاوية :

فَسُبْحَانَ اللَّهِ !! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلْأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ ، وَالْحَيْرَةِ الْمُتَّبَعَةِ ،
مَعَ تَضْيِيقِ الْحَقَائِقِ ، وَاطِّرَاحِ الْوَثَائِقِ . الَّتِي هِيَ لِلَّهِ طَلَبَةٌ ، وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّةٌ
فَأَمَّا إِكْتَارُكَ الْجَجَاجِ فِي عُثْمَانَ وَقَتْلَتِهِ . فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ
النَّصْرُ لَكَ . وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ .

أقول : أول هذا الكتاب : أما بعد فإن الدنيا حلوة خضرة ذات زينة
وبهجة لم يصب إليها أحد إلا شغلته بزينتها عما هو أنفع له منها ، وبالأخرة
أمرنا وعليها حشنا . فدع يا معاوية ما يفنى ، واعمل لما يبقى ، واحذر الموت
الذي إليه مصيرك والحسب الذي إليه عاقبتك . واعلم أن الله إذا أراد بعبد
خيراً حال بينه وبين ما يكره ووفقه لطاعته ، وإذا أراد بعبد شراً أغراه بالدنيا
وأنساه الآخرة وبسط له أمله وعاقه عما فيه صلاحه . وقد وصلني كتابك
فوجدتك ترمي غير غرضك ، وتنشد غير ضالتك ، وتخط في عماية وتيه في
ضلالة ، وتعتصم بغير حجة ، وتلوذ بأضعف شبهة . فأما سؤالك إلى
المشاركة والإقرار لك على الشام ؛ فلو كنت فاعلاً لذلك اليوم لفعلته أمس .
وأما قولك : إن عمر ولآكها . فقد عزل عمر من كان ولّا صاحبه ، وعزل عثمان
من كان عمر ولّاه ، ولم ينصب للناس إمام إلا ليرى من صلاح الأمة ما قد
كان ظهر لمن كان قبله أو خفي عنهم غيبته . والأمر يحدث بعده الأمر ، ولكل
وال رأي واجتهاد . ثم يتصل بقوله : سبحان الله . الفصل إلى آخره .

والفصل مشتمل على أمرين :

أحدهما : التعجب من شدة لزومه للأهواء التي هو مبتدعها ، والتحير
فيها عن قصد الحق . وذلك أنه في كل وقت يوقع شبهة ويبتدع رأياً يغوي به
أصحابه ويقرر في أذهانهم بذلك أن علياً عليه السلام لا يصلح للإمامة ؛ فتارة
يقول : إنه قتل عثمان ، وتارة يزعم أنه خذله ، وتارة يزعم أنه قتل الصحابة
وفرق كلمة الجماعة ، وتارة تصرف عنه بالعطاء وتفريق مال المسلمين على

غير الوجه الشرعي ، وتارة يعترف بكونه صالحاً للإمامة ، ويطلب إليه الإقرار بالشام . إلى غير ذلك مما يتدعه في الدين من الأباطيل ، ويتبع الحيرة فيها مع تضييعه لحقائق الأمور التي ينبغي أن يعتقدها من كونه عليه السلام الأحق بهذا الأمر ، واطراحه لمواثيق الله وعهوده المطلوبة المرضية له وهي على عباده حجة يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ الآية .

الثاني : جوابه عن خطابه في أمر عثمان وفخره بنصرته وتبكيته له عليه السلام بخذلانه إياه .

وقوله : فإنك : إلى آخره .

في قوة صغرى ضمير بيانها أن معاوية لما استصرخه عثمان ثاقل عنه وهو في ذلك يعده حتى إذا اشتد به الحصار بعث إليه يزيد بن أسد القسري ، وقال له : إذا أتيت ذي خشب فأقم بها ولا تقل : الشاهد يرى ما لا يرى الغائب . فإني أنا الشاهد وأنت الغائب . قال : فأقام بذي خشب حتى قتل عثمان . فاستقدمه حينئذ معاوية فعاد إلى الشام بالجيش الذي كان معه ، فكان نصره له حيث بعث لنصرته إنما كان على سبيل التعذير والتقاعد عنه ليقتل فيدعو إلى نفسه فكان ذلك النصر في الحقيقة لمعاوية . إذ كان فعله ذلك سبباً لقتله ، وانتصاره هو على مطلوبه من هذا الأمر ، وكان خذلانه له حيث كان محتاجاً إلى النصر ، وتقدير الكبرى : وكل من كان كذلك فليس له أن يفخر بنصرته وينسب غيره إلى خذلانه . وبالله التوفيق .

٣٨ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى أهل مصر ، لما ولى عليهم الأشر رحمه الله .

مَنْ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا اللَّهَ حِينَ غَضِيَ فِي أَرْضِهِ ، وَدُهِبَ بِحَقِّهِ ، فَضْرَبَ الْجَوْرُ سُرَادِقَهُ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، وَالْمُقِيمِ وَالظَّاعِنِ ، فَلَا مَعْرُوفَ يُسْتَرَاخُ إِلَيْهِ ، وَلَا مُنْكَرَ يُتَنَاهَى عَنْهُ .

أَمَّا بَعْدُ : فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لَا يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ ، وَلَا

يَنْكُلُ عَنِ الْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ ، أَشَدَّ عَلَى الْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ ، وَهُوَ
مَالِكُ بَنِ الْحَارِثِ أَخُو مَذْجَجٍ ، فَاسْمَعُوا لَهُ ، وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ
الْحَقُّ ؛ فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ لَا كَلِيلَ الظُّبَّةِ ، وَلَا نَابِي الضَّرِيَّةِ ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ
أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا ، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَقِيمُوا فَاقِيمُوا ، فَإِنَّهُ لَا يُقَدِّمُ وَلَا يُحْجِمُ ،
وَلَا يُؤَخِّرُ وَلَا يُقَدِّمُ ، إِلَّا عَنْ أَمْرِي . وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ
وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ .

أقول : السراق : البيت من القطن . والنكول : الرجوع . والظبة
بالتخفيف : حد السيف ، ونبا السيف : إذا لم يقطع لضريبه . والإحجام :
التأخر . وفلان شديد الشكيمة . إذا كان ألباً قوي النفس . وأصل الشكيمة :
الحديدة المعترضة في فم الفرس .

وفي الكتاب مقاصد :

الأول : قوله : من عبدالله . إلى قوله : يتناهى عنه . صورة عنوانه ،
ووصف أهل مصر بالغضب لله استجلاباً لطباعهم . وإشارة إلى إنكارهم
للأحداث التي نسبت إلى عثمان ومسيرهم لذلك إلى المدينة غضباً لحدود
الله أن تعطل .

فإن قلت : فيلزم أن يكون عليه راضياً بقتل عثمان . إذ مدح قاتله
على المسير بقتله .

قلت : لا يلزم ذلك لجواز أن يكون مسيرهم إنما كان للنكير عليه دون
غرض قتله . فمدحهم على ذلك النكير لأنه جهة مدح ، وأما قاتلوه والذين
تسوروا عليه الدار - وكانوا قوماً قليلين - لعله لم يك فيهم من أهل مصر إلا
النادر ، وليس في كلامه عليه ما يقتضي مدح أولئك باعتبار كونهم قتلوه ،
واستعار لفظ السراق لما عم من الجور البر والفاجر ، والمقيم والمسافر
كالسراق الحوي لأهله ، وقابل بين المعروف والمنكر ولم يرد نفي المنكر
بل نفي صفة التناهي عنه .

الثاني : قوله : أما بعد . إلى قوله : أخو بني مذحج . صدر الكتاب : أعلمهم فيه ببعث الأشر اجمالاً ، ووصفه بأوصاف يستلزم رغبتهم فيه ، وكفى بكونه لا ينام أيام الخوف عن علو همته وتعلقها حين الخوف بتدبير الحرب والاستعداد للقاء العدو ، وبكونه لا ينكل عن الاعداء عن شجاعته وشدة بأسه . وأكد ذلك بوصف كونه أشد على الفجار من حريق النار ، وهو وصف صادق مع المبالغة فيه . إذ كان لقاءه للفجار يستلزم غلبة ظنونهم بالهلاك معه وعدم لسلامة ، ولا كذلك وجود الحريق لطمعهم في الفرار من النار وإطفائها .

ثم ذكره بعد تعديد أوصافه الحميدة وهو أبلغ لأن الغرض الأهم وصفه لا ذكره فقط . ومذحج بفتح الميم كمسجد : أبو قبيلة من اليمن ، وهو مذحج بن جابر بن مالك بن نهلان بن سبأ . والنخع : قبيلة من هذه القبيلة ، والأشر نخعي .

الثالث : أمرهم بالمقصود وهو السمع له والطاعة لأمره لا مطلقاً بل فيما يطابق الحق ويوافقه من الأوامر ، وأشار إلى حسن امتثال أمره بضمير صغراه قوله : فإنه سيف . إلى قوله : الضريبة . واستعار له لفظ السيف باعتبار كونه يصل به على العدو فيهلكه كالسيف ، ورشح بذكر لظبة ، وكفى بكونه غير كليها وغير نابي الضريبة عن كونه مضيئاً في الحوادث غير واقف فيها ولا راجع عنها ، والإضافة إلى الضريبة إضافة اسم الفاعل إلى المفعول : أي ولا ناب عن الضريبة ، وتقدير الكبرى : وكل من كاد كذلك فيجب أن يقدم ويمثل أمره فيما يشير به من الحرب وغيرها .

الرابع : أمرهم أن يكون نفارهم إلى الحرب ، وإحجامهم عنها على وفق أمره ، ونبه على ذلك بضمير صغراه قوله : فإنه . إلى قوله : أمرى . وكفى بذلك عن كونه لا يأمر في لحرب وغيرها بأمر إلا وهو في موضعه لأن أوامره عليه السلام كانت كذلك فمن كان على وفقها فأوامره أيضاً كذلك . ولم يرد عليه السلام أن كل ما يأمر به مالك في الأمور الكلية والجزئية فإنه من أمره عليه السلام بالتعيين والتفصيل بل أراد أنه قد علمه بقواعد كلية للسياسات

وتدابير المدن والحروب وأعدّه لذلك بحيث يمكنه أن يجتهد فيها ويستخرج جزئياتها .

الخامس : أعلمهم أنه قد أثرهم به على نفسه مع حاجته إليه في الرأي والتدبير في معرض الامتنان عليهم بذلك ليشكروه ، وأشار إلى علة إثاره لهم به وهي كونه ناصحاً لهم قوي النفس شديد الوطأة على عدوهم . وكنى بشدة الشكيمة عن ذلك فأما مصلحته عليه السلام في ذلك الإيثار فهو استقامة الأمر له بصلاح حالهم . وبالله التوفيق .

٣٩ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى عمرو بن العاص

فإنك قد جعلت دينك تبعاً لدنياً آمريء ظاهر غيّه ، مهتوك ستره ، يشين الكريم بمجلسه ، ويسفه الحليم بخلطه ، فاتبع أثره ، وطلبت فضله أتباع الكلب لضرغام : يلوذ إلى مخالبه ، وينتظر ما يلقي إليه من فضل فريسته . فأذهبت دنياك وأخرتك ، ولو بالحق أخذت ، أدركت ما طلبت ، فإن يمكنني الله منك ومن ابن أبي سفيان أجركما بما قدمتما ، وإن تعجزاني وتبقياً فما أمامكما شر لكما والسلام .

أقول : قد ذكر هذا الكتاب برواية تزيد على هذه ، وأوله : من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى الأبر بن الأبر عمرو بن العاص شانيء محمد وآل محمد في الجاهلية والإسلام . سلام علي من اتبع الهدى . أما بعد فإنك تركت مروتك لامريء فاسق مهتوك ستره يشين الكريم بمجلسه ويسفه الحليم بخلطه . فصار قلبك لقلبه تبعاً كما وافق شئ طبعه . فسلبك دينك وأمانتك ودنياك وأخرتك ، وكان علم الله بالغاً فيك . فصرت كالذئب يتبع الضرغام إذا ما الليل دجى يلتمس أن يداوسه . وكيف تنجو من القدر ولو بالحق طلبت أدركت ما رجوت ، وقد يرشد من كان قائده . فإن يمكنني الله منك ومن ابن أكلة الأكباد الحقكما بمن قتله الله من ظلمة قريش علي عهد رسول الله عليه وآله وسلم وإن تعجزا أو تبقياً بعدي فالله حسبكم وكفى بانتقامه انتقاماً وبعقابه عقاباً .

ومدار الكتاب على توبيخ عمرو بمتابعته لمعاوية في باطله وتنفيذه عما هو عليه ووعيده لهما على ذلك . ومعنى جعله دينه تبعاً لدنيا معاوية أنه يصرفه في مرضاته بحسب ما يتصور حصوله عليه من دنياه كما أشرنا إليه قبل من بيعه دينه في المظاهرة على حربه عليه السلام بطعمة مصر . ثم ذم معاوية بأوصاف أربعة لغاية التنفير عنه :

أحدها : كونه ظاهراً غيّه ، وضلال معاوية عن طريق الله أوضح من أن يوضح .

الثاني : كونه مهتوكاً ستره ، ومن المشهور عنه أنه كان هاتكاً لستر دين الله عنه فإنه كان كثير الخلاعة به والهزل صاحب سمار وجلساء لهو ومتاع وشرب وسماع ، وقد كان يتستر بذلك في زمان عمر خوفاً منه إلا أنه كان يلبس الحرير والديباج ويشرب في آنية الذهب والفضة ، وأما في أيام عثمان فكان شديد التهتك ، وإنما قارب الوقار حيث خرج على علي عليه السلام لحاجته إلى استغواء الناس بظاهر الدين .

الثالث : يشين الكريم بمجلسه ، وذاك أن الكريم هو الذي يضبط نفسه وينزهها عما يشين العرض من الرذائل ، وقد كان مجلس معاوية مشحوناً ببني أمية ورذائلهم ، ومجالسة الكريم لهم تستلزم نسبته إليهم ولحاقه بهم ، وذلك مشين لعرضه ومقبح لذكره .

الرابع : كونه يسفه الحليم بخلطته ، وذلك أنه كان دأبه هو وبنو أمية شتم بني هاشم وقذفهم والتعرض بذكر الإسلام والطعن عليه ، وإن أظهروا الانتماء إليه ، وذلك مما يستفز الحليم ويسفه رأيه في الثبات عند مخالطتهم وسماعه منهم ، وكنتى باتباعه لأثره عن متابعته له فيما يفعله ، وأشار بقوله : وطلبت فضله إلى غرض اتباعه ، وشبه اتباعه له باتباع الكلب الأسد تحقيراً له وتنفيراً ، ونبهه على وجه الشبه بقوله : يلود . إلى قوله : فريسته ، وأراد أن اتباعه له على وجه الذلة والحقارة ودناءة الهمة للطمع فيما يعطيه من فضل ماله وانتظار ذلك منه كاتباع الكلب للأسد ، وفي مثل هذا التشبيه بلاغ لعمره في التنفير لو كان له كرم . ثم نبهه

على لازم اتباعه له بقوله : فأذهب دنياك وآخرتك ، وأراد بدنياه ما كان يعيش به من الرزق والعطاء الحلال على وجه يلتذ به في طيب نفس وأمن من الحروب التي لقيها بصفين والأهوال التي باشرها في موافقته لمعاوية ، وتلك هي الدنيا الحققة . إذ الدنيا إنما يراد للذة بها والاستمتاع ، وذلك مما لم يحصل عليه عمرو . وأما ذهاب آخرته فظاهر .

وقوله : ولو بالحق أخذت . إلى قوله : طلبت .

جذب له إلى لزوم الحق وترغيب فيه بذكر لازمه ، وهو إدراك ما طلب من دنيا وآخرة ، وظاهر أنه لو لزم الحق لوصل إلى دنيا كاملة وآخرة بالمعالي كافلة .

وقوله : فإن يمكنني الله . إلى آخره .

وعيد بعذاب واقع على تقدير كل واحد من النقيضين وذلك العذاب إما بواسطته في الدنيا بتقدير تمكين الله منهما وهو جزاؤه لهما بما قدما من معصية الله ، وإما من الله في الآخرة على تقدير أن يعجزاه ويبقيا بعده وهو عذاب النار . ونبه عليه بقوله : فما أمامكما شر لكما لقوله تعالى : ﴿ وللعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ واستعار لفظ الأمام للآخرة باعتبار استقبال النفوس لها وتوجهها نحوها . وبالله التوفيق .

٤٠ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى بعض عماله

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكَتُكَ فِي أَمَانَتِي ، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبِطَانَتِي ، وَلَمْ يَكُنْ فِي أَهْلِي رَجُلٌ أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي ، لِمُؤَاسَاتِي وَمُوَازَرَتِي ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ ، فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلَبَ ، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرَبَ ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزَيْتَ ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ قَدْ فَتَكَتْ وَشَعَرَتْ ، قَلْبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهَرَ الْمَجَنِّ ، فَفَرَّقْتَهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ ، وَخُتِنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ ، فَلَا آتَانَ عَمَّكَ آسَيْتَ ، وَلَا الْأَمَانَةَ أَدَيْتَ ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ اللَّهُ تَرِيدُ بِجَهَادِكَ ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّكَ ، وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ

هَذِهِ الْأُمَّةُ عَنْ دُنْيَاهُمْ ، وَتَتَوَيَّ غِرَّتَهُمْ عَنْ فَيْتِهِمْ ، فَلَمَّا أُمَكَّتِكَ الشَّدَّةُ فِي خِيَانَةِ الْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكُرَّةَ ، وَعَاجَلْتَ الْوُثْبَةَ ، وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْمَصُونَةَ لِأَرْبَابِهِمْ وَأَيْتَامِهِمْ ، اخْتِطَافَ الذَّنْبِ الْأَزْلَ دَامِيَةِ الْمِعْزَى الْكَسِيرَةِ ، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَجِيبَ الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ ، غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ كَأَنَّكَ - لَا أَبَا لِعَيْبِكَ - حَدَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ تَرَانِكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ . فَسُبْحَانَ اللَّهِ ! أَمَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ أَوْ مَا تَخَافُ بِقَاشِ الْحِسَابِ ؟ أَيُّهَا الْمَعْدُودُ - كَانَ عِنْدَنَا - مِنْ ذَوِي الْأَلْبَابِ كَيْفَ تُسَبِّغُ شَرَابًا وَطَعَامًا وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَامًا وَتَشْرَبُ حَرَامًا ؟ وَتُبْتَاعُ الْإِمَاءَ وَتُنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ مَالِ الْيَتَامَى ، وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ ، وَأَحْرَزَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلَادَ ، فَاتَّقِ اللَّهَ وَارْجِعْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أُمَكَّنِي اللَّهُ مِنْكَ لِأَعْدِرُنِي إِلَى اللَّهِ فِيكَ ، وَلَا ضَرْبَنكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَدًا إِلَّا دَخَلَ النَّارَ .

والله لو أن الحسن والحسين فعلاً مثل الذي فعلت ، ما كانت لهما عندي هَوَادَةٌ ، وَلَا ظَفِيرًا مِنِّي بِإِرَادَةٍ ، حَتَّى أَخْذَ الْحَقُّ مِنْهُمَا ، وَأُزِيحَ الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتِهِمَا ، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَا أَخَذْتُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي أَتْرُكُهُ مِيرَاثًا لِمَنْ بَعْدِي ، فَضَحَّ رُؤُودًا فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ لَمَدَى ، وَدُفِنْتَ تَحْتَ الثَّرَى ، وَغُرِضْتَ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ فِيهِ بِالْحَسْرَةِ ، وَتَتَمَنَّى الْمَضِيعَ لِرَجْعَةٍ ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ .

أقول : المشهور أن هذا الكتاب إلى عبد الله بن عباس حين كان والياً له على البصرة ، وألفاظ الكتاب تنبه على ذلك كقوله : قلبت لابن عمك ظهر المجن وقوله : فلا ابن عمك آسيت ، وكذلك ما روي أن ابن عباس كتب إليه جواباً عن هذا الكتاب : أما بعد فقد أتاني كتابك تعظم فيه ما أصبت من بيت مال البصرة ، ولعمري إن حقي في بيت المال لأكثر مما أخذت والسلام . فكتب عليه جواب ذلك : أما بعد فإن من العجب أن تزين لك نفسك أن لك في بيت المال من الحق أكثر ما لرجل من المسلمين فقد

أفلحت إن كان تمنّيك الباطل وأدّعاك ما لا يكون تنجيك من المأثم وتحل لك المحارم . لأنّ المهدي السعيد إذن . وقد بلغني أنك اتّخذت مكة وطناً . وضربت بها عطناً تشتري بها مولدات مكة والمدينة والطائف تختارهنّ على عينك وتعطي فيهن مال غيرك فارجع هداك الله إلى رشدك وتب إلى الله ربك ، واخرج إلى المسلمين من أموالهم فعما قليل تفارق من ألفت ، وتترك ما جمعت وتغيب في صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد قد فارقت الأحباب وسكنت التراب وواجهت غنياً عما خلقت وفقيراً إلى ما قدمت . والسلام .

وأنكر قوم ذلك وقالوا : إن عبد الله بن عباس لم يفارق علياً عليه السلام ولا يجوز أن يقول في حقه ما قال . قال القطب الرواندي - رحمه الله - إذاً يكون المكتوب إليه هو عبيد الله . وحمله على ذلك أشبه وهو به أليق .
واعلم أن هذين القولين لا مستند لهما :

أما الأول : فهو مجرد استبعاد أن يفعل ابن عباس ما نسب إليه ، ومعلوم أن ابن عباس لم يكن معصوماً وعلي عليه السلام لم يكن ليراقب في الحق أحداً ولو كان أعزّ أولاده كما تمثل بالحسن والحسين عليه السلام في ذلك فكيف بابن عمه بل يجب أن تكون الغلظة على الأقرباء في هذا الأمر أشد ثم إن غلظته عليه وعتابه له لا يوجب مفارقتة إياه لأنه عليه السلام كان إذا فعل أحد من أصحابه ما يستحق به المؤاخذه أخذه به سواء كان عزيزاً أو ذليلاً قريباً منه أو بعيداً فإذا استوفى حق الله منه أو تاب إليه مما فعل عاد في حقه إلى ما كان عليه كما قال : العزيز عندي ذليل حتى آخذ الحق منه ، والذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له . فلا يلزم إذن من غلظته على ابن عباس ومقابلته إياه بما يكره مفارقتة له وشقاقه على ما بينهما من المحبة الوكيدة والقربة .

وأما القول الثاني : فإن عبيد الله كان عاملاً له عليه السلام باليمن ولم ينقل عنه مثل ذلك . ولنرجع إلى المتن فنقول :

الشعار : ما يبني الجسد من الثياب . وبطانة الرجل : خاصته . وكلب الزمان : شدته . وحرب العدو : اشتد غضبه . والفتك : القتل على غرة .

وشغرت : تفرقت . والمجنّ : الترس . والأزل : خفيف الوركين .
والهواة : المصالحة والمصانعة . وضع رويداً : كلمة يقال لمن يؤمر
بالتؤدة ، وأصله الرجل يطعم إبله ضحى ويسيرها مسرعاً للسير فلا يشبعها .
فيقال له : ضح رويداً . والمناص : المهرب والمخلص . والنوص : الهرب
والتخلص .

وفي هذا الكتاب مقاصد :

المقصود الأول : إنه ذكر بإحسانه إليه في معرض الامتنان عليه من وجوه :

الأول : إشراكه إياه في أمانته التي ائتمنه الله عليها ، وهي ولاية أمر
الرعية والقيام بإصلاح أمورهم في معاشهم ومعددهم .

الثاني : جعله من خاصته وملازميه ، واستعار له بذلك الاعتبار لفظ
الشعار لمباشرة وملازمته الجسد .

الثالث : كونه أوثق أهل في نفسه وأدناهم منه لموساته وموازرتة ،
وأداء الأمانة إليه .

المقصود الثاني : أنه بعد تذكيره بإحسانه إليه ذكر مقابله بذلك
بالإساءة إليه في مفارقتة إياه وحذلانه وخيانتة لما تحت يده من الأمانة عند
رؤيته شدة الزمان عليه ، وقيام العدو في وجهه وتفرق كلمة الإمامة عن الحق
لتبين أنه قابل إحسانه بالكفران ليحسن ذمه على ذلك وتوبيخه فيذمه
ويؤيخه ، وأراد مفارقتة له في الطريقة ولزوم حد الأمانة .

وقوله : قلبت لابن عمك ظهر المجن .

يضرب مثلاً لمن يكون مع أخيه فيتغير عليه ويصير خصماً له ، وأصله
أن الرجل إذا كان مسلماً لأخيه يكون بطن ترسه إليه فإذا فارقه وصار حرباً له
يقلب له ظهر ترسه ليدفع به عن نفسه ما يلقاه من شره . فجعل ذلك كناية
عن العداوة بعد الصداقة . وضرب مثلاً لمن فعل ذلك .

المقصود الثالث : الأخذ في تعنيفه وتوبيخه . وحكاية حاله في خيانتة
في معرض التوبيخ . وذلك قوله : فلا ابن عمك . إلى قوله : هذه البلاد .

وشبهه بمن لم يرد الله بجهاذه بل الدنيا ، وبمن لم يكن على بينة من ربه بل هو جاهل به وبوعده ووعيده . ووجه الشبه مشاركته لطالبي غير الله والجاهلين به في طلب غيره والإعراض عنه ، وكذلك شبهه بمن لم يكن له غرض من عبادته إلا خدعة المسلمين عن دنياهم ، وأشار إلى وجه الشبه بقوله : فلما أمكنتك الشدة . إلى قوله : الكبيرة ، أي فكما أن غرض الذي يكيد غيره عن شيء أن يترصد الفرصة في أخذه وينتهزها إذا وجدها فكذلك أنت في إسراعك بالوثوب على الخيانة وشبه اختطافه لما أخذه من المال باختطاف الذئب الأزل دامية المعزى الكسيرة ، ووجه الشبه سرعة أخذه له وخفته له في ذلك ، وخصّ الذئب الأزل لأن خفة الوركين يعينه على سرعة الوثبة والاختطف ، ودامية المعزى الكسيرة لأنها أمكن للاختطف لعدم الممانعة . ثم أخبر في معرض التوبيخ أنه حمّله إلى وطنه بمكة ، وكفى بكونه رحيب الصدر به إما عن سروره وفرحه به أو عن كثرة ما حمل منه . لأن من العادة إذا أراد الإنسان حمل شيء في صدره وباعه حوى منه ما أمكنه حمّله . ونصب رحيب وغير على الحال ، وإضافة رحيب في تقدير الانفصال . ثم شبهه في معرض التوبيخ والتفريع في حمّله بمن حمل تراثه إلى أهله من والديه ، واستفهم على سبيل التعجب من حاله والإنكار عليه على أمرين :

أحدهما : عن إيمانه بالمعاد وخوفه من مناقشة الله في الحساب تذكيراً له ، ونبهه على أنه كان معدوداً في نظره من ذوي العقول . وأدخله في حيز كان تنبيهاً له على أنه لم يبق عنده كذلك .

الثاني : عن كيفية إساغته للشراب والطعام مع علمه أن ما يأكله ويشربه وينكح به من هذا المال حرام لكونه مال المسلمين اليتامى منهم والمساكين والمجاهدين أفاء الله عليهم ليحرز به عبادته وبلاده استفهام إنكار وتفريع بذكر معصية الله .

المقصود الرابع : أمره بعد التوبيخ الطويل بتقوى الله وردّ أموال المسلمين عليهم ، وتوعده إن لم يفعل ثم أمكن الله منه أن يعذر إلى الله فيه : أي يبلغ إليه بالعذر فيه وبقتله ، وذكر الضرب بالسيف الموصوف بالصفة المذكورة أغلظ في الوعيد وأبلغ في الزجر .

المقصود الخامس : أقسم أن ولديه على قربهما منه وكرامتهما عليه لو فعلا كفعله من الخيانة لم يراقبهما في ذلك حتى يأخذ الحق منهما ويزيح الباطل عن مظلمتهما من مال أو غيره ، ومراده أن غيرهم بطريق أولى في عدم المراقبة له . ثم أقسم القسم البر أنه ما يسره أن يكون ما أخذه ابن عباس من أموال المسلمين حلالاً له يخلفه ميراثاً لمن بعده لما علمت أن جمع المال وأدخاره سبب العذاب في الآخرة كما قال تعالى : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ﴾ ^(١) الآية ، وقسمه الأول كالعذر له في شدة إنكاره عليه . والثاني : لتحقير ما أخذه ، وبيان أنه لو كان أخذه على وجه حلال فلا يصلح للفتنة فكيف به وهو حرام ، وذلك ليتركه ويخرج عنه إلى أهله .

السادس : أمره بالإمهال على سبيل التهديد بقرب الوصول إلى الغاية التي هي الموت والدفن وعرض أعماله عليه بالمحل الذي ينادي فيه الظالم بالحسرة ويتمنى فيه مضيعو أمر الله ، والعمل الصالح الرجعة إلى الدنيا حين لا مخلص لهم مما هم فيه . وذلك المحل هو عرصة القيامة . وذكر النداء بالحسرة حين لا رجعة ليتأكد التخويف والتهديد بتعداد الأمور المنفرة .

وأما قوله : ولات حين مناص شبهوا لات بليس وأضمروا فيها اسم الفاعل . ولا يستعمل لات إلا مع حين ، وقد جاءت حين مرفوعة بأنها اسم لات ، وقيل : إن التاء زائدة كهي في ثمت وربت . وقد مر ذلك قبل .

٤١ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى عمر ابن ابي سلمة المخزومي ، وكان عامله على البحرين ، فعزله ، واستعمل النعمان بن عجلان الزرقى مكانه :

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ النَّعْمَانَ بْنَ عَجْلَانَ الزُّرْقِيَّ عَلَى الْبَحْرَيْنِ ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ بِلَا ذَمٍّ [لَكَ] ، وَلَا تَشْرِيْبٍ عَلَيْكَ . فَلَقَدْ حَسَنْتَ الْوِلَايَةَ ، وَأَدَّيْتَ الْأَمَانَةَ ، فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ ، وَلَا مَلُومٍ ، وَلَا مُتَّهَمٍ ، وَلَا مَأْثُومٍ ، فَلَقَدْ أَرَدْتُ

الْمَسِيرَ إِلَى ظِلْمَةِ أَهْلِ الشَّامِ ، وَأَخْبَيْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِيَ ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهَرُ بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ ، وَإِقَامَةِ عُمُودِ الدِّينِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

أقول : عمر هذا ربيب رسول الله ﷺ وأمه أم سلمة وأبوه أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عمر بن مخزوم ، وأما النعمان بن عجلان فمن سادات الأنصار من بني زريق . والتشريب : التعنيف واستقصاء اللوم . والظنين : المتهم . واستظهرت بفلان : اتخذته ظهيراً .

ومدار الكتاب على إعلام عمر ابن أبي سلمة بانفاذ النعمان عوضاً منه . ثم إعلامه بأن ذلك لم يكن عن ذنب صدر منه يستحق به الذم والعزل ، وأنه شاكر له بكونه أحسن ولايته وأدى أمانته . ثم إعلامه بغرضه من عزله واستدعائه وهو الاستعانة به على عدوه كل ذلك ليطمئن قلبه ويفارق الولاية عن طيب نفس ، ونبهه على وجه رغبته في حضوره معه بقوله : فإنك . إلى آخره ، وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من أستظهر به على العدو وإقامة عمود الدين فواجب أن أرغب في حضوره ويشهد معي ، ولفظ العمود مستعار للأصول التي بحفظها وقيامها يقوم كالعمود للبيت : وبالله التوفيق .

٤٢ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني ، وهو عامله على (أردشير خره) :

بَلَّغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ ، إِنْ كُنْتَ فَعَعْتَهُ ، فَقَدْ اسْخَطْتَ إِلَهَكَ ، وَأَغَضَبْتَ إِمَامَكَ : إِنَّكَ تَقْسِمُ فِيءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَخَيُْولُهُمْ ، وَأَرِيقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ ، فَيَمْنِ اعْتِمَاكَ مِنْ أَغْرَابِ قَوْمِكَ ، فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسْمَةَ ، لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا ، لَتَجِدَنَّ بِكَ عَلَيَّ هَوَانًا ، وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدِي مِيزَانًا ، فَلَا تَسْتَهِنْ بِحَقِّ رَبِّكَ ، وَلَا تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَحْقِ دِينِكَ ؛ فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا .

أَلَا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قَبْلَكَ وَقَبْلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمَةِ هَذَا الْفَيِّءِ
سَوَاءٌ ، يَرُدُّونَ عِنْدِي عَلَيْهِ ، وَيَصْدُرُّونَ عَنْهُ .

أقول : اعتمامك : اختارك من بين الناس ، وقد أعلمه بما بلغه من
الأمر الصادر عنه إجمالاً ليتنبه له ، وأشعره أنه أمر مكروه بما يلزمه وهو سخط
إلهه وغضب إمامه ، ونبه بقوله : إن كنت فعلته . على عدم تحقيقه لذلك .
ثم بين له ذلك وهو عطاؤه مال المسلمين لمن اختاره رئيساً من أعراب قومه .
ووصف ذلك الفَيِّء بكونه حيازة رماحهم وخيولهم ، وعليه أريقت دماؤهم
ليتأكد في النفوس ويتبين وجه استحقاقهم له . وبقدر ذلك يتأكد قبح قسمته
في غيرهم . ثم أقسم قسمه المعتاد في معرض لوعيد إن كان ذلك منه حقاً أن
يلحقه به هوان وحقارة عنده ويخف وزنه في اعتباره ، وكفى به عن صغر
منزلته . وميزاناً نصب على التمييز . ثم نهاه عن استهاته بحق ربه ، وعن
إصلاح دنياه بفساد دينه تنبيهاً على عظمة الله ووجوب المحافظة على طاعته ،
ونبهه على ما يلزم من ذلك من دخوله في زمرة الأخسرين أعمالاً الذين ضل
سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

ثم نبهه على قبح ما فعل من تخصيص قومه بذلك لمال بقوله : ألا
وإن . إلى قوله : سواء ، وهو في قوة صغرى ضمير ، وقوله : يردون إليه
ويصدرون عنه تأكيد لتساويهم في الاستحقاق وأنه لهم كالشريعة لمشاركة ،
وتقدير كبراه : وكل حق سوء بين المسلمين فلا يجوز تخصيص بعضهم به .
وقد ذكرنا حال مصقلة من قبل . وبالله التوفيق .

٤٣ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى زياد ابن أبيه . وقد بلغه ان معاوية كتب اليه ، يريد خديعته
باستلحاقه :

وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَزِلُّ لُبَّكَ ، وَيَسْتَفِلُّ غَرْبَكَ ،
فَاخْذَرُهُ ، فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ يَأْتِي الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ، وَعَنْ يَمِينِهِ
وَعَنْ شِمَالِهِ ، لِيَقْتَحِمَ غَفْلَتَهُ ، وَيَسْتَلْبِ غَرَّتَهُ .

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلْتَةً مِنْ حَدِيثِ
النَّفْسِ ، وَنَزْعَةً مِنْ نَزَعَاتِ الشَّيْطَانِ ، لَا يَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ ، وَلَا يُسْتَحَقُّ بِهَا
إِرْثٌ ، وَالْمُتَعَلِّقُ بِهَا كَالْوَاغِلِ الْمُدْفَعِ ، وَالنُّوْطِ الْمُدْبَذِّ .

(فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادُ الْكِتَابِ قَالَ : « شَهِدَ بِهَا وَرَبُّ الْكَعْبَةِ » ، وَلَمْ تَزَلْ فِي
نَفْسِهِ حَتَّى أَدْعَاهُ مُعَاوِيَةُ) .

قَالَ الرُّضِي : قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « الْوَاغِلُ » : هُوَ الَّذِي يَهْجُمُ عَلَى
الشَّرْبِ لِيَشْرَبَ مَعَهُمْ ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ . فَلَا يَزَالُ مُدْفَعًا مُحَاجَزًا . « وَالنُّوْطُ
الْمُدْبَذِّ » : هُوَ مَا يُنَاطُ بِرَحْلِ الرَّكِبِ مِنْ قَعْبٍ ، أَوْ قَدَحٍ ، أَوْ مَا أَشْبَهَ
ذَلِكَ ، فَهُوَ أَبَدًا يَتَقَلَّقُ إِذَا حَثَّ ظَهْرُهُ ، وَاسْتَعْجَلَ سَيْرُهُ) .

أقول : زياد هذا هو دعي أبي سفيان ، ويقال : زياد بن عبيد . فمن
الناس من يقول عبيد ابن فلان الثقفي . والأكثرون على أنه كان عبداً وأنه بقي
إلى أيام زياد فابتناعه وأعتقه ، وأم ادعاء أبي سفيان له فروي أنه تكلم يوماً
بحضرة عمر فأعجب الحاضرين كلامه فقال عمرو بن العاص : لله أبوه لو كان
قرشياً لساق العرب بعصاه . فقال أبو سفيان : أما والله إنه لقرشي ولو عرفته
لعرفت أنه من خير أهلك . فقال : ومن أبوه ؟ فقال : أنا والله وضعت في
رحم أمه . قال : فهلا تستلحقه . قال : أخاف هذا العير الجالس أن يخرق
على إهابي يعني عمر ، ولما ولي علي عليه السلام الخلافة ولي زياداً فارس فضبطها
ضبطاً صالحاً وحمها . فكتب إليه معاوية يخدعه باستلحاقه أخاً له : من أمير
المؤمنين معاوية ابن أبي سفيان أما بعد فإن المرء ربما طرحه الهوى في مطارح
العطب ، وإنك للمرء المضروب به المثل قاطع الرحم وواصل العدو ،
حملك سوء ظنك بي وبغضك لي على أن عقلت قرابتي وقطعت رحمي ،
وثبت نسبي وحرمتي كأنك لست أخي وليس صخر بن حرب أباك وأبي ،
وسيان بيني وبينك أطلب بدم أبي العاص وأنت تقاتلني ، ولكن أدركك عرق
الرخاوة من قبل النسوة فكنت كتاركة يبيضها بالعرء وملحقة بيض أخرى
جناحاً ، وقد رأيت أن أعطف عليك ولا أوأخذ بسوء سعيك وأن أصل رحمك
وأتبغني الثواب في أمرك . واعلم أبا المغيرة أنك لو خضت البحر في طاعة

القوم تضرب بالسيف حتى ينقطع متنه لما ازددت منهم إلا بعداً فإن بني عبد شمس أبغض إلى بني هاشم من الشفرة إلى الثور الصريع وقد أوثق للذبح . فارجع رحمك الله إلى أصلك واتصل بقومك ولا تكن كالموصول يطير بريش غيره فقد أصبحت ضال النسب . ولعمري ما فعل ذلك بك إلا اللجاج فدعه عنه فقد أصبحت على بينة من أمرك ووضوح من حجتك فإن أحببت جانبي ووثقت بي فأمر بأمرى وإن كرهت جانبي ولم تثق بقولي ففعل جميل لا علي ولا لي . والسلام .

وحمل الكتاب مع المغيرة بن شعبة إليه ، وكان ذلك سبب فساد علي الحسن بعد علي عليه السلام ونضيفه إلى معاوية . ولما بلغ علياً عليه السلام ذلك كتب إليه : أما بعد فإني وليتك م وليتك وأنا أراك لذلك أهلاً ، وقد عرفت أن معاوية . إلى آخر الكتاب . ولنرجع إلى المتن فنقول :

غرب السيف : حذره . والاستفلال : طلب الفل وهو ثلم الحد .
ومدار الكتاب على إعلامه بما علمه من كتاب معاوية اليه ثم تنبيهه على قصده من ذلك الكتاب ، وهو أن يستزل عقله ويستغفله عما هو عليه من الرأي الصحيح في نصره الحق وولائه له عليه السلام ويكسر حدته في ذلك ، واستعار لفظ الغرب لعقله ورأيه ، ولفظ الاستفلال لطلب صرفه عن ذلك الرأي الصالح ملاحظة لشبهه بالسيف . ثم حذره عنه بقوله : فإنما هو الشيطان . باعتبار وسوسته وصدده عن الحق على وجه الشبه بقوله : يأتي الانسان . الى قوله : شماله . وهو كقوله تعالى : ﴿لَاتِيْنِهِمْ مِنْ بَيْنِ اَيْدِيهِمْ﴾ الى قوله : ﴿شِمَائِلِهِمْ﴾^(١) . أي أنه يأتي الانسان من كل جهة كما يأتي الشيطان ، وخصّ الجهات الأربع لأنها الجهات التي يعتاد الإتيان منها . وقال بعض المفسرين : من بين أيديهم يطمعهم في العفو ويغريهم بالعصيان ، ومن خلفهم يذكرهم خلفهم ويحسن لهم جمع المال وتركه لهم ، وعن أيمنهم

يحسن لهم الرئاسة والثناء ، وعن شمائلهم يحبب إليهم اللهو واللذات . وعن شقيق قال : ما من صباح إلا ويقعد إليّ الشيطان على أربعة مراصد من بين يدي فيقول : لا تخف إن الله غفور رحيم . فاقراً إني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى .

وأما من خلفي فيخوفني الضيعة على من خلفي فأقرأ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، وأما من قبل يميني فيأتيني من جهة الثناء فأقرأ : والعاقبة للمتقين ، وأما من قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات . فأقرأ : وحيل بينهم وبين ما يشتهون . ثم نبهه على وجه فساد حيلة معاوية ، وذلك أن معاوية إنما أراد استغفاله باستلحاقه إياه أخاً فنبهه عليه ، على أن ذلك الاستلحاق إنما يتم بصحة استلحاق أبي سفيان له ابناً ولم تصح تلك الدعوى ، وإنما كان قوله : أنا كذا وكذا ، فلتة من حديث النفس وقع منه من غير ثبوت ولا روية ، وإقرار بالزنا في قوله : أنا وضعته في رحم أمه . وذلك نزغة من نزغات الشيطان ألقتها على لسانه فلا يثبت بها نسب ولا يستحق بها إرث لقوله عليه السلام : الولد للفراش وللعاهر الحجر . ثم شبه المتعلق في نسبه بهذه الفتنة والنزغة بالواغل المدفع ، ووجه الشبه كونه لا يزال مدفوعاً ، وبالنوط المذبذب ووجه الشبه اضطراب أمره وعدم لحوقه بنسب معين وعدم استقراره كما يضطرب النوط ولا يستقر . وبالله التوفيق .

٤٤ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ الْأَنْصَارِيِّ ، وَهُوَ عَامِلُهُ عَلَى الْبَصْرَةِ ، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ دُعِيَ إِلَى وَلِيمَةٍ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِهَا فَمَضَى إِلَيْهَا

أَمْ بَعْدُ : يَا أَبْنَ حُنَيْفٍ ! فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَذْبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا (١) تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوءٌ ، وَغَنِيَّتُهُمْ

(١) وفي بعض النسخ زيادة هي : وكررت عليك الجفان شريدها فأكرعت ثم عطفت على اللحم فأكلته أكل يتيم قرم ، ونهشت عظمه نهش ضبع هرم .

مَدْعُو ، فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضِيهِ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ ، فَمَا أَشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ
فَالْفِظَةُ ، وَمَا أَيقَنْتَ بِطِيبِ وَجْهِهِ فَقُلْ مِنْهُ .

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَامًا يَقْتَدِي بِهِ ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ ، أَلَا وَإِنَّ
إِمَامَكُمْ قَدْ أَكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطَمَرِيهِ . وَمِنْ طَعْمِهِ بِقُرْصِيهِ ، أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا
تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَكِنْ أَعْيُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ ، فَوَاللَّهِ مَا
كَتَرْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تَبَرًّا ، وَلَا أَدَخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفَرًّا ، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي
طَمَرًا . بَنَى ؛ كَانَتْ فِي أَيْدِيَا فَدَكٍ مِنْ كُلِّ مَا أَظْلَتُهُ السَّمَاءُ ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا
نُفُوسُ قَوْمٍ ، وَسَحَّتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ ، وَنِعَمَ الْحَكَمُ اللَّهُ ، وَمَا أَصْنَعُ
بِفَدَكٍ وَغَيْرِ فَدَكٍ وَلِنَفْسٍ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدْتُ ؟ تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا ،
وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا ، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا ، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا ،
لَأَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدْرُ ، وَسَدَّ فُرْجَهَا التُّرَابُ الْمُتْرَاكِمُ ، وَإِنَّمَا
هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِاتَّقْوَى ، لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْحَوْفِ الْأَكْبَرِ ، وَتَثْبُتَ
عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ ، وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَى هَذَا
الْعَسَلِ ، وَلُبِّبَ هَذَا الْقَمَحِ ، وَنَسَائِجَ هَذَا الْقَزِّ ، وَلَكِنْ هِيَ هَاتِ أَنْ يَغِيبَنِي
هَوَايَ ، وَيَقُودَنِي جَشْعِي إِلَى تَخِيرِ الْأَطْعِمَةِ ، وَلَعَلَّ بِالْحَجَزِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لَا
طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشَّعْبِ ، أَوْ أَبِيتَ مِبْطَانًا وَحَوْلِي بُطُونُ
غَرْنِي وَأَكْبَادُ خَرَى ! أَوْ أَكُونُ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَبِيتَ بِبَطْنَةٍ وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَجُنُّ إِلَى الْقِدِّ

أَفْتَنُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ : « أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ » ، وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ
الدَّهْرِ ؟ أَوْ أَكُونُ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ ، فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ
الطَّيِّبَاتِ ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ ، هَمُّهَا عِلْفُهَا ، أَوْ الْمُرْسَلَةِ ، شُغْلُهَا تَقْمُمُهَا ،
تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا ، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا ، أَوْ أَتَرَكَ سُدَى ، وَهَمُّنَ عَابِثًا ،
أَوْ أَجَرَّ حَبْلَ الضَّلَالَةِ ، أَوْ أَعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ ، وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ :

« إِذَا كَانَ هَذَا قُوتَ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ ، وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ » ؟ ! أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُودًا ، وَالرَّوَايِعَ الْخَضِرَةَ أَرْقُ جُلُودًا ، وَالنَّبَاتَاتِ الْبَدْوِيَّةَ أَقْوَى وَقُودًا ، وَأَبْطَأَ خُمُودًا ، وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ كَالصَّنُومِ مِنَ الصَّنُومِ ، وَالذَّرَاعِ مِنَ الْعُضْدِ ، وَاللَّهُ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا ، وَلَوْ أُمَكَّنْتَ الْفُرْصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا ، وَسَاجَهْتُ فِي أَنْ أَطْهَرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدْرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْخَصِيدِ .

إِلَيْكَ عَنِّي يَا دُنْيَا ! فَحَبْلُكَ عَلَى غَارِبِكَ ، قَدْ أُنْسَلْتُ مِنْ مَخَالِكَ ، وَأَقَلْتُ مِنْ حَبَائِلِكَ ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِصِكَ ، أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ غَرَرْتَهُمْ بِمَدَاعِيبِكَ ؟ أَيْنَ الْأَمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتَهُمْ بِزُخَارِفِكَ ؟ هَا هُمْ زَهَائِنُ الْقُبُورِ ، وَمَضَامِينُ اللَّحُودِ ، وَاللَّهُ لَوْ كُنْتُ شَخْصًا مَرِيئًا ، وَقَالَبًا حَسِيًّا ، لَأَقَمْتُ عَلَيْكَ حُدُودَ اللَّهِ فِي عِبَادِ غَرَرْتَهُمْ بِالْأَمَانِي ، وَأَمَمِ الْقَيِّتِهِمْ فِي الْمَهْوِيِّ ، وَمُلُوكِ أَسْلَمَتِهِمْ إِلَى التَّلَفِ ، وَأَوْرَدْتَهُمْ مَوَارِدَ الْبَلَاءِ ، إِذْ لَا وَرَدَ وَلَا صَدَرَ ، هَيْهَاتَ مَنْ وَطِئَ دَحْصِكَ زَلَقَ ، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكَ غَرِقَ . وَمَنْ أَزُورَ عَنْ حَبَائِلِكَ وَفَقَ ، وَالسَّالِمُ مِنْكَ لَا يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاحُهُ ، وَالْدُنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حَانَ أَنْسِلَاخُهُ .

أُعْزِبِي عَنِّي ؛ فَوَاللَّهِ لَا أَذِلُّ لَكَ فَتَسْتَدِلِّي ، وَلَا أَسْلُسُ لَكَ فَتَفُودِي ، وَأَيُّمُ اللَّهِ - يَمِينًا بَرَّةً أَسْتَشْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ - لَأَرْوِضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهْشُ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ ، إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُومًا ، وَتَقَنُّعُ بِالْمِلْحِ مَادُّومًا ، وَلَا دَعَرَ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ نَضَبَ مَعِينُهَا ، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا . أَتَمْتَلِي السَّائِمَةَ مِنْ رَعِيهَا فَتَبْرُكُ ؟ وَتَشْبَعُ الرُّبِيضَةُ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرْبِضُ ؟ وَيَأْكُلُ عَلَيَّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعُ ؟ ! قَرَّتْ إِذَا عَيْنُهُ ، إِذَا أَقْتَدَى بَعْدَ السَّنِينَ الْمُتَطَاوِلَةِ ، بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ ، وَالسَّائِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ .

طَوْبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرَضَهَا ، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا ؛ وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمْضَهَا ، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الْكَرَى عَلَيْهَا ، اقْتَرَشَتْ أَرْضَهَا ، وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا ؛ فِي مَعَشَرِ أَشْهَرِ عِيُونِهِمْ خَوْفٌ مَعْدِيهِمْ ، وَتَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ ، وَهَمَّهَمَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

فَاتَّقِ اللَّهَ يَا أَبْنَى حُنَيْفٍ ، وَلْتَكْفِكَ أَقْرَاصُكَ ، لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصُكَ .

أقول : المآدبة بالضم : الطعام يدعى إليه . والعائل : لفقير . والقضم : الأكل بأدنى الفم . والطمير : الثوب الخلق . والوفر : المال الكثير . وفدك : سم قرية كنت لرسول الله ﷺ . والحدث : القبر . وأضغطها : ضيقها . ولقمح : الحنطة . والنسائج : جمع نسجة بمعنى منسوجة . والجشع . أشد الحرص على الطعام . والمبطان : عظيم الطن لكثرة الأكل . وغرثى : جائعة . والبطنة : الكظة وهي لامتلاء من الطعام والتقمم : تتبع القممة وهي الكناسة . وتكترش : تملأ كرشها . والسدى : الملقى لمهمل . والروائع : الأشجار التي تروع ننضارتها . ولبدوية : النباتات التي لا يسقيها إلا ماء المطر . والمركوس : المردود مقلوباً كالمنكوس . والمداحض : المزلق ، وازور أخذ جانباً . واعزبي . ابعدى . يقال : عزب الرجل - بالفتح - : إذا بعد . وسلس الرجل يسلس بكسر اللام في المستقبل : سهل قيده . والرياضة : التأديب والتعويد . والريضة : الجماعة الرابضة من الغنم . وتجاافت : أي بانت وارتفعت . والهمهمة : الصوت الخفي .

وفي الكتاب مقاصد :

الأول : أشار إلى ما يريد عتابه عليه وهو اجابته إلى المآدبة مسرعاً يستطاب له الألوان وتنقل إليه الجفان ، وأعلمه أنه بلغه ذلك مقررأ له ليحسن توبيخه ، وذلك في قوله : أما بعد . إلى قوله : الجفان .

الثاني : أشار على وجه المعاتبة إلى تخطئته في ذلك بقوله : وما ظننت أنك إلى كذا : أي كان ظني فيك من الورع أنك تنزه نفسك عن الإجابة إلى طعم قوم لا يلتفتون إلى فقرائهم . ويقصرون الدعوة والكرامة على أغنيائهم وأمرائهم ، ووجه الخطأ في إجابة داعي هؤلاء أن تخصيصهم الأغنياء دون المقرء بالكرامة والدعوة دليل واضح على أنهم إنما يريدون بذلك الدنيا والسمعة والرثاء دون وجه الله تعالى ، ومن كان كذلك فإجابته موافقة له على ذلك ورضى بفعله . وذلك خطأ كبير خصوصاً من أمراء الدين المتمكنين من نكر المنكرات .

الثالث : أمره أن يحترز فيما يتفق له أن يقع فيه من ذلك بالنظر إلى ما يحضر من الطعام فما وجد فيه شبهة حرام ولم يحقق حاله فليتركه ، وما تيقن حله وطيب وجه اكتسابه ببراءة عن الشبهة فينال منه ، وكفى عنه بالمقضم تحقيراً له وتقليلاً ، ويفهم منه بحسب التأديب الأول أن التنزه عن هذا المباح أفضل له من تناوله .

الرابع : نبهه بعد ذلك بقوله : ألا وإن . إلى قوله : علمه . على أن له إماماً يجب أن يقتدي به ، وهو تمثيل في قوة قياس كامل حذفت صغراه . فأصل التمثيل مطلق الإمام والمأموم ، وعلمته كونهما إماماً ومأموماً ، وفرعه هو علمه وعامله ، وحكمه وجوب الاقتداء . وتقدير القياس : أنك مأموم لإمام ، وكل مأموم لإمام فيجب عليه أن يقتدي بإمامه ، ينتج أنه يجب عليك أن تقتدي بإمامك وتستضيء بنور علمه .

الخامس : أردف ذلك بالبيّنة على ما يجب أن يقتدي به فيه من حاله في دنياه وهو اكتفاؤه من ملبوسه بما يستر بدنه من طمريه : ومن مطعمها بما يسد به فورة جوعه من قرصيه غير ملتفت فيما لبسه إلى زينته فإن طمريه كانا عمامة ومدرعة قد استحيا من راقعها . ولا مكترث فيما طعمه بلذة وطيب فإن قرصيه كانا من شعير غير منخول واحد بالغداة وواحد بالعشي .

السادس : نبه أصحابه على أن رياضته تلك لا تستطيع لهم فإنها قوة مشروطة باستعداد لم يصلوا إليه . ثم أمرهم إذ كانت الحال كذلك أن يقصروا في معونته على أنفسهم ورياضته بالورع ، وأراد به هنا الكف عن المحارم ثم

بالاجتهاد في الطاعة، ويحتمل أن يريد بالورع لزوم الاعمال الجميلة. ثم الاجتهاد فيها.

السابع : نبه بالقسم البار على ردّ ما عساه يعرض لبعض الأذهان الفاسدة في حقه عليه السلام أن رهنه في الدنيا مشوب برياء وسمعة وأن وراءه محبتها وجمعها وادّخارها خصوصاً وهو إمام الوقت وخليفة الأرض فعّدّد أنواع ما أفاء الله على المسلمين منها ثم أقسم أنه لم يأخذ منه إلّا قوته . وشبهه في القلة والحقارة بقوت الأتان الدبرة ، وخصّها لأن ضعفها بالدبر وشغلها بألمه يقتل قوتها . ثم بالغ في وصف حقارة دنياهم عنده فأخبر أنها في نظره واعتباره أهون من عفصة مقرة ، وظاهر أن من كان كذلك كيف يتصور محبته للدنيا وعمله لها .

الثامن : أنه لما قال فيما أقسم عليه من الدي : ولا حزت من أرضه شبراً . استثنى من ذلك فذك بقوله : بى قد كانت لنا فذك من كل ما أظلمته لسماء . وذكرها في معرض حكاية حله وحال القوم معه على سبيل التشكي والتظلم ممن أخذها منهم إلى الله سبحانه وتسليم الأمر له والرضا بكونه حكماً .

واعلم أن فذك كنت خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنه لما فرغ من أمر خير قذف الله في قلوب أهل فذك الرعب فبعثوا اليه (ص) يصلحونه على النصف فقبل ذلك منهم فكانت له خاصة إذ لم يوحف عليها بخيل ولا ركاب ، وروي أنه صالحهم على كلها . ثم المشهور بين الشيعة والمتفق عليه عندهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاهما فاطمة عليها السلام ، ورووا ذلك من طرق مختلفة : منها عن أبي سعيد الخدري قال : لما أنزلت : ﴿ وآت ذي القربى حقه ﴾ أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة عليها السلام فذك فلما تولى أبو بكر الخلافة عزم على أخذها منها . فأرسلت اليه تطالبه بميراثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقول : إنه أعطاني فذك في حياته واستشهدت على ذلك علياً عليه السلام وام أيمن فشهدا لها به . فأجابها عن الميراث بخبر رواه هو : نحن معاشر الأنبياء لا نورث فما تركناه فهو صدقة ، وعن دعوى فذك أنها لم تكن للنبي صلى الله عليه وسلم . وإنما كانت مالاً

للمسلمين في يده يحمل به الرجال وينفقه في سبيل الله وأنا أليه كما كان يليه . فلما بلغها ذلك لاثت خمارها وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها تطأ في ذيولها حتى دخلت عليه ومعه جلّ المهاجرين والأنصار فضربت بينها وبينهم قطيفة . ثم أنت أنه أجهش لها القوم بالبكاء . ثم أمهلت طويلاً حتى سكتوا من فورتهم؟^(١) .

وقالت: أبتدىء بحمد من هو أولى بالحمد والطول والمجد الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم . ثم خطبت خطبة طويلة قالت في آخرها : فاتّقوا الله حقّ تقاته وأطيعوه فيما أمركم . فإنما يخشى الله من عباده العلماء ، واحمدوا الله الذي بعظّمته ونوره يبتغي من في السماوات ومن في الأرض إليه الوسيلة ، ونحن وسيلته في خلقه ، ونحن خاصته ومحلّ قدسه ، ونحن حجته في غيبه . ونحن ورثة انبيائه . ثم قالت أنا فاطمة بنت محمد . أقول : عوداً على بدء ما أقول ذلك شرفاً ولا شططاً فاسمعوا بأسماع واعية . ثم قالت : لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تعزوه تجدوه أبي دون آبائكم وأخا ابن عمي دون رجالكم . ثم قالت : ثم أنتم تزعمون أن لا إرث لأبي أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون أيها معشر الملة . أفي كتاب الله أن ترث يا ابن أبي قحافة أباك ولا أرث أبي ؟ لقد جئت شيئاً فريا فدونكها مخطومة مرحولة . تلقاك يوم حشرك فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعود القيامة ، وعند الساعة يخسر المبطلون ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون من يأتيه عذاب مقيم قال : ثم التفتت إلى قبر أبيها فتمثلت بقول هند بنت أمامة :

قد كان بعدك أنباء وهنبشة	لو كنت شاهداً لم تكثر الخطب
أبدت رجال لنا نجوى صدورهم	لما قضيت وحالت دونك الترب
تجهمت رجال واستخف بنا	إذ غبت عنا فنحن اليوم مغتصب

(١) وجدت هذه الخطبة عنها عليها السلام في ج ٥ من كتاب [المنظوم والمنثور في كلام نسوان العرب من الخطب والشعر] وكذا مؤلفه من متقدمي علماء العامة ، والكتاب عن خزنة المتوكل العباسي منه .

قال فلم ير الناس أكثر باكياً وباكية منهم يومئذ. ثم عدلت الى مسجد الأنصار ، وقالت : يا معشر الأنصار وأعضاء الملة وحضنة الإسلام ما هذه الفترة عن نصرتي ، والونية عن معونتي والغميزة في حقي والسنة عن ظلامتي ، أما قال رسول الله ﷺ : المرء يحفظ في ولده . سرعان ما أحدثتم . وعجلان ما آتيتم . لأن مات رسول الله ﷺ أتم دينه . ها إن موته لعمرى خطب جليل اسنوسع وهيه واستنهر فتقه ، وفقد راتقه ، وأظلمت الأرض له ، وخشعت الجبال ، وأكدت الآمال . أضيع بعده الحريم وهتكت الحرمه وأزيلت المصونة . وتلك نازلة أعلن بها كتب الله قبل موته وأنباكم بها قبل وفاته فقال : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين .

ايها بنى قيلة أأهضم تراث أبي وأنتم بمرأى ومسمع تبلغكم الدعوة وتشملكم الصوت ، وفيكم العدة والعدد ، ولكم الدار والحنن ، وأنتم نجبة الله التي انتحب . وخيرة الله التي اختار . فأديتم العرب ، وناطحتم الأمم ، وكافحتم اليهم حتى دارت بكم رحي لإسلام ، ودر حلبه وخبت نيران لحرب ، وسكنت فورة الشرك ، وهدأت دعوة الهرج ، واستوثق نظام الدين . أفأخترتم بعد الإقدام ، وجبتهم بعد الشجاعة عن قوم نكثوا أيمانهم من بعد ايمانهم وطعنوا في دينكم . فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون . ألا وقد رى أن قد أخلدتم الى خفض وركنتم إلى لدعة وجحدتم الدين ودسعتم الذي سوغتم . وإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله غني حميد . ألا وقد قت ما قلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم وخور القنا وضعف البقين فدونكموها فاحتقبوها مدبرة الظهور ناقبه الخف باقية العار موسومة الشنار موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على لأفئدة فبعين الله ما تعملون . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

ثم رجعت إلى بيتها وأقسمت أن لا تكلم أباً بكر ولتدعون الله عليه .

ولم تنزل كذلك حتى حضرته الوفاة فأوصت أن لا يصلي عليها فصلى عليها العباس ودفنت ليلاً، وروي انه لما سمع كلامها حمد الله واثنى عليه وصلى على رسوله، ثم قال: يا خيرة النساء وابنة خير الآباء والله ما عدوت رأي رسول الله ﷺ، ولا عملت إلا بأمره، وإن الرائد لا يكذب أهله قد قلت فأبلغت وأغلظت فأهجرت فغفر الله لنا ولك أما بعد فقد دفعت آلة رسول الله ﷺ ودابته وحذاه إلى علي عليه السلام، وأما ما سوى ذلك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنا معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضة ولا أرضاً ولا عقاراً ولا داراً ولكننا نورث الإيمان والحكمة والعلم والسنة، وقد عملت بما أمرني وسمعت. فقالت: إن رسول الله ﷺ قد وهبها لي.

قال: فمن يشهد بذلك. فجاء علي بن أبي طالب وأم أيمن فشهدا له بذلك فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا أن رسول الله ﷺ يقسمها. فقال أبو بكر: صدقت يا ابنة رسول الله وصدق علي وصدق أم أيمن وصدق عمر وصدق عبد الرحمن، وذلك أن لك ما لأبيك كان رسول الله ﷺ يأخذ من فذك قوتكم ويقسم الباقي ويحمل منه في سبيل الله، ولك علي الله أن أصنع بها كما كان يصنع. فرضيت بذلك وأخذت العهد عليه به.

وكان يأخذ غلتها فيدفع إليهم منها ما يكفيهم. ثم فعلت الخلفاء بعده كذلك إلى أن ولّى معاوية فأقطع مروان ثلثها بعد الحسن عليه السلام. ثم خلصت له في خلافته وتداولها أولاده إلى أن انتهت إلى عمر بن عبد العزيز فردّها في خلافته على أولاد فاطمة عليها السلام قالت الشيعة: فكانت أول ظلامه ردّها. وقالت السنة: بل استخلصها في ملكه ثم وهبها لهم. ثم أخذت منهم بعده إلى أن انقضت دولة بني أمية فردده عليهم أبو العباس السفاح. ثم قبضها المنصور. فردّها ابنه المهدي. ثم قضها ولداه موسى وهارون. فلم تنزل في أيدي بني العباس إلى زمن المأمون فردّها إليهم وبقيت إلى عهد المتوكل فأقطعها عبد الله بن عمر البازيار، وروي أنه كان فيها إحدى عشرة نخلة غرسها رسول الله ﷺ بيده فكان بنو فاطمة يهدون ثمرها إلى

الحاج فيصلونهم عن ذلك بمال جليل فبعث البازيار رجلاً فصرمها وعاد إلى البصرة ففلج ، وفي هذه القصة خبط كثير بين الشيعة ومخالفهم ، ولكل من الفريقين كلام طويل . ولنرجع إلى المتن .

فتقول : أشار بالنفوس التي شحت بها إلى أبي بكر وعمر وأتباعهما ، وبالنفوس التي سمحت بها إلى وجوه بني هاشم ومن مال ميلهم .

التاسع : استفهم عما يصنع بفدك وغيرها من القينات الدنيوية استفهام إنكار لوجه حاجته إليها تسلية لنفسه عنها وجذباً له عن الدنيا إلى الأعمال الصالحة بذكر غاية النفوس منها ، وهي صيرورتها إلى الجدد ، ولوازم تلك الغاية من انقطاع الآثار وعيبة الأخبار فيها وسائر ما عدده من صفات الجدد ، وإنما عدده هذه الأمور لأن الأوهام تنفر عنها وتخشع القلوب لذكرها . فتفرع إلى الله تعالى ويجذب إلى الأعمال الصالحة التي بها الخلاص من أهوال الموت وما بعده . والواو في قوله : والنفس . للحال .

العاشر : لما بيّنه على أن فدك وغيرها من قينات الدنيا لا حاجة إليها أشار إلى حصر حاجته وغايته لنفسه وهي رياضتها بالتقوى ، والضمير كهو في قوله فيما سبق : وإما هي لكوفة . والتقدير : وإنما هممتي وحاجتي رياضة نفسي بالتقوى . وعلم أن رياضة النفس تعود إلى نهيتها عن هواها وأمرها بطاعة مولايها وهي مأخوذة من رياضة البهيمة وهي منعها عن الإقدام على حركات غير صائحة لصاحبها ولا موافقة لمراده ، وتمرينها على ما يوافق مراده من الحركات ، والقوة الحيوانية التي هي مبدأ الإدراكات والأفاعيل الحيوانية في الإنسان . إذا لم يكن لها طاعة القوة العاقلة ملكة كانت بمنزلة بهيمة لم ترض فهي تتبع الشهوة تارة والغضب أخرى ، وغالب أحوالها أن تخرج في حركاتها عن العدل إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط بحسب الدواعي المختلفة المتخيلة والمتوهمة ويستخدم القوة العاقلة في تحصيل مراداتها فتكون هي مارة والعاقلة مؤتمرة لها .

أما إذا راضتها القوة لعاقلة ومنعتها عن التخيلات والتوهيمات والإحساسات والأفاعيل المثيرة للشهوة والغضب ومرونتها على ما يقتضيه العقل

العملي وأدبته على طاعته بحيث ياتمر بأمرها وينتهي لها كانت العقلية مطمئنة لا تفعل أفعالا مختلفة المبادئ وكانت باقي القوى مؤتمرة مسالمة لها . إذا عرفت ذلك فنقول : لما كان الغرض الأقصى من الرياضة إنما هو نيل الكمال الحقيقي ، وكان ذلك موقوفاً على الاستعداد له ، وكان حصول ذلك الاستعداد موقوفاً على زوال الموانع الخارجية والداخلية كان للرياضة أغراض ثلاثة :

أحدها : حذف كل محبوب ومرغوب عدا الحق الأول سبحانه عن درجة الاعتبار ومستن الإيثار . وهي الموانع الخارجية .

والثاني : تطويع النفس الأمانة للنفس المطمئنة ليجذب التخيّل والتوهم عن الجانب السفلي إلى العلوي ويتبعهما سائر القوى فتزول الدواعي الحيوانية المذكورة . وهي الموانع الداخلية .

الثالث : بعث السر وتوجيهه إلى الجنة العالية لتلقي السوانح الإلهية وتهيته لقبولها . ويعين على الغرض الأول الزهد الحقيقي وهو الإعراض عن متاع الدنيا وطيبتها بالقلب ، وعلى الثاني العبادة المشفوعة بالفكر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وعظمة الخلق سبحانه والأعمال الصالحة المسوية لوجهه خالصاً . وعبر ^{سنة} بالتقوى التي روض بها نفسه عن هذه الأمور المعينة والأسباب المعدة ، ونبه على غرضه الأقصى من الرياضة وهو الكمال الحقيقي واللذة به بذكر بعض لوازمه ، وهي أن تأتي نفسه آمنة من الفرع يوم الخوف الأكبر وهو يوم القيامة ، وأن يثبت على جوانب المزلق وهو الصراط المستقيم فلا تميل به الدواعي المختلفة عنه إلى أبواب جهنم ومهاوي الهلاك . واستعار لفظ المزالق : لمظان زلل أقدام العقول في الطريق إلى الله وجذب الميول الشهوية والغضبية عنها إلى الرذائل الموبقة .

العاشر : نبه على أن زهده في الدنيا واقتصاره منها على الطمرين والقرصين وترك ما سوى ذلك ليس عن عجزه عن تحصيل طيبات مطعموماتها وملبوساتها ، وأنه لو شاء لاهتدى إلى تحصيل تلك الطيبات ولباب القمح ومصفى العسل لأن الهريسة والعسل من أشهر الطيبات بمكة والحجاز . وإنما

تركه مع القدرة عليه رياضة لنفسه وإعداداً لها لتحصيل الكمالات الباقية .
واستثنى هنا نقيض الملزوم وهو عدم غلبة هواه لعقله وعدم قود جشعه له إلى
تخير الأطعمة ، ونبه عن ذلك بعدم بقوله : هيهات . فإن ما استبعد وقوعه
من نفسه وأنكره فقد نفاه عنها وحكم بعدمه .

وأما أن ذلك عدم هو نقيض الملزوم بعينه فلأن الملزوم هـ هو
المشيئة لتخير الطيبات وغلبة الهوى للعقل على مقتضى رأيه في تركها والتنزه
عنها وقود الشهوة له ، إلى الموافقة على استعمالها ، والمستثنى ههنا هو عدم
ذلك بعينه ، وأما جواز استثنائه لنقيض المقدم فلأن مشيئة تلك شرط مساوٍ
لتخير الطيبات والاهتداء إبيها ، وكان عدمه مستلزماً لعدم مشروطه وأكثر
استعمال لو في لغة العرب على وجه أن الملزوم علة للآزمه أو شرط مساو له ،
ويستثنى نقيض الملزوم . والواو في قوله : ولعل . للحال : أي هيهات أن
يغلبني هواي إلى تخير الأطعمة حال ما يحتمل أن يكون بالحجاز واليمامة من
هو بصفة كذا .

وقوله : أو أبيت .

عطف على يقودني داخل فيما استبعده من نفسه . والواو في قوله :
وحولي . للحال ، والعامل أبيت ، وكذلك قوله : أو أن أكون . عطف على
أبيت . وهما لازمان من لوازم نتيجة القياس الاستثنائي فإن عدم رادته لتخير
الطيبات لما استلزمه ها عدم تدولها وستمناعه بها استلزم ذلك أن لا يبيت
مبطناً وحوله أكباد جائعة وأن لا يلحقه عار بذلك . والبيت تمثيل . غرضه
التفكير عن العار اللازم عن الاستمناع بالطيبات مع وجود ذوي الحاجة إلى
يسير الطعام ، ونبه على حسن هذه اللوازم بما قارن نقائضها من الأحوال
المذكورة . والبيت لحاتم بن عبدالله لطائي من قطعة أولها :

أيا ابنة عبدالله وابنة مالك	ويا ابنة دي البردين والفرس النهدي
إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له	أكيلا فإنني لست آكله وحدي
قصيا بعيداً أو قريباً فإنني	أخاف إذا مت الأحاديث من بعدي
كفى بك عاراً أن تبيت بيطنة	وحولك أكباد تحن إلى القد

وإني لعبد الضيف ما دام نازلاً وما في لولا هذه شيمة العبد
ويروى حسبك داء . وأطلق عليه اسم الداء باعتبار أنه رذيلة تنفيراً
عنه ، وروي قوله : أو أبيت وقوله : أو أكون . مرفوعين ، والوجه فيه أن لا
يكون أو حرف عطف . بل تكون الهمزة للاستفهام . والواو بعدها متحركة
كلفاء في قوله : ﴿ أفأصفيكم ربكم بالبنين ﴾ ويكون استفهام إنكار لبيان
مبطناً ولكونه كم قال القائل ، وكذلك الاستفهام في قوله : أقنع من
نفسي . في معرض الإنكار لرضاء نفسه بأن يدعى أمير المؤمنين ولا يشاركهم
في مكاره الدهر وجشوبة المطعم . والواو في قوله : ولا للحال . وأو أكون
عطف على أشاركهم في حكم النفي .

الحادي عشر : نبه على بعض العلل الحاملة له على ترك الطيبات
والزهد في الدنيا . وهو كونه لم يخلق ليشغله أكل الطيبات عما يراد منه ،
وذلك في قوله : فما خلقت . إلى قوله : المتاهة . ونفر عن الاشتغال بأكل
الطيبات بذكر ما يلزم المشتغل بذلك من مشابهة البهيمة ، وأشار إلى وجه
الشبه بقوله : همّها علفها . إلى قوله : يراد بها . وذلك أن المشتغل بها إن
كان غنياً أشبه البهيمة المعلوفة في اهتمامه بما يعتلفه من طعامه الحاضر .
وإن كان فقيراً كان اهتمامه بما يكسبه ويقمّمه من حطام الدنيا ثم تعيفه ،
ويملاً كرشه مع غفلته عما يراد منه كالسائمة التي همّها الاكتراش لقممه من
الكناسات مع غفلته عما يؤول إليه حالها ويراد بها من ذبح واستخدام ،
واستعار لفظ الحبل وجره ، وكنى بذلك عن الإهمال والإرسال كما ترسل
البهيمة .

الثاني عشر : أشار إلى بعض ما عساه يعرض للأذهان الضعيفة من
الشبهة ، وهي اعتقاد ضعفه عن قتال الأقران بسبب ذلك القوت النزر ، وذلك
بقوله : وكأني . إلى قوله : الشجعان . ثم نبه على الجواب عن ذلك من
خمسة أوجه :

الأول : لتمثيل بالشجرة البرية ، وقياس نفسه عليها في القوة .
فالأصل هو الشجرة البرية ، والفرع هو النخلة ، والمشارك الجامع بينهما هو

قلة الغذاء وجشوبة المطعم كقلة غذاء الشجرة البرية وسوء رعيها ، والحكم عن ذلك هو صلابة أعضائه وقوته كصلابة عود الشجرة البرية وقوتها . ذلك دافع للشبهة المذكورة .

الثاني : تمثيل خصومه وأقرانه ك معاوية بلروائع الخضرة وهي الأصل في هذا التمثيل ، ولفرع هو خصومه وأقرانه ، والمشارك الجامع بينهما هو الخضرة والنضارة لحاصنة عن الترفه ولين المطعم ، والحكم اللازم عن ذلك هو رقة الجلود ولينها والضعف عن المقاومة وقلة الصبر على المنازلة والميل إلى الدعة والرفاهية ، والغرض أن يعلم كون أقرانه أضعف منه . فتندفع الشبهة .

الثالث : تمثيله بالنباتات العذبة وهو كتمثيله بالشجرة البرية والحكم هنا هو كونه أقوى على سعي نار الحرب وأصبر على وقدها وأبطأ فتوراً فيها وخموداً كنباتات العذبة في النار .

الرابع : تمثيله نفسه من رسول الله ﷺ بالصنوم من الصنوم . وأصل هذا التمثيل هو الصنوم من الصنوم وفرعه نسبة نفسه من رسول الله ﷺ وعلمته الجامعة هي كون علومه وكمالاته النفسانية المشرقة مستفادة ومقتبسة من مصباح علم النبوة، وكمالاتها كالمعلول من العلة والمصباح من الشعلة .

الخامس : تمثيله منه ﷺ بالذراع من العضد . والأصل فيه الذراع مع نسبه إلى العضد ، والفرع هو ﷺ منسوباً إلى رسول الله ﷺ ، والعلة الجامعة هي قربته منه وقوته به وكونه ظهيراً له ووسيلة إلى حصول مقصوده من تمام الدين وكماله ، وكون الرسول ﷺ أصلاً في ذلك كقرب الذراع من العضد ، وكون العضد أصلاً له ، وكون الذراع وسيلة إلى التصرف والبطش بالعضد ، والحكم في هذين التمثيلين واحد وهو كونه ﷺ لا يضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان ، ووجه لزوم هذا الحكم عن المشترك لأول أنه لما كانت علومه اليقينية وبصيرته في الدين ينسب بصيرة رسول الله ﷺ ذلك أعظم أمر يشجعه ويقويه على قتال الأقران حمية للدين ، وكذلك عن المشترك الثاني .

ثم لما أثبت ذلك الحكم ونفى عنه الضعف المتوهم فيه أكد ذلك بالقسم البار أنه لو تعاونت العرب على قتاله لما ولى عنها ، ولو أمكنت الفرصة من رقابها يسارع إليها : أي حين القتال واستحقاقهم للقتل بعداوتهم للدين وقبح العفو عنهم ملاحظة تشبهه برسول الله ﷺ في ذلك في مبدء الإسلام فإنه لم يكن ليضع العفو إلا في موضعه . وروي أنه قتل في يوم واحد ألف إنسان صبراً في مقام واحد لما رأى في ذلك من مصلحة الدين .

الثالث عشر : تواعد أن يجتهد في تطهير الأرض من هذا الشخص المعكوس والجسم المركوس ، وأراد معاوية ، وإنما قال : شخصاً وجسماً ترجيحاً لجانب لبدن على النفس باعتبار عنايته بكمال بدنه دون كمال نفسه فكأنه جسم وشخص فقط ، وأشار بكونه معكوساً ومركوساً إلى التفاته عن الجنبه العاليه وانتكاسه عن تلقي الكمالات الروحانية إلى الجنبه السافله وارتكاسه في الدنيا، وانعكاس وجه عقله إلى تحصيلها لذاتها والاعتناء بجمعها [بجمعها خ] فإن غرض العناية الإلهية من خلق الإنسان أن يترقى في مدارج الكمال بعد حفظ فطرته الأصلية عن الدنس برذائل الأخلاق فإذا جذبته دواعي الأمرة إلى الدنيا وغرته بحبها حتى التفت إليها لم يزل ينحط في دركات محبتها، وبحسب ذلك يكون انتكاسه عن مراتب الكمال وارتكاسه في الرذائل ومهاوي الضلال ، وتقيدته فيها بالسلاسل والأغلال .

وقوله : حتى تخرج المدره من بين حب الحصيد .

إشعار لفظ المدره لمعاوية وحب الحصيد للمؤمنين ، ووجه المشابهة أنه مخلص المؤمنين من وجود معاوية بينهم ليزكوا إيمانهم ويستقيم دينهم . إذ كان وجوده فيهم سبباً عظيماً لفساد عقائدهم ، وهلاك دينهم كما يفعل أهل البيادر من تصفية الغلال وإخراج ما يشوبها ويفسدها من المدر وغيره . وقال الشارح عبد الحميد ابن أبي الحديد . كما أن الزرع يجتهدون في إخراج المدر والحجر والشوك ونحوه من بين الزرع كيلا يفسد منابته فيفسد ثمرته . وفيه نظر لأنه لا معنى لإخراج الطين من الزرع ، ولأن لفظ حب الحصيد لا يفهم منه ذلك .

الرابع عشر : تمثل الدنيا بصورة من يعقل ، وخاطبها بخطاب العقلاء ليكون ذلك أوقع في النفوس لغرابته . ثم أمرها بالتنحي والبعد عنه كالمطلّق لها . وحبلّك على غاربك كناية عن الطلاق تمثيل . وأصله : أن الناقة إذا أريد إهمالها لترعى وضع حبلها على غاربها فضرب مثلاً لكل من أهمل وأطبق عن الحكم . ثم جعلها ذات مخالف استعارة بالكناية عن كونها كالأسد في جذبها للإنسان بما فيها من شهوات والقينات إلى الهلاك الأبدي . كما يجر الأسد فريسته ، وكذلك جعلها ذات حبال ؛ وكنتى بهذا الوصف المستعار عن كونها تصيد قلوب الرجال بشهواتها الوهمية فهي لها كحبال الصائد . واستعد لفظ مداحضها لشهواتها وملذاتها أيضاً باعتبار كونها مزلق أقدام العقول عن طريق الله ومصارع لها ، وعبر بجميع ذلك عن زهده فيها وإبعادها فيها عن نفسه .

ثم أخذ في سؤالها عن القوم الذين غرّتهم بمداعبها والأمم الذين فتنتهم برخارفها سؤالاً على سبيل التوبيخ لها والذم على فعلها ذلك بهم في معرض التنفير عنها ، وهو من قبيل تجاهل لعارف ، واستعار لها لفظ المداعب جمع مدعبة بمعنى دعابة ، ووجه المشابهة أنها عند صفاء لذاتها للخلق واغتررهم بها ثم كرّهم عليهم بعد ذلك بالأمر الجدي يشبه من يمزح مع غيره ، وينبسط معه بالأقوال والأفعال اللينة ليغترّ به ثم يأتيه بعد ذلك بالأمر الجدي فيؤذيه أو يهلكه . وإنما نسب الغرور إليها لكونها سبباً مادياً لذلك . وفي نسخة الرضي - رحمه الله - غرّرتهم بإثبات الياء ، ووجهه أنها حدثت من إشباع الكسرة

الخامس عشر : أشار إلى غايتهم التي صاروا إليها ، وهي كونهم رهائن القبور ومضامين اللحد ، ونبه في ذلك على أن غرورهم وفتنتهم بما لم يخلصهم من هذه الغاية كل ذلك لغرض التنفير عنها . وها للتنبيه ، واستعار لفظ الرهائن لهم باعتبار كونهم موثقين في القبور بأعمالهم كالرهن ، ويحتمل أن يكون حقيقة ، ويكون رهينة بمعنى راهنة وهي الأشخاص المقيمة بقبورها .

السادس عشر : أقسم أنها لو كانت شخصاً مرثياً وقالباً حسيماً لأقام عليها حدود الله في عباد غرتهم بالأمانى وأوردتهم موارد البلاء حيث لا ورد ولا صدر : أي أن تلك الموارد ليس من شأنها أن يكون إليها ورود وعنها صدر . ثم لما كان في هذا الخطاب كالمعلم لها أنه قد اطلع على خداعها ، وغرورها قال كالمؤيس لها من نفسه هيهات : أي بعد اغتراري بك وركوني إليك .

ثم نبه على بعض العلل الحاملة على البعد عنها والنفرة عن قربها وهي ما يلزم وطىء دحضها من الزلق ، وركوب لججها من الغرق ، والازورار عن حبالها من التوفيق للسلامة ، وما يلزم السالم منها من عدم مبالاته بضيق مناخه ، وكل مناخ أناخ به من فقر وسجن ومرض وبلاء بعد السلامة منها فهو فسيح رحب بالقياس إلى ما يستلزم التفسح في سعتها، والجري في ميادين شهواتها من العذاب الأليم في الآخرة . وهي عنده في القصر وعدم الالتفات إليها كيوم حان انسلاخه . وألفاظ المداحض واللجج والحبال مستعار لشهواتها ولذاتها .

فالأول : باعتبار كون شهواتها مظنة أن تحب فينجبر الإنسان عند استعمالها إلى الاستكثار منها أو تجاوز القدر المعتدل إلى المحرم فتزل قدم نفسه عن صراط الله فيقع في مهاوي الهلاك والمأثم .

والثاني : باعتبار أن مطالبها والآمال فيها غير متناهية فمن لوازم المشتغل بها والمنهمك في الدنيا أن يغرق نفسه في بحر لا ساحل له منها فينقطع عن قبول رحمة الله إلى الهلاك الأبدي كالملقي نفسه في بحر لجي .

الثالث : باعتبار أن الإنسان إذا اغتر بها وحصل في محبة مشتياتها عاقته عن النهوض والتخلص إلى جناب الله ومنعته أن يطير بجناحي قوته العقلية في حضرة قدس الله ومنزل أوليائه الأبرار كما تعوق حبال الصائد جناح الطائر . ولفظ الوطي والركوب والزلق والغرق ترشيح . ثم كرر الأمر لها بالبعد عنه وأقسم أنه لا يذل لها فتستذله ولا يسلس لها قياده فتقوده ، وفيه تنبيه على أنها لا يذل فيها إلا من أذل نفسه وعبدها لها ولا تملك إلا قياد من

أسلس لها قياده وهو ظاهر . إذ الإنسان ما دام قامعاً لقوته الحيوانية مصرفاً لها بزمام عقله فإنه من المحال أن تذله الدنيا ويستعبده أهلها ومهما اتبع شهوته فيما تمثل إليه فإنها تذله أشد إذلال وتستعبده أقوى استعباد كما قال عليه السلام : عبد الشهوة أذل من عبد الرق . واستعار وصف إسلاس القياد للتسهيل في متابعة النفس العاقلة للنفس الأمارة وعدم التشدد في ضبطها باستعمال العقل عن متابعتها .

السابع عشر : أقسم ليوقعن ما صمم عزمه عليه وهو بصده من رياضة نفسه . ووصف تلك الرياضة في قوتها باستلزام أمرين :

أحدهما : كون نفسه تهش معها إلى القرص وترضى به إذا قدرت عليه مطعوماً وتقنع بالملح مأدوماً . وتلك رياضة القوة الشهوية ، ولما كانت عدواً للنفس وأكثر الفساد يلحق بسببها خصها بالذكر وقوة العزم ، ويحتمل أن يريد رياضة جميع القوى وإنما وصفها بكون النفس تهش معها إلى القرص لأن ضبط الشهوة أعظم من ضبط سائر القوى . وأصعب وكانت الإشارة إلى ضبطها إلى الحد المذكور أبلغ في وصف الرياضة بالشدة ، واستثنى في يمينه بمشيئة الله أدباً لقوله تعالى : ﴿ لا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ ^(١) . وتنبهها على استناد جميع الأمور في سلسلة الحاجة إلى الله تعالى .

الثاني : كونه يدع مقلته في تلك الرياضة كعين ماء نضب ماؤها ، ووجه الشبه أن يقني دموعها ويستفرغها بالبكاء شوقاً إلى الملاء الأعلى وما أعد لأولياء الله من السعادة الأبدية وخوفاً من حرمانها . ومن كان في مقام الغربة ومحل الوحشة كيف لا يشتاق إلى وطنه لأصلي ومقام أنسه الأولى . ومطعوماً ومأدوماً ومستفرغة أحوال . ثم أخذ في تمثيل نفسه بالسائمة والريضة على تقدير أن يرضى بمثل حالهما وغايتهما من الدنيا في معرض الإنكار لذلك الرضا من نفسه ، والأصل في ذلك التمثيل البهيمية ، والفرع هو هو ، والمشارك الجامع هو الرعي والشبع والبروك والنوم والراحة . ولما كان الأصل

المقيس عليه في غاية من الخسة بالقياس إلى الإنسان الكامل استلزم ذلك التشبيه به قوة النفرة عما يستلزم التشبيه من الصفات .

وقوله : قَرَّتْ إِذْنُ عَيْنِهِ .

إخبار في معرض الإنكار والاستهزاء باللذة كقوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (١) .

الثامن عشر : نبه على أن النفس إذا كانت بالصفات المذكورة فلها استحقاق طوبى . وجمع في تلك الصفات أكثر مكارم الأخلاق :

فالأولى : القيام بواجب طاعة الله وما افترضه عليها .

الثانية : قوله : وعركت بجانبها يؤسها . كناية عن الصبر على نزول المصائب . يقال : عرك فلان بجانبه الأذى ، إذا أغضى عمن يؤذيه وصبر على فعله به . ويلازم ذلك عدة فضائل كالحلم والكرم والعفو والصفح والتجاوز وكظم الغيظ واحتمال المكروه والعفة ونحوها .

الثالثة : أن تهجر بالليل غمضها ، وهو كناية عن إحياء ليلها بعبادة ربها واشتغالها بذكره حتى إذا غلب النوم عليها افترشت أرضها وتوسدت كفها : أي لم يكن لها كلفة في تهيئة فراش وطيب وساد . بل كانت بريئة عن كل كلفة عريئة عن كل قينة منزهة عن كل ترفة .

وقوله : في معشر . يصلح تعلقه بكل من أفعال النفس المذكورة : أي فعلت هذه الأفعال في جمعة معشر من شأنهم كذا . وعرفهم بصفات أربع :

أحدها : كونهم أسهر عيونهم خوف معادهم .

الثاني : وتجافت جنوبهم عن مضاجعهم . وهو كناية عن اشتغالهم ليلاً بعبادة ربهم كقوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ (٢) .

(١) ٤٤ - ٤٩ .

(٢) ٣٢ - ١٦ .

الثالث : وهمهمت بذكر ربهم شفاهم كقوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ (١).

الرابع : وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم ، وهو لازم عن الثلاثة الأولى أو ثمرة لها ، واستعار لفظ التقشع لانمحاء ذنوبهم ، ووجه المشابهة أن الذنوب والهيئات البدنية في تسويدها لألواح النفوس وتغطيتها وحجبها لها عن قبول أنوار الله يشبه المتراكم الحاجب لوجه الأرض عن قبول نور الشمس والاستعداد بها للنبات وغيره فاستعار لزولها ، وانمحائها من ألواح النفوس لفظ التقشع . كل ذلك للترغيب في طاعة الله والجذب إلى الدخول في زمرة أوليائه . وبالله التوفيق .

٤٥ - ومن كتاب له (عليه السلام) إلى بعض عماله

أَمَّ بَعْدُ : فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهَرُ بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ ، وَأَقْمَعُ بِهِ نَخْوَةَ الْأَثِيمِ ، وَأُسَدُّ بِهِ لِهَآءِ الثَّغْرِ الْمَخُوفِ ، فَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَهَمَّكَ ، وَأَخْلِطِ الشَّدَّةَ بِضَعْفٍ مِنَ اللَّيْنِ ، وَارْفُقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أَرْفَقَ ، وَأَعْتِزْ بِالشَّدَّةِ حِينَ لَا يُغْنِي عَنْكَ إِلَّا الشَّدَّةُ . وَاخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ ، وَأَبْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ ، وَإِنْ لَهُمْ جَانِبُكَ ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظَرَةِ ، وَالْإِشَارَةِ وَالْتَّجِيَّةِ ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ ، وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَذْلِكَ ، وَالسَّلَامُ .

أقول : النخوة : الكر . والأثيم : الأثم . والضغث : النصيب من الشيء يختلط بغيره وأصله القبض من الحشيش المختلط من رطبه ويابس . واعتزم بكذا : أي لزمه وأخذ به .

وقد استماله أولاً بأمور ثلاثة أعلمه بها من نفسه وأعدّه لقبول أوامره ؛ وهي كونه ممن يستظهر به على إقامة الدين ، ويقمع به نخوة الأثيم ، ويسد به الثغر المخوف . واستعار نطق الهاء لما عساه يفتح من مفاصد الثغر

فيحتاج إلى سده بالعسكر والسلاح ملاحظة لشبهه بالأسد الفاتح فاه للافتراس . ثم أردف ذلك بما أمره به من مكارم الأخلاق .

أولها : أن يستعين بالله على ما أهمه من أموره فإن الفرع إليه والاستعانة به أفضل ما أعان على حصول المهمات .

الثاني : أن يمزج الشدة بضرب من اللين ويضع كلامه موضعه فيرفق ويلين ما كان الرفق أولى وأوفق له ويأخذ بالشدة حين لا يغني إلا الشدة .

الثالث : أن يخفض جناحه لرعيته ، وهو كناية عن التواضع .

الرابع : أن يبسط لهم وجهه ، وهو كناية عن لقائهم بالبشاشة والبشر وترك العبوس والتقطيب .

الخامس : أن يلين لهم جانبه ، وهو كناية عن المساهلة معهم وعدم التشدد عليهم .

السادس : أن يواسي بينهم في اللحظة والنظرة والإشارة والتحية ، واللحظة أخص من النظرة وهو أمر بفضيلة العدل بين الرعية لئلا يطمع عظيمهم في حيفه على الضعيف فيتسلط عليه ، ولا ييأس الضعيف من عدله على القوي فيضعف نفسه ويكلّ عما هو بصدده من الأعمال المصلحية ، وبالله التوفيق .

٤٦ - ومن وصية له (عليه السلام)

لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، لَمَّا ضَرَبَهُ ابْنُ مُلْجَمٍ ، لَعَنَهُ اللَّهُ
أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَأَنْ لَا تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغْتُمَا ، وَلَا تَأْسَفَا عَلَى
شَيْءٍ مِنْهَا زُورِي عَنْكُمَا ، وَقُولَا بِالْحَقِّ ، وَأَعْمَلَا لِلْأَجْرِ ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ
خَصْمًا ، وَلِلْمَظْلُومِ عَوْنًا .

أَوْصِيَكُمْ ، وَجَمِيعَ وَلَدِي ، وَأَهْبِي ، وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي ، بِتَقْوَى اللَّهِ
وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ ، وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَالِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : «صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ ، أَفْضَلُ مِنْ عَامَةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ» .

أَلَلَّهَ اللَّهُ فِي الْإِيْتَامِ ! فَلَا تُعْبُوا أَفْوَاهَهُمْ ، وَلَا يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ ،
وَأَلَلَّهَ اللَّهُ فِي جِيرَانِكُمْ ! فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ ، مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَّنَا
أَنَّهُ سَيُورِثُهُمْ ، وَأَلَلَّهَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ ! لَا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ ، وَأَلَلَّهَ
اللَّهُ فِي الصَّلَاةِ ! فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ ، وَأَلَلَّهَ اللَّهُ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ ! لَا تُخْلَوْهُ مَا
بَقِيْتُمْ ، فَإِنَّهُ إِنْ تَرِكَ لَمْ تُنَاطِرُوا ، وَأَلَلَّهَ اللَّهُ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ ،
وَأَنْفُسِكُمْ ، وَالسِّنْتِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَّاضُعِ وَالتَّبَادُلِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدْبِرَ وَالتَّقَاطُعَ ، لَا تَتْرَكُوا
الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَيُؤَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ ، ثُمَّ تَدْعُونَ
فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ ثُمَّ قَالَ :

يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا الْفِينَكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضًا تَقُولُونَ
قَتَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، أَلَا : لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي .

نُظَرُوا إِذَا مَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ ، فَضَرْبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَتِي ، وَلَا يُمَثَّلُ
بِالرَّجُلِ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : « إِيَّاكُمْ وَالْمُتَلَّةَ
وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ » .

أقول : بغيت كذا : أردته . وإغاب أفواههم : أن يطعموهم يوماً
ويتركوهم يوماً . والمناظرة : المحافظة والمراقبة . والتدبر : التقاطع
والتعادي . والمثلة التنكيل .
وقد أوصاهما بأمور :

أولها : تقوى الله التي هي رأس كل خير .

الثاني : الزهد في الدنيا . وأن لا يريداهما وإن أرادتهما : أي أقبت
عليهما بما يعد فيها [عنها خ] خير ، واستعار لفظ البغية لها باعتبار سهولتها
عليهما عن توافق أسباب خيرها لهما فهي بذلك لا اعتبار كالطالبة لها .

الثالث : أن لا يأسفا على ما قبض وغيب عنهما من خيراتها وهو من

لوازم الزهد الحقيقي فيها .

الرابع : أن لا يقولوا إلا الحق وهو ما ينبغي قوله من أوامر الله ونواهيه .
وأن يعملوا لأجر الآخرة : أي تكون أقوالهما وأعمالهما مقصورة على هذين .

الخامس : أن يكونوا للظالم خصيماً وللمظلوم عوناً ، وذلك من لوازم قول الحق والعمل له . إذ من كان على حاق العدل لا بد أن يجانب الظالم المنحرف إلى طرف الجور ويخاصمه ليرده إلى فضيلة العدل فيكون حينئذ عوناً للمظلوم . ثم عاد مؤكداً لوصيتهما مع جميع ولده وأهله ومن بلغه كتابه من عباد الله بتقوى الله مكرراً لها ومردفاً بأوامر أخرى :

أحدها : صلاح ذات البين وذات كناية عن الحالة الموجبة للبين والافتراق . وقيل : هي الحالة بين الرجلين والقبيلتين أو الرجل وأهله . أمر بإصلاح ما بينهما من فساد . وقيل : يحتمل أن يريد بالبين هنا الوصل ، وبالذات النفس : أي أصلحوا نفس وصلحكم من فساد يقع فيه . وقيل : إن ذات هنا مقحمة زائدة ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ ^(١) . وصلاح ذات البين من لوازم الألفة والمحبة في الله ، وهي فضيلة تحت العفة . ورغب في ذلك بما رواه سماعاً عن رسول الله ﷺ من قوله : صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام ووجه الأفضلية هنا إنك علمت فيما سلف أن أهم المطالب للشارع ﷺ جمع الخلق على سلوك سبيل الله وانتظامهم في سلك دينه ولن يتم ذلك مع تنازعهم وتنافر طباعهم وثوران الفتنة بينهم فكان صلاح ذات البين مما لا يتم أهم مطلب الشارع إلا به ، وهذا المعنى غير موجود في الصلاة والصيام لإمكان المطلوب المذكور بدونهما فتحققت أفضليته من هذه الجهة . والخبر في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : كلما كان كذلك فواجب أن يفعل .

الثاني : حذره من الله تعالى في الأيتام ونهى عن إجاعتهم : وكنى عنها برغبات أفواههم إذ هو مظنة جوعهم . ثم عن إضاعتهم واستلزم ذلك

النهي أمرهما ببرّهم والإحسان إليهم وهو فضيلة تحت العفة .

الثالث : الوصية في الجيران والتحذير من الله فيهم ، ونبه على حفظ قلوبهم وإكرامهم بوصية الرسول ﷺ في حقهم ، وجعلهم نفس الوصية تأكيداً للمحافظة عليهم كالمحافظة على وصية رسول الله . والمجاز من باب إطلاق اسم المتعلق .

وقوله : ما زال . إلى قوله : سيورثهم . تفسير للوصية المذكورة ، وهي أيضاً في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من أوصى النبي في حقه كذلك فواجب أن يحفظ .

الرابع : الوصية بما اشتمل عليه القرآن الكريم من القوانين والقواعد ، والتحذير من الله سبحانه في تركه ، والنهي عن أن يسبقهم بذلك غيرهم المستلزم للأمر بالمسارعة والسبق إليه .

الخامس : الوصية بأمر الصلاة والتحذير من الله في أمرها ، ونبه على فضيلتها بضمير صغراه قوله : فإنها عمود لدين . وهو عين ما رويناه من الحديث قبل ، وتقدير الكبرى : وكل ما كان كذلك فواجب أن يقام الدين بإقامته .

السادس : الوصية ببيت ربهم والنهي عن ترك زيارته مدة العمر ، وقد سبق سره ، ونبه على فضيلة أخرى له توجب ملازمته وهو ما يستلزمه تركه من عدم مناظرة الله لتاركه وترك محافظته عليهم ومراقبته لأن من لا يحفظ الله في بيته ولا يراقبه في مراعاة جانبه لم يحفظه الله ولم يراقبه ، ويحتمل أن يريد لن ينظركم الأعداء ولم يراقبوكم . إذ في الإجماع إلى بيت الله والمحافظة عليه عزّ بالله واعتصام به يوجب مراقبة لخلق المعتصمين به وانفعال القلوب عنهم وعن كثرتهم ومناظرتهم .

السابع : الوصية بالجهاد في سبيل الله بالمال والنفس واللسان والتحذير من الله في تركه وهو مما علمت فضيلته .

الثامن : الوصية بالتواصل والتبادل : أي يبذل كل منهم النصرة لصاحبه

في سبيل الله .

التاسع : التحذير من التقاطع والتدابير . وسره ظاهر .

العاشر : النهي عن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المستلزم للأمر بهما . ونفر عن ذلك الترك بما يستلزمه ويعد له من تولى الأشرار عليهم وعدم استجابة دعاء الداعين منهم ، ووجه إعداده لذلك أن ترك الاجتماع على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستلزم ثوران المنكر وقلة المعروف من طباع الأشرار ويعد لاستيلائها وغلبتها وولاية أهلها وذلك يستلزم كثرة الشر ولأشرار وقلة الصالحين ، وضعف همهم عن استنزال رحمة الله تعالى بأدعيتهم فيدعون فلا يستجاب لهم . ثم عقب ذلك بوصية أهل بيته من بني عبد المطلب بما يخصه من أمر دمه . والوصية بأمر :

أحدها : نهاهم عن إثارة الفتنة بسبب قتله فقال : لا أجدنكم تخوضون دماء المسلمين خوفاً ، وكنى عن كثرة القتل .

وقوله : تقولون : قتل أمير المؤمنين . حكاية ما جرت به العادة أن يقوله طالب الثأر حين هياجه إظهاراً لعذره والسبب الحامل له على إثارة لفتنة .

الثاني : نهاهم أن يقتلوا إلا قاتله . إذ ذلك هو مقتضى العدل .

الثالث : نبههم بقوله : انظروا . إلى قوله : هذه . على أنه لا يجوز قتله بمجرد ضربته إن لو حصل الموت بسبب غيرها إلا أن يعلم أن موته كان بسببها .

الرابع : أمرهم أن يضربوه ضربة بضربة ، وذلك مقتضى عدله عليه السلام أيضاً .

الخامس : نهى عن المثلة به معللاً بما رواه سماعاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك لما في المثلة من تعدي الواجب وقسوة القلب وشفاء الغيظ وكل ذلك رذائل يجب الانتهاء عنها ، وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل ما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فوجب أن لا يفعل . وبالله التوفيق .

٤٧ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى معاوية

وَإِنَّ الْبَغْيَ وَالزُّورَ يُوتَغَنِ بِالْمَرْءِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاةٍ ، وَيُبْدِيَانِ خَلْلَهُ عِنْدَ مَنْ يَبْعِيهِ ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتِهِ ، وَقَدْ رَأَى أَقْوَامٌ أَمْرًا بِغَيْرِ الْحَقِّ ، فَتَأَوَّلُوا عَلَى اللَّهِ فَأَكْذَبَهُمْ ، فَاحْذَرُ يَوْمًا يَغْتَبِطُ فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ عَقِبَةَ عَمَلِهِ ، وَيَنْدُمُ مَنْ أَمَكْنَ الشَّيْطَانُ مِنْ قِيَادِهِ فَمَنْ يُجَادِبُهُ .

وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ ، وَلَسْنَا بِإِيَّاكَ أَجَبْنَا ، وَلَكِنَّا أَجَبْنَا الْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ ، وَالسَّلَامُ .

أقول : هذا الفصل من كتاب له إليه بعد التحكيم ، وتمسك معاوية بما حكم به الحكمان ، ويحتمل أن يكون عند إجابته إلى التحكيم . والوتغ بالتحريك : الهلاك . وأوتغ فلان دينه بالإثم : أهلكه وأفسده ، وفي نسخة الرضي - رحمه الله - يذيعان : أي يظهران . والغبطة : السرور ، والغبطة : تمنّي مثل حال الغير .

وصدر الفصل بذكر الظلم والكذب والتفكير عنهما بما يلزمهما من إهلاك دين المرء ودنياه ، ويبديان خلله وعيبه لمن يعيبه . أما في دينه فكونهما رذيتين مضادتين للعدل والعفة ومجانبتين للإيمان والدين ، وأما في دنياه فلأن أعظم مطالب الدنيا للعقلاء الذكر الجميل وإنما يحصل بظهور مكارم الأخلاق دون رذائلها ، وأراد بما قضى فواته ما جعه معاوية شبهة له في محاربته ، وهو الطلب بدم عثمان وهو في قوة صغرى ضمير احتج به على وجوب ترك لمشاقة ، وتقدير كبراه : وكل من كن كذلك تعين عليه أن يترك ذلك الطلب . ثم أعلمه بحال من طلب أمراً باطلاً وتأول على الله في ذلك .

والإشارة إلى أصحاب الجمل حيث كانوا طالبين للأمر والملك فتأولوا على الله : أي على سلطان الله وهي الخلافة الحقّة فجعلوا لخروجهم وبغيهم عليها تأويلاً وهو الطلب بدم عثمان ، ونحوه من الشبه الباطلة . فأكذبهم الله

بنصره عليهم ورد مقتضى شبههم . والإكذاب كما يكون بالقول كذلك يكون بالفعل . وقال القطب الراوندي - رحمه الله - : معناه وقد طلب قوم أمر هذه الأمة فتأولوا القرآن كقوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (١) . فسموا من نصبوه من الأمراء أولي الأمر متحكمين على الله فأكذبهم الله بكونهم ظالمين بغاة ، ولا يكون الوالي من قبل الله كذلك . ثم حذره يوم القيامة منبهاً له على ما فيه من سرور الذين حمدوا عاقبة أعمالهم بما حصلوا عليه من السعادة الباقية واغترباط غيرهم لهم وتمني مثل مراتبهم ، وندم من أمكن الشيطان من قياده فصرفه كيف شاء ولم يجاذبه ، واستعار لفظ التمكين من القياد لمطوعة النفس الأماراة . وغرض التحذير أن لا يكون كمن سبق من طالبي هذا الأمر بالتأويل على الله .

وقوله : وقد دعوتنا . إلى آخره .

صورة سؤاله والجواب عنه . وكونه ليس من أهله . إذ لم يكن صالحاً للإمامة كما سبق بيانه مراراً ، وحيث لم يكن أهلاً لأن يجاب إلى الرضى بالتحكيم أعلمه بذلك وأنه إنما أجاب القرآن إلى حكمه ، وذلك في قوله تعالى في حق الزوجين ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَاْبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾ (٢) الآية . فجعل الله هذا أصلاً وقاس عليه بالطريق الأولى حال الأمة عند وقوع الشقاق بينهم . وبعين ذلك احتج ابن عباس - رضي الله عنه - على الخوارج حيث أنكروا التحكيم فقالوا : كيف يجوز لعلي أن يحكم في دين الله الرجال . فقال لهم : إن ذلك ليس بأمر علي عليه السلام . وإنما هو بأمر من الله تعالى في كتابه . إذ يقول في حق الزوجين ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ الآية . أفتررون أنه أمر تعالى بذلك في حق الرجل وامراته مراعاة لمصلحتهما ولا يأمر بذلك في حق الأمة رعيّاً لمصلحتهم ؟ فرجع كثير منهم إلى قوله : وبالله التوفيق .

(١) ٤ - ٦٢ .

(٢) ٤ - ٣٩ .

٤٨ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى غيره

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا ، وَلَمْ يُصَبَّ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئاً
إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ جِرْصاً عَلَيْهَا ، وَلَهَجَ بِهَا ، وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا
عَمَّا لَمْ يَبْلُغْ مِنْهَا ، وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فِرْقٌ مَا جَمَعَ ، وَنَقُضَ مَا أُبْرِمَ ، وَلَوْ
أَعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى حَفِظْتَ مَا بَقِيَ ، وَالسَّلَامُ .

أقول : اللهج : الحرص الشديد .

وصدر الكتاب بالتنبيه على معائب الدنيا ليقول الرغبة فيها ، وذكر منها
أموراً :

الأول : كونها مشغلة عن غيرها : أي عن الآخرة وهو ظاهر مما مر .
الثاني : كونها لم يصب صاحبها منها شيئاً إلا كان ذلك معداً للحرص
عليها واللهج بها ، وإليه الإشارة بقوله يُسَيِّئُ : لو كان لابن آدم ودين من
ذهب لا يتغنى لهما ثالثاً . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب .
الثالث : كونها لا يستغني صاحبها بما نال فيها عما لم يبلغه منها .
وذلك من لوازم العيب .

الثاني : فإن حصول بعضها إذا كان معداً للفقر إليها لم يستغن طالبها
أبداً منها . ثم أردف ذلك بذكر أمور للتنفير عنها أيضاً :
أحدها : استعقابها لفراق ما جمع منها .

الثاني : نقض ما أحكم من أمورها ، ثم نبه على وجوب الاعتبار بما
مضى من العمر أو من أحوال الدنيا والقرون الماضية لغاية حفظ ما بقي من
العمر أن يضيع في الباطل أو حفظ ما يبقى من السعادة الأخروية بالسعي في
تحصيلها . وبالله التوفيق .

٤٩ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى أمرائه على الجيوش

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْمَسَالِحِ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَى الْوَالِي أَنْ لَا يُغَيِّرَهُ عَلَى رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ ، وَلَا طَوْلٌ خُصَّ بِهِ ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوًّا مِنْ عِبَادِهِ ، وَعَظْفًا عَلَى إِخْوَانِهِ .

أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَنْ لَا أُحْتَجَزَ دُونَكُمْ سِرًّا إِلَّا فِي حَرْبٍ . وَلَا أَطْوِي دُونَكُمْ أَمْرًا إِلَّا فِي حُكْمٍ . وَلَا أُؤَخِّرُ لَكُمْ حَقًّا عَنْ مَحَلِّهِ ، وَلَا أَقِفُ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ . وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً ، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ وَجَبَتْ لِلَّهِ عَلَيْكُمُ النُّعْمَةُ ، وَلِي عَيْنُكُمْ الطَّاعَةُ ، وَأَنْ لَا تَنْكُصُوا عَنْ دَعْوَةٍ ، وَلَا تَفَرُّطُوا فِي صَلَاحٍ ، وَأَنْ تَخُوضُوا الْغَمَرَاتِ إِلَى الْحَقِّ ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا [لِي] عَلَى ذَلِكَ ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ أَعْوَجَ مِنْكُمْ ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ الْعُقُوبَةَ ، وَلَا يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُخْصَةً ، فَخُذُوا هَذَا مِنْ أَمْرَائِكُمْ ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَكُمْ .

أقول : أحتجز : أمنع . والنكوص : الرجوع على الأعقاب .
والغمرة : الشدة .

واعلم أنه قدم هاهنا ما يجب على الوالي المطلق لرعيته بوجه كلي كما هو عادة الخطيب . ثم ثنى ببيان ما يجب عليه لهم تفصيلاً لذلك الكلي . ثم ما يجب عليهم . ثم أمرهم بلزوم ما أوجبه عليهم .

أما الأول : أما بعد . إلى قوله : إخوانه . وأشار فيه إلى أمرين : أحدهما : أن لا يغيّره عنهم ما اختص به من الفضل والطول لأن تغيّره عنهم خروج عن شرائط الولاية .

الثاني : أن يزيده تلك النعمة من الله دنوًّا من عباده عطفًا على إخوانه لأن ذلك من تمام شكر النعمة .

وأما الثاني : فاشتراط على نفسه لهم خمسة أمور :
أحدها : أن لا يحتجز دونهم سراً في الأمور المصلحية إلا في الحرب . ويحتمل ترك مشورتهم هناك أمرين :
أحدهما : أن أكثرهم ربما لا يختار الحرب فلو توقف على المشورة فيه لم ستقام أمره بها . ولذلك كان يستكثر ما يحملهم على الجهاد ويتضجر من ثاقلهم عليه . وهم له كارهون . كما سبق .

الثاني : أن يكتم ذلك خوف انتشاره إلى العدو فيكون سبب استعداده وتأهبه للحرب ، ولذلك كن رسول الله ﷺ إذا أراد سافراً إلى الحرب ورى بغيره كما روي أنه لما نوى غزاة بدر كتب للسرية كتاب وأمرهم أن يخرجوا من المدينة إلى صوب مكة يومين أو ثلاثة . ثم ينظروا في الكتاب ويعملوا بما فيه . فلما ساروا المدة نظروا فيه فإذا هو يأمرهم فيه بالخروج إلى نخلة محمود وأن يفعلوا كذا وكذا ففعلوا وخرج النبي ﷺ خلفهم إلى بدر وكان الظفر لهم . ولو أعلمهم سكت حين أمرهم بالخروج أنه يسير إلى قريش لانتشر ذلك إلى قريش وكن استعدادهم لهم أقوى ، وجاز أن يكون ذلك أيضاً مانعاً لبعض الصحابة عن الهوض خوفاً من أهل مكة وشوكتهم .

الثاني : أنه لا بطوي دونهم أمراً إلا في حكم . استعار لفظ الطي لكتمان الأمر : أي لا يحفي عنكم أمراً إلا أن يكون حكماً من أحكام الله فإنني أقضيه دونكم من غير مراقبة ومشاورة فيه كالحدود وغيرها .

الثالث : أن لا يؤخر لهم حقاً عن محله كالعطاء وسائر الحقوق اللازمة له ولا يقف به دون مقطعه كالأحكام المتعلقة بالمتخاصمين المحتجة إلى الفصل .

الرابع : أن يسوي بينهم في الحق . والأولان مقتضى فضيلة الحكمة ، والثالث والرابع مقتضى فضيلة العدل .

وأما الأمر الثالث : مما يستحقه عليهم فبدأ بوجوب حق الله تعالى أولاً . إذ كان حكم قضائه بنصبه لهم إماماً وفعله بهم ما ذكر من تم نعمه

تعالى عليهم . ثم ثنى بما يجب له وذكر أموراً :

أحدها : بذل طاعته . إذ لا حجة لهم عليه يكون سبباً لعصيانهم .

الثاني : أن لا ينكصوا عن دعوة له إذا دعاهم . وهو من تمام الطاعة .

الثالث : أن لا يقفوا في حيز التفريط في مصلحة يراها أو يبدو لهم .

الرابع : أن يخوضوا الغمرات ويركبوا الشدائد في نصرة الحق وطلبه .

ثم أردف ذلك بالوعيد لهم إن لم يستقيموا له على ما وجب له عليهم مما عدده وتوعد بأمرين :

أحدهما : هوان المعوج منهم عن طاعته عليه وسقوط منزلته .

والثاني : إعظام لعقوبة له وعدم الرخصة فيها عنده . ولما بين لهم ما وجب عليهم أمرهم أن يأخذوا ذلك البيان، والنصح منه ومن سائر أمراء العدل . ويعطوهم من أنفسهم ما يصلح الله به أمورهم من الطاعة وفعل ما أمروا به . وبالله التوفيق .

٥٠ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى عماله على الخراج

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْخَرَاجِ :

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ ، لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَ يُحَرِّزُهَا ، وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا كُفِّتُمْ يَسِيرٌ ، وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْبُعْيِ وَالْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ لَكَانَ فِي ثَوَابِ اجْتِنَابِهِ مَا لَا عُذْرَ فِي تَرْكِ طَلْبِهِ .

فَانْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، وَأَصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ ، فَإِنَّكُمْ خُرَانُ الرِّعْيَةِ ، وَوُكَلَاءُ الْأُمَّةِ ، وَسَفَرَاءُ الْأَيْمَةِ ، وَلَا تَحْسِمُوا أَحَدًا عَنْ حَاجَتِهِ ، وَلَا تَحْسِسُوهُ عَنْ طَلْبَتِهِ ، وَلَا تَبِيعَنَّ لِلنَّاسِ فِي الْخَرَاجِ كِسُوءَ شَتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ ، وَلَا دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا . وَلَا عَبْدًا ، وَلَا تَضْرِبَنَّ أَحَدًا سَوْطًا لِمَكَانِ دِرْهَمٍ ،

وَلَا تَمْسَنْ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، مُصَلٍّ وَلَا مُعَاهِدٍ ، إِلَّا أَنْ تَجِدُوا فَرَسًا ، أَوْ
سِلَاحًا يُعَدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدْعَ ذَلِكَ فِي
أَيْدِي أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ ، وَلَا تَدْخِرُوا نَفْسَكُمْ نَصِيحَةً ، وَلَا
الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ ، وَلَا الرِّعِيَّةَ مَعُونَةً ، وَلَا دِينَ اللَّهِ قُوَّةً ، وَأَبْلُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَصْطَنَعَ عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ
نَشْكُرَهُ بِجُهِدِنَا ، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

أقول : السفير . الرسول . وحشمته واحتشمته : بمعنى : أي أغضبتة
وأخجلته . والشوكة : القوة . وأبليتة معروفاً : أي أعطيته .

وصدر الكتاب بمقدمة كلية ، وهو أن من لم يحذر ما يصير إليه من
العواقب المخوفة لم يقدم لنفسه استعداداً يحرزها منها فإن الإنسان إنما
يستعد للأمر المرغوب أو المرهوب إذا رغب فيه أو حافه ، وهي في معرض
التوبيخ على ترك الحذر لغرض تقديم طاعة وما يستعد به الإنسان مما يحرز
نفسه من عذاب الله . ثم أعلمهم بكون التكليف لهم يسيراً سهيلاً له ، وكون
ثوابه كثيراً ترغيباً فيه . وهو في قوة صغرى ضمير رغبتهم به في القيام بالأمور
المكلف بها ، وتقدير كبراه : وكل ما كان كذلك وجب القيام به ولا جهد
فيه . ثم أردفه بالنسبة على وجوب ترك البغي والظلم بما يلزمه فعله من
العقاب الأليم وتركه من الثواب العظيم الذي لا عذر في ترك طلبه لو لم يكن
في فعله عقاب . والمعنى أنه لو لم يكن فيه عقاب يخاف فيترك لأجله لكان
في تركه ثواب يجب لأجله فكيف : وفي فعله العقاب الأليم .

فبالأولى أن يجب تركه ، وهو من فصيح الكلام ، والغرض التحذير من
الوقوع في رذيلة الظلم ثم أردف ذلك بأوامر ونواهي فمن الأوامر أمران :
أحدهما : إنصاف الرعية من أنفسهم وميولها .

الثاني : أن يصبروا لحوائجهم لينتظم أمر مصلحتهم ، وعلل ذلك
بكونهم خزّن الرعية ووكلاءهم على بيت مالهم وسفراء أئمتهم إليهم ، وهو
في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان كذلك فعليه النصفة والصبر

على حوائجهم .

ومن النواهي ستة :

أحدها : أن لا يغضبوا أحداً ولا يجبهوه فيستحي عن حاجته .

الثاني : لا يمنعوا أحداً عن حاجته ويحتجبوا دونه .

الثالث : أن لا يحوجوا أحداً في طلب الخراج إلى بيع ما يضطر إليه من كسوة أو دابة ينتفع بها في عمل ، ولا عبد .

الخامس : أن لا يأخذوا من مال أحد من أهل القبلة أو المعاهدين من أهل الكتاب شيئاً إلا أن يكون فرساً أو سلاحاً يعدى به على المسلمين والإسلام فإنه يجب أخذه من أيدي أعدائهم لئلا يكون شوكة عليهم وعوناً .

السادس : أن لا يدخروا أنفسهم عن أنفسهم نصيحة بل ينصح بعضهم لبعض ، ولا عن لجند حسن سيرة ، ولا عن الرعية معونة ، ولا عن دين الله قوة . ثم أمرهم أن يبلوا في سبيله ويعطوا ما استوجب عليهم من شكر نعمه وطاعته . ثم عدل وجوب ذلك بقوله : فإن الله . إلى آخره . وهو في قوة صغرى ضمير . والمعنى أنه تعالى جعل شكره بجهدنا ونصرته بما بلغت قوتنا صنيعه عندنا . إذ كان شكره ونصرته من أعظم نعمه علينا كما سبق . وقيل : أراد لأن نشكره . وتقدير الكبرى : وكل من اصطنع عندنا وجب علينا شكره . وبالله التوفيق .

٥١ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى أمراء البلاد في معنى الصلاة

أَمَّا بَعْدُ : فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهَرَ حَتَّى تَفِيءَ الشَّمْسُ مِثْلَ مَرَبَضِ الْعَنْزِ ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيَضاءَ حَيَّةً فِي عِضْوٍ مِنَ النَّهَارِ ، حِينَ يُسَارُ فِيهَا فَرَسَخَانِ ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ ، وَيَذْفَعُ الْحَاجُّ ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَى الشَّفَقُ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ ، وَصَلُّوا بِهِمُ

الْغَدَاةَ وَالرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صَاحِبِهِ ، وَصَلُّوا بِهِمْ صَلَاةَ أَوْفَعِهِمْ ، وَلَا تَكُونُوا
فَتَانِينَ .

أقول : بين في هذا الكتاب أوقات الصلاة المفروضة :

فالأول : وقت الظهر وحده بوقت فيء الشمس : أي رجوعها وميلها
إلى المغرب ثم نبه بتقديره بمربض العنز ، وهو أول وقت الظهر وذلك مما
يختلف باختلاف البلاد .

الثاني : وقت العصر وقدره ببقاء الشمس بيضاء لم تصفر للمغرب ،
وحية . واستعد لفظ الحياة لظهورها على الأرض لمكان المشابهة ، وفي
عضو من النهار ، وأراد القسم والقطعة منه . ثم قدر ذلك لعضو بمقدار أن
يسافر فيه فرسخان السير المعتاد .

الثالث : وقت المغرب وعرفه بأمرين :

أحدهما : حين يفطر الصائم ، وذلك عند سقوط القرص .

والثاني : حين يدفع حاج ويفيض من عرفات . ولشهرة هاتين
العلامتين وتعارفهما مع المخاضيين عرفه بهما .

الرابع : وقت العشاء الآخرة عرفه بتواري الشفق وذلك من ناحية
المغرب ، وحد آخره بثلاث ليل ، وإنما حد آخر هذا الوقت دون أوقات
سائر الفرائض لأن الفرائض يتبين آخر كل وقت منها ببيان أول وقت
الأخرى . ولا كذلك آخر وقت العشاء الآخرة لاتصاله بالليل الخالي عن
الفرائض ، وأما آخر وقت الصبح فحده بطلوع الشمس أيضاً ظاهر .

الخامس : وقت صلاة الغداة ، وحده بحين يعرف الرجل وجه
صاحبه ، وذلك حين طلوع الفجر الثاني وهو الحمرة المعترضة من ناحية
المشرق ، والعلامة التي ذكرها أوضح لسائر الناس . ثم أوصاهم بفعل
وترك : أما الفعل فأن يصلوا بالناس صلاة أضعفهم ، وهو أن لا يطيلوا في
القراءة وفي الفرائض كقراءة البقرة والسور الطوال فإن ذلك لا يستطيع القيام
به كل الناس فيؤدي ذلك إلى المشقة وعجز بعضهم عن أداء الفريضة في

الجماعة، وهو ضرر منفي في الدين، وأما الترك فإن لا يكونوا فتانين بإطالة الصلاة، ووجه الفتنة هنا أنهم يكونون صارفين للناس عن الاتفاق والتساعد على الجماعة بإطالتها المستلزمة لتخلف العاجزين والضعفاء والله أعلم.

٥٢ - ومن عهد له (عليه السلام)

كتبه للأشتر النخعي رحمه الله، لما ولّاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر محمد ابن أبي بكر وهو أطول عهد، وأجمع كتبه للمحاسن

أقول : هو مالك بن الحرث الأشتر النخعي من اليمن، وكان من أكابر أصحابه عليه السلام ذوي النجدة والشجاعة الذين عليهم عمدته في الحروب، وروي أن الطرماح لما دخل على معاوية قال له : قل لابن أبي طالب : بني جمعت من العساكر بعدد حبّ جاورس الكوفة وها أن قاصده . فقال له الطرماح : إن لعلي عليه السلام ديكاً أشتر يلتقط جميع ذلك . فانكسر معاوية من قوله . وفي العهد فصول :

الفصل الأول قوله :

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

هَذَا مَا أَمَر بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَشْطَرِ ، فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ : جَبِيَّةَ خَرَاكِهَا ، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا ، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا ، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا .

أَمْرُهُ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَإِيشَارِ طَاعَتِهِ ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ : مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ الَّتِي لَا يَسْعُدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا . وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا ، وَأَنْ يَنْصُرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ ، وَيَدِهِ ، وَلِسَانِهِ ، فَإِنَّهُ - جَلَّ أَسْمُهُ - قَدْ تَكْفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ ، وَيَزْعَهَا عِنْدَ الْجَمَحَاتِ ، فَإِنَّ
النَّفْسَ أَمَارَةً بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ اللَّهُ .

أقول : يزعها : يكفها .

وصدر ^{عليه السلام} هذا العهد بذكر أمور هي غرض الولاية ، وبها يكون نظام
الأمر فمنها ما يعود إلى منفعة الوالي وهو جبوة الخراج ، ومنها ما يعود إلى
الرعية وهي جهاد عدوهم واستصلاحهم بالسياسة وحسن الرعي ، ومنها ما
يعود إليهما وهو عمارة البلاد ولواحقها . ثم أمره بأوامر خمسة يعود إلى
إصلاح نفسه أولاً :

أحدها : تقوى الله وخشيته . وقد سبق بين كونها أصلاً لكل فضيلة .

الثاني : اتباع أوامره في كتابه من فرائضه وسنته . ورغب في ذلك
بقوله : لا يسعد . إلى قوله : إضاعتها . وتكرر بيان ذلك .

الثالث : أن ينصر الله سبحانه بيده وقلبه ولسانه في جهاد العدو .
وإنكار المنكرات . ورغب في ذلك بقوله : قد تكفل . إلى قوله : أعزه .
كقوله تعالى : ﴿ إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ^(١) .

الرابع : أن يكسر من نفسه عند الشهوات . وهو أمر بفضيلة العفة .

الخامس : أن يكفها ويقاومها عند الجمحات . وهو أمر بفضيلة الصبر
عن اتباع الهوى وهو فضيلة تحت العفة ، وحذر من النفس بقوله : فإن
لنفس . إلى آخره ، وهو من قوله تعالى : ﴿ إِنْ النَّفْسُ لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ ^(٢)
الآية . و - م - بمعنى - من - وهي نصب على الاستثناء : أي إلا نفساً رحمها
الله .

الفصل الثاني : في أوامره ووصاياه بالأعمال الصالحة المتعلقة بأحوال
الولاية وتدبير الملك والمدينة وذلك قوله :

(١) ٤٧ - ٨

(٢) ١٢ - ٥٣

ثُمَّ أَعْلَمَ يَا مَالِكُ : إِنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُولُ قَبْلِكَ ، مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرِ ، وَإِنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوَلَاةِ قَبْلَكَ ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ ، وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسِنِ عِبَادِهِ ، فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الدَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، فَاْمْلِكْ هَوَاكَ ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ : الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ ، وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ إِمَّا أَخُ لَكَ فِي الدِّينِ ، وَإِمَّا نَظِيرُ لَكَ فِي الْخَلْقِ ، يَفْرُطُ مِنْهُمْ الزَّلَلُ ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَا ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ ، وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ ، وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَلَاكَ ، وَقَدْ اسْتَكْفَاكَ أَمْرُهُمْ وَابْتَلَاكَ بِهِمْ ، وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللَّهِ . فَإِنَّهُ لَا يَدِي لَكَ بِنِقْمَتِهِ ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ .

وَلَا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ ، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ مِنْهَا مَنُودُوْحَةً . وَلَا تَقُولَنَّ إِنِّي مُؤَمَّرٌ أَمْرًا فَاطَاعُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغَيْرِ ، وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ ، أَبْهَةً أَوْ مَخِيلَةً ، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللَّهِ فَوْقَكَ ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُضَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ ، وَيَكْفُ عَنْكَ مِنْ غُرْبِكَ ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ .

إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللَّهِ فِي عَظَمَتِهِ وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ .

أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوًى مِنْ رَعِيَّتِكَ . فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمُ ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ

اللَّهُ خَصَّمَهُ دُونَ عِبَادِهِ ، وَمَنْ خَاصَّمَهُ اللَّهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ وَكَانَ لِلَّهِ حَرْبًا حَتَّى يَنْزِعَ وَيَتُوبَ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ ، وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ ، مِنْ إِقَامَةِ عَلَى ظُلْمٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعُ دَعْوَةِ الْمُضْطَّهِدِينَ ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ .

وَلْيَكُنْ أَحَبُّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ . وَأَجْمَعُهَا لِرِضَا الرَّعِيَّةِ ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْجِفُ بِرِضَا الْخَاصَّةِ . وَإِنْ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَا الْعَامَّةِ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الرَّائِي مَوْوَنَةً فِي الرِّخَاءِ ، وَأَقْلَ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ ، وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ ، وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ ، وَأَقْلَ شُكْرًا عِنْدَ الْإِعْطَاءِ ، وَأَبْطَأُ عُذْرًا عِنْدَ الْمَنْعِ ، وَأَضْعَفُ صَبْرًا عِنْدَ مُلِمَاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ ، وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ ، وَجَمَاعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ ، الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ ، فَيَكُنْ صَغُوكَ لَهُمْ ، وَمَمْلِكُكَ مَعَهُمْ .

وَلْيَكُنْ أَبْعَدُ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ ، وَأَشْنُوهُمْ عِنْدَكَ ، أَطْلِبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوبًا أَلْوَالِي أَحَقُّ مِنْ سِتْرِهَا ، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ ، يَسْتُرِ اللَّهُ مِنْكَ مَا تُجِبُ سِتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حَقْدٍ ، وَأَقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وَتَرٍ ، وَتَغَابَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَصِحُّ لَكَ ، وَلَا تَعْلَنْ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ ، فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ ، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ .

وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ ، وَيَعِدُّكَ الْفَقْرَ ، وَلَا جَبَانًا يُضْعِفُكَ عَنِ الْأُمُورِ ، وَلَا حَرِيصًا يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَّ بِالْجَوْرِ ، فَإِنَّ الْبَخْلَ ، وَالْجَبْنَ ، وَالْجُرْصَ ، غَرَائِزُ شَتَّى ، يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ .

إِنْ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيرًا ، وَمَنْ شَرِكُهُمْ فِي الْآثَامِ ، فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بَطَانَةً ، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ ، وَإِخْوَانُ الظُّلْمَةِ ، وَأَنْتَ

وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلْفِ ، مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَادِهِمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ
أَصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوَنْ ظَالِمًا عَلَى ظُلْمِهِ ، وَلَا آثِمًا عَلَى إِثْمِهِ ،
أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَوْوَنَةً ، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً ، وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفًا ، وَأَقْلُّ
لِغَيْرِكَ إِلْفًا ، فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ خَاصَّةً لِمَخْلَوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ ، ثُمَّ لِيَكُنْ أَثَرُهُمْ عِنْدَكَ
أَقْوَلُهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ ، وَأَقْلَهُهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ
لَأَوْلِيَائِهِ ، وَأَقْعًا ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ . وَالصَّقُّ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصَّدَقِ ،
ثُمَّ رُضُّهُمْ عَلَى أَنْ لَا يُطْرُوكَ ، وَلَا يَبْجَحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ
الْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزُّهْوَى ، وَتُذْنِبِي مِنَ الْعِزَّةِ .

وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةِ سَوَاءٍ ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَرْهِيدًا
لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ ، وَتَذْرِيبًا لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ ، وَالزِّمُّ
كُلًّا مِنْهُمْ مَا لَزِمَ نَفْسَهُ . وَأَعْلَمُ : أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ
بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، وَتَخْفِيفِهِ الْمَوَازِينِ عَلَيْهِمْ ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ
عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قَبْلَهُمْ ؛ فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ
بِرَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَبًا طَوِيلًا . وَإِنْ أَحَقَّ مَنْ حُسْنُ
ظَنِّكَ بِهِ لِمَنْ حُسْنُ بِلَاؤُكَ عِنْدَهُ ، وَإِنْ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لِمَنْ سَاءَ بِلَاؤُكَ
عِنْدَهُ .

وَلَا تَقْضُ سَنَةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا
الْأَلْفَةُ ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرِّعْيَةُ ، وَلَا تُحْدِثَنَّ سَنَةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِيِ بَلَدِكَ
السَّنَنِ فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَهَا . وَالْوَزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا .

وَأَكْثَرُ مُدَارَسَةِ الْعُلَمَاءِ ، وَمُنَافَقَةِ الْحُكَمَاءِ ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ
بِلَادِكَ ، وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَمَّ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ .

أقول : الضاري : المعتاد للصيد ، الجريء عليه . والصفح :
الإعراض عن الذنب . والبجح - بسكون الجيم - : الفرح والسرور .
والبادرة : الحدة . والمندوحة : السعة . والإدغال : إدخال الفساد في

الأمر . ولنهك : الضعف . والأبهة ، والمخيلة : الكبر . ويطامن : يسكن .
وطماح النفس : جماحها . وطمح البصر : ارتفع . وغرب الفرس : حدته ،
وأول جريه ، والمساماة : مفاعاة من السمو . والجبروت : الكبر العظيم .
وأدحض حجته : أبطلها . وينزع : يرجع . وأجحف به : ذهب به .
والإلحاف : شدة السؤال . وملّات الدهر : ما يلّم من خطوبه . وجماع
المسلمين : جمعهم . والصغوة : الميل . وأشأنهم : أبغضهم والوتر :
الحقد : والتغابي : التجهل والتغافل وبطانة لرجل : خاصته والأصار :
الآثام . وحفلاتك : أي جلساتك في المحافل والمجامع . والإطراء : المدح
البالغ . والزهو : الكبر . والتدريب : التعويد . والمنافئة : المحدثه .

واعلم أن مدار هذا الفصل لما كان على أمره بالعمل الصالح في البلاد
والعبد نبهه أولاً على بعض العلل الغائية من ذلك ، وهو الذكر الجميل في
العقبى والكون من الصالحين ليعمل له ، وذلك بقوله : إني قد وجهت .

إلى قوله : تقول فيهم . وهو في قوة صغرى ضمير تقديرها : إنك
موجه إلى بلدة حالها كذا وكذا وحال الناس في فعلك به كذا . وتقدير
الكبرى : وكل من كان وحه إلى بلدة كذلك وكان الناس ينظرون من أمره مثل
ما كان ينظر قبله من أمر الولاة ويقولون فيه مثل ما كان يقول فيهم فيجب عليه
أن يكون أحب الأمور إليه العمل الصالح ليحصل منه الذكر الجميل بين
الناس الدال على كون لمذكور عند الله من الصالحين ، ونبه على تلك
لدلالة بقوله : وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن
عبده . وفي نسبة إجراء القول إلى الله ترغيب عظيم في تحصيل الذكر
الجميل . ثم أعقب ذلك بأمره أن يجعل العمل الصالح أحب الذخائر إليه ،
واستعار له لفظ الذخيرة باعتبار أن يحصله في الدنيا لغاية الانتفاع به في
العقبى كالذخيرة .

وما أمره بالعمل الصالح إجمالاً شرع في تفصيله وذكر أنواعاً :

أحدها : أن يملك هواه في شهوته وغضبه فلا يتبعهما ، ويشح بنفسه
عما لا يحل لها من المحرمات .

وقوله : فإن الشح . إلى قوله : كرهت .

تفسير لذلك الشح بما يلزمه وهو الإنصاف والوقوف على حد العدل في المحبوب فلا تقوده شهوته إلى حد الإفراط فيقع في رذيلة الفجور ، وفي دفع المكروه فلا يقوده غضبه إلى طرف الإفراط من فضيلة العدل فيقع في رذيلة الظلم والتهور . وظاهر أن ذلك شح بالنفس وبخل بها عن إلقتها في مهاوي الهلاك .

الثاني : أن يشعر قلبه الرحمة لرعية والمحبة واللفظ بهم . وهي فضائل تحت ملكة العفة : أي اجعل هذه الفضائل شعاراً لقلبك . ولفظاً للشعار والسبع مستعاران . وأشار إلى وجه استعارة السبع بقوله : تغتم أكلهم .

الثالث : أن يعفو ويصفح عنهم ، وهو فضيلة تحت الشجاعة .

وقوله : فإنهم . إلى قوله : في الخلق .

بيان لسببين من أسباب الرحمة لهم واللفظ بهم .

وقوله : يفرط منهم الزلل . إلى قوله : والخطأ .

تفسير للمثلية وهي السبب الثاني ، والكلام في قوة صغرى ضمير في حسن العفو ولفصح . وأراد بالعلل التي تعرض لهم الأمور المشغلة الصارفة لهم عما ينبغي من إجراء أوامر الوالي على وجوها .

وقوله : ويؤتى على أيديهم .

كناية عن كونهم غير معصومين بس هم ممن يؤتون من قبل العمد والخطأ ، وتأتي على أيديهم أوامر الولاة والمؤاخذات فيما يقع منهم من عمد أو خطأ ، وتقدير الكبرى : وكل من كان كذلك فينبغي أن يرحم ويشمل بالمحبة ذو اللطف به ويقابل خطئه بالعفو والصفح . وفي أمره بإعطاء العفو مثل الذي يجب أن يعطيه الله من عفوه أتم ترغيب في العفو وأقوى جاذب إليه ، وكذلك قوله : فإنك فوقهم . إلى قوله : وابتلاك بهم . تخويف من الله في معرض الأمر بالعفو وللفظ ، وهو صغرى ضمير آخر في ذلك .

الرابع : نهاه أن ينصب نفسه لحرب الله . وكنتى بحربه عن الغلظة على عباده وظلمهم ومبارزته تعالى فيهم بالمعصية .
وقوله : فإنه لا يدي لك . إلى قوله : ورحمته .

صغرى ضمير نبه به على أنه لا يجوز ظلم عباد الله ومحاربتهم ، وكنتى بعدم اليدين عن عدم القدرة . يقل : ما لي بهذا الأمر يد . إذا كان مما لا يطاق . وحذف النون من يدين لمضارعة المضاف ، وقيل : لكثرة لاستعمال ، وتقدير الكبرى : وكل من كان كذلك فلا يجوز أن ينصب لحرب الله بظلم عباده .

الخامس : نهاه عن الندم على العفو . وعن التبجح بعقوبة الغير والتسرع إلى الغضب الذي يجد منه مندوحة . فإن ذلك كله من لوازم إعطاء القوة الغضبية قيادها . وقد علمت أنها شيطان تقود إلى النار .

السادس : نهاه أن يأمر بما لا ينبغي الأمر به ويخالف الدين ، ونهى عن ما عساه يعرض في النفس من وجوب طاعة الخلق لإمرته فإن عليهم أن يسمعوا وعليه أن يأمر فإن ذلك فساد في القرب والدين ، وأشار إلى ذلك الفساد بقوله : فإنه إدغال إلى قوله : الغير . وهو من وجوه ثلاثة :

أحدها : أنه إدغال في القرب وصرف له عن دين الله ، وهو معنى إفساده .

الثاني : أن ذلك منهكة للدين وإضعاف له .

الثالث : أنه مفرب من الغير لكون الظلم من أقوى الأسباب المعدة باجتماع همم الخلق على زواله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (١) والكلام في قوة ثلاث صغريات لثلاثة ضمائر ، وتقدير الكبريات فيها : وكل ما كان كذلك فلا يجوز ارتكابه .
السابع : أرشده إلى دواء داء الأبهة والكبر الذي عساه يعرض له في

سبطانه وولايته ، وذلك . أن ينظر إلى عظمة الله تعالى فوقه وقدرته على ما لا يملكه من نفسه ولا يستطيعه جلب لها أو دفعاً عنها فإن ذلك يسكن داء الكبر الذي يحدث له فيطفيه ويكسر حدة غضبه ويردّه إليه ما قهرته قوته الغضبية من عقله فغرب عند جماحها ، وهذه أيضاً صغريات ثلاث لثلاثة ضمائر نبه فيها على وجوب فعل ما أرشده إليه من الدواء ، وتقدير الكبريت فيه : وكلما كان كذلك فيجب عليك فعله .

الثامن . حذره عن التعظيم والتجبر ، ونفر عن ذلك بكونهما مسامة وتشبهاً به ، وبأن التكبر يستلزم أن يذل الله صاحبه ويهينه . وتقدير الاحتجاج : فإنك إن تجبرت واختلت يذلّك الله ويهينك وهو في قوة صغرى ضمير أيضاً ، وتقدير كبراه : وكل من كان كذلك فيجب أن يحذر من الله بترك التجبر .

التاسع : أمره بإنصاف الله وإنصاف الناس من نفسه وأهل هواه من رعيته . فإنصاف الله العمل بأوامره والانتفاء عن زواجه مقابلاً بذلك نعمه ، وإنصاف الناس العدل فيهم والخروج إليهم من حقوقهم اللازمة لنفسه ولأهل خاصته . واحتج على وجوب ذلك الإنصاف بقياس مفضول صغرى الأول قوله : فإنك إن لا تفعل تظلم : أي تظلم عباد الله . وكبراه ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده . وتقدير نتيجه : فإنك إن لا تفعل كان الله خصمك دون عباده وهي صغرى لقياس آخر كبراه قوله : ومن خاصمه الله . إلى قوله : ويتوب . وتقدير نتيجه : فإنك إن لا تفعل أدحض الله حجتك عند مخاصمته وكنت له حرباً إلى أن تنزع وتوب من ظلمك .

وقوله : وليس شيء . إلى قوله : على ظلم .

تنبيه على لازم آخر لعدم لإنصاف أو الإقامة على الظلم . وهي كونه أدعى إلى تغيير نعم الله وتعجيل نقمته من كل شيء .

وقوله : فإن الله . إلى قوله : بالمرصاد .

بيان للزوم اللازم لمذكور ، وذلك أن الله سبحانه إذا كان يسمع دعوة المظلوم ويطلع على فعل الظالم فإنه يسرع إلى تغيير نعمته إذ استعد لذلك .

العاشرة : أمره أن يكون أحب الأمور إليه أقربها إلى حاق الوسط من طرفي الإفراط والتفريط وهو الحق ، وأعمها للعدل ، وأجمعها لرضاء الرعية فإن العدل قد يوقع على وجه لا يعم العامة بل يتبع فيه رضاء الخاصة . ونبه على لزوم العدل العام للرعية وحفظ قلوب العامة وطلب رضاهم بوجهين :

أحدهما : أن سخط العامة لكثرتهم لا يقاومه رضاء الخاصة لقلتهم ؛ بل يجحف به ولا ينتفع برضاهم عند سخط العامة ، وذلك يؤدي إلى وهن الدين وضعفه أما سخط الخاصة فإنه مغتفر ومستور عند رضاء العامة فكان رضاهم أولى .

الثاني : أنه وصف الخاصة بصفات مذمومة تستلزم قلة الاهتمام بهم بالنسبة إلى العامة ، ووصف العامة بصفات محمودة توجب العناية بهم . أما صفات الخاصة :

فأحدها : كونهم أثقل مؤونة على الوالي في الرخاء لتكلفه لهم ما لا يتكلفه لغيرهم .

الثاني : كونهم أقل معونة له في البلاء لمحبتهم الدنيا وعزة جانبهم .

الثالث : كونهم أكره للإنصاف لزيادة أطماعهم في الدنيا على العامة .

الرابع : وكونهم أسأل بالإلحاف لأنهم عند الحاجة إلى السؤال أشد جراً على الوالي وأطمع في إلانة جانبه .

الخامس : كونهم أقل شكراً عند الإعطاء لاعتقادهم زيادة فضلهم على العامة وأنهم أحق بما يعطونه ، واعتقادهم حاجة الوالي إليهم وتخوفه منهم .

السادس : كونهم أبطأ عذراً للوالي إن منعهم : أي أنهم أقل مسمحة له إن اعتذر إليهم في أمر لاعتقادهم فضيلة أنفسهم وكونهم واجبي قضاء الحقوق .

السابع : كونهم أضعف صبراً عند ملقات الدهر لتعودهم الترفه . وجزعهم على ما في أيديهم من الدنيا . وأما صفات العامة :

فأحدها : كونهم عمود الدين ، واستعبر لهم لفظ العمود باعتبار قيام

الدين بهم كقيام البيت بعموده .

الثاني : كونهم حماع المسلمين لكونهم الأغلب والأكثر والسواد الأعظم .

الثالث : كونهم العدة للأعداء لكثرتهم أيضاً ولأنهم كانوا أهل الحرب في ذلك الزمان . وهذه الصفات للفريقين يستلزم وجوب حفظ قلوب العامة ، وتقديمه على حفظ قلوب الخاصة . ولذلك أمره أن يكون صفوه وميئه إلى العامة .

الحادي عشر : أمر بأن يكون أبعد رعيته منه وأبغضهم إليه أطلبهم لمعائب الناس ، ونبهه على وجوب ذلك بقوله : فإن في الناس إلى قوله : سترها . وإذا كان الوالي أحق من سترها لزمه أن لا يكشف عما غاب عنه منها ، وذلك بقمع أهل النيمة وإبعادهم ، وأن يلزم ما يجب عليه وهو تطهير الخلق مما ظهر له من ذنوبهم دون ما غاب عنه ، وأكاد ذلك بالأمر بستر العورة من الغير بقدر لاستطاعة فإن كل عيب عورة . ونبه على لرغبة في ذلك بما يستلزمه من إعداد لستر الله منه ما يحب أن يستره هو بستره على رعيته من الذنوب والعيوب .

الثاني عشر : أمره بنزع الحقد وعقد ما عقده في قلبه منه لكونه من الرذائل الموبقة ، وأن يقطع أسبابه من قبول السعاية وأهل النيمة .

الثالث عشر : أن يتغافل عن كل أمر لا يتضح له ولا يقوم به برهان ، ونهه أن يعجل إلى تصديق من سعى به ، ونبه على ذلك بضمير صغراه : قوله : فإن الساعي . إلى قوله : الناصحين . ووجه غشه كونه مثير الأحقاد والضغائن بين الناس ويذيع الفاحشة والفساد في الأرض . وتقدير كبراه : وكل من كان غاشاً وجب أن لا يلتفت إليه .

الرابع عشر : نهاه أن يدخل في مشورته ثلاثة البخيل والجبان والحريص ، ونبه على وجه المفسدة في استشارة كل أحد من الثلاثة بضمير صغرى الأول : قوله : يعدل بك . إلى قوله : الفقر . وذلك أن البخيل لا

يشير إلا بما يراه مصلحة عنده وهو البخل وما يستلزمه من التخويف بالفقر ، وهو يعدل بالمستشير عن الفضل . وصغرى الثاني قوله : ليضعفك عن الأمور . لأن الجبان لا يشير إلا بوجوب حفظ النفس والتخويف من العدو وهو المصلحة التي يراها ، وكل ذلك مضعف عن الحرب ومقاومة العدو . وصغرى الثالث : قوله : يزين لك الشره بالجور . وذلك أن المصلحة عنده جمع لمال وحفظه وهو مستلزم للجور عن فضيلة العدل والقصد . وتقدير الكبرى في الثلاثة : وكل من كان كذلك فلا يجوز استشارته .

ثم نفر عن الثلاثة بضمير آخر نبه بصغراه على مبدأ رذائلهم الثلاث وهي البخل والجبن والحرص لتعرف فتجنب وتنفر عن أهلها فذكر أنها غرائز : أي أخلاق متفرقة يحصل للنفس عن أصل واحد ينتهي إليه وهو سوء الظن بالله ، وبيان ذلك أن مبدء سوء الظن بالله عدم معرفته تعالى فالجاهل به لا يعرفه من جهة ما هو جواد فيأثر بالحيرات لمن استعد بطاعته لها فيسوء ظنه به ، وبأنه لا يخلف عليه عوض ما يبذله فيمنعه ذلك مع ملاحظة الفقر من [عند] البذل وتلزمه رذيلة البخل ، وكذا الجبان جاهل به تعالى من جهة لطفه بعباده وعنايته بوجودهم وغير عالم بسر قدره فيسوء ظنه بأنه لا يحفظه من التلف ويتصور الهلاك فيمنعه ذلك عن الإقدام في الحرب ونحوها فيلزمه رذيلة الجبن ، وكذلك الحريص يجهله تعالى من الوجهين المذكورين فيسوء ظنه به ، ويعتقد أنه إذا لم يحرص الحرص المذموم لم يوصل إليه تعالى ما يصلح حاله مما يسعى فيه ويحرص عليه فيبعثه ذلك على الحرص . وكذلك النفس . فكانت هذه الأخلاق الثلاثة لمذمومة راجعة إلى ما ذكره الله .

الخامس عشر : لما كان من الأعمال الصالحة اختيار الوزراء والأعوان نبهه على من لا ينبغي استصلاحه لذلك ليجتنبه ومن ينبغي ليرغب فيه . فمن لا ينبغي هو من كان للأشرار من الولاية قبله وزيراً ومشاركاً لهم في الآثام ، ونهاه عن اتخاذ بطانة وخاصة له ، ونفر عنهم بضمير صغراه قوله : فإنهم : إلى قوله : الخلف . وتقدير كراه : وكل من كان كذلك فلا تتخذ بطانة .

وقوله : ممن له مثل آرائهم .

تميز لمن هو خير الخلف من الأشرار وهم الذين ينبغي أن يستعان بهم ، وبيان لوجه خيريتهم بالنسبة إلى الأشرار ، وهو أن يكون لهم مثل آرائهم ونفادهم في الأمور ، وليس عليهم مثل آصارهم ولم يعاون ظالماً على ظلمه . ثم رغب في اتخاذ هؤلاء أعواناً بضمير صغراه قوله : أولئك أخف . إلى قوله : إلفاً . أما أنهم أخف مؤونة فلأن لهم رادعاً من أنفسهم عما لا ينبغي لهم من مال أو حال فلا يحتاج في إرضائهم أو ردعهم مما لا ينبغي إلى مزيد كلفة بخلاف لأشرار والطامعين فيما لا ينبغي . وبحسب قربهم إلى الحق ومجانبتهم للأشرار كانوا أحسن معونة وأثبت عنده قلوباً وأشد حنواً عليه وعطفاً وأقل لغيره إلفاً ، وتقدير كبراه : وكل من كان كذلك فينبغي أن يتخذ عوناً ووزيراً ولذلك قال : فاتخذ أولئك خاصة لخلوتك وحفلاتك . ثم ميز من ينبغي أن يكون أقرب هؤلاء إليه وأقواهم في الاعتماد عليه بأوصاف أخص :

أحدها : أن يكون أقولهم بمر الحق له .

الثاني : أن يكون أقلهم مساعدة له فيما يكون منه ، ويقع من الأمور التي يكرهها لله لأوليائه . وانتصب قوله : واقعاً على الحال : أي في حال وقوع ذلك القول منه والنصيحة وقلة المساعدة حيث وقع من هواك سواء كان في هوى عظيم أو يسير ، أو حيث وقع هواك : أي سواء كان ما تهواه عظيماً أو ليس ، ويحتمل أن يريد واقعاً عظيماً أو ليس ، ويحتمل أن يريد واقعاً ذلك الناصح من هوك ومحبتك حيث وقع : أي يجب أن يكون له من هواك موقعاً . ثم أمره في اعتبارهم واختيارهم بأوامر :

أحدها : أن يلازم أهل الورع منهم والأعمال الجميلة وأهل الصدق . وهما فضيلتان تحت العفة .

الثاني : أن يروضهم ويؤدبهم بالنهي عن الإطراء له ، أو يوجبوا له سروراً بقول ينسبونه فيه إلى فعل ما لم يفعله فيدخلونه في ذم قوله تعالى : ﴿ ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا ﴾^(١) ونفره عن كثرة الإطراء بضمير

صغراه قوله : فإن كثرة الإطراء إلى قوله : الغرة . واستلزام الإطراء للرديلتين المذكورتين ظاهر ، وتقدير الكبرى : وكلما كان كذلك فيجب اجتنابه .

الثاني : نهاه أن يكون المحسن والمسيء عنده بمنزلة سواء ، ونفر عن ذلك ببيان وجه المفسدة في ضمير صغراه قوله : فإن ذلك . إلى قوله : الإساءة . وسره أن أكثر فعل الإحسان إنما يكون طلباً للمجازاة بمثله خصوصاً من الولاة وطلباً لزيادة الرتبة على الغير وزيادة الذكر الجميس مع أنواع من الكلفة في ذلك . فإذا رأى المحسن مساواة منزلته لمنزلة المسيء كان ذلك صارفاً عن الإحسان وداعياً إلى الراحة من تكلفه ، وكذلك أكثر التاركين للإساءة إنما يتركون خوف من الولاة وإشفاقاً من نقصان الرتبة عن النظر فإذا رأى المسيء مساواة مرتبته مع مرتبة المحسنين كان التقصير به أولى : وتقدير الكبرى : وكل ما كان فيه تزهيد للإحسان وتدريب على الإساءة فينبغي أن يجتنب .

ثم أكد ذلك بأمره أن يلزم كلاً من أهل الإحسان والإساءة بما ألزم به نفسه من الاستعداد بالإحسان والإساءة لهما فيلزم المحسن منزلة الإحسان ويلزم المسيء منزلة الإساءة .

السادس عشر : نهيه على الإحسان إلى رعيته وتخفيف لمؤونات عنهم وترك استكراههم على ما ليس له قبلهم بما يستلزمه ذلك من حسن ظنه بهم لمستلزم لقطع النصب عنه من قبلهم والاستراحة إليهم ، وذلك أن الوالي إذا أحسن إلى رعيته قويت رغبتهم فيه وأقبلوا بطباعهم على محبته وطاعته ، وذلك يستلزم حسن ظنه بهم فلا يحتاج معهم إلى كلفة في جمع أهوائهم والاحتراس من شرورهم ، وأكد ذلك بقوله : وإن أحق من يحسن ظنك به . إلى قوله : عنده .

السابع عشر : نهاه أن ينقض سنة صالحه عمل بها السلف الصالح من صدور هذه الأمة واجتمعت بها الألفة وصلاح الرعية ، وذلك مفسدة ظاهرة في الدين .

الثامن عشر : نهيه أن يحدث سنة تضر بشيء من ماضي السنن .
وأشار إلى وجه الفساد فيها بضمير صغراه قوله : فيكون . إلى قوله : سنّها .
والضمير في منها يعود إلى السنن التي دخل عليها الضرر فيكون الأجر لمن
سنّ السنة الماضية التي أضرت بها ستتك الحادثة والوزر عليك بما نقضت
منها ، وتقدير كبراه : فكل ما كان كذلك فينبغي أن يجتنب وينفر عنه .

التاسع عشر : أمره أن يكثر مدارس العلماء . أي بأحكام الشريعة
وقوانين الدين ، ومنافثة الحكماء : أي العارفين بالله وبأسراره في عباده وبلاده
العاملين بالقوانين الحكمية العملية التجريبية والاعتبارية ، ويتصفح أنواع
الأخبار في تثبت القواعد والقوانين التي يصلح عليها أمر بلاده ، وإقامة ما
استقام به الناس قبله منها . وبالله التوفيق .

الفصل الثالث : في التنبيه على طبقات الناس الذين ينتظم بهم أمر
المدينة ، ووضع كل على حدة وطبقته التي يقتضي الحكمة النبوية وضعه
فيها ، والإشارة إلى تعلق كل طبقة بالأخرى حيث لا صلاح لبعضهم إلا
بالبعض وبذلك يكون قوام المدينة ، ثم بالإشارة إلى من يستصلح من كل
صنف وطبقة يكون أهلاً لتلك المرتبة ، والوصية في كل ما يليق به . وذلك
قوله :

وَأَعْلَمُ : أَنَّ الرِّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ ، وَلَا غِنَى
بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ : فَمِنْهَا جُنُودُ اللَّهِ ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ ، وَمِنْهَا
قُضَاةُ الْعَدْلِ ، وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنْصَافِ وَالرَّفْقِ ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجَزْيَةِ وَالْخَرَاجِ
مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصَّنَاعَاتِ ، وَمِنْهَا
الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْمَسْكِنَةِ ، وَكُلًّا قَدْ سَمَى اللَّهُ سَهْمَهُ .
وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ فَرِيضَةً فِي كِتَابِهِ ، أَوْ سُنَّةَ نَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -
عَهْدًا مِنْهُ عِنْدَنَا مُحْفُوظًا .

فالجُنُودُ ؛ بِإِذْنِ اللَّهِ حُصُونُ الرِّعِيَّةِ ، وَزَيْنُ الْوَلَاةِ ، وَعِزُّ الدِّينِ ،
وَسُبُلُ الْأَمْنِ . وَلَيْسَ تَقُومُ الرِّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ ، ثُمَّ لَا قِيَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ

اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقَوُّونَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ
فِيمَا يُصْبِحُهُمْ ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ ، ثُمَّ لَا قِيَامَ لِهَذِهِ الصَّنَفَيْنِ إِلَّا
بِالصَّنَفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقَضَاةِ وَالْعُمَلِ وَالْكِتَابِ ، لِمَا يُحْكُمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ ،
وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ . وَيُؤْتَمِنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا ، وَلَا قِيَامَ
لَهُمْ جَمِيعًا إِلَّا بِالتَّجَارِ وَذَوِي الصَّنَاعَاتِ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ ،
وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ ، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفِّقِ بِأَيْدِيهِمْ مَا لَا يَبْلُغُهُ رَفْقُ
غَيْرِهِمْ .

ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمُسْكِنَةِ الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ
وَمَعُونَتُهُمْ وَفِي اللَّهِ بَكْلٌ سَعَةٌ ، وَلِكُلِّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ . فَوَلِّ
مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ ، وَأَنْقَاهُمْ جَبِيًّا ،
وَأَفْضَلَهُمْ جَلَمًا مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ ، وَيُسْتَرْبِحُ إِلَى الْعُذْرِ ، وَيَرَأْفُ
بِالضُّعْفَاءِ ، وَيَنْبُو عَلَى الْأَقْوِيَاءِ ، وَمِمَّنْ لَا يُبِيرُهُ الْعُنفُ وَلَا يَقَعُدُ بِهِ الضُّعْفُ .

ثُمَّ الْأَصَوُّ بِذَوِي الْأَحْسَابِ ، وَأَهْلُ الْبَيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ ، وَالسَّوَابِقِ
الْحَسَنَةِ ، ثُمَّ أَهْلُ النَّجْدَةِ ، وَالشَّجَاعَةِ ، وَالسَّخَاءِ ، وَالسَّمَاخَةِ ، فَإِنَّهُمْ
جَمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ ، وَشَعْتُ مِنَ الْعُرْفِ ، ثُمَّ تَفَقَّدُ مِنْ مُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ
الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا ، وَلَا يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ ، وَلَا تَحْقِرَنَّ
لُطْفًا تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ ، وَإِنْ قَلَّ ، فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ ،
وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ . وَلَا تَدْعُ تَفَقَّدَ لَطِيفِ مُورِهِمْ اتِّكَالًا عَلَى جَسِيمِهَا ، فَإِنَّ
لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْضِعًا لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ .

وَلْيَكُنْ أَثَرُ رُؤُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ
مِنْ حِدَّتِهِ ، بِمَا يَسْعُهُمْ ، وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ ، مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ ، حَتَّى
يَكُونَ هُمُومُهُمْ هَمًّا وَاحِدًا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ ، فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ
عَلَيْكَ ، وَإِنْ أَفْضَلَ قُرَّةَ عَيْنِ الْوَلَاةِ أَسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ

الرَّعِيَّةُ ، وَإِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةِ صُدُورِهِمْ ، وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحَيْطَتِهِمْ عَلَى وُلاَةِ الْأُمُورِ وَقِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُولِهِمْ ، وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مَدَّتِهِمْ ، فَافْسَحْ فِي أَمَالِهِمْ ، وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلَاءِ مِنْهُمْ ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَعْمَالِهِمْ تَهْزُ الشُّجَاعَ ، وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ثُمَّ أَعْرِفْ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى ، وَلَا تُضِيفَنَّ بَلَاءَ أَمْرٍ إِلَى غَيْرِهِ ، وَلَا تُقْصِرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ ، وَلَا يَدْعُونَكَ شَرَفُ أَمْرٍ إِلَى أَنْ تُعْظَمَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيرًا . وَلَا ضَعْفُ أَمْرٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيمًا .

وَرَدَّدْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ وَيَشْتَبِيهِ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ . فَلَرُدُّْ إِلَى اللَّهِ : الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ ، وَالرُّدُّ إِلَى الرَّسُولِ : الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرَّقَةِ .

ثُمَّ اخْتَرِ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ ، مِمَّنْ لَا تُضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ ، وَلَا تُمَجِّكُهُ الْخُصُومُ ، وَلَا يَتِمَادَى فِي الزَّلَّةِ ، وَلَا يَحْصُرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ ، وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ ، وَلَا يَكْتَفِي بِأَذْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ : وَأَوْقِفْهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ ، وَآخِذْهُمْ بِالْحُجَجِ ، وَأَقْلِبْهُمْ تَبَرُّمًا بِمُرَاجَعَةِ الْخُصَمِ ، وَأَصْبِرْهُمْ عَلَى تَكْشُفِ الْأُمُورِ ، وَأَصْرَمْهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ ، مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهُ إِطْرَاءُ ، وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءُ ، وَأُولَئِكَ قَلِيلٌ ، ثُمَّ أَكْثَرُ تَعَاهُدِ قَضَائِهِ ، وَأَفْسَحُ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ ، وَثَقِيلُ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ ، وَأَعْطَاهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ ، مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ أَغْيَالُ الرَّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ ، فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا بَلِيغًا ،

فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أُسِيرًا فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى ، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا .

ثُمَّ أَنْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَالِكَ : فَاسْتَعْمِلْهُمْ أَحْتِبَارًا ، وَلَا تُؤَلِّهِمْ مُحَابَاةً وَآثَرَةً ، فَإِنَّهُمْ جَمَاعٌ مِنْ شُعْبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ ، وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجَرِبَةِ وَالْحَيَاءِ ، مِنْ أَهْلِ الْبَيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ ، وَالْقَدَمِ فِي الْإِسْلَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ . فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقًا ، وَأَصَحُّ أَغْرَاضًا ، وَأَقْلُّ فِي الْمَطَامِعِ إِشْرَافًا ، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظْرًا . ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ ، وَغِيٍّ لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ ، أَوْ تَلَمَّعُوا أَمَانَتَكَ . ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ ، وَابْتَغِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ تَعَاهُذَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ ، عُذْوَةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ ، وَالرَّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ وَتَحَفُّظِ مَنْ لِأَعْوَانٍ ، فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ ، اخْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُوبِكَ ، كَتَفَتِ بِذَلِكَ شَاهِدًا . فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَضَابَ مِنْ عَمَلِهِ ، ثُمَّ نَضَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلِّ ، وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ ، وَقَلَّدْتَهُ غَارَ التُّهْمَةِ .

وَتَفَقَّدْ مَرَّ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ ، فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحًا لِمَنْ سِوَاهُمْ ؛ وَلَا صَلَاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ . وَيَكُنْ نَظْرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغُ مِنْ نَظْرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ ، وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَحْرَبَ الْبِلَادَ ، وَأَهْلَكَ الْعَبْدَ ، وَلَمْ يَسْتَقِمَّ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلًا ؛ فَإِنْ شَكُوا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً ، أَوْ انْقِطَاعَ شَرْبٍ ، أَوْ بَالَةً ، أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ ، أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ ، خَفَّتْ عَنْهُمْ بِمَا تَرَجُّو أَنْ يُصْلِحَ بِهِ أَمْرُهُمْ . وَلَا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّتْ بِهِ الْمَوْوَنَةُ عَنْهُمْ ، فَإِنَّهُ دُخْرٌ يُعَوِّدُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلَادِكَ ، وَتَرْبِيَةِ وَلَائِكَ ، مَعَ اسْتِجْلَابِكَ حُسْنِ ثَنَائِهِمْ ، وَتَبَجُّحِكَ

بِاسْتِيفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ ، مُعْتَمِدًا فَضْلَ قُوَّتِهِمْ ، بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ
إِجْمَامِكَ لَهُمْ ، وَالثِّقَةِ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ فِي رِفْقِكَ بِهِمْ .
فَرُبَّمَا حَدَّثَ مِنَ الْأُمُورِ ، مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدِ ، أَحْتَمِلُوهُ طَبِيعَةً
نَفْسِهِمْ بِهِ ، فَإِنَّ الْعُمَرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَلْتَهُ ، وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الْأَرْضِ مِنْ
إِعْوَارِ أَهْلِهَا ، وَإِنَّمَا يُعَوِّزُ أَهْلُهَا لِإِشْرَافِ أَنْفُسِ الْوَلَاةِ عَلَى الْجَمْعِ ، وَسُوءِ
ظُهُمِ بِالْبَقَاءِ ، وَقِلَّةِ انْتِفَاعِهِمْ بِالْعَبْرِ .

ثُمَّ أَنْظُرْ فِي حَالِ كُتَابِكَ قَوْلَ عَلَى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ ؛ وَأَخْصُصْ رَسَائِلَكَ
الَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَاثِدَكَ وَأَسْرَارَكَ ، بِأَجْمَعِهِمْ لَوُجُوهِ صَالِحِ الْأَخْلَاقِ ، مِمَّنْ
لَا تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ . فَيَجْتَرِءُ بِهَا عَلَيْكَ ، فِي خِلَافٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلَأَ ، وَلَا
تُقَصِّرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مَكَاتِبَاتِ عُمَلِكَ عَلَيْكَ ، وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى
الصَّوَابِ عَنْكَ ، فِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِي مِنْكَ ، وَلَا يُضْعِفُ عَقْدًا اعْتَقَدَهُ
لَكَ ، وَلَا يَعْجِزُ عَنْ إِطْلَاقِ مَا عَقَدَ عَلَيْكَ ، وَلَا يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي
الْأُمُورِ ؛ فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلُ ، ثُمَّ لَا يَكُنْ اخْتِيَارُكَ
إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَسِتْنَامَتِكَ وَحُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ ، فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّفُونَ
لِفِرَاسَاتِ الْوَلَاةِ بِتَصْنُعِهِمْ ، وَحُسْنِ خِدْمَتِهِمْ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ
وَالْأَمَانَةِ شَيْءٌ ، وَلَكِنْ اخْتَبَرَهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ ، فَاعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَنْ
فِي الْعَامَّةِ أَثَرًا ، وَاعْرِفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهًا ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ لِلَّهِ
وَلِمَنْ وَلِيَتْ أَمْرَهُ ، وَاجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْسًا مِنْهُمْ ، لَا يَقْهَرُهُ
كَبِيرُهَا . وَلَا يَتَشَتَّتْ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا ، وَمَهْمَا كَانَ فِي كُتَابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَايَبَتْ
عَنْهُ الزِّمَّتُهُ .

ثُمَّ اسْتَوْصِرْ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصَّنَاعَاتِ وَأَوْصِرْ بِهِمْ خَيْرًا : الْمَقِيمِ
مِنْهُمْ ، وَالْمُضْطَرِّبِ بِمَالِهِ ، وَالْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ ، فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ وَأَسْبَابُ
الْمَرَافِقِ ، وَجُلَابُهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ وَالْمَطَارِحِ ، فِي بَرَكَ وَبَحْرِكَ ، وَسَهْلِكَ
وَجَبَلِكَ ، وَحَيْثُ لَا يَلْتَمِئُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا ، وَلَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْهَا ، فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ

لَا تُخَافُ بَائِقَتَهُ ، وَصَلِّحْ لَا تُخْشَى غَائِلَتَهُ ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ ، وَفِي حَوَاشِي بِلَادِكَ ، وَاعْلَمْ - مَعَ ذَلِكَ - أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضَيْقًا فَحِشًا ، وَشَحًّا قَبِيحًا ، وَاحْتِكَارًا لِلْمَنَافِعِ ، وَتَحَكُّمًا فِي الْبِيَاعَاتِ ، وَذَلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ ، وَعَيْبٌ عَلَى الْوَلَاةِ ، فَاَمْنَعُ مِنَ الْإِحْتِكَارِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَنَعَ مِنْهُ ، وَلَيْكُنِ الْبَيْعُ بَيْعًا سَمَحًا ، بِمَوَازِينٍ عَدْلٍ وَأَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ ، فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً ، بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ ، فَتَكَلَّ بِهِ ، وَعَاقِبَهُ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ .

ثُمَّ اللَّهُ اللَّهُ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ ، وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْمُحْتَاجِينَ ، وَأَهْلَ الْبُؤْسَى وَالزُّمْنَى فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعًا وَمُعْتَرًّا ، وَاحْفَظْ لَهُ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْمًا مِنْ بَيْتِ مَالِكَ ، وَقِسْمًا مِنْ غَلَّتِ صَوَافِي الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَدْنَى ، وَكُلُّ قَدٍ اسْتُرْعِيَتْ حَقُّهُ ، فَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطْرٌ ، فَإِنَّكَ لَا تُعْذِرُ بِتَضْيِيعِكَ التَّائِفَةَ لِأَحْكَامِكَ ، الْكَثِيرِ الْمُهْمِّ ، فَلَا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ . وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ ، وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ ، فَفَرِّغْ لِأَوْلِيكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَلِتَوَاضِعِ ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ ، ثُمَّ أَعْمَلْ فِيهِمْ بِالْإِعْذَارِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ تَلْقَاهُ ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ بَيْنِ الرِّعِيَةِ أَحْوَجُ إِلَى الْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ . وَكُلُّ فَاعْذِرٍ إِلَى اللَّهِ فِي تَادِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ ، وَتَعَهَّدُ أَهْلَ الْيَتَمِ وَذَوِي الرِّقَةِ فِي السَّنِّ مِمَّنْ لَا حِيلَةَ لَهُ ، وَلَا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ . وَذَلِكَ عَلَى الْوَلَاةِ ثَقِيلٌ وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ ، وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللَّهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَرُوا أَنْفُسَهُمْ . وَوَثَّقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللَّهِ لَهُمْ .

أقول : المعاهد : جمع معقد مصدرأ . والمرافق : المنافع . وتفاقم الأمر : عظم . والخلوف : المتخلفون جمع - خلف بالفتح - . والحيطة : الشفقة . ويضلعك : يثقلك . والمحك : اللجاج . والحصر : العي

والعجز . والتبرم : التضجر . والازدهاء : افتعال من الزهو وهو الكبر .
والإطراء : كثرة المدح . والاغتيال : الأخذ على غرة . والمحابة : المعاطاة
والمقاربة فيها . والأثرة : الاستبداد . والجماع : الجمع . والتوخي :
التقصّد . والحدوة : الحث . والشرب : النصيب من الماء . والبالّة : القليل
من الماء يبلّ به الأرض . وأحالت الأرض : تغيّرت عما كانت عليه من
الاستواء فلم ينحّب زرعها ولا أثمر نخلها . والإجمم : الإراحة . ومعتمد :
قاصد . والإعواز : الفقر . واستنام إلى كذا : سكن إليه . والمترفق : طالب
الرفق من التجارة . والمطارح : جمع مطرح وهي الأرض البعيدة . والبائقة
الداهية . والغائلة : لشر . والاحتكار : حبس المنافع عن الناس عند الحاجة
إليه . والبؤسى : الشدة . والقانع : السائل . والمعتر : الذي يتعرض
للعطاء من غير سؤال . والصوافي : - جمع صافية - وهي أرض لغنيمة .
والتافه : الحقير . وأشخص همه : رفعه . وتصعير الخدّ : إمالته كبراً .
وتقتحمه : تزدريه . وأعذر في الأمر : صار ذا عذر فيه .

واعلم أن في الفصل أبحاثاً :

الأول : أنه قسم أهل المدينة إلى سبع طبقات ، وحكم بأنه لا يصلح
بعضها إلّا ببعض على ما بيّنه .

وقوله : من أهل الذمة ومسلمة الناس .

تفصيل للأهل الأول . فأهل الذمة تفسير لأهل الجزية ، ومسلمة الناس
تفسير لأهل الخراج ، ويجوز أن يكون تفسيراً لأهل الجزية والخراج لأن
للإمام أن يقبل أرض الخراج من سائر المسلمين وأهل الذمة ، وأراد بالسهم
الذي سماه الله لكل منهم الاستحقاق لكل من ذوي الاستحقاق في كتابه
إجمالاً من الصدقات كالفقراء والمساكين وعمّال الخراج والصدقة وفصله في
سنة نبيه ﷺ . وحدّه الذي وضع الله عليه عهداً آمنه عند أهل بيت نبيه هو
مرتبه ومنزلته من أهل المدينة الذين لا يقوم إلّا بهم فإن للجندي منزلة وحداً
محدوداً لا يجوز له تعديه ، وفريضته وقوفه عنده والعمل بم يلزم تلك
المرتبة ، وكذلك الكتاب والعمال والقضاة وغيرهم فإن لكل منهم حداً يقف

عنده ، وفريضة يلزمها عليها عهد من الله محفوظ عند نبيه وأهل بيته عليهم السلام اشتملت عليها الشريعة .

البحث الثاني : أنه نبه بقوله : فالجنود بإذن الله . إلى قوله : معونتهم . على أن لكل من الأصناف المذكورة تعلق بالآخر بحيث لا يقوم إلا به ، والحاجة إليه ضرورية . وبمجموعهم يقوم صورة المدينة . فبدأ بالجنود لأنهم الأصل وذكر وجه الحاجة إليهم في أربعة أوصاف :

أحدها : كونهم حصون الرعية ، واستعار لهم لفظ الحصون باعتبار حفظهم للرعية وحياطتهم لهم كالحصص .

الثاني : أنهم زين الولاية فإن الوالي بلا جند كأحد الرعية لا يسالي به ولا يطاع له أمر . والمفسدة فيه ظاهرة .

الثالث : كونهم عز الدين ، واطلق لفظ لعز عليهم إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه . إذ كان العز للدين لازماً لوجودهم .

الرابع : استعار لفظ الأمن لهم باعتبار لروم الأمن لوجود الجند في الطرق ونحوها . والكلام في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان كذلك فليس تقوم الرعية إلا به .

وقوله : وليس تقوم لرعية إلا بهم .

نتيجة القياس المذكور . وقال : بإذن الله . لينبه على أنه أراد جنود الحق الذين هم مقتضى الحكمة لا مطلق الجنود .

الثاني : أهل الخراج ومن يؤخذ منهم ، وأشار إلى وجه استلزام الحاجة إلى الجند للحاجة إليهم بقوله : ثم لا قوام للجنود . إلى قوله : حاجتهم .

فقوله : لا قوام . إلى قوله : الخراج . دعوى .

وقوله : الذين يقوون . إلى قوله : حاجتهم .

في قوة صغرى ضمير نبه به عليها ، وتقدير كبراه : وكل ما كان كذلك

فلا قوام للجند إلا به . فينتج لا قوام للجند إلا بما يخرج الله لهم من الخراج ، ولم كان الخراج إنما يحصل من جماعة من الرعية ولا يقوم الجند إلا بهم .

الثالث : القضاة والعمال والكتاب وجمعهم لأن وجه الحاجة إليهم واحد ، وأُشير إليه بقوله : لما يحكمون به . إلى قوله : وعوامها . فإنهم أمناء الوالي والرعية على ما يعتمهم من الأمور أو يخص كلاً منهم ، وعلى أيديهم تكون أحكام العقود وجمع المنافع وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان كذلك فحاجة الجند والرعية إليه ضرورية .

الرابع : التجار وذوي الصناعات ، وادّعى أنه لا قوام للأصناف السابقة إلا بهم ونبه على ذلك بقوله : فيما يجتمعون عليه من مرافقهم فإن كل ما يفعله التجار من جلب الأمتعة وبيعها وشرائها وقيّمونه من الأسواق بذلك وما يفعله الصناع من المنفعة بأيديهم مما لا يحصل من غيرهم الانتفاع به فهي مرافق ومنافع للرعية في مقام حاجتهم وضرورتهم وهو في قوة صغرى ضمير كبراه ما سبق .

الخامس : الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة ، ونبه على وجه الحاجة إليهم بقوله : الذين يحق رفدهم ومعونتهم . وبيان ذلك أن رفد هؤلاء ومعونتهم يستلزم اجتماع همهم وتوافر دواعيهم لرافدهم ومعينهم وبهم تستنزل الرحمة وتستدر البركة من الله تعالى لأهل المدينة ويدرك الثواب الآخروي . فكانت الحاجة إليهم داعية لذلك . ولما أشار إلى وجه الحاجة إلى جميعهم قال : وفي الله لكل سعة : أي في وجود الله وعنايته . ليعتمد على الله في تدبير أمورهم . إذ هو تعالى رب العناية الأولى وقال : ولكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه . ليعلم أن مراعاة كل منهم واجبة عليه فيشتمل عليها . وبالله التوفيق .

البحث الثالث : في أمره باستصلاح كل صنف بأوصاف يجب أن يكون عليها ، ونصبه في مقامه :

فالصنف الأول : الجند : وأُشير إلى تعيين من يصلح لهذه المرتبة

بأوصاف ، وأمره ونهيه فيهم بأوامر ونواهي أما الأوصاف :

فأحدها : من كان أنصح في نفسه لله ولرسوله وإمامه جيباً أي أكثرهم أمانة في العمل بأوامر الله ورسوله وإمامه . وناصح الجيب كناية عن الأمين .

الثاني : أفضلهم حِلماً . ثم وصف ذلك الأفصل فقال : مَن يَطيء عن الغضب ويستريح إلى العذر فيقبله إذا وجده ، ويرأف بالضعفاء فلا يغلظ عليهم ، وينبو على الأقوياء : أي يعلو عليهم ويتجنب الميل إليهم على من دونهم ، ممن لا يثيره العنف : أي لا يكون له عنف فيثيره كقوله : ولا أرى الضب بها فينحجر . وقيل : لا يهيجه العنف ولا يزعجه إذا فعل ، ولا يقعد به الضعف عن إقامة حدود الله وأخذ الحقوق من الظالمين أي لا يكون له ضعف فيقعه عن ذلك .

الثالث : من كان من أهل الأحسب والبيوتات الصالحة والسوابق الحسنة من الأحوال والأفعال والأقوال لخيرية .

الرابع : من يكون من أهل النجدة والشجاعة .

الخامس : من يكون من أهل السحاء والسماحة .

وأما الأوامر :

ثأحدها : أن يولي من لجند من كان بهذه الصفات .

الثاني : أن يلصق بمن ذكر منهم : أي يلزمهم في هذه المرتبة . ورغب فيهم بقوله : فإنهم . إلى قوله : من العرف . ووصفهم بكونهم جماع من الكرم وشعب من العرف إطلاقاً لاسم اللازم على مزومه . إذا كان الجماع من الكرم وهو الفضائل المذكورة لازمة لهم . والأمانة والسخاء والسماحة فضائل تحت العفة . والحلم والنجدة فضيلتان تحت الشجاعة . ويحتمل أن يكون الضمير في قوله : فإنهم . عائداً إلى الفضائل المذكورة كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾ يشير إلى الأصنام .

الثالث : أن يتفقد من أمورهم ومصالحهم ما يتفقده الوالدان ، وهو كناية عن نهاية الشفقة عليهم .

الرابع : نهاه أن يعظم في نفسه شيء يقويهم به من مال أو نفع فيدعوه إلى التقاصر في حقهم .

الخامس : وأن لا يحتقر لطفاً يتعاهد بهم به فيحمله احتقاره على تركه واحتج لألوية فعله وإن قل بقوله : فإنه داعية . إلى قوله : الظن بك . وتقدير كبرى هذا الضمير : وكلما كان كذلك فالأولى بك فعله .

السادس : نهاه أن يدع تفقد الصغير من أمورهم اعتماداً على تفقد عظيمها . واحتج لألوية فعله بقوله : فإن اليسير . إلى قوله : موقعاً لا يستغنون عنه . والمعنى ظاهر . فإن موضع اليسير المنتفع به لا يستغنى فيه عن الجسيم . وتقدير كبرى هذا الضمير : وكلما كان له موضعاً ينتفع به فالأولى فعله في موضعه لينتفع به .

السابع : أمره أن يكون أثر رؤوس جنده عنده من كان بالصفات المذكورة وهو الذي يواسي من تحت يده من الجند فيما يحصل له من السعونة ، ويفضل عليهم مما في يده بما يسعهم ويسع من ورائهم من ضعفاء أهلهم وحلوفهم حتى يكون بذلك همهم واحداً فيكونوا بمنزلة رجل واحد في جهاد العدو . ثم رغب في العطف عليهم بما يستلزمه من عطف قلوبهم عليه وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان مستلزماً لعطف قلوبهم ففعله واجب ومصلحة . وأيضاً لما كانت صحة محبتهم من أهم المطالب بين أنهم لا يتم إلا بأمور ثلاثة :

أحدها : حيطهم ومحافظةهم ولاة أمورهم .

الثاني : قلة استئصال دولهم .

الثالث : أن يتركوا سبطاء انقطاع مدة دولهم ، وذلك في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وما لا يتم أهم المطالب إلا به كان من أهم المطالب .

الثامن : أمره أن يفسح لهم : أي يجعل لهم من نفسه طمعاً يفتسح به آمالهم فيه لأن ذلك مما لا يتم الأمور الثلاثة المذكورة إلا به ولذلك رتب هذا الأمر عليها بالفاء .

التاسع : أمره أن يواصل من حسن الثناء عليهم وتعدد ما أبلى ذوو البلاء منهم واحتج لوجوب ذلك بقوله : فإن كثرة الذكر . إلى قوله : إنشاء الله . وهو ظاهر والقضية في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان كذلك كان واجباً .

العاشر : أمره أن يعرف لكل امرئ ما أبلى وينسبه إليه لأنه يهز الشجاع ويشجع الجبان .

الحادي عشر : نهاه أن يضم بلاء امرئ إلى غيره .

الثاني عشر : وأن يقصر به دون غاية بلائه فيذكر بعضه أو يحقره .

الثالث عشر : وأن يدعوه شرف امرئ إلى أن يعظم صغير بلائه ، أو ضعة امرئ أن يستصغر كثير بلائه فإن كل ذلك داعية الكسل والفتور عن الجهاد .

الرابع عشر : أمره أن يرد إلى الله ورسوله ما يضلعه من الخطوب ويشته عليه من الأمور محتجاً بالآية . ثم فسر الرد إلى الله بالأخذ بمحكم كتابه ، والرد إلى الرسول بالأخذ بسنته . ووصف السنة بكونها جامعة لأن مدارها على وجوب الألفة واجتماع الخلق على طاعة الله وسلوك سلوكه .

الصف الثاني : قضاة العدل وعينهم له بأوصاف وأمره فيهم بأوامر :

أما التعيين فأوجب أن يكون أفضل رعيته في نفسه ، وميز ذلك الأفضل بصفات :

أحدها : أن يكون ممن لا يضيق به لأمر فيحار فيها حين تورد عليه .

الثاني : وممن لا يمحكه الخصوم : أي يغلبه على الحق باللجاج . وقيل : ذلك كناية عن كونه ممن يرتضيه الخصوم فلا تلاجه ويقبل بأول قوله :

الثالث : أن لا يتمادي في زلته إذا زل فإن الرجوع إلى الحق خير من التماذي في الضلال .

الرابع : أن لا يحصر من الرجوع إلى الحق إذا عرفه كما يفعله قضاة

السوء حفظاً للجاء وخوفاً من شناعة الغلط .

الخامس : أن لا تشرف نفسه على طمع فإن الطمع في الناس داعية الحاجة إليهم والميل عن الحق .

السادس : أن لا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه لأن ذلك مظنة الغلط .

السابع : أن يكون أوقف الناس عند الشبهات لأنها مظنة الوقوع في المآثم .

الثامن : وأخذهم بالحجج .

التاسع : وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم لما يستلزمه التبرم من تضييع الحقوق .

العاشر : وكذلك وأصبرهم على تكشف الأمور .

الحادي عشر : وأصرمهم عند اتضاح الحق فإن في التأخير آفات .

الثاني عشر : وممن لا يحدث له كثرة لمدح كبراً .

الثالث عشر : وممن لا يستميله إلى غير الحق إغراء به ثم حكم بقلة من تجتمع فيه هذه الصفات تنبيهاً على أن فيها ما هو أولى دون أن يكون شرطاً في القضاء .

وأما الأوامر :

فأحدها : أن يختار من كان بالصفات المذكورة .

الثاني : أن يكثر تعاهد قضائه ليقطع طمعه في الانحراف عن الحق لو خطر بباله .

الثالث : أن يفسح له في البذل ما يزيل علة ، وهو كناية عما يكفيه ويقل معه حاجته إلى الناس فلا يميل إليهم ، و- ما - يحتمل أن يكون بدلاً من البذل ، وأن يكون مفعولاً لفعل محذوف دلّ عليه البذل كأنه قال : فيبذل له ما يزيل علة ، وأن يكون مفعولاً ليفسح : أي يوسع له ما يكفيه من

المال ، ويحتمل أن يكون في معنى مصدر يفسح : أي يفسح له فسحاً يزيل علته .

الرابع : أن يعطيه من المنزلة عنده ما لا يطمع فيه معها غيره من خاصته ليأمن بذلك اغتيال الأعداء . وتقدير كبرى هذا الضمير : وكل ما كان كذلك فوجب بذله للقاضي .

الخامس : أن ينظر في اختيار من كان بهذه الصفات وفيما أمره به نظراً بالغاً ليعمل بأقصاه . وعلل ذلك بقوله : فإن هذا الدين . إلى قوله : الدنيا . واستعار لفظ الأسير باعتبار تصریفهم له كالأسير . والكلام صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان كذلك فيجب النظر في اختيار من يعمل بالحق ويخرجه من أسر الأشرار . وبالله لتوفيق .

الصف الثالث : العمال ومييزهم أيضاً بأوصاف وأمره فيهم بأوامر مصلحية .

أما الأوصاف :

فأحدها : أن يكون لعامل من أهل التجربة للأعمال والولايات على علم بقوعده . وبدأ بذلك لأنه الأصل الأكبر للعمل .

الثاني : أن يكون من أهل الحياء فلا ينتهي في الانفعال إلى حد الاستخدام ، وهو طرف التفریط فيضيع به الحقوق والمصالح ولا يتجاوزها إلى حد القحة فيقع في طرف الإفراط وما يلزمه من الجفاوة ونفرة القلوب عنه .

الثالث : أن يكون من أهل البيوت الصالحة والقدم السابقة في الإسلام . وهي كناية عن البيوت المتقدمة في الدين والخير ، ولهم في ذلك أصل معرق . وأشار إلى وجه الحكمة في تولية من كان بهذه الصفات الثلاث بقوله : فإنهم . إلى قوله : نظراً . وذلك أن الحياء وصالح البيوت والتقدم في الإسلام يفيدهم كرم الأخلاق ومحافظة على الأعراس من المطاعن وقلة لإشراف والتطلع إلى المطاعم الدنية ، والتجربة تفيدهم بلاعة النظر في عواقب الأمور . والكلام في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان

كذلك فهو أولى أن يقصد بالتولية والعمل .

وأما الأوامر :

فأولها : أن ينظر في أمورهم فيستعملهم بعد التجربة والاختبار ولا يوليهم محابة وأثرة كأن يعطونه شيئاً على الولاية فيوليهم ويستأثر بذلك دون مشاورة فيه فإنهما : أي المحابة والأثرة - كما هو مصرح به في بعض النسخ عوض الضمير - جماع من شعب الجور والخيانة .

أما الجور فللخروج بهما عن واجب العدل المأمور به شرعاً وأما الخيانة فلأن التحري في اختيارهم من الدين وهو أمانة في يد الناصب لهم فكان نصبهم من دون ذلك بمجرد المحابة والأثرة خروجاً عن الأمانة ونوعاً من الخيانة .

وثانيها : أن يقصد بالعمل من كان بالصفات لمذكورة للعلل المذكورة .

الثالث : أن يسبغ عليهم الأرزاق . ويبين المصلحة في ذلك من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن عمومهم بالأرزاق يكون قوة لهم على استصلاح أنفسهم الذي لا بد منه .

الثاني : أنه غنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم من مال المسلمين .

الثالث : أنه يكون حجة له عليهم إن خالفوا أمره أو ثلموا أمانته . واستعار لفظ لثم للخيانة . والوجوه الثلاثة صغريات ضمائر تقدير كبرياتها : وكلما كان كذلك كان فعله مصلحة واجبة .

الرابع : أن يتفقد أعمالهم ويبعث العيون والجواسيس من أهل الصدق والوفاء عليهم ، وأشار إلى وجه المصلحة في ذلك بقوله : فإن تعاهدك . إلى قوله : بالرعية . فإن تعهده لأمرهم مع علمهم بذلك منه يبعثهم على أداء الأمانة فيما ولوا من الأعمال ، وعلى الرفق بالرعية . والمذكور صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان كذلك فيجب فعله .

الخامس : أن يتحفظ من خيانة الأعوان من العمال . وأرشده بقوله : فإن أحد منهم بسط . إلى قوله : التهمة . إلى ما ينبغي من تأديبهم وإقامة سنة الله فيهم . واستعار لفظ التقليد لتعليق نسبة التهمة إليه ملاحظة لشبهها بما يقلد به من الشعار المحسوس واللفظ في غاية الفصاحة ، وهذه العقوبة مقدرة بحسب العرف ورأي الإمام أو من ارتضاه .

الصنف الرابع : أهل الخراج ، وأمره فيهم بأوامر :

أحدها : أن يتفقد أمر خراجهم ويفعل فيه ما يصلح أهله مما سيشرحه . ثم أشر إلى وجه المصلحة فيه بضمير صغراه : قوله : فإن صلاحه . إلى قوله : إلا بهم . ونبه بقوله : لا صلاح لمن سواهم إلا بهم على حصر صلاح الغير فيهم تأكيداً ، وتقدير الكبرى : وكل من كان لا صلاح للناس إلا به فيجب مراعاة أموره وتفقد أحواله . ثم بين الصغرى بقوله : لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله . وهو ظاهر في ذلك الوقت .

الثاني : أن يكون نظره في عمارة الأرض أبلغ من نظره في طلب الخرج واستجلابه ، ونبه على وجه الحكمة فيه بقوله : لأن ذلك : أي الخراج لا يدرك إلا بالعمدة . وهو في قوة صغرى صمير . ثم بينها بقوله : ومن طلب إلى قوله : قليلاً . وهو إشارة إلى ما يلزم نقيض المدعي وهي مفسد ثلاث أحدها : إخراج البلاد لعدم العمارة ، والثاني : إهلاك العباد لتكليفهم ما ليس في وسعهم . والثالث : عدم استقامة أمر الطالب للخراج والوالي على أهله . وهو لازم عن الأولين . وتقدير الكبرى : وكل ما لا يدرك إلا بالعمارة وجب أن يكون النظر فيها أبلغ من النظر فيه فينتج أن النظر في العمارة يجب أن يكون أبلغ من النظر في الخراج .

الثالث : أمره أن يخفف عنهم من خراجهم ما يرجو أن يصلح به أمرهم على تقدير أن يشكوا من حالهم ما عساه يلحقهم من قبل أرضهم من ثقل خراج أو علة سماوية أو انقطاع نصيب كان لهم من الماء أو تغيير أرض وفسادها بسبب غرق أو عطش ، ثم نهاه أن يستثقل بما يخفف عنهم

به المؤونة . وأشار الى وجه الحكمة فيه بقوله : فإنه ذخرك . إلى قوله :
لعدل فيهم . ومعناه ظاهر - ومعتمداً - نصب على الحال
والعامل خفت ، و - فضل - نصب بالمفعول عن معتمداً ، وقوله : والثقة .
عطف على المفعول المذكور ، ونبه على وجه المصلحة في اعتماد فضل
قوتهم بإراحتهم والثقة بينهم بما عودهم من عدله بقوله : فربما حدث . إلى
قوله : أنفسهم به . وتقدير الكلام خفف عنهم معتمداً فضل قوتهم فإن ذلك
يستلزم احتمالهم لما عساه يحدث من الأمور فيحتملونه إذا عوّلت عليهم فيه
بطيب نفس ، وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان كذلك
فواجب أن يخفف عنهم ويعتمد فضل قوتهم ، وفي قوله : فإن العمران
محتمل ما حملته . بيان الصغرى لأن التخفيف عنهم يستلزم عمران أرضهم
وهو يستلزم احتمالهم لما يرد عليهم من حوادث الأمور . ثم نبه بقوله : وإنما
يؤتى خراب الأرض . إلى قوله : أهلها . على سبب الخرب . وبقوله :
وإنما يعوز . إلى قوله : العبر . على ذلك السبب وهو مركب من ثلاثة
أجزاء :

أحدها : إشراف نفوس الولاة على الجمع .

والثاني : سوء ظن أحدهم أنه لا يبقى في العمل .

والثالث : عدم انتفاعهم بالعبر لقلّة التفاتهم إليها . وظاهر أن هذه
الأمور إذا اجتمعت في الوالي استلزمت جمعه للمال واستقصاءه على الرعية
واستلزم ذلك إعواضهم وفقرهم فاستلزم ذلك خراب أرضهم وتعطيل عمارتها .

الصنف الخامس : الكتاب وأمره فيهم بأوامر :

أحدها : أن يولي أموره خيرهم . وتفسير الخير هنا هو من كان تقياً قيماً
بما يراد منه من مصالح العمل .

الثاني : أن يخص رسائله وأسراره ومكائده بأجمعهم لصالح الأخلاق ،
وقد علمت أصولها غير مرة وهي العلم بوجوه الآراء المصلحية والتهدي إلى
وضع كل شيء موضعه ثم العفة والشجاعة والعدالة مع ما تحت الأربعة من

الفضائل الخلقية ثم فسّر بعض الفضائل التي عساها أن تخفى . وذكر منها
خمساً :

إحديها : عدم البطر ، وهي فضيلة تلزم الشكر وهو فضيلة تحت
العفة . ونفّر عن صاحب البطر بقوله : فيجترىء إلى قوله : ملا . وهو في
قوة صغرى ضمير تقدير كبره : وكل من يجترىء عليك كذلك فغير صالح
لولاية أمرك .

الثانية : الفطنة والذكاء فيما هو بصده من الأمور المذكورة ، وكُنّي عن
ذلك بقوله : ممن لا تقصر به الغفلة . إلى قوله : منك . والذكاء : فضيلة
تحت الحكمة .

الثالثة : أن لا يكون ممن يضعّف عقداً يعتقده لك من لأمر بل يجعله
محكماً .

الرابعة : أن لا يعجز عن إطلاق ما اعتقده عليك خصومك من الأمور
بالحيلة والخديعة ، وهذان لازمان لأصالة الرأي وهو فضيلة تحت لحكمة .

الخامسة : أن لا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور فيرفعها إلى فوق
محّتها ومرتبّتها وهي فضيلة تحت الحكمة الخلقية أيضاً ، ونبه على اجتناب
الجاهل بذلك بقوله : فإن الجاهل . إلى قوله : أجهل ، وهي صغرى ضمير
تقدير كبراه : وكل من كان كذلك فيجب اجتنابه .

الثالث : نهاه أن يكون اختياره للعمال تفرساً منه وسكوناً وحسن ظن
بأحدهم ، وأشار إلى وجه المفسدة في ذلك بقوله : فإن الرجال . إلى قوله :
شيء . والمعنى أن الرجال قد يتصنعون بحسن الخدمة ويتعرضون لأن
يتفرّس فيهم الولاة فيعرفونهم بذلك مع أنه ليس وراء ذلك التصنع من
النصيحة والأمانة شيء وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان كذلك
فينبغي أن لا يعتمد على اختياره بحسب الفراسة .

الرابع : لما نهى أن يوقع اختيارهم كذلك أمره أن يختبرهم بولايتهم
لمن كان قبله من الصالحين إرشاداً إلى وجه الاختير ويعضد إلى من كان

بالصفات المذكورة وهو أن يكون أحسن أثراً في العامة وأعرفهم بوجه الأمانة في الدين . ورغبه في ذلك بضمير صغراه قوله : فإن ذلك . إلى قوله : أمره . وتقدير كبراه : وكلما كان كذلك وجب فعله .

الخامس : أمره أن يجعل لرأس كل أمر من أموره رأساً من الكتاب الموصوفين بكونهم مناسباً له بحيث لا يكبر عليه كبيرة فيقهره ولا يكثر عليه كثيرة فيتشتت عن ضبطه ويقصر دونه .

السادس : نهاه أن يتغافل عما يكون في كتابه من عيب ونبهه على ذلك بقوله : ومهما . إلى قوله : ألزمته . وهو صغرى ضمير تقديره : فإن كل ما يتغافل عنه من ذلك تلزم به ، وتقدير كبراه : وكل ما تلزم به فلا يجوز أن يتغافل عنه .

الصف السادس : التجار وذوو الصناعات وأمره فيهم بأمر :

أولها : أن يستوصي بهم خيراً .

الثاني : أن يوصي بهم كذلك بأصنافهم المقيم منهم والمضطرب في تجارته بماله والمترفق ببدنه وهم أهل الصنائع ، وأشار إلى وجه الحكمة في الوصية بهم والعناية بحالهم من وجهين :

أحدهما : منفعتهم . وذلك قوله : فإنهم . إلى قوله : عليها . والضمير في قوله : مواضعها وعليها . يعود إلى المنافع وحيث : أي ومن حيث كان لا يجتمع الناس لمواضع تلك لمنافع منه ولا يجترؤون عليها فيه وذلك الحيث كالبهار والجبال ونحوها .

الثاني : أنه لا مضرة فيهم وذلك قوله : فإنهم . إلى قوله : غثلته . وتقدير كبرى الضميرين : وكل من كان كذلك فيجب الاستيلاء به والوصية بالخير في حقه .

الثالث : أن يتفقد أمورهم بحضرته وفي حوشي بلاده ما عساه يعرض لهم من المظالم والموانع ليزيلها عنهم .

الرابع : أن يعلم ما فيهم من المعائب المعدودة وهي الضيق

الفاحش ، والشح . ولضيق هنا البخل ، ثم الاحتكار للمنافع التي يعم نفعها وهي الحنطة والشعير والتمر والزبيب والسمن والملح ، ثم التحكم في البياعات وهو عبارة عن البيع على حكمه بالهوى المطلق من غير تقيّد بشريعة أو عرف فإن ذلك عدول عن العدل إلى رذيلة الجور .

ثم نبه على وجه المفسدة اللازمة لتلك المعائب بقوله : وذلك . إلى قوله : الولاة : أما أنه مضرّة فظاهر ، وأما أنه عيب على الولاة فلأن قانون العدل بأيديهم فإذا أهملوا بترك ردّ هؤلاء عن طرق الجور توجهت اللائمة نحوهم والعيب عيهم وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان كذلك فيجب إنكاره ودفعه .

الخامس : لما بين له وجه المفسدة في تلك المعائب أمره بمنع الاحتكار واحتج بمنع الرسول ﷺ .

السادس : أمره بكون البيع سهلاً سمحاً وأن يكون بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالبائع فيذهب أصل مبيعه ، ولا بالمشتري فيذهب رأس ماله .

السابع : أمره بإيقاع النكال على من احتكر بعد نهيه عن ذلك ، وأن يعاقبه من غير إسراف .

الصف السابع : الطبقة السفلى وميّزهم بأوصاف وأمر فيهم بأوامر ونواهي :

أما تميّزهم فالعاجزون عن لحيلة ولاكتساب والمساكين والمحتاجون وأهل لبؤسى والزمنى ، وهؤلاء كلهم وإن دخل بعضهم في بعض إلا أنه عددهم بحسب تعدد صفتهم لمزيد العناية بهم كيلا يتغافل عن أحدهم وتثاقل فيه . وأما الأوامر :

فأحدها : أنه حذّر من لله فيهم ، وأشار إلى وجه الحكمة في ذلك التحذير بقوله : فإن فيهم قانعاً ومعتراً ، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان كذلك فيجب أن يحذر الله فيه ويحفظ له ما استحفظ من حقه فيه .

الثاني : أن يجعل لهم قسماً من بيت ماله ومن صوافي الإسلام في كل بلد . وأضاف بيت المال إليه وأراد الذي يليه . ونبهه على ذلك بقوله : فإن للأقصى . إلى قوله : حقه . وتقدير كبرى هذا الضمير : وكل من كان كذلك وجب أن يحسن الرعاية في حقه بأدائه إليه .

الثالث : نهاه أن يشغله عنهم بطر . ونفر عن الاشتغال عنهم بقوله : فإنك لا تعذر . إلى قوله : المهم . وأراد بالتأفف القليل من أمورهم وأحوالهم وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من لا يعذر بذلك فلا يجوز له الشغل عنه .

الرابع : نهاه أن يشخص همه عنهم : أي يرفعه حتى لا يتناولهم .

الخامس : نهاه أن يصغر خده لهم ، وهو كناية عن التكبر عليهم .

السادس : أمره أن يتفقد أمور من لا يمكنه الوصول إليه منهم لعجزه وحقارته في عيون الأعوان والجند ، وأن يفرغ لهؤلاء ثقة له من أهل الخشية والتواضع وينصبه لهم ليرفع إليه أمورهم .

السابع : أن يعمل فيهم بالإعذار إلى الله سبحانه يوم يلقاه : أي يعمل في حقهم ما أمره الله به بحيث يعذر إليه : أي يكون ذا عذر عنده إذا سأل عن فعله بهم ، ونبه على وجه الحكمة من مزيد العناية بهم بقوله : فإن هؤلاء . إلى قوله : غيرهم .

الثامن : أكد الأمر بالإعذار إلى الله في تأدية حق كل واحد من المذكورين إليه .

التاسع : أمره أن يتعهد الأيتام وذوي الرقة في السن : أي الذين بلغوا في الشيخوخة إلى أن رق جلدهم وضعف حالهم عن النهوض فلا حيلة لهم ، وممن لا ينصب نفسه للمسألة حياة مع حاجته وفقره . ثم أشار إلى ثقل التكليف بمجموع لأوامر السابقة بقوله : وذلك على الولاة ثقیل ، ويقولوه : والحق كله ثقیل توطئاً لنفسه على ذلك . ثم رغب فيه بقوله : وقد يخفف الله . إلى قوله : لهم . فنسب تخفيفه إلى الله ليرغب إليه فيه

وشجعه على فعله واستسهاله بذكر صفات الصالحين وهم الذين طلبوا العافية من بلاء الله في الآخرة فاستسهلوا ما صعب من التكليف الدنيوية بالقياس إليه ووثقوا بصدق موعود الله لهم في دار القرار . وبالله التوفيق .

الفصل الرابع : في أوامر ونواهي مصلحية وآداب خفية وسياسية بعضها عامة وبعضها خاصة يتعلق بعماله وبخاصته وببطانته وبنفسه وأحوال عبادته إلى غير ذلك ، وهو قوله :

وَأَجْعَلْ لِدَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْمًا تُفَرِّغْ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ ، وَتَجْلِسْ لَهُمْ مَجْلِسًا عَامًّا فَتَتَوَاضَعَ فِيهِ إِلَيْهِ الَّذِي خَلَقَكَ ، وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ ، حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرُ مُتَتَعِّعٍ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ : « لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرُ مُتَتَعِّعٍ » . ثُمَّ آحْتَمِلِ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَالْعَبِيَّ ، وَنَحْ عَنْهُمْ الضِّيقَ وَالْأَلْفَ ، يَبْسُطِ اللَّهُ عَلَيْكَ بِذَلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ ، وَيُوجِبُ لَكَ تَوْبَ طَاعَتِهِ ، وَأَعْطِ مَا أُعْطِيتَ هَيْئًا ، وَأَمْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ .

ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بَدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا ، مِنْهَا : إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيًا عَنْهُ كُتَابُكَ ، وَمِنْهَا : إِصْدَارُ حَاجَاتِ أَنْتَ يَوْمَ وَرُودِهَا عَلَيْكَ بِمَا تَخْرُجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ ، وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ ، وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ الْأَقْسَامِ ، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا إِلَيْهِ إِذَا صَلَحَتْ فِيهَا النَّيَّةُ ، وَسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ .

وَلْيَكُنْ فِي خَاصَّةٍ مَا تُحْلِصُ بِهِ إِلَهُ دِينِكَ : إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّةٌ ، فَأَعْطِ اللَّهَ مِنْ بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ ، وَوَفَّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ، كَامِلًا غَيْرَ مَثْلُومٍ ، وَلَا مُنْقُوصٍ ، بِالْغَا مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ ، وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ لِلنَّاسِ فَلَا تَكُونَنَّ مُنْفَرًّا وَلَا مُضْئِعًا ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ أَلِئَةُ وَلَهُ الْحَاجَةُ ، وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حِينَ

وَجَّهْنِي إِلَى الْيَمَنِ كَيْفَ أَصْلِي بِهِمْ ؟ فَقَالَ : « صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَوْصِيائِهِمْ ، وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » .

وَأَمَّا بَعْدُ : فَلَا تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوَلَاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيْقِ ، وَقَلَّةُ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ ، وَالْإِحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ ، فَيَضَعُرُّ عَنْدهُمْ الْكَبِيرُ ، وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ . وَيَقْبَحُ الْحَسَنُ ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ ، وَيُشَابُّ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ ، وَإِنَّمَا الْوَالِي بِشَرِّ مَا يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ ، وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرِفُ بِهَا ضُرُوبُ الصَّدَقِ مِنَ الْكَذِبِ ، وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ : إِمَّا أَمْرٌ وَسَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ ، فَفِيمَ احْتِجَابِكَ مِنْ وَاجِبِ حَقِّ تَعْطِيهِ ؟ أَوْ فِعْلٌ كَرِيمٌ تُسَدِّيه ، أَوْ مُبْتَلًى بِالْمَنْعِ ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا يُسَوُّوْا مِنْ بَذْلِكَ ، مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مِمَّا لَا مَوْوَنَةَ فِيهِ عَلَيْكَ ، مِنْ شَكَاةٍ مَظْلَمَةٍ ، أَوْ طَبِّ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ .

ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وَبِطَانَةً فِيهِمْ أَسْتِثْنَاءُ وَتَطَاوُلُ ، وَقَلَّةُ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ ، فَأَحْسِمُ مَادَّةَ أَوْلِيكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ بِلَاكِ الْأَحْوَالِ ، وَلَا تَقْطَعَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ وَحَامَتِكَ قَطِيعَةً ، وَلَا يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي اعْتِقَادِ عُقْدَةٍ تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ فِي شَرِّبٍ ، أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ يَحْمِلُونَ مَوْوَنَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ ، فَيَكُونُ مَهْنًا ذَلِكَ لَهُمْ دُونَكَ ، وَعَيْيُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَالزِّمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، وَكُنْ فِي ذَلِكَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا ، وَاقِعًا ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ ، وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ ، فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذَلِكَ مَحْمُودَةٌ .

وَإِنْ ظَنَنْتَ الرَّعِيَّةَ بِكَ حَيْفًا فَأُصْجِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ ، وَأَعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ ، وَرِفْقًا بِرَعِيَّتِكَ ، وَإِعْذَارًا تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ .

وَلَا تَدْفَعَنَّ صَلَاحًا دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ وَلِلَّهِ فِيهِ رِضًا ، فَإِنَّ فِي الصُّلْحِ
دَعَاً لِحُبُودِكَ ، وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ وَأَمْنًا لِبِلَادِكَ ، وَلَكِنَّ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ
عَدُوِّكَ بَعْدَ صَلَاحِهِ ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ ، فَخُذْ بِالْحَزْمِ ، وَأَتَّهِمْ فِي
ذَلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ ، وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ عُقْدَةً ، أَوْ كَبَسْتَهُ مِنْكَ
ذِمَّةً ، فَحُطَّ عَهْدُكَ بِالْوَفَاءِ ، وَآرَعَ ذِمَّتُكَ بِالْأَمَانَةِ ، وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا
أَعْطَيْتَ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ شَيْءٌ ، النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعًا ، مَعَ
تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ ، وَتَشْتَبِ أَرَائِهِمْ ، مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ ، وَقَدْ لَزِمَ ذَلِكَ
الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ لِمَا اسْتَوْبَنُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ . فَلَا
تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ ، وَلَا تَخَيِّسَنَّ بِعَهْدِكَ ، وَلَا تَخْتَلِنَنَّ عَدُوَّكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِئُ
عَلَى آلِهِ إِلَّا جَاهِلٌ شَقِيٌّ ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْنًا ، أَفْضَاهُ بَيْنَ
الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ ، وَحَرِيمًا يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ ، وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى حِوَارِهِ ، فَلَا
إِدْغَالَ ، وَلَا مُدَالَسَةَ ، وَلَا خِدَاعَ فِيهِ ، وَلَا تَعْقِدْ عَقْدًا تُجَوِّزُ فِيهِ لُغْلُلَ ، وَلَا
تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ قَوْلٍ بَعْدَ التَّكْيِيدِ وَالتَّوَثُّقَةِ ، وَلَا يَدْعُونَكَ ضَيْقُ أَمْرِ لَزِمَكَ فِيهِ
عَهْدُ اللَّهِ إِلَى طَبِّ أَنْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضَيْقِ أَمْرِ تَرْجُو
أَنْفِرَاجَهُ ، وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ خَيْرٌ مِنْ غَدْرِ تَخَافُ تَبِعْتَهُ ، وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللَّهِ
فِيهِ طَلِبَةٌ ، فَلَا تَسْتَقِيلَ فِيهَا دُنْيَاكَ وَلَا آخِرَتَكَ .

إِيَّاكَ وَالْأَلَمَاءَ ، وَسَفَكَهَا بِغَيْرِ جُلْهَا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِنِقْمَةٍ ، وَلَا
أَعْظَمَ لِنَبْعَةٍ ، وَلَا أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ وَأَنْقِطَاعِ مُدَّةٍ مِنْ سَفْكِ الْأَلَمَاءِ بِغَيْرِ
حَقِّهَا . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئُ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الْأَلَمَاءِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ ، فَلَا تُقَوِّينَ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوْهِنُهُ بَلْ
يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ ، وَلَا عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمِيدِ ؛ لِأَنَّ فِيهِ قَوْدَ
أَبْدَنٍ ، وَإِنْ أَبْطَلْتَ بِخَطَاٍ وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ ، أَوْ سَيْفُكَ ، أَوْ يَدُكَ ،
بِالْعُقُوبَةِ ؛ فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً فَلَا تَطْمَحَنَّ بِكَ نَحْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ
أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أَوْيَاءِ الْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ .

وَإِيَّاكَ وَالْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ ، وَالثَّقَّةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا ، وَحُبَّ الْإِطْرَاءِ ،
فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرْصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ
الْمُحْسِنِينَ .

وَإِيَّاكَ وَالْمَنْ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ ، أَوْ التَّزْيِيدَ فِيهَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ أَوْ
أَنْ تَعْدَهُمْ فَتَتَّبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ ، فَإِنَّ الْمَنْ يُطِلُّ الْإِحْسَانَ ، وَالْتَّزْيِيدَ يَذْهَبُ
بِنُورِ الْحَقِّ ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَّ عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :
﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

وَإِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا ، أَوْ التَّسْقُطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا ، أَوْ
اللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذَا تَكَثَّرَتْ ، أَوْ الْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحَتْ ، فَضَعُ كُلِّ أَمْرٍ
مَوْضِعَهُ ، وَأَوْقِعْ كُلَّ عَمَلٍ مَوْقِعَهُ .

وَإِيَّاكَ وَالْإِسْتِثْرَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أَسْوَةٌ ، وَالتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ
وَضَحَّ لِلْعَيُونِ ، فَإِنَّهُ مَاخُودٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَعْطِيَةُ
الْأُمُورِ ، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ ، إِمْبِكَ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ ، وَسُورَةَ حَدِّكَ ،
وَسَطْوَةَ يَدِكَ ، وَغَرْبَ لِسَانِكَ ، وَاحْتِرْسَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِكَيْفِ الْبَادِرَةِ ، وَتَأْخِيرِ
السَّطْوَةِ ، حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ الْإِخْتِيَارَ ، وَلَنْ تُحْكِمَ ذَلِكَ مِنْ
نَفْسِكَ . حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ .

وَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ ، أَوْ
سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ ، أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيٍّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ
اللَّهِ فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا ، وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي اتِّبَاعِ مَا
عَهَدْتَ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هَذَا ، وَاسْتَوْتَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ ، لِكَيْلَا
تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسْرُعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا .

أقول : الشرط : قوم يعلمون أنفسهم بعلامات الخدمة يعرفون بها .
والخرق : ضد الرفق . والأنف : الأنفة وهي خصلة تلازم الكبر . والأكناف :

الجوانب . والإسداء : الإعطاء . والحامة : القرابة . والعقدة : الضيعة ،
والعقدة أيضاً : المكان كثير الشجر والنخل ، واعتقد لضيعة : اقتناها .
والمغبة : العاقبة . وأصحر : أي أظهر . والدعة : الراحة . واستوبلوا
الأمر : استثقلوه ، والوبال : الوخم ، يقال : ستوبلت البلد : استوخمت فلم
يوافق ساكنها وخاس بالعهد : نقضه . والختل : الخداع . وأفضاه : بسطه .
واستفاض الماء : سال . والإدغال : الإفساد . والدغل : الفساد .
والمدايسة : مفاعلة من التدليس في البيع وغيره كالمخدعة . ولحن القول :
كالتورية والتعريض من الأمر . ولوكزة : الضربة والدفعة ، وقيل : هي بجمع
اليد على الذقن . والفرصة : النوبة ، والممكن من الأمر . وسورة لرجل :
سطوته وحده بأسه . وغرب اللسان : حديثه . والبادرة : سرعة السطوة
والعقوبة .

أما الأمور التي تعم مصلحتها .

فأحدها : أن يجعل بذوي الحاجات نصيباً من نفسه يفرغ لهم فيه بدنه
عن كل شاغل ويجلس لهم مجلساً عاماً في الأسبوع أو دونه أو فوقه حسب ما
يمكن .

الثاني : أن يتواضع فيه لله . ورغبه في لتواضع بسببه إلى الله باعتبار
أنه خالقه لذي من شأنه أن يكون له التواضع .

الثالث : أن يقعد عنهم حنده وأعوانه . وأبان وجه المصلحة في ذلك
بقوله : حتى يكلمك متكلمهم غير متنتع ، وأشار إلى علة وجوبه بقوله :
فإنني سمعت . إلى قوله : القوي . ووجه الدليل من هذا الخبر أنه لما دلّ
بالمطابقة على وعيد الأمة التي لا يتصف فيها من قويّ بعدم طهارتها
المستلزم لعذابها لأخروي دلّ بالالتزام على وجوب أن يكون فيها ذلك . ثم
لما كانت الأمور المأمور بها مما لا يتم ذلك الواجب إلا بها كانت بأسرها
واجبة .

الرابع : أمور تلزمه مباشرتها وإن عمّت مصلحتها . وأمر مبتدأ حذف

خبره : أي وهناك أمور . ونحوه . منها إجابة عمّاله بما يرى المصلحة في الجواب به فقد يعجز الكتاب عن كثير من ذلك . ومنها إصدار حوائج الناس التي يضيق منها صدور أعوانه عند ورودها عليه ، ولا ينبغي له أن يكلها إليهم فإن غاية قضائهم لها إذا قضيت أن يكون على غير الوجه المرضي .

الخامس : أن يمضي لكل يوم عمله . ونبه على ذلك بقوله : فإن لكل يوم ما فيه . وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وإذا كان لكل يوم ما فيه وجب أن يقضي فيه ماله .

السادس : أن يجعل لنفسه في معاملته لله أفضل تلك المواقيت : أي الأوقات المفروضة للأفعال ، وأجزل أقسام الأفعال الموقّعة . فأفضلها أبعدها عن الشواغل الدنيوية وأقربها إلى الخلوة بالله سبحانه ، ونبه بقوله : وإن كانت . إلى قوله : الرعية على أن أصلح الأعمال أخلصها لله .

السابع : أن يكون في خاصة ما يخلصه لله في دينه إقامة فرائضه فيخصّص بمزيد عناية منه ورعاية .

الثامن : أن يعطي الله من بدنه في ليله ونهاره : أي طاعة وعبادة فحذف المفعول الثاني للعلم به . والقرينة كون الليل والنهار محلّين للأفعال والقرينة ذكر البدن

التاسع : أن يوفي ما تقرب به إلى الله من ذلك . وكاملاً ، وغير مثلوم ، وبالغاً أحوال . وما نصب على المصدرية بقوله : بالغاً من بدنك ما بلغ من القوة على الطاعة .

العاشر : من الآداب الراجعة إلي حال الإمامة بالناس في الصلاة أن يكون متوسطاً في صلاته بين المطول المنفر للناس بتطويله وبين المقصر المضيق لأركان الصلاة وفضيلتها . واحتج لنفي التثقيل والتطويل بالمعقول والمنقول : أما المعقول فضمير صغراه : قوله : فإن في الناس . إلى قوله : الحاجة . وتقدير كبراه : وكل من كان فيه من ذكر فيجب أن يرفق به ويخفف عنه ، وأما المنقول فما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخبر ، ووجه التشبيه

بصلاة الأضعف تخفيف الصلاة بعد حفظ أركانها وواجباتها .

الحادي عشر : من الآداب المصلحية لتدبير المدينة النهي عن طول الاحتجاج عن الرعية . ورغب في الانتهاء عنه من وجوه :

أحدها : أنه نوع من أنواع الضيق على الرعية . إذ كنت مشاهدتهم للوالي تفرج عنهم ما يكرههم من الأمور المهمة لهم .

الثاني : أنه قلة علم بالأمر : أي يلزمه ذلك فأطلق اسم اللازم على ملزومه وأكد ذلك بقوله : والاحتجاج عنهم يقطع عنهم : أي من الولاة علم ما احتجوا دونه من أمور الرعية . ثم أشار إلى ما يلزم عدم علمهم من المفاسد وهو أن يصغر كبير الأمور عندهم كأن يظلم بعض حاشية الأمير فتصغر الأعوان جريمته عنده فيصغر وكذلك يعظم صغيرها لو وقع من ضعيف صغير ذنب في حق كبيره . وكذلك يقبح عندهم الحسن ويحسن القبيح ، ويشاب الحق بالباطل ويلبس به ، وذلك قوله : فيصغر . إلى قوله : بالباطل . ثم نبه على وجه لزوم قطع العلم بالأمور لطول الاحتجاج بقوله : وإنما الوالي بشر . إلى قوله : الصدق والكذب . والتقدير أنه بشر والبشر من خاصته أنه لا يعرف ذلك إلا بعلامة وليس على الحق علامات يعرف بها ضروب صدق القول من كذبه .

الثالث : أنه رغب في الانتهاء عنه بضمير صغراه شرطية منفصلة وهي قوله : وإنما أنت . إلى قوله : بذلك . وتلخيصه أنك إما أن تكون مضبوفاً على السخاء بالبذل في الحق أو مبتلى بالمنع منه . وتقدير الكبرى . وكل من كان كذلك فلا يجوز له الاحتجاج . بيان الكبرى : أما إن كان سخياً ببذل الحق فإنه عند الطلب منه إما أن يعطي حقاً يجب عليه ، أو يفعل فعل الكرماء وذلك لا يجوز الاحتجاج منه .

وأما إن كان مبتلى بالمنع فإذاً يسرعون الكف عن مسأله إذا أيسوا من بذله وحينئذ لا معنى للاحتجاج عنهم .

الرابع : قوله : مع أن أكثر . إلى قوله : معاملة . وهو صغرى ضمير

تقدير كبراه : وكل من كان أكثر حاجات الناس إليه ما لا مؤونة عليه فيه من الأمور المذكورة فلا معنى لاحتجابه عنهم .

الثاني عشر : من الأمور المصلحية المتعلقة بخاصته أن يحسم مؤونتهم عن الرعية فقله : بقطع أسباب إلى قوله : مؤونته . إرشاد إلى سبب قطعها ، وأشار إلى وجه ذلك بذكر ما فيهم من الاستئثار على الرعية بالمنافع والتطاول عليهم بالأذى وقلة الإنصاف وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان كذلك فيجب قطع مؤونته عنهم . والأحوال التي أمر بقطع أسبابها هي وجوه المؤونة المذكورة من الاستئثار والتطاول وقلة الإنصاف . وقوله : ولا تقطعن . إلى قوله : مشترك .

تفصيل لوجه قطع الأسباب المذكورة فإن إقطاع أحدهم قطيعة وطمعه في اقتناء ضيعة تضر بمن يليها من الناس في ماء أو عمل مشترك يحمل مؤونته على الناس كعمارة ونحوها هي أسباب الأحوال المذكورة من وجوه المؤونة وقطع تلك الأحوال بقطع أسبابها . ثم نفّره عن أسباب المؤونة على الناس بما يلزم تلك الأسباب من المفسدة في حقه وهي كون مهناً ذلك لهم دونه وعييه عليه في الدين والآخرة ، وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل م كان مهناً للغير وعييه عليك فلا يجوز فعله .

الثالث عشر : أن يلزم الحق من يلزمه الحق من القريب والبعيد ، ويكون في ذلك الإلزام صبراً لما عساه يلحق أقاربه من مرّ الحق ، محتسباً له : أي مدخله في حساب ما يتقرب به إلى الله تعالى ويعدّه خالصاً لوجهه ، واقعاً ذلك الإلزام من قرابته وخصوصه حيث اتفق وقوعه بمقتضى الشريعة ، والواو في قوله : ولكن للحال ، واقعاً أيضاً حال والعامل قوله : وألزم .

الرابع عشر : أن يتغي عاقبة ذلك الإلزام بما يثقل عليه من فعله بخاصته . كأنه يستفيض بفعله ما يئزّه في العاقبة من العافية من عيب الدنيا وعذاب الآخرة ، ورغب في ذلك بقوله : فإن مغبة ذلك محمودة وهي تلك العافية وما يلزمها من السعادة الباقية ، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل م كانت مغبته محمودة وجبت الرغبة في فعله .

الخامس عشر : أمره على تقدير أن تظن الرعية فيه حيفاً أن يصحر لهم عذره فيما ظنوا فيه الحيف ويعدل عنه ظنونهم بإظهاره ، ورغب في ذلك بضمير صغراه قوله : فإن . إلى قوله : الحق : أي فإن في إظهار عذرك لهم أن تصير ذا عذر تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق من معرفتهم أن فعلك حق لا حيف فيه ، وتقدير كبراه : وكل ما كان كذلك فينبغي فعله .

السادس عشر : نهاه أن يدفع صلحاً دعاه إليه عدوه إذا كان صلحاً يرضي الله . ونبه على وجوه المصلحة فيه بضمير صغراه . قوله : فإن في الصلح . إلى قوله : لبلادك . وهي ثلاث مصالح ظاهرة للزوم لصلح العدو ، وتقدير كبراه : وكما كان فيه هذه المصالح فواجب قبوله .

السابع عشر : بالغ في تحذيره من العدو بعد صلحه ، وأمره أن يأخذ بالحزم ويتهم في الصلح حسن ظنه الذي عساه أن ينشأ عن صلحه . ونبه على وجوب ذلك الحذر بضمير صغراه : قوه : فإن العدو ربما قارب ليتغفل : أي قارب عدوه بصلحه ليطلب غفلته فيظفر به ، وله سكت في ذلك شواهد لتجربة وحذف المفعولين للعلم بهما . وتقدير كبراه : وكل من كان كذلك فواجب أن يحذر منه .

الثامن عشر : أمره على تقدير أن يعقد بينه وبين عدوه عهداً أن يحوطه بالوفاء ويرعى ذمته بالأمانة ويجعل نفسه جنة دون ما أعطى : أي حفظ ذلك بنفسه ولو أدى إلى ضرره ، واستعار لفظ اللبس لإدخاله في أمان الذمة ملاحظة لشبهها بالقميص ونحوه . وكذلك لفظ الجنة لنفسه ملاحظة لشبهها في الحفظ بالترس ونحوه . ورغب في ذلك بوجهين اشتمل عليهما قوله : فإنه . إلى قوله : العذر :

أحدهما : أن الناس أشد اجتماعاً على ذلك من غيره من فرائض الله الواجبة عليهم مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم .

الثاني : أن المشركين لزموا ذلك فيما بينهم واستثقلوا الغدر لما فيه من سوء العاقبة . والمذكوران صغرياً ضمير تقدير الكبرى فيهما : وكلما كان كذلك فيجب لزومه ولمحافظة عليه . ثم أكد ذلك بالنهي عن الغدر في

العهد ونقض الذمة وخداع العدو بمعاهدته ثم الغدر به ، ونقر عن ذلك بوجهين :

أحدهما : قوله : فإنه . إلى قوله : الأشقي . وهو صغرى ضمير تلخيصها : فإن المجترى على الله شقي ، وتقدير كبراه : وناقض العهد والمدغل فيه مجترى على الله ، ينتج من الرابع فالشقي هو ناقض العهد والمدغل فيه . ويجوز أن يكون تقدير الصغرى : فإن ذلك جرأة على الله يستلزم الشقاوة ، وتقدير الكبرى : وكلما كان كذلك وجب اجتنابه لينتج من الأول المطلوب .

الثاني : قوله : وقد جعل . إلى قوله : جواره . وأمناً : أي مأمناً واستعار لفظ الحريم للعهد ، ورشح بذكر السكون إلى منعه والاستفاضة إلى جواره ، ونبه بذلك على وجه الاستعارة وهو الاطمئنان إليه والأمن من الفتنة بسببه فأشبه الحريم المانع ، والكلام صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان كذلك فلا يجوز نقضه والإدغال فيه .

التاسع عشر : نهاه أن يعقد عقداً يجوز فيه العلل : أي الأحداث المفسدة له وهو كناية عن أمره بإحكام ما يعقد من الأمور .

العشرون : نهاه أن يعتمد على لحن القول في الإيمان والعهود بعد أن يؤكدّها ويتوثق من غيره فيها أو يتوثق غيره منه فيها ، ومثال لحن القول ما ادّعاه طلحة والزبير من الوليعة والتورية في بيعتهما له ^{لله} : أي لا تعتمد على ذلك من نفسك ولا تنتفت إليه من غير لو ادّعاه .

الحادي والعشرون : نهاه أن يدعوه ضيق أمر لزمه فيه عهد الله إلى أن يطلب إبطاله بغير حق ، ورغب في الصبر عليه بقوله : فإن صبرك . إلى قوله : آخرتك . وهو صغرى ضمير ، وأراد بتبعته ما يتبعه من العقوبة ، وبالطلبه ما يطالب به يوم القيامة من لزوم العهد ، وإحاطتها به كناية عن لزومها له ، وبوصف الطلبة بقوله : لا تستقبل فيها دنياك ولا آخرتك . أراد أنه لا يكون لك معها دنيا تستقبلها وتنتظر خيرها لعدم الدنيا هناك ولا آخرة تستقبلها إذ لا يستقبل في الآخرة إلا الأمور الخيرية . ومن أحاطت به طلبته

من الله فلا خير له في الآخرة يستقبله .

وروى تستقيل بالياء : أي لا يكون لك من تلك الطلبة والتبعة إقالة في الدنيا ولا في الآخرة .

الثاني والعشرون : حذره من الدخول في الدماء وسفكها بغير حق وهو كناية عن القتل ، ونفر عنه بوجهين :

أحدهما : قوله : فإنه . إلى قوله : حقها ، وهو صغرى ضمير تقديرها : فإن سفك الدماء بغير حق أدنى الأشياء لحلول نقمة الله ، وأعظمها في لحوق التبعة منه ، وأولها بزوال النعمة وانقطاع مدة الدولة والعمر . وظاهر أنها قوى المعدات للأمور الثلاثة لما يستلزمه من تطابق همم الخلق ودواعيهم على زوال القتل واستئزال غضب الله عليه لكون القتل أعظم المصائب المنفور عنها ، وتقدير الكبرى : وكلما كان كذلك فيجب أن يحذر فعله .

الثاني : قوله : والله سبحانه : إلى قوله : القيامة . ونبه بابتدائه تعالى بالحكم بين العباد في القتل على أنه أعظم عنده تعالى من سائر الكبائر ، وهي صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل ما ابتدأ الله بالحكم فيه فيجب التحري فيه واجتناب ما يكره منه .

الثالث والعشرون : نهاه أن يقوي سلطانه ودولته بسفك الدم الحرام ونفر عنه بقوله : فإن ذلك . إلى قوله : وينقله . وهي صغرى ضمير بيانها ما سبق فإن سفك الدم الحرام لما استلزم الأمور الثلاثة المذكورة كان ذلك مضعفاً للسلطان ومزيلاً له ، وتقدير الكبرى : وكلما كان كذلك وجب اجتنابه .

الرابع والعشرون : نهاه عن قتل العمد حراماً ونفر عنه بأمرين :

أحدهما : أنه لا عذر فيه عند الله ولا عنده .

الثاني : أن فيه قود البدن . وهما صغريا ضمير تقدير الكبرى فيهما : وكل ما كان كذلك وجب اجتنابه .

الخامس والعشرون : نهاء أن يرتكب رذيلة الكبر عندما يتلي بقتل خطأ أو إفراط سوطه أو يده عليه في عقوبة فيأخذه عزّة الملك والكبر على أولياء المقتول فلا يؤدي إليهم حقهم ، ونبه بقوله : فإن . إلى قوله : مقتلة . على أن الضرب باليد المسمى وكراً قد يكون فيه القتل وهو مظنة له .

السادس والعشرون : حذره الإعجاب بنفسه ، والثقة بما يعجبه منها ، وحب الإطراء . والأخيران سببان لدوام الإعجاب ومادة له ، ونفر عن الثلاثة بقوله : فإن ذلك . إلى قوله : المحسنين . وفي نفسه متعلق بأوثق . وقوله : ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين .

يحتمل وجهين : أحدهما : أنه لما كان الإعجاب من الهلكات لم ينفع معه إحسان المحسن فإذا تمكن الشيطان من الفرصة وزين الإعجاب للإنسان وارتكبه محق لذلك ما يكون له من الإحسان .

والثاني : إن المعجب بنفسه لا يرى لأحد عنده إحساناً فيكون إعجابه ماحقاً لإحسان من أحسن إليه . ولما كان مبدأ الإعجاب هو الشيطان كان الماحق لإحسان المحسن أيضاً هو الشيطان فلذلك نسبته إليه ، والكلام في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان أوثق فرص الشيطان في نفسه وجب الاحتراز عنه .

السابع والعشرون : حذره رذائل ثلاثة :

أحدها : المنّ على الرعية بإحسانه إليهم .

الثانية : التزيد فيما فعله في حقهم وهو أن ينسب إلى نفسه من الإحسان إليهم أزيد مما فعل .

الثالثة : أن يخلف موعوده لهم . ثم نفر عن المنّ بقوله : فإن المنّ يبطل الإحسان ، وذلك إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾^(١) وعن التزيد بقوله : فإن التزيد يذهب بنور

الحق . وأراد بالحق هنا الإحسان إليهم ، أو الصدق في ذكره في موضع يحتاج إليه فإن على ذلك نوراً عقلياً ترتاح له النفوس وتلتذ به . ولما كان التزيد نوعاً من الكذب وهو رذيلة عظيمة لا جرم كان مما يذهب نور ذلك الحق ويطفئه فلا يكون له وقع في نفوس الخلق . ونفر عن الخلف بقوله : يوجب المقت عند الله والنس : أما عند الناس فظاهر وأما عند الله فلقوله تعالى . ﴿ كبر مقتاً عند الله ﴾ (١) الآية . ولثلاثة صغريات ضمائر تقدير كبرياتها : وكلما كان كذلك وجب اجتنابه .

الثامن والعشرون : حذره من إيقاع الأمور على أحد طرفي التفريط والإفراط فطرف الإفراط في الطلب العجلة بها قبل أوانها أو اللجاجة فيها عند تنكرها ، وتغير وجوه مأخذها وعدم تضاعفها وتسهيلها ، وطرف التفريط التساقط فيها والقعود عنها إذا أمكت وهو يقابل العجلة فيها أو الضعف عنها إذا ستوضحت وهو يقابل اللجاجة فيها عند تنكرها . واستلزم النهي عن هذين الطرفين الأمر بإيقاعها على نقطة العدل وهي الحد الأوسط من الطرفين وموضعها الحق فلذلك قال : فيضع كل أمر موضعه وأوقع كل عمل موقعه .

التاسع والعشرون : حذره من الاستئثار بما يجب تساوي الناس فيه كالذي يستحسن من مال المسلمين ونحوه .

الثلاثون : وعن لتغافل عم يجب العلم والعناية به من حقوق الناس المأخوذة ظلماً مما قد وضح للعيون إهمالك له . ونفر عن ذلك بقوله : التغابي . إلى قوله : للمظلوم ، وأراد ما يستأثر به من حقوق الناس ويتغافل عنها ، وما في قوله : عمّا . زائدة ، وأراد بالقليل مدة الحياة الدنيا ، وأشار بأغطية الأمور إلى الهيئات البدنية الحاجبة لحقائق الأمور من أن يدركها بصر بصيرته . وقد علمت أن انكشاف تلك الأغطية عنه بطرح بدنه وحيث يشاهد ما أعد له من خير أو شر كما قال تعالى : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ (٢) الآية .

(١) ٣٧ - ٤٠

(٢) ٢٨ - ٣

الحادي والثلاثون : أمره أن يملك حمية أنفه : أي أنفته مما يقع من الأمور المكروهة ، وسورة حدّه . وحدة لسانه وملكه لهذه الأمور إنما يكون بالاحتباس عن تعدي قوته الغضبية ووقوفه في فعلها على حاق الوسط بحيث لا يعبر فيها إلى حد الإفراط فيقع في رذيلة التهور ويلزمه في تلك الرذيلة الظلم .

الثاني والثلاثون : أمره بالاحتباس من تلك الأمور وأرشده إلى أسبابه وهو كفت البادرة وتأخير السطوة إلى حين سكون الغضب ليحصل له بذلك الاختيار في الفعل والترك الذي عساه مصلحة ، وأشار إلى وجه إحكام تلك الأسباب بقوله : ولن تحكم ذلك . إلى قوله : عليك . وذلك أن كثرة الهم عن ذكر المعاد والفكر في أمور الآخرة ماحٍ للرجبة في الأمور الدنيوية التي هي المشاجرات وثوران الغضب .

الثالث والثلاثون : أوجب عليه أمرين فيهما جماع ما أوصاه به في هذا العهد إجمالاً :

أحدهما : أن يتذكر ما مضى لمن تقدمه من الحكومات العادلة للولادة قبله ، أو من الآثار المنقولة عن نبينا ﷺ أو من فرائض الله ليقتدي بما شاهد من عمله ﷺ فيها .

الثاني : أن يجتهد لنفسه في اتباع ما عهد إليه في عهده هذا واستوثق به من الحجة لنفسه عليه وهي الموعظة والتذكير بأوامر الله لكيلا يكون له عليه حجة يحتج بها عند تسرع نفسه إلى هواها كما قال تعالى : ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ^(١)

ومن هذا العهد أيضاً

وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ ، أَنْ

من الله فلا خير له في الآخرة يستقبله .

وروى تستقيل بالياء : أي لا يكون لك من تلك الطلبة والتبعة إقالة في الدنيا ولا في الآخرة .

الثاني والعشرون : حذر من الدخول في الدماء وسفكها بغير حق وهو كناية عن القتل ، ونقر عنه بوجهين :

أحدهما : قوله : فإنه . إلى قوله : حقها ، وهو صغرى ضمير تقديرها : فإن سفك الدماء بغير حق أدنى الأشياء لحلول نقمة الله ، وأعظمها في لحوق التبعة منه . وأولاه بزوال النعمة وانقطاع مدة الدولة والعمر . وظاهر أنها أقوى المعدات للأمور الثلاثة لما يستلزمه من تطابق همم الخلق ودواعيهم على زوال القاتل واستنزاع غضب الله عليه لكون القتل أعظم المصائب المنفور عنها ، وتقدير الكبرى : وكلما كان كذلك فيجب أن يحذر فعله .

الثاني : قوله : والله سبحانه : إلى قوله : لقيمة . ونبه بابتدائه تعالى بالحكم بين العباد في القتل على أنه أعظم عنده تعالى من سائر الكبائر ، وهي صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل ما ابتدأ الله بالحكم فيه فيجب التحري فيه واجتناب ما يكره منه .

الثالث والعشرون : نهاه أن يقوي سلطانه ودولته بسفك الدم الحرام ونقر عنه بقوله : فإن ذلك . إلى قوله : وينقله . وهي صغرى ضمير بيانها ما سبق فإن سفك الدم الحرام لما استلزم الأمور الثلاثة المذكورة كان ذلك مضعفاً للسلطان ومزياً له ، وتقدير الكبرى : وكلما كان كذلك وجب اجتنابه .

الرابع والعشرون : نهاه عن قتل العمد حراماً ونقر عنه بأمرين :

أحدهما : أنه لا عذر فيه عند الله ولا عنده .

الثاني : أن فيه قود البدن . وهما صغرياً ضمير تقدير الكبرى فيهما : وكل ما كان كذلك وجب اجتنابه .

الخامس والعشرون : نهاه أن يرتكب رذيلة الكبر عندما يتلي بقتل خطأ أو إفراط سوطه أو يده عليه في عقوبة فيأخذه عزّة الملك والكبر على أولياء المقتول فلا يؤدي إليهم حقهم ، ونبه بقوله : فإن . إلى قوله : مقتلة . على أن الضرب باليد المسمى وكراً قد يكون فيه القتل وهو مظنة له .

السادس والعشرون : حذره الإعجاب بنفسه ، والثقة بما يعجبه منها ، وحب الإطراء . والأخيران سببان لدوام الإعجاب ومادة له ، ونفر عن الثلاثة بقوله : فإن ذلك . إلى قوله : المحسنين . وفي نفسه متعلق بأوثق .

وقوله : ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين .

يحتمل وجهين : أحدهما : أنه لما كان الإعجاب من الهلكات لم ينفع معه إحسان المحسن فإذا تمكن الشيطان من الفرصة وزين الإعجاب للإنسان وارتكبه محق لذلك ما يكون له من الإحسان .

والثاني : إن المعجب بنفسه لا يرى لأحد عنده إحساناً فيكون إعجابه ماحقاً لإحسان من أحسن إليه . ولما كان مبدأ الإعجاب هو الشيطان كان الماحق لإحسان المحسن أيضاً هو الشيطان فلذلك نسبته إليه ، والكلام في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان أوثق فرص الشيطان في نفسه وجب الاحتراز عنه .

السابع والعشرون : حذره رذائل ثلاثة :

أحدها : المنّ على الرعية بإحسانه إليهم .

الثانية : التزيد فيما فعله في حقهم وهو أن ينسب إلى نفسه من الإحسان إليهم أزيد مما فعل .

الثالثة : أن يخلف مواعده لهم . ثم نفر عن المنّ بقوله : فإن المنّ يبطل الإحسان ، وذلك إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى ﴾ ^(١) وعن التزيد بقوله : فإن التزيد يذهب بنور

الحق . وأراد بالحق هنا الإحسان إليهم ، أو الصدق في ذكره في موضع يحتاج إليه فإن على ذلك نوراً عقلياً ترتاح له النفوس وتلتذ به . ولما كان التزيد نوعاً من الكذب وهو رذيلة عظيمة لا جرم كان مما يذهب نور ذلك الحق ويطفئ فيه فلا يكون له وقع في نفوس الخلق . ونفر عن الخلف بقوله : يوجب المقت عند الله والناس : أما عند الناس فظاهر وأما عند الله فلقوله تعالى : ﴿ كبر مقتاً عند الله ﴾^(٢) الآية . والثلاثة صغريات ضمائر تقدير كبرياتها : وكلما كن كذلك وجب اجتنابه .

الثامن والعشرون : حذّره من إيقاع الأمور على أحد طرفي التفريط والإفراط فطرف الإفراط في الطلب العجلة بها قبل أوانها أو اللجاجة فيها عند تنكرها ، وتغيّر وجوه مأخذها وعدم اتصاحها وتسهيلها ، وطرف التفريط التساقط فيها والقيود عنها إذا أمكنت وهو يقاب العجلة فيها أو الضعف عنها إذا استوضحت وهو يقابل اللجاجة فيها عند تنكرها . واستلزم النهي عن هذين لطرفين الأمر بإيقاعها على نقطة العدل وهي الحد الأوسط من الطرفين وموضعها الحق فلدلك قال : فيضع كل أمر موضعه وأوقع كل عمل موقعه .

التاسع والعشرون : حذّره من الاستئثار بما يجب تسوي الناس فيه كالذي يستحسن من مال المسلمين ونحوه .

الثلاثون : وعن التغافل عما يجب لعلم والعناية به من حقوق الناس المأخوذة ظلماً مما قد وضع لعيون إهمالك له . ونفر عن ذلك بقوله : التغابي . إلى قوله : للمظلوم ، وأراد ما يستأثر به من حقوق الناس ويتغافل عنها ، وما في قوله : عما . زائدة ، وأراد بالقليل مدة الحياة الدنيا ، وأشار بأغطية الأمور إلى الهيئات البدنية الحجة لحقائق الأمور من أن يدركها بصر بصيرته . وقد علمت أن انكشاف تلك الأغطية عنه بطرح بدنه وحينئذ يشاهد ما أعد له من خير أو شر كما قل تعالى : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾^(٣) الآية .

(١) ٤٠ - ٣٧ .

(٢) ٣ - ٢٨ .

الحادي والثلاثون : أمره أن يملك حمية أنفه : أي أنفته مما يقع من الأمور المكروهة ، وسورة حذّه . وحدة لسانه وملكه لهذه الأمور إنما يكون بالاحتباس عن تعدي قوته الغضبية ووقوفه في فعلها على حق الوسط بحيث لا يعبر فيها إلى حد الإفراط فيقع في رذيلة التهور ويلزمه في تلك الرذيلة الظلم .

الثاني والثلاثون : أمره بالاحتباس من تلك الأمور وأرشده إلى أسبابه وهو كفّ البادرة وتأخير السطوة إلى حين سكون الغضب ليحصل له بذلك الاختيار في الفعل والترك الذي عساه مصلحة ، وأشار إلى وجه إحكام تلك الأسباب بقوله : ولن تحكم ذلك . إلى قوله : عليك . وذلك أن كثرة الهم عن ذكر المعاد والفكر في أمور الآخرة ماحٍ للرجبة في الأمور الدنيوية التي هي المشاجرات وثوران الغضب .

الثالث والثلاثون : أوجب عليه أمرين فيهما جماع ما أوصاه به في هذا العهد إجمالاً :

أحدهما : أن يتذكر ما مضى لمن تقدمه من الحكومات لعادلة للولاة قبله ، أو من الآثار المنقولة عن نبينا عليه السلام أو من فرائض الله ليقتدي بما شاهد من عمله عليه السلام فيها .

الثاني : أن يجتهد لنفسه في اتباع ما عهد إليه في عهده هذا واستوثق به من الحجة لنفسه عليه وهي الموعظة والتذكير بأوامر الله لكيلا يكون له عليه حجة يحتج بها عند تسرع نفسه إلى هواها كما قال تعالى : ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ^(١)

ومن هذا العهد أيضاً

وَأَنْ أَسْأَلَ اللَّهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ ، أَنْ

يُوقِّفُنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ مِنْ الْإِقَامَةِ عَلَى الْعُذْرِ الْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلَى خَلْقِهِ ،
مَعَ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي الْعِبَادِ ، وَجَمِيلِ الْأَثَرِ فِي الْبِلَادِ ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ ،
وَتَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ ، وَنَ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ ، وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ . وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الطَّيِّبِينَ
الطَّاهِرِينَ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا . وَالسَّلَامُ .

أقول : ختم هذا العهد بسؤال الله أن يوفقهما لما فيه رضاه ، وأقسم
عليه في إجابة سؤاله برحمته التي وسعت كل شيء وبقدرته العظيمة على
إعطاء كل رغبة . وظاهر كونهما مبدئين لإجابة السائلين . ثم فصل ما سألته
مما فيه رضا الله وهي أمور :

أحدها : الإقامة على العذر الواضح إلى الله وإلى خلقه .

فإن قلت : العذر إنما يكون عن ذنب فمن أقام على طاعة الله كيف
يكون فعله عذراً ؟

قلت : يحتمل أن يكون العذر إسمًا من الإعذار إلى الله وهو المبالغة
في الإتيان بأوامره فكأنه قال : من الإقامة على المبالغة إليه في أداء أوامره .

الثاني : حسن الثناء في العباد وجميل الأثر وهو ما يؤثر من الأفعال
الحميدة في البلاد ، وذلك مما سألته الأنبياء كإبراهيم عليه السلام ﴿ واجعل لي
لسان صدق في الآخرين ﴾ ^(١) قيل هو الذكر الجميل في الناس .

الثالث : أن يتم نعمته عليهما .

الرابع : تضعيف كرامته لهما .

الخامس : الخاتمة الحسنة بالسعادة وما يوصل إليها من الشهادة ، ونبه
بقوله : إنا إليه راغبون . على صدق نيته في سؤاله ، ثم ختم بالسلام على
رسول الله والصلاة عليه وآله .

٥٣ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى طلحة والزبير، مع عمران بن الحصين الخزاعي ذكره أبو جعفر الإسكافي في كتاب (المقامات) في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام:

أَمَّا بَعْدُ : فَقَدْ عَلِمْتُمَا - وَإِنْ كَتَمْتُمَا - أَنِّي لَمْ أَرِدِ النَّاسَ حَتَّى أَرَادُونِي ، وَلَمْ أَبَايَعُهُمْ حَتَّى بَايَعُونِي ، وَإِنُّكُمْ مِمَّنْ أَرَادَنِي وَبَايَعَنِي ، وَإِنَّ أَلْعَامَةَ لَمْ تُبَايَعَنِي لِسُلْطَانٍ غَالِبٍ ، وَلَا لِعَرَضٍ حَاضِرٍ ، فَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي طَائِعِينَ ، فَارْجِعَا وَتَوْبَا إِلَى اللَّهِ مِنْ قَرِيبٍ ، وَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي كَارِهَيْنِ فَقَدْ جَعَلْتُمَا لِي عَلَيْكُمَا السَّبِيلَ بِإِظْهَارِكُمَا الطَّاعَةَ ، وَإِسْرَارِكُمَا الْمَعْصِيَةَ ، وَلَعَمْرِي مَا كُنْتُمَا بِأَحَقَّ الْمُهَاجِرِينَ بِالتَّقِيَّةِ وَالْكِتْمَانِ ، وَإِنْ دَفَعْتُكُمَا هَذَا الْأَمْرَ ، [مِنْ] قَبْلِ أَنْ تَدْخُلَا فِيهِ ، كَانَ أَوْسَعَ عَلَيْكُمَا ، مِنْ خُرُوجِكُمَا مِنْهُ ، بَعْدَ إِفْرَارِكُمَا بِهِ .

وَقَدْ رَعَمْتُمَا أَنِّي قَتَلْتُ عُثْمَانَ ، فَبَيَّنِّي وَبَيَّنَّكُمْ مَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي وَعَنْكُمْ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ يَلْزِمُ كُلُّ أَمْرٍ بِقَدْرِ مَا آخَتَمَلَ . فَارْجِعَا أَيُّهَا الشَّيْخَانِ عَنْ رَأْيِكُمَا ! فَإِنَّ آلَانَ أَعْظَمُ أَمْرِكُمَا أَلْعَارُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجْتَمِعَ أَلْعَارُ وَالنَّارُ ، وَالسَّلَامُ .

قول : خزاعة قبيلة من الأزد . وقيل : الإسكافي منسوب إلى إسكاف رستاق كبير كان بين النهروان والبصرة . وكتاب المقامات : الذي صنفه الشيخ المذكور في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام وقد احتج عليه السلام عليهما في نكث بيعته بحجتين :

إحديهما : قوله : أما بعد . إلى قوله : حاضر . وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من علمتما من حاله ذلك فليس لكما أن تنكثا بيعته وتخرجا عليه .

وقوله : وإن كتمتما .

إشارة إلى أنهما بعد نكث بيعته كتما إرادتهما لبيعته وإرادة كثير من الناس وزعما أنه إنما حملهما عليها كرهاً .

الحجة الثانية قوله : فإن كنتما . إلى قوله : إقراركما به وهي شرطي منفصل تقديرها : إنه لا يخلو إما أن تكونوا بايعتما نبي طائعين أو كارهين .

والأول هو المطلوب . ويلزمكما ارتكاب المعصية والرجوع إلى الله بالتوبة إلى الله من قريب قبل استحكم المعصية في نفسيكما .
والثاني : باطل من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه يلزمكما النفاق حيث أظهرتما لي الطاعة وأضمرتما المعصية فجعلتما بذلك السبيل عليكما في القول والفعل .

الثاني : أنكما ما كنتما بالتقية مي والكتمان لعصيانكما أحق من المهجرين وذلك لأنهما كانا أقوى الجماعة وأعظمهم شأنًا فكان غيرهم من المهاجرين أولى منهما بالتقية عند البيعة ونكتهما بعد ذلك .

الثالث : إن دفعهما لبيعته قبل الدخول فيها أوسع لعذرهما من خروجهما منها بعد إقرارهما . وهذه الأقوال الثلاثة صغريات ضمير تقدير الكبرى في الأول : وكل ما جعلتما لي عليكما به السبيل فيحرم عليكما فعله وليس لكما أن تدعياه ، وفي الثاني : وكل من لا يكون أحق من المهجرين بدعواه فليس له أن يدعيه إذا لم يدعوه ، وفي الثالث : وكلما كان أوسع لعذرهما فليس لهما العدول عنه إلى ما هو أضيق .

وقوله : وقد زعمتما أنني قتلت عثمان .

إشارة : إلى شبهتهما المشهورة في خروجهما عليه .

وقوله : فبينى : إلى قوله : احتمل .

جوابه : أي الحكم إلى من تخلف عن نصرتي ونصرتكما من أهل المدينة ثم يلزم كل منّا من اللائمة والعقوبة بقدر ما احتمل من الإثم والبغي . ثم بعد أن أقام الحجة عليهما أمرهما بالرجوع عن رأيهما الفاسد في اختيارهما لبيعته ورغب في الرجوع عن ذلك . بقوله : فإن الآن . إلى آخره ، وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : والعار أسهل من اجتماع العار والنار

في الآخرة . وأراد بالعار العار بالعدر . والآن ظرف انتصب بأعظم الذي هو اسم إن ، ويجوز أن يكون هو اسمها وأعظم مبتدأ خبره العار - والجملة خبر إن والعائد إلى اسمها محذوف تقديره : فإن الآن أعظم أمر كما فيه العار .

٥٤ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى معاوية

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا ، وَابْتَلَى فِيهَا أَهْلَهَا ، لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَسْنَا لِدُنْيَا خُلِقْنَا ، وَلَا بِالسَّعْيِ فِيهَا أُمِرْنَا ، وَإِنَّمَا وَضَعْنَا فِيهَا لِنَبْتَلَى بِهَا ، وَقَدْ ابْتَلَانِي اللَّهُ بِكَ ، وَابْتَلَاكَ بِي ، فَجَعَلَ أَحَدَنَا حُجَّةً عَلَى الْآخَرِ ، فَعَدَوْتَ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ ، فَطَلَبْتَنِي بِمَا لَمْ تَجِزْ يَدِي ، وَلَا لِسَانِي ، وَعَصَبْتَهُ أَنْتَ وَأَهْلُ الشَّامِ بِي ، وَالْبَ عَالِمُكُمْ جَاهِلُكُمْ ، وَقَائِمُكُمْ قَاعِدُكُمْ . فَاتَّقِ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ ، وَنَازِعِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ ، وَأَصْرِفْ إِلَى الْآخِرَةِ وَجْهَكَ ، فَهِيَ طَرِيقُنَا وَطَرِيقُكَ ، وَاحْذَرْ أَنْ يُصِيبَكَ اللَّهُ مِنْهُ بِعَاجِلٍ قَارِعَةٍ تَمَسُّ الْأَصْلَ ، وَتَقْطَعُ الدَّابِرَ ، فَإِنِّي أُولِي لَكَ بِاللَّهِ أَلِيَّةً غَيْرَ فَاجِرَةٍ ، لِيُنْ جَمَعْتَنِي وَإِيَّاكَ جَوَامِعُ الْأَقْدَارِ لَا أَرَأُ بِبَاحْتِكَ ﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

أقول : عصبه به : علقه به . والتأليب : التحريض . والقارعة : الداهية . والدابر المتأخر من النسل . والألية : اليمين .

فقوله : أما بعد : إلى قوله : لنبتلي بها .

إشارة إلى غرض الدنيا وغايتها ليتنبه لذلك ويعمل له . وأراد بالسعي فيها الذي لم يؤمر به اكتسابها له ، دون غيره مما يكون للضرورة فإن ذلك مأمور به في قوله تعالى : ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ ^(١) .

وقوله : وقد ابتلاني : إلى قوله : الآخر .

تعيين لبعض أغراضها ، وقد علمت كيفية ابتلائه بخلقه فيما قبل ووجه ابتلائه ﷺ بمعاوية عصياناً ومحاربتة إياه حتى لو قصّر في مقاومته ولم يقم في وجهه كان ملوماً وكان معاوية حجة الله عليه ، ووجه ابتلاء معاوية به ﷺ دعوته له إلى الحق وتحذيره إياه من عواقب المعصية حتى إذا لم يجب داعي الله لحقه الذم والعقاب وكان ﷺ هو حجة الله عليه . وذلك معنى قوله : فجعل أحداً حجة على الآخر .

وقوله : فعدوت . إلى قوله : قاعدكم .

إشارة إلى بعض وجوه ابتلائه ﷺ به ، ومعنى ذلك أنه إنما طلب بخروجه عليه لدنيا وجعل السبب إلى ذلك تأويل القرآن كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾^(١) وغيره من آيات الدالة على وجوب القصاص فتأولها بإدخال نفسه فيها وطلب القصاص لعثمان ، وإنما كان دخوله في ذلك بالتأويل لأن الخطاب خاص بمن قتل وقتل منه . ومعاوية بمعزل عن ذلك إذ لم يكن من أولياء دم عثمان ففسر الآية بالعموم ليدخل فيها . والذي لم تجنه يده ولسانه ﷺ هو ما نسبوه إليه ﷺ وألب بعضهم بعضاً عليه فيه وهو قتل عثمان . وأراد ألب عليكم عالمكم بحلي جاهلكم به وقائكم في حربي قاعدكم عنه .

ثم لما نبه على غاية الدنيا وجعل الله سبحانه كلاً منهم حجة على الآخر ليعلم أيهم أحسن عملاً رجع إلى موعظته وتحذيره فأمره بتقوى الله في نفسه أن يهلكها بعصيانها ومخالفة أمره . وأن ينازع الشيطان قياده . واستعار لفظ لقيد لسمول الطبيعية ووجه الاستعارة كونها زمام الإنسان إلى المعصية إذا سَلَّمها بيد الشيطان وانهمك بها في اللذات الموبقة . ومنازعته للشيطان مقاومته لنفسه الأمانة عن طرف الإفراط إلى حاق الوسط في الشهوة والغضب ، وأن يصرف إلى الآخرة وجهه : أي يولي وجهه شطر الآخرة مطالعاً ما أعد فيها من خير وشر وسعادة وشقاوة بعين بصيرته ليعمل بها .

وقوله : فهي طريقنا وطريقك .

صغرى ضمير نبه به على وجوب صرف وجهه إلى الآخرة ، وتقدير كبراه : وكلما كان طريق الإنسان فواجب أن يصرف إليها وجهه . وجعلها طريقاً مجازاً عن غاية الطريق إطلاقاً لاسم ذي الغاية عليها . ثم حذره من الله أن يصيبه بدهاية يصيب أصله ويقطع نسله ، وأراد بها ما نهاه من نهوضه إليه وحربه إياه ولذلك أقسم على تقدير أن يجمعهما جوامع الأقدار أن لا يزال بباحته مقيماً حتى يحكم الله بينهما ، وفي ذلك غليظ الوعد بعذاب شديد .

٥٥ - ومن كلام له (عليه السلام)

وَصَّى بِهَا شُرَيْحَ بْنَ هَانِيٍّ لَمَّا جَعَلَهُ عَلَى مُقَدَّمَتِهِ إِلَى الشَّامِ

إِتَّقِ اللَّهَ فِي كُلِّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ ، وَخَفْ عَلَى نَفْسِكَ الدُّنْيَا الْغُرُورَ ، وَلَا تَأْمَنْهَا عَلَى خَالٍ ، وَأَعْلَمْ إِنَّكَ إِنْ لَمْ تَرُدَّعْ نَفْسَكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا تُحِبُّ مَخَافَةَ مَكْرُوهِهِ ، سَمَتْ بِكَ الْأَهْوَاءُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الضَّرَرِ ، فَكُنْ لِنَفْسِكَ مَانِعاً رَادِعاً ، وَلِنَزْوَتِكَ عِنْدَ الْحَفِيزَةِ وَاقِماً قَامِعاً .

أقول : قد ذكرنا طرفاً من حال إنفاذه لشريح بن هاني مع زياد ابن النضير على مقدمته بالشام في إثني عشر ألفاً . والنزوة : الوثبة . والحفيظة : الغضب . والواقم : الذي يرد الشيء أقبح الرد ، يقال : وقمه : أي رده بعنف وبقهر ، والوقم : القهر والإذلال ، وكذلك القمع .

وقد أمره بتقوى الله دائماً . ولما كانت تستلزم الأعمال الجميلة أردف ذلك بتفصيلها وهي أن يحذر على نفسه الدنيا، ونسب الغرور إليها لأنها سبب مادي له ، وأن لا يأمنها على حال لما تستلزم ذلك من الغفلة عن الآخرة . ثم أعلمه أنه إن لم يردع نفسه الأمانة بالسوء عن الانهماك في كثير من مشتبهاتها التي يخاف مكروهاها في العاقبة ويقف بها عند حدود الله ويسلك بها صراطه المستقيم لم يزل يسمو به هواها وميولها حتى تورده موارد الهلكة . ثم أكد وصيته بمنعها وقهرها عند نزواتها وتوئبها في الغضب . وقد عرفت أن إهمالها مبدأ كل شر يلحق في الدنيا والآخرة .

٥٦ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ عِنْدَ مَسِيرِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الْبَصْرَةِ

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي خَرَجْتُ مِنْ حَيِّ هَذَا إِمَّا ظَالِمًا ، وَإِمَّا مَظْلُومًا ، وَإِمَّا
بَاطِلًا ، وَإِمَّا مُبْغِيًّا عَلَيْهِ ، وَإِنِّي أَذْكُرُ اللَّهَ مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هَذَا لَمَّا نَفَرَ إِلَيَّ ،
فَإِنْ كُنْتُ مُحْسِنًا أَغَانِي ، وَإِنْ كُنْتُ مُسِيئًا أَسْتَغْتَبِي .

أقول : غرض الكتاب إعلام أهل الكوفة بخروجه من المدينة لقتال
أهل البصرة وستنفارهم إليه ، وقد مر مثل ذلك ، وحيه : قبيلته .
وقوله : إِمَّا ظَالِمًا . إلى قوله : عليه .

من باب تجاهل العارف ، ولأن القضية لم تكن بعد ظهرت لأهل
لكوفة وغيرهم ليعرفوا هل هو مظلوم أو غيره . ولذلك ذكرهم لينفروا إليه
فيحكموا بينه وبين خصومه فيعينوه أو يطلبوا منه العتبي وهي الرجوع إلى
الحق . و - أذكر - يتعدى إلى مفعول أول هو المذكر ، وثان هو المذكر به وهو
الله تعالى . وقد قدمه لكونه هو المقصود من التذكير . و - لما - مشددة بمعنى
إلا ، ومخففة هي ما زائدة دخل عليها لام التأكيد : أي لينفروا إلي . وبالله
التوفيق .

٥٧ - ومن كتاب له عليه السلام

كُتِبَ إِلَى أَهْلِ الْأَمْصَارِ يَقْصُ فِيهِ مَا جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِ صِفِّينَ

وَكَانَ بَدْءُ أَمْرِنَا أَنَا الْتَقِينَا وَالْقَوْمُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ رَبَّنَا
وَاحِدٌ ، وَنَبِيَّنَا وَاحِدٌ ، وَدَعَوَتُنَا فِي الْإِسْلَامِ وَاحِدَةٌ ، لَا نَسْتَرِيدُهُمْ فِي الْإِيمَانِ
بِاللَّهِ . وَالتَّصْدِيقِ بِرَسُولِهِ ، وَلَا يَسْتَرِيدُونَا : الْأَمْرُ وَاحِدٌ إِلَّا مَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ مِنْ
دَمِ عُثْمَانَ وَنَحْنُ مِنْهُ بَرَاءٌ ، فَقُلْنَا : تَعَالَوْا نُدَاوِ مَا لَا يُدْرِكُ الْيَوْمَ بِإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ ،
وَتَسْكِينِ الْعَامَةِ ، حَتَّى يَشْتَدَّ الْأَمْرُ وَيَسْتَجْمَعَ ، فَتَقْوَى عَلَى وَضْعِ الْحَقِّ
مَوَاضِعُهُ ، فَقَالُوا : بَلْ نُدَاوِيهِ بِالْمُكَابَرَةِ ، فَأَبَوْا حَتَّى جَنَحَتِ الْحَرْبُ ،
وَرَكَدَتْ ، وَوَقَدَتْ نِيرَانُهَا ، وَحَمِسَتْ ، فَلَمَّا ضَرَسَتْهَا وَإِيَاهُمْ ، وَوَضَعَتْ

مَخَالِبَهَا فِينَا وَفِيهِمْ ، أَجَابُوا عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى الَّذِي دَعَوْنَاهُمْ إِلَيْهِ ، فَأَجَبْنَاهُمْ إِلَى مَا دَعَوْا ، وَسَارَعْنَاهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا ، حَتَّى اسْتَبَانَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ، وَأَنْقَطَعَتْ مِنْهُمْ الْمَعْذِرَةُ ، فَمَنْ تَمَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ الَّذِي أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنَ الْهَلَكَةِ . وَمَنْ لَجَّ وَتَمَادَى فَهُوَ الرَّائِسُ الَّذِي رَانَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَصَارَتْ دَائِرَةُ السُّوءِ عَلَى رَأْسِهِ .

أقول : وبدء الأمر : أوله . ويروى : بديء فاعيل بمعنى مبتدأ . والنائرة : العداوة . وجنحت : مالت . وركدت : ثبتت . وحمست : اشتدت . وروي بالشين المعجمة : أي التهبت غضباً . وأنقذه خلصه . والتماذي في الشيء : الإقامة عليه وطلب الغاية فيه . والركس : رد الشيء مقبواً . والله أركسهم : أي ردّهم إلى عقوبة كفرهم والرين : التغطية . والدائرة : الهزيمة ، يقال : عليهم الدائرة ، ويؤكد شنعها بالإضافة إلى السوء .

والفصل من حكاية حاله مع أهل الشام وحالهم . والقوم عطف على الضمير في التقينا وفي قوله : والظاهر إيماء لى تهمته لهم بضد ذلك كما صرح به هو وعمار في صفين فإنه كان يقول : والله ما أسلموا ولكن استسلموا وأسروا الكفر فلما وجدوا عليه عوناً أظهروه . والوواللحال . وقوله : لا نستزيدهم .

أي لا نطلب منهم زيادة في الإيمان لتمامه منهم في الظاهر . وقد بين في حكاية الحال الاتحاد الذي بينهم في الأمور المذكورة التي لا يجوز الاختلاف معها ليظهر الحجة واستثنى من ذلك ما وقع الاختلاف فيه وهي الشبهة بدم عثمان والجواب عنها بجمالاً . ثم حكى وجه الرأي الأصح في نظام أمر الإسلام وسلامة أهله وشوره عليهم وإبائهم عن قبوله إلى الغاية المذكورة . والباء في قوله : بإطفاء النائرة متعلق بقوله : نداوي ما لا يدرك : أي ما لا يمكن تلافيه بعد وقوع الحرب ولا يستدرك من القتل وهلاك المسلمين .

وقوله : فقالوا : بل ندأويه بالمكابرة .

حكاية قولهم بلسان حالهم حين دعاهم إلى نظام أمر الدين بالرجوع عما هم عليه فكابروه وأصرّوا على الحرب ، وتجاوز باسم الجنوح إطلاقاً لاسم المضاف على المضاف إليه ، واستعار لفظ النيران للحركات في الحرب لمشابهتهما في استنزام الأذى والهلاك ، ورشح بذكر الوقْد ، وكذلك لفظ الحمس والتضريس ووضع المخالب . ثم حكى إجابتهم ورجوعهم إلى رأيه الذي رآه لهم ، وذلك أنهم صبيحة ليلة الهرير حين حموا المصاحف على الأرماع كانوا يقولون لأصحابه عليه السلام : معاشر المسلمين نحن إخوانكم في لدين الله الله في البنات والنساء . كما حكيناه أولاً . وذلك عين ما كان يذكرهم به (ع) من حفظ دماء المسلمين وذريتهم ، وأما إجابته إلى ما دعوا بإجابته إلى تحكيم كتاب الله حين دعوا إليه وظهور الحجة عليهم برجوعهم إلى عين ما كان يدعوهم إليه من حقن الدماء ، وفي ذلك انقطاع عذرهم في المطالبة بدم عثمان إذا كان سكوتهم عن دم صحابي لا حق لهم فيه أسهل من سفك دماء سبعين الفاً من المهاجرين ولانصار والتابعين باحسان .

وقوله : فمن تم على ذلك . أي على لرضاء بالصلح وتحكيم كتاب الله وهم أكثر أهل الشام وأكثر أصحابه عليه السلام . والذين لجّوا في التماذي فهم الخوارج الذين لجّوا في الحرب واعتزلوه عليه السلام بسبب التحكيم وكانت قلوبهم في أغشية من الشبهات الباطلة حتى صارت دائرة السوء على رؤوسهم فقتلوا إلا أقلهم .

٥٨ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلَى الْأَسْوَدِ بْنِ قَطِيْبَةَ صَاحِبِ حُلْوَانَ^(٢)

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ أَوْلِيَّيَ إِذَا اخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذَلِكَ كَثِيرًا مِنَ الْعَدْلِ ، فَلْيَكُنْ أَمْرُ النَّاسِ عِنْدَكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْجَوْرِ عَوَضٌ مِنَ الْعَدْلِ ، فَاجْتَنِبْ مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ ، وَابْتَدِلْ نَفْسَكَ فِيمَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ ،

رَاجِياً ثَوَابَهُ ، وَتَخَوِّفاً عِقَابَهُ .

وَأَعْلَمَ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلِيَّةٍ لَمْ يَفْرُغْ صَاحِبُهَا فِيهَا قَطُّ سَاعَةً إِلَّا كَانَتْ فَرَعَتْهُ عَلَيْهِ حَسْرَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّهُ لَنْ يُغْنِيَكَ عَنِ الْحَقِّ شَيْءٌ أَبَدًا ، وَمَنْ الْحَقُّ عَلَيْكَ : حِفْظُ نَفْسِكَ ، وَالْإِحْتِسَابُ عَلَى الرَّعِيَّةِ بِجُهِدِكَ ، فَإِنَّ الَّذِي يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَصِلُ بِكَ ، وَالسَّلَامُ .

أقول : في الفصل لطائف :

أحدها : أنه نبهه على وجوب ترك تنويع الأهوية والإعراض عن اتباع مختلفاتها بما يستلزمه من المفسدة وهي الامتناع عن كثير من العدل، ووجه الاستلزام ظاهر لأن اتباع الأهوية المختلفة يوجب الانحراف عن حاق الوسط في المطالب ، ولما نبهه على مفسدة الجور أمره ببسط العدل والتسوية بين الخلق في الحق . ثم نبهه على فضيلته بضمير صغره قوله : فإنه إلى قوله : العدل وتقديرها : فإن العدل ليس في الجور عوض عنه ، وتقدير الكبرى : وكل ما لم يكن في الجور عوض عنه فيجب لزومه واتباعه .

الثانية : لما كان اتباع مختلف الأهوية مما ينكر مثله عند وقوعه في حقه أو حق من ينزله أمره كالأذى اللاحق له مثلاً أمره باجتنابه وأن لا يقع منه في غيره ما يكره وقوع مثله في حقه . والعبارة وافية بهذا المعنى ، والغرض التنفير عنه .

الثالثة : أمره بعد ذلك أن يبذل نفسه فيما افترض الله عليه حالتي رجائه لثوابه وخوفه من عقابه لكونهما داعي العمل .

الرابعة : نبهه على أن الدنيا دار ابتلاء بالعمل كما قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (١) . ولما كان العمل الصالح فيها هو سبب الاستعداد للسعادة الباقية لا جرم كان الفراغ من العمل فيها تركاً لسبب سعادة لا يحصل يوم القيامة إلا به فكان من لوازم فرغته

منه في الدنيا الحسرة على ثمرته يوم القيامة .

الخامسة : نبه على ضرورته إلى عمل الحق بأنه لا يعنيه عنه شيء غيره لأن كل ما عدا الحق باطل والباطل سبب للفقر في الآخرة فلا يفيد غنى .

السادسة : نبه على أن من الحقوق الواجبة عليه حفظ نفسه : أي من زلة القدم عن الصراط المستقيم والوقوع في سواء الجحيم ، ثم الاحتساب على رعيته بجهد وطاقته ، والأخذ على أيديهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقدم حفظ النفس لأنه الأهم ، ونبه على وجوب الأمرين بقوله : فإن الذي إلى آخره وأراد أن الذي يصل إلى نفسك من الكمالات والثواب اللازم عنها في الآخرة بسبب لزومك للأمرين المذكورين أفضل مما يصل بعدلك وإحسانك إلى الخلق من النفع ودفع الضرر ، وبالله لتوفيق .

٥٩ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى العمال الذين يطأ الجيش عملهم^(٢)

مَنْ عَبْدَ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَنْ مَرَّ بِهِ لَجِيشٌ مِنْ جُبَاةِ الْخَرَاجِ ، وَعُمَالِ الْبِلَادِ .

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي قَدْ سِيرْتُ جُنُودًا هِيَ مَارَةٌ بِكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَقَدْ وَصَّيْتُهُمْ بِمَا يَجِبُ لِلَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ كَفِّ الْأَذَى ، وَصَرْفِ الشَّدَى . وَأَنَا أَبْرَأُ إِلَيْكُمْ وَإِلَى ذِمَّتِكُمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْشِ ، إِلَّا مِنْ جَوْعَةِ الْمُضْطَرِّ لَا يَجِدُ عَنْهَا مَذْهَبًا إِلَى شَيْعِهِ ، فَتَكُلُّوا مَنْ تَسَاوَلَ مِنْهُمْ شَيْئًا ظُلْمًا عَنْ ظُلْمِهِمْ ، وَكُفُّوا أَيْدِي سَفَهَائِكُمْ عَنْ مُضَارَّتِهِمْ ، وَالتَّعَرَّضْ لَهُمْ فِيمَا اسْتَشْنَيْنَاهُ مِنْهُمْ ، وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِ الْجَيْشِ فَارْقَعُوا إِلَيَّ مَظَالِمَكُمْ ، وَمَا غَرَاكُمْ مِمَّا يَغْلِبُكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَلَا تُطِيقُونَ دَفْعَهُ إِلَّا بِاللَّهِ وَبِي ، فَإِنَّا أُغِيرُهُ بِمَعُونَةِ اللَّهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

أقول : الشدى : الأذى . ومعرة الجيش : المضرة الواصلة منه ، وعرة معرة : أي ساءه . ونكل ينكل بالضم : جبن . ونكلوا : خوفوا ، وجبنوا .

وعراه الأمر : غشيه .

وحاصل الكتاب إعلام من على طريق الجيش من الجبابة وعمال البلاد بمسيره عليهم ليتنبهوا ويحترزوا منه ، ثم وصية الجيش بما ينبغي لهم ويجب لله عليهم من كف لأذى عمن يمرّون به ليعرفوا عموم عدله ويتأدّبوا بأدابه ، ثم إعلامهم أنه بريء إليهم وإلى ذمتهم التي أخذها منهم من إساءة الجيش فإنه ليس بأمره من ذلك إلاّ معرة جوعة المضطر التي لا يجد عنها إلى شبعه مذهباً . وتقدير الكلام : فإني أبرأ إليكم من معرة الجيش إلاّ من معرة جوعة المضطر منهم فقام المضاف إليه مقام المضاف أو أطلقه مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبب . ثم أمرهم أن يخوفوا ويجبنوا من تناول من الجيش شيئاً عن ظلمه ويدفعوه الدفع الممكن لهم لئلا يكون بسطوتهم خراب الأعمال ، ثم أن يكفوا أيدي سفهائهم عن مضارّتهم والتعرض لهم فيما استثناه من المعرة الضرورية لئلا يثور بذلك الفتنة بينهم وبين لجيش . ثم أعلمهم أنه بين أظهر الجيش كناية عن كونه مرجع أمرهم ليدفعوا إليه مظالمهم وما غشيه من أمر يغلب عليهم من الجيش لا يطيقون دفعه إلاّ بالله وبه فيغيّره بمعونة الله وخشيته .

٦٠ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى (كميل بن زياد النخعي) وهو عامله على (هيت)
يُنْكِرُ عَلَيْهِ تَرْكُهُ دَفْعَ مَنْ يَجْتَازُ بِهِ مِنْ جَيْشِ الْعَدُوِّ طَالِباً الْغَارَةَ

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ تَضْيِيعَ الْمَرْءِ مَا وُلِّيَ ، وَتَكْلُفُهُ مَا كُفِّيَ ، لَعَجَزُ حَاضِرٍ ، وَرَأْيُ مُتَبَرِّ ، وَإِنْ تَعَاطَيْكَ الْغَارَةُ عَلَى أَهْلِ قَرْقِيسِيَا ، وَتَعْطِيكَ مَسَالِحَكَ الَّتِي وَلَيْسَ بِهَا مَنْ يَمْنَعُهَا ، وَلَا يَرُدُّ لَجَيْشٍ عَنْهَا ، لَرَأْيٍ شَعَاعٍ . فَقَدْ صِرْتَ جِسْراً لِمَنْ أَرَادَ الْغَارَةَ مِنْ أَعْدَائِكَ عَلَى أَوْلِيَائِكَ . غَيْرَ شَدِيدِ الْمُنْكَبِ وَلَا مَهِيْبِ الْجَانِبِ ، وَلَا سَادٍّ ثُغْرَةٍ ، وَلَا كَاسِرٍ شَوْكَةٍ ، وَلَا مُغْنٍ عَنْ أَهْلِ مِصْرِهِ ، وَلَا مُجْزٍ عَنْ أَمِيرِهِ وَالسَّلَامُ .

أقول : المتبر : الهالك والفساد . والشعاع : المتفرق .

وقوله : أما بعد . إلى قوله : متبر .

اعلم أن في صدر الكتب إجمالاً كما جرت عادة الخطيب ما يريد أن يوبخه عليه من تعاطيه أمراً مع إهماله ما هو أهم منه . ثم ذكر غرضه من الكتاب مفصلاً بقوله : وإن تعاطيك . إلى قوله : شعاع . ثم نفره عن ذلك الرأي بما فيه من المفاسد والردائل :

أحدهما : كونه جسراً . واستعار لفظ الجسر له باعتبار عبور العدو عليه إلى غرضه ، وروي : حسراً . وهو أيضاً مجاز باعتبار نحو مسالحه عن العسكر الذي ينبغي به العدو فهو كالحاسر عديم اللامة .

الثاني : كونه غير شديد المنكب ، وكفى بذلك عن ضعفه ، وكذلك كونه غير مهيب الجانب .

الثالث : كونه غير سد ثغرة .

الرابع : ولا كاسر شوكة عدوه .

والخامس : ولا مغن عن أهل مصره في دفع عدوهم .

السادس : ولا مجز عن أميره فيما يريده منه .

٦١ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى أهل مصر مع مالك الأشر لما ولآه إمارتها

أما بعد : فإن الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، نذيراً للعالمين ، ومهيئاً على المرسلين ، فلما مضى عليه السلام تنزع المسلمون الأمر من بعده ، فوالله ما كان يلقى في روعي ، ولا يخطر ببالي ، أن العرب تزج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وآله وسلم عن أهل بيته ، ولا أنهم منحوه عني من بعده ، فما راغني إلا أنيئد الناس على فلان يبايعونه ، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عني

الْإِسْلَامَ ، يَدْعُونَ إِلَى مَحَقِّ دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلَمًا ، أَوْ هَدْمًا ، تَكُونُ الْمَصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ قَوْتِ وَلَايَتِكُمْ إِلَيَّ إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلِيلٍ ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ ، أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ ، فَتَهَضَّتْ فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ حَتَّى زَاخَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ ، وَأَظْمَأَنَّ الدِّينُ وَتَنَهَنَ .

وَمِنْهُ : إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ لَقِيتُهُمْ وَاحِدًا وَهُمْ طَلَاعُ الْأَرْضِ كُلِّهَا ، مَا بَالَيْتُ وَلَا اسْتَوْحَشْتُ ، وَإِنِّي مِنْ ضَالِّيهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ ، وَالْهَدَى الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ ، لَعَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ نَفْسِي وَيَقِينٍ مِنْ رَبِّي ، وَإِنِّي إِلَى لِقَاءِ اللَّهِ لَمُسْتَأَقٌّ ، وَحُسْنِ ثَوَابِهِ لَمُنْتَظَرٌ رَاجٍ ، وَلَكِنِّي أَسَى أَنْ يَلِيَ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَفَهًا وَفَجَارًا ، فَيَتَّخِذُوا مَالَ اللَّهِ دُولًا ، وَعِبَادَهُ خَوْلًا ، وَالصَّالِحِينَ حَرْبًا ، وَالْفَاسِقِينَ حِزْبًا ، فَإِنَّ مِنْهُمْ الَّذِي [قَدْ] شَرِبَ فِيكُمْ الْحَرَامَ ، وَجُلِدَ حَدًّا فِي الْإِسْلَامِ ، وَإِنْ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُسْلِمَ حَتَّى رُضِخَتْ لَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ الرِّضَائِخُ ، فَلَوْلَا ذَلِكَ مَا أَكْثَرْتُ تَأْلِيَكُمْ ، وَتَأْنِيَكُمْ ، وَجَمْعَكُمْ وَتَحْرِيطَكُمْ ، وَلَتَرَكْتُكُمْ إِذَا أَبَيْتُمْ وَوَنَيْتُمْ .

أَلَا تَرَوْنَ إِلَى أَطْرَافِكُمْ قَدْ انْتَقَصَتْ ، وَإِلَى أَمْصَارِكُمْ قَدْ أَفْتِيحَتْ ، وَإِلَى مَمَالِكِكُمْ تَزَوَّى ، وَإِلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى ، أَنْفِرُوا - رَجَمَكُمُ اللَّهُ - إِلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ ، وَلَا تَتَأَفَّلُوا إِلَى الْأَرْضِ فَتَقْرُوا بِالْخُسْفِ ، وَتَبُوءُوا بِالذُّلِّ ، وَيَكُونُ نَصِيْبُكُمْ الْأَخْسَرُ ، وَإِنَّ أَخَا الْحَرْبِ الْأَرِقَّ ، وَمَنْ نَامَ لَمْ يَنْمَ عَنْهُ ، وَالسَّلَامُ .

أقول : المهيمن : الشاهد . والروع : القرب . والانتيال : الانصباب . وراح : ذهب . وزهق : زال واضمحل . وتنهنه : اتسع . وطلاع الأرض : ملاؤها . وآسى : أحزن . والدولة في المال - بالضم - : أن يكون مرة لهذا ومرة لذلك . والخول : العبيد . والرضخ : الرشوة ، وأصله الرمي . والتأليب : التحريض . والتأنيب : اللوم . والونى : الضعف .

وتزوى : تقبض . وتبوءوا : ترجعوا . والخسف : النقيصة .

وصدّره باقتصاص حال النبي ﷺ باعتبار كونه نذيراً للعالمين بعقاب أليم ، وشاهداً على المرسلين بكونهم مبعوثين ومصدقاً لهم في ذلك . ثم اقتصاص حال المسلمين بعده في تنازع أمر الخلافة متدرجاً من ذلك إلى شرح حله معهم في معرض الشكاية من إزاحة أمر الخلافة عنه مع كونه أحق بها وانصباهم على بيعة فلان - وهو كناية عن أبي بكر - وإمساك يده عن القيام في ذلك والطلب للأمر إلى غاية ارتداد الناس في زمن أبي بكر عن الإسلام وطمعهم في محق الدين . ثم شرح حاله من الخوف على الإسلام وأهله أن ينشلم أو ينهدم فتكون المصيبة عليه في هدم أصل الدين أعظم من فوت الولاية القصيرة الأمد التي غايتها إصلاح فروع الدين وامتّماته . وشبه زوالها بزوال السراب وتتشع لسحاب ، ووجه الشبه سرعة الزوال وكونها لا أصل لثباتها كما لا ثبات لحقيقة السراب ووجود السحب ، وقدم ذكر الارتداد لغرض بيان فضيلته في الإسلام . ولذلك عقبه باقتصاص حال نهوضه في تلك الأحداث التي وقعت من العرب إلى غاية زهوق الباطل واستقرار الدين وانتشاره . ثم قسم أنه لو لقيهم وحده وهم من الأرض لم يكثر بهم ولم يستوحش منهم لأمرين :

أحدهما : علمه اليقين بأنهم على الضلال وأنه على الهدى .

الثاني : اشتياقه إلى لقاء ربه وانتظاره ورجاؤه لثوابه . وهما يجريان مجرى ضميرين تقدير كبراهما : وكل من كان كذلك فلا يباليهم ولا يستوحش منهم .

وقوله : ولكنني أسى .

يجري مجرى جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فإذا كنت تعلم أنك وإياهم على الحالين المذكورين فلم تحزن من فعلهم ؟ فكأنه قال : إني لا أحزن من لقائهم وحربهم ولكن أحزن أن تلي أمة محمد سفهاؤها وفجّارها . إلى قوله : حرباً . وعنى بالسفهاء بني أمية وأشياعهم . ثم نبه على أنهم مظنة أن يفعلوا ذلك لو ولّوا هذا الأمر بقوله : فإن منهم .

إلى قوله : الرضائخ . والذي شرب منهم في المسلمين الحرام إشارة إلى المغيرة بن شعبة لما شرب الخمر في عهد عمر حين كان والياً من قبله على الكوفة فصلّى بالناس سكران وزاد في الركعات وقاء الخمر فشهدوا عليه وجلد الحد ، وكذلك عنبسة [عتبة] ابن أبي سفيان جلده في الخمر خالد ابن عبيد الله بالطائف ، والذي لم يسلم حتى رضخت له الرضائخ قيل : هو أبو سفيان وابنه معاوية وذلك أنهما كانا من المؤلفة قلوبهم الذين يستمالون إلى الدين وجهاد عدوه بالعطاء . وقيل : هو عمرو بن العاص ولم يشتهر عنه مثل ذلك إلا ما حكاه عنه من اشتراطه على معاوية طعمة مصر في مساعدته بصفين . كما مرّ ذكره . ثم نبههم على أن ما ذكره من الأسى هو السبب التام لتوبيخهم وتحريضهم على الجهاد ، ولولا ذلك لتركهم إذ أبوا وضعفوا . ثم نبههم على فعل عدوهم بهم وافتتاحه لأمصارهم وغرورهم ليستثير بذلك حمية طباعهم . ولذلك أمرهم بعده بالنفور إلى قتال عدوهم ، ونهاهم عن التناقل في ذلك ونقرهم عنه بما يلزمه من الإقرار بالخسف والرجوع إلى الذل وخسة النصيب . ثم نبههم على من يكون أهلاً للحرب وهو الأرق . وكفى به عن كبير الهمّة . إذ كان من لوازمه قلة النوم ونقرهم عن ضعف الهمّة والتواني في الجهاد بما يلزم ذلك من طمع العدو فيهم بسكوتهم عنه ، والرقدة عن مقاومته .

٦٢ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى أبي موسى الأشعري ، وهو عاملة على الكوفة ، وقد بلغه عنه تشييطه الناس عن الخروج إليه ، لما ندبهم لحرب أصحاب الجمل

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس .

أما بعد : فقد بلغني عنك قول هولاك وعليك ، فإذا قدم رسولي عليك فأرفع ذيلك ، وأشدّد مشرك ، وأخرج من جحرِكَ ، وأندب من معك ، فإن حققت فأنفذ ، وإن تفشلت فابعُد ، وأيم الله ! التوتيت من حيث أنت ، ولا تترك حتى يخلط زبدك بخائرك ، وذائبك بجامدك ، وحتى تعجل

فِي قِعْدَتِكَ ، وَتَحَذَرُ مِنْ ثَمَامِكَ كَحَذَرِكَ مِنْ خَلْفِكَ ، وَمَا هِيَ بِالْهُوَيْنَا الَّتِي تَرْجُو ، وَلَكِنَّهَا الدَّاهِيَةُ الْكُثْرَى ، يُرَكَّبُ جَمَلُهَا وَيُدَلُّ صَعْبُهَا ، وَيُسْنَلُ جَبَلُهَا ، فَاعْقِلْ عَقْلَكَ ، وَأَمْلِكْ أَمْرَكَ ، وَخُذْ نَصِيكَ وَحِظْكَ ، فَإِنْ كَرِهْتَ فَتَنَحْ إِلَى غَيْرِ رَحْبٍ ، وَلَا فِي نَجَاةٍ فَبِالْحَرِيِّ لَتَكْفَيْنَ وَأَنْتَ نَائِمٌ حَتَّى لَا يُقَالَ : أَيْنَ فُلَانٌ ؟ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَحَقَّ مَعَ مُجَوِّ ، وَمَا نُبَالِي مَا صَنَعَ الْمُلْجِدُونَ ، وَالسَّلَامُ .

أقول : روي عن أبي موسى أنه كان حين مسير علي عليه السلام إلى البصرة واستنفاه لأهل الكوفة إلى نصرته يشبط الناس عنه ويقول : إنها فتنة فلا يجوز القيام فيها ، ويروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أخباراً يتضمن وجوب القعود عن الفتنة والاعتزال فيها . فكتب إليه مع ابنه الحسن عليه السلام هذا الكتاب . والقول الذي بلغه عنه هو نهى الناس وتشبيطهم عن النهوض إليه ، وذلك قول هو له باعتبار ظاهر الدين وهيه عن الخوض في الفتن ، وهو عليه من وجوه :

الأول : كان معلوماً من همه أنه لم يقصد بذلك إلا قعود الناس عنه ، وفهم منه ذلك . وهو خذلان للمدين في الحقيقة وهو عائد عليه بمضرة العقوبة منه عليه السلام ومن الله تعالى في الآخرة .

الثاني : أنه لم كان عليه السلام على الحق في حربه كان تشييط أبي موسى عنه جهلاً بحاله وما يجب من نصرته والقول بالجهل عائد على القائل بالمصرة .

الثالث : أنه في ذلك القول مناقض لغرضه لأنه نهى عن الدخول مع الناس ومشاركتهم في زمن الفتنة وروى خبر يقتضي أنه يجب القعود عنهم حينئذ مع أنه كان أميراً يتهافت على الولاية ، وذلك متناقض فكان عليه لا له .

ثم أمره عند قدوم رسوله عليه بأوامر على سبيل الوعيد والتهديد :

أحدها : أن يرفع ذيله ويشدّ مثزره . وهما كنايةتان عن الاستعداد للقيام بوجوب أمره ولمسارعة إلى ذلك .

الثاني : أن يخرج من جحره . وأراد خروجه من الكوفة . واستعار له

لفظ الجحر ملاحظة لشبهه بالثعلب ونحوه.

الثالث : أن يندب : أي يبعث من معه من العسكر ويدعوهم إلى الخروج .

وقوله : فإن حققت .

أي عرفت حقيقة أمري وأني على الحق فأنفذ . أي فامض فيما أمرك به ، وإن تفشلت : أي جئت وضعفت عن هذا الأمر ومعرفته فاقعد عنه . ثم توعدّه على تقدير قعوده وأقسم ليأتيه بالمكان الذي هو به من لا يتركه حتى يخلط زبدته بخائره وذائبه بجامده ، وهما مثلاً كنى بهما عن خلط أحواله الصافية بالتكدير كعزّته بذلته وسروره بغمه وسهولة أمره بصعوبته ، وحتى يسجله عن قعدته وهي هيئة قعوده وأراد غاية الإعجال ، وحتى يكون حذره من أمامه كحذره من خلفه . وهو كناية عن غاية الخوف . وإنما جعل الحذر من الخلف أصلاً في التشبيه لكون الإنسان من ورائه أشد خوفاً . وقيل : أراد حتى يخاف من الدنيا كما يخاف من الآخرة .

وقوله : وما هي بالهويناء .

أي وما القصة المعهودة لك بالهيئة السهلة التي ترجو أن تكون فيها على اختيارك ولكنها الداهية الكبرى من دواهي الدهر ومصائبه .

وقوله : يركب جملها . أي يركب فيها ، ويذلّ صعبها : أي يسهل الأمور الصعاب فيها . وهو كناية عن شدتها وصعوبتها .

ثم أردف وعيده وتحذيره بنصيحته وأمره بأوامر :

أحدها : أن يعقل عقله . وعقله يحتمل النصب على المصدر وهو أمر له أن يراجع عقله ويعتبر هذه الحال العظيمة دون هواه . وقيل : هو مفعول به : أي اضبط عقلك واحبس على معرفة الحق من الباطل ولا تفرقه فيما لا ينبغي .

الثاني : أن يملك أمره : أي شأنه وطريقته ، ويصرفها على قانون العدل والحق دون الباطل .

الثالث : أن يأخذ نصيبه وحظه من طاعته والقيام بأمره في نصرته والذب عن دين الله . وقيل : أراد أخذ ما قسم لك من الحظ ولا تتجاوز إلى ما ليس لك .

ثم أردف ذلك بأمره بالتنحي عن الولاية على تقدير كراهته لما ذكر وعدم امثاله لما أمر .
وقوله : فبالحري لتكفين .

أي فما أحذر أن يكفي هذه المؤونة وأنت نائم عن طاعة الله حتى لا يفتقد ولا يسأل عنك لعدم المبالاة بك . ثم أقسم أنه لحق : أي الأمر المعهود الذي فعله من حربه بالبصرة ، مع محق : أي صاحب محق لما يدعيه ، عالم به ، لا يكثر بما صنع الملحدون في دين الله من مخالفته لمعرفة أنه على الحق دونهم .

٦٣ - ومن كتاب له عليه السلام

إلى معاوية ، جواباً

أَمَا بَعْدُ : فَإِنَّا كُنَّا نَحْنُ وَأَنْتَ عَنِي مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْأَلْفَةِ وَالْجَمَاعَةِ ، فَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَمْرٌ ، أَنْ آمَنَّا وَكَفَرْتُمْ ، وَالْيَوْمَ أَنَا سَتَقَمْنَا وَفُتِنْتُمْ ، وَمَا أَسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ إِلَّا كُرْهًا ، وَتَعَدُّ أَنْ كَانَ أَنْفُ الْإِسْلَامِ كُلُّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جُزْأً .

وَذَكَرْتَ أَنِّي قَتَلْتُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ ، وَشَرَّدْتُ بِعَائِشَةَ ، وَنَزَلْتُ بَيْنَ الْمِصْرَيْنِ ، وَذَلِكَ أَمْرٌ غَبَتْ عَنْهُ ، فَلَا عَلَيْكَ وَلَا الْعُذْرُ فِيهِ إِلَيْكَ .

وَذَكَرْتَ أَنَّكَ زَائِرِي فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَقَدْ أَنْقَطَعَتِ الْهَجْرَةُ يَوْمَ أُسِرَ أَبُوكَ ، فَإِنْ كَانَ فِيكَ عَجَلٌ فَاسْتَرْفِهِ ، فَإِنِّي إِنْ أَرُوكَ فَذَلِكَ جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ إِلَهُهُ إِنَّمَا بَعَثَنِي لِلنَّقْمَةِ مِنْكَ ! وَإِنْ تَرَزَّنِي فَكَمَا قَالَ أَخُو بَنِي أُسَيْدٍ :

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَّاحَ الصَّيْفِ ، تَضْرِبُهُمْ

بِحَاصِبٍ ، بَيْنَ أَغْوَارٍ وَجُلُودٍ

وَعِنْدِي السَّيْفُ الَّذِي أَعْضَضْتُهُ بِجَدِّكَ ، وَخَالِكَ ، وَأَخِيكَ ، فِي مَقَامٍ
وَاحِدٍ ، وَإِنَّكَ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ ، الْأَغْلَفُ الْقَلْبُ ، الْمُقَارِبُ الْعَقْلُ ، وَالْأَوَّلَى
أَنْ يُقَالَ لَكَ : إِنَّكَ رَقِيتَ سُلْماً أَطْلَعَكَ مَطْلَعُ سُوءٍ عَلَيْكَ لَا لَكَ ، لِأَنَّكَ
نَشَدْتَ غَيْرَ ضَالَّتِكَ ، وَرَعَيْتَ غَيْرَ سَائِمَتِكَ ، وَطَلَبْتَ أَمراً لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ ،
وَلَا فِي مَعْدِنِهِ ، فَمَا أَبْعَدَ قَوْلِكَ مِنْ فِعْلِكَ ، وَقَرِيبُ مَا أَشْبَهْتَ مِنْ أَعْمَامٍ
وَأَحْوَالٍ حَمَلَتْهُمْ الشَّقَاوَةُ . وَتَمَنَّى الْبَاطِلُ ، عَلَى الْجُحُودِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَضَرَعُوا مَصَارِعَهُمْ حَيْثُ عَلِمْتَ ، لَمْ يَدْفَعُوا عَظِيماً ، وَلَمْ
يَمْنَعُوا حَرِيماً بِوَقْعِ سَيْوفٍ مَا خَلَا مِنْهَا لَوْعَى ، وَلَمْ تُمَاشِهَا أَلْهُوَيْنَا .

وَقَدْ أَكْثَرْتَ فِي قَتْلَةِ عُثْمَانَ فَادْخُلْ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ ، ثُمَّ حَاكِمِ
الْقَوْمَ إِلَيَّ أَحْمِلْكَ وَإِيَّاهُمْ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَمَّا تِلْكَ الَّتِي تُرِيدُ ؛ فَنِيهَا
خُدْعَةُ الصَّبِيِّ عَنِ اللَّبَنِ فِي أَوَّلِ الْفِصَالِ ؛ وَلَسْلَامٌ لِأَهْلِهِ .

أقول : أنف الإسلام : أوله . والتشريد : الإبعاد . واسترفه : أي
نفس عنك من لرفاهية وهي السعة . والأغوار : المنخفضة من الأرض .
وأغصصت السيف بفلان : أي جعلته يغص به وهو من المغلوب لأن
المضروب هو الذي يغص بلسيف : أي لا يكاد يسيغه . ويروى بالضاد
المعجمة : أي جعلته عاضاً لهم . والمقارب - بالكسر - : الذي ليس
بالتمام .

وقد كان معاوية كتب إليه عليه السلام يذكره ما كانوا عليه قديماً من الألفة
ولجماعة ، وينسب إليه بعد ذلك قتل طلحة والزبير والتشريد بعائشة ويتوعده
بالحرب ويطلب منه قتلة عثمان . فأجابه عليه السلام عن كل من ذلك بجواب :

أما الأول : فسلم دعواه من القدر المشترك بينهم وهو الألفة والجماعة
قبل الإسلام ولكنه ذكر الفارق وهو من وجوه :

أحدها : أنه عليه السلام في أول الإسلام آمن في جملة من أهل بيته ،
ومعاوية وأهل بيته حينئذ كانوا كفاراً .

الثاني : أنه عليه السلام وأهل بيته في آخر الأمر لم يزالوا مستقيمين على الدين ومعوية وأهل بيته مفتونين جاهلين بفتنتهم .

الثالث : أن من أسلم من أهل بيته عليه السلام أسلم طوعاً ، ومسلم أهل معاوية لم يسلم إلا كرهاً بعد أن اشتد لإسلام وصار للرسول عليه السلام حزب قوي من أشراف العرب ، واستعد لفظ أنف الإسلام لهم باعتبار كونهم أعزاء أهله . ومن أسلم كرهاً أبو سفيان ، وذلك أنه لما انتهى [أتى خ] رسول الله عليه السلام إلى مكة في غزوة الفتح أتى ليلاً فنزل بلبطحاء ، وما حولها فخرج العباس بن عبد المطلب على بغلة رسول الله عليه السلام يدور حول مكة في طلب من يبعثه إلى قريش ليخرجوا إلى رسول الله عليه السلام ويعتذروا إليه فلقي أبا سفيان فقال له : كن رديفي لتمضي إلى رسول الله عليه السلام ، وتأخذ الأمان لك منه .

فلما دخل على رسول الله عليه السلام عرض عليه الإسلام فأبى . فقال عمر : إئذن لي يا رسول الله لأضرب عنقه . وكان العباس يحامي عنه للقرابة فقال : يا رسول الله إنه يسلم غدً . فما جاء الغد دخل به على رسول الله عليه السلام فعرض عليه الإسلام فأبى فقال له العباس في السر : يا أبا سفيان أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله وإن لم يكن ذلك في قلبك فإنه يأمر الآن بقتلك إن لم تقل . فشهد الشهادتين على كره لخوف القتل وقد رأى أكثر من عشرة آلاف رجل حول رسول الله عليه السلام قد تحزّبوا معه واجتمعوا إليه . فذلك معنى قوله : أما بعد . إلى قوله : حزباً .

الثاني : ما ادعاه عليه من قتل طلحة والزبير وتشريد عائشة ، والنزول بين المصريين البصرة والكوفة ؛ فأجاب عنه بقوله : وذلك . إلى قوله : إليك وهو في قوة ضمير تقدير كبراه : وكل من غاب عن أمر ولم يكن فيه مدخل فليس تكليفه عليه ولا العذر من التقصير والتفريط فيه إليه .

الثالث : ما توعده به من زيارته في المهاجرين والأنصار ؛ فأجابه بوجهين :

أحدهما : أنه أوهم في كلامه أنه من المهاجرين فأكذبه بقوله : وقد انقطعت الهجرة يوم أسر أبوك : أي حين الفتح ، وذلك أن معاوية وأباه وجماعة من أهله إنما أظهروا الإسلام بعد الفتح وقد قال عليه السلام : لا هجرة بعد الفتح فلا يصدق عليهم إذن اسم المهاجرين . وسمى عليه السلام أخذ العباس لأبي سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مختار وعرضه على القتل أسراً .

وروي يوم أسر أخوك . وقد كان أسر أخوه عمرو بن أبي سفيان يوم بدر . فعلى هذه الرواية يكون الكلام في معرض التذكرة له بأن من شأنه وشأن أهله أن يؤسروا أولاً فيسلموا فكيف يدعون مع ذلك الهجرة فإن الهجرة بهذا الاعتبار منقطعة عنهم . ولا يكون - يوم أسر - ظرفاً لانقطاع الهجرة لأن الهجرة انقطعت بعد الفتح .

الثاني : مقابلة وعيده بوعيد مثله وهو قوله : فإن كان . إلى قوله : مقام واحد . وأراد إن كنت مستعجلاً في مسيرك إلي فاطلب لرفاهية عني نفسك في ذلك فإنك إنما تستعجل إلى ما يضرّك ، ونبه على ذلك بقوله : فإني . إلى قوله : واحد، وهو في قوة صغرى ضمير ووجه التمثيل بالبيت أنه شبه استقبال معاوية في جمعه باستقبالهم رياح الصيف ، وشبه نفسه برياح الصيف وجعل وجه المشابهة كونه عليه السلام يضرب وجوههم في الحرب بالسيوف والرماح كما تضرب رياح الصيف وجوه مستقبليها بالحصباء ، وقد بينا أنه عليه السلام قتل جد معاوية وهو عتبة . وحاله الوليد بن عتبة ، وأخاه حنظلة بن أبي سفيان . وتقدير الكبرى : وكل من كان كذلك فمن الواجب أن يحذر منه ولا يتوعد بحرب وقتال .

وقوله : وإنك والله . إلى قوله : الهوين .
توبيخ مشوب بتهديد . وما في قوله : وما علمت . موصولة ، واستعار لفظ الأغلف لقلبه ، ووجه الاستعارة أنه محجوب بالهيئات البدنية وأغشية البطل عن قبول الحق وفهمه فكأنه في غلاف منها، ووصف المقاربة في عقله لاختياره البطل . ثم أعلمه على سبيل التوبيخ بما الأولى أن يقال في حاله . واستعار لفظ السلم للأحوال التي ركبها والمنزلة التي طلبها ، ورشح بذكر الارتقاء والاطلاع . المطلع مصدر، ويجوز أن يكون اسم الموضع

واحتج لصحة قوله بقوله : لأنك . إلى قوله : معدنه ، واستعار الضالة والسائمة لمرتبته التي ينبغي له ان يطلبها ويقف عندها . وما هو غيرها هو أمر الخلافة . إذ ليس من أهلها . ورشح بذكر النشيد والرعي . ثم تعجب من بعدما بين قوله وفعله وذلك أن مدار قوله في الظاهر على طلب قتلة عثمان وإنكار المنكر كما ادّعاه ، ومدار فعله وحركاته على التغليب في الملك والبغي على الامام العادل وشتان ما هما . ثم حكم بقرب شبهه بأعمامه وأحواله . وما مصدرية والمصدر مبتدأ خبره قريب . فمن أهل الشقاوة من جهة عمومته حمالة الحطب ومن جهة خوولته الوليد بن عتبة .

وإنما أنكر الأعمام والأحوال لأنه لم يكن له أعمم وأحوال كثيرون ولجمع المنكر جاز أن يعبر به عن الواحد والاثنين للمبالغة مجازاً في معرض الشناعة . ولا كذلك الجمع المعروف ، وأشار إلى وجه الشبه بقوله : حملتهم . إلى قوله : الهويث . وموضع قوله : حملتهم . الجر صفة لأحوال وراد الشقاوة المكتوبة عليهم في الدنيا والآخرة التي استعدوا لها بجحود محمد ﷺ وتمني الباطل هو ما كانوا يتمنون ويبدلون أنفسهم وأموالهم فيه من قهر الرسول ﷺ وإطفاء نور النبوة وإقامة أمر الشرك . وقوله : بوقع .

متعلق بقوله : فصرعو . وما خلا صفة لسيوف . ولفظ المماشة مستعار . ولمراد أن تلك السيوف لم يلحق ضربها ووقعها هون ولا سهولة ولم يجبر معها . وروي لم يماسها بالنسب المهمة من المماساة : أي لم يخالطها شيء من ذلك .

الرابع : طلبه لقنلة عثمان وأجابه بقوله : فادخل . إلى آخره . وأراد فيما دخل فيه لناس من الطاعة والبيعة وصدق الجواب ظاهر لأنه لا بد للمتحاكمين من حاكم وهو ﷺ يومئذ الحاكم الحق فليس لمعاوية أن يطلب منه إذن قوماً منهم المهاجرون والأنصار ليسلمهم إليه حتى يقتلهم من غير محكمة . بل يجب أن يدخل في طاعته ويجري عليه أحكامه ليحاكم القوم إليه فإما له وإما عليه .

وقوله : وأما تلك التي تريد .

أي الخدعة عن الشام لغرض إقراره على إمارتها . ووجه مشابهتها بخدعة الصبي ضعفها وظهور كونها خدعة لكل أحد . وإنما قال : والسلام لأهله . لأن معاوية لم يكن في نظره من أهله . وبالله التوفيق .

٦٤ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلَيْهِ أَيْضاً

أَمَّا بَعْدُ : فَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَتَفَعَّ بِاللَّمَحِ الْبَاصِرِ مِنْ عِيَانِ الْأُمُورِ ، فَقَدْ سَلَكَتَ مَدَارِجَ أَسْلَافِكَ بِإِدْعَائِكَ الْأَبَاطِيلَ ، وَإِقْحَامِكَ غُرُورَ الْمَيِّنِ وَالْكَاذِبِ ، وَبِاتِّحَالِكَ مَا قَدْ عَلَا عَنْكَ ، وَابْتِزَازِكَ لِمَا اخْتَزَنَ دُونَكَ ، فِرَاراً مِنَ الْحَقِّ ، وَجُحُوداً لِمَا هُوَ أَلْزَمُ لَكَ مِنْ لَحْمِكَ وَدَمِكَ ، بِمَقْدُوعِ غَاةِ سَمْعِكَ ، وَمُلْبِئَةٍ بِهِ صَدْرُكَ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ الْمَيِّنُ ، وَبَعْدَ الْبَيَانِ إِلَّا اللَّبْسُ ؟ فَحَذِرِ الشُّبْهَةَ وَاسْتِمَالَهَا عَلَى لُبْسِهَا ، فَإِنَّ الْفِتْنَةَ طَالَمَا أَغْدَفَتْ جَلَابِيبَهَا ، وَأَعَشَتْ الْأَبْصَرَ ظُلُمَتَهَا .

وَقَدْ أَتَانِي كِتَابٌ مِنْكَ ذُو أَفْنِينَ مِنَ الْقَوْلِ ضَعُفَتْ قُوَاهَا عَنِ السُّنَنِ ، وَأَسَاطِيرُ لَمْ يَحْكَمْ مِنْكَ عِلْمٌ وَلَا حِلْمٌ ، أَصْبَحَتْ مِنْهَا كَالْخَائِضِ فِي الدَّهَاسِ ، وَالْخَائِطِ فِي الدِّيْمَاسِ ، وَتَرَقَّيْتَ إِلَى مَرْقَبَةٍ بَعِيدَةِ الْمَرَامِ ، نَارِخَةِ الْأَعْلَامِ ، تَقْصُرُ دُونَهَا الْأَنْوُقُ ، وَيُخَاذِي بِهَا الْعَيُوقُ .

وَحَاشَ لِلَّهِ أَنْ تَلِيَ لِلْمُسْلِمِينَ بَعْدِي صَدَراً ، أَوْ وَرْداً ، أَوْ أُجْرِي لَكَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ عَقْداً ، وَعَهْداً !! فَمِنْ الْآنَ فَتَذَارُكَ نَفْسُكَ ، وَانْظُرْ لَهَا ، فَإِنَّكَ إِنْ فَرَّطْتَ حَتَّى يَنْهَدَ إِلَيْكَ عِبَادُ اللَّهِ أُرْتِجَتْ عَلَيْكَ الْأُمُورُ ، وَمُنِعَتْ أَمْرًا هُوَ مِنْكَ الْيَوْمَ مَقْبُولٌ ، وَالسَّلَامُ .

أقول : المدارج : المسالك والمذاهب جمع مدرجة : والإقحام : الدخول في الشيء بسرعة من غير روية . وانتحل الكلام : ادعاه لنفسه وليس له . والابتزاز : الاستلاب . وأغدفت المرأة جلبابها : أرسلته على وجهها .

والتفنن : التخليط والتنويع . والأساطير : الأباطيل جمع أسطورة بالضم
وإسطارة بالكسر . والدهاس : المكان السهل اللين دون الرمل .
والديماس : المكان شديد الظلمة ، وكالسراب ونحوه . والمراقبة : موضع
مشرف يرتفع عليه الراصد والأنوق : الرحمة . والعيوق : نجم معروف .
وتنهّد : تنهض . وأرتجت : أغلقت .
والكتاب جواب أيضاً .

فقوله : أما بعد . إلى قوله : الأمور .

تنبيه له على وجوب لاتعاض والانزجار عن دعوى ما ليس له . وللمراد
أنه قد حضر وقت نتفّعك من عيان الأمور ومشاهدتها بلمحك الباصر . ولفظ
اللمح مستعار لدرك الأمور النافعة بخفة وسرعة ، وروي عيون الأمور : أي
أنفسها وحقائقها لتي هي موارد اللّمح والاعتبار . ووصفه بالباصر مبالغة في
الإبصار كقولهم : ليل أليل .

وقوله : فقد سلكت . إلى قوله : اللبس .

إشارة إلى سبب حاجته إلى التنبيه المذكور وهو سلوكه طرائق أسلافه
بالأمور الأربعة المذكورة فادّعاؤه الأباطيل ادّعاؤه ما ليس له بحق حقاً من دم
عثمان وطلحة والزبير وغير ذلك ، واقتحمه لغرور الأكاذيب دخوله في الغفلة
عن سوء عاقبتها . وأكاذيبه في دعاويه ظاهرة . وما قد علا عنه هو أمر
الخلافة ، وما اختزن دونه فابتزّه هو مال المسلمين وبلادهم التي يغلب
عليها . وأراد أنه اختزن بالاستحقاق من الله . وفراراً وجحوداً مصدران سداً
مسدّ الحال ، وما هو ألزم له من لحمه ودمه مم قد وعاه سمعه عن
رسول الله ﷺ وامتلاً به صدره علماً في مواطن كغدير خم وغيره ، هو
وجوب طاعته ، وإنما كان ألزم له من لحمه ودمه لأنهما دائماً في لتغير
والتبدل ووجوب طاعته أمر لازم لنفسه لا يجوز تغييره وتبدله ، وتجوز بلفظ
الصدر في القلب إطلاقاً لاسم المتعلق على المتعلّق ، وأشار بالآية إلى أن
الحق الذي علمته لي ليس وراءه لمن تعدّاه إلا الضلال والهلاك لأن الحق

حدّ من تجاوزه وقع في أحد طرفي الإفراط والتفريط ، وكذلك ليس بعد البيان الذي بيّن لك في أمري إلا اللبس .

ثم حذره الشبهة واشتمالها على لبستها . والشبهة دم عثمان . ولفظ اللبسة مستعار للدخلين فيها ملاحظة لشبهها بالقميص ونحوه ، وعمل تحذيره إياه ووجوب وقوفه دونها بقوله : فإنّ الفتنة . إلى قوله : ظلمتها . وهو صغرى ضمير . واستعار لفظ الجلايب لأمرها المغطية لبصائر أهلها عن الحق كما لا تبصر المرأة عند إرسال جلبابها على وجهها . وكذلك استعار لفظ الظلمة باعتبار التباس الأمور فيها وعدم التهدي إلى الحق كالظلمة التي لا يهتدى فيها ، ورشح بذكر الإغداق والإعشاء . ثم شرع في أحوال كتابه فبدأ بذمه . ولم كان مداره على اللفظ والمعنى أشار إلى ذم اللفظ بأنه ذو أفنين من القول : أي أنه أقوال ملفقة لا يناسب بعضها بعضاً .

وقوله : ضعفت قواها عن السلم .

أي ليس لها قوة أن يوجب صلاحاً . وأشار إلى ذم المعنى بأنه أباطيل غير محكمة النسخ لا من جهة العلم إذ لا علم له ولا من جهة الحلم لأن الكتاب كان فيه خشونة وتهوّر ، وذلك ينافي الحلم وينافي غرضه من الصلح . ولفظ الحوك مستعار لسبك الكلام .

وقوله : أصبحت منها .

صفة لأساطير ، ووجه شبهه بالخائض والخابط ضلاله وعدم هدايته إلى وجه الحق كما لا يهتدي خائض الدهاس . وخابط الديماس فيهما . ثم شرع في جوابه وكان مقصوده في كتابه أن ينص عليه بالخلافة بعده لبياعه فوبخه أولاً على طلبه أمراً ليس من أهله بقوله : وترقيت . إلى قوله : العيوق . ولفظ المراقبة مستعار لأمر الخلافة . ورشح بلفظ الترقي والأوصاف الأربعة بعدها لأنها من شأن المراقبة التامة .

وإنما خصّ الأنوق لأنها تقصد الأماكن العالية الصعبة من رؤوس

الجبال فتبني أوكارها هناك . ثم صرفه عن المطلوب بتزيره الله سبحانه أن يلي من بعده للمسممين خروجاً أو دخولاً في أمر من أمورهم ، أو أن يجري على أحد منهم له عقداً أو عهداً . والعقد كالنكاح والبيوع والإجارة ، والعهد كالبيعة والأمان واليمين والذمة : أي لا يمكنه من ذلك ، ولما آيسه من المطلوب أمره بتدارك نفسه بالنظر لها فيما هو مصلحتها من طاعته ، وتوعده على تقصيره في ذلك بما يلزم تقصيره من نهوض عباد الله إليه وانغلاق الأمور حينئذ ومنعه العذر الذي هو منه الآن مقبول . وبالله التوفيق .

٦٥ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ ،
وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ بِخِلَافِ هَذِهِ الرَّوَايَةِ

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ الْمَرْءَ يُفْرَحُ بِالشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيُقَوِّتَهُ ، وَيَحْزَنُ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ ، فَلَا يَكُنْ أَفْضَلَ مَا نِلْتَ فِي نَفْسِكَ مِنْ دُنْيَاكَ ، بُلُوغَ لَذَّةٍ ، أَوْ شِفَاءَ غِيْظٍ ، وَلَكِنْ إِطْفَاءُ بَاطِلٍ ، أَوْ إِحْيَاءُ حَقٍّ !! وَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا قَدَّمْتَ ، وَأَسْفُكَ عَلَى مَا خَلَّفْتَ ، وَهَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ .

أقول : قد سبق شرحه إلا كلمات يسيرة فيه :

منها : أنه نبهه على لزوم فضيلتي العفة والحلم بالنهي عن أن يجعل بلوغ لذته من دنياه أو شفاء غيظه اللذين هما طرفا الإفراط والتفريط من الفضيلتين المذكورتين أفضل مما نال منها في نفسه . ثم نبهه على ما ينبغي أن يكون أفضل في نفسه من دنياه وهو إطفاء الباطل وإحياء الحق . وإطفاء الباطل تنبيه على وجه استعمال قوتي الشهوة والغضب وهو أن يكون الغرض من فعلها دفع الضرورة وبقدر الحاجة .

ومنها : أنه أمره في الرواية الأولى أن يكون فرحه بما نال من آخرته ، وأمره هنا أن يكون سروره بما قدم لنفسه من زاد التقوى وهو أمر بمقدمة الآخرة . وأمره في الرواية الأولى أن يكون أسفه على ما فات من آخرته ، وأمره هنا أن يكون أسفه على ما خلف : أي ترك من العمل . وبالله التوفيق .

٦٦ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكة

أما بعد : فأقيم للناس الحج ، وذكّرهم بأيام الله ، وأجلس لهم العصرين : فأفت المستفتي ، وعلم الجاهل ، وذاكر العالم ، ولا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك ، ولا حاجب إلا وجهك ، ولا تحجبن ذا حاجة عن لقائك بها ، فإنها إن زيدت عن أبوابك في أول ورودها ، لم تحمد فيما بعد على قضائها .

وأنظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله ، فاصرفه إلى من قبلك من ذوي العيال والمجاعة ، مصيباً به مواضع الفاقة والخلات ، وما فضل عن ذلك ، فاحمله إلينا ، لنقسمه فيمن قبلنا .

ومر أهل مكة أن لا يأخذوا من ساكن أجراً ، فإن الله سبحانه يقول : ﴿ سَوَاءٌ أَلْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ فالعاكف : المقيم به ، والبادي : الذي يحج إليه من غير أهله . وفقنا الله وإياكم لمحابه ، والسلام .

أقول : زيدت : ردّت . والخلة : لحاجة .

وفيه مقاصد :

أحدها : أمره بإقامة الحج للناس . وإقامته القيام بأعماله ، وتعليم الجاهلين كيفيته ، وجمعهم عليه .

الثاني : أن يذكرهم بأيام الله : أي عقوباته التي وقعت بمن سلف من المستحقين لها كي يحترزوا بطاعته من أمثالها . وعبر عنها بالأيام مجازاً إطلاقاً لاسم لمتعلق على المتعلق .

الثالث : أن يجلس لهم العصرين : أي الغداة والعشي لكونهما أطيب الأوقات بالحجاز ، وأشار إلى أعظم فوائد جلوسه في الوقتين وهي فائدة العلم ، وحصره وجوه حاجة أهلها إليها وأمره بسد تلك الوجوه ، بيان الحصر

أَنَّ النَّاسَ إِمَّا غَيْرَ عَالِمٍ أَوْ عَالِمٍ ، وَغَيْرَ الْعَالِمِ إِمَّا مُقْلِدٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ طَالِبٌ ، وَالْعَالِمُ إِمَّا هُوَ أَوْ غَيْرُهُ . فَهَذِهِ أَقْسَامُ أَرْبَعَةٍ . فَوَجْهُ حَاجَةِ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ وَهُوَ الْجَاهِلُ الْمُقْلِدُ أَنْ يَسْتَفْتِيَ فَأَمْرُهُ أَنْ يَفْتِيَهُ ، وَوَجْهُ حَاجَةِ الثَّانِي ، وَهُوَ الْمُتَعَلِّمُ الْجَاهِلُ أَنْ يَتَعَلَّمَ فَأَمْرُهُ أَنْ يَعْلَمَهُ ، وَوَجْهُ حَاجَةِ الثَّلَاثِ هُوَ مَعَ الرَّابِعِ وَهُوَ الْعَالِمُ أَنْ يَتَذَكَّرَ فَأَمْرُهُ بِالْمُذَاكِرَةِ لَهُ .

الرَّابِعُ : نَهَاهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ إِلَى النَّاسِ سَفِيرًا يَعْبُرُ عَنْهُ إِلَّا لِسَانَهُ ، وَلَا حَاجَةً إِلَّا وَجْهَهُ لِأَنَّ ذَلِكَ مِزَانُ الْكِبَرِ وَالْجَهْلِ بِأَحْوَالِ النَّاسِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْوَالِي الْإِحَاطَةُ بِهَا بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ . وَإِلَّا لِلْحَصْرِ وَمَا بَعْدَهَا خَبَرٌ كَانَ .

الخَامِسُ : نَهَاهُ أَنْ يَحْجُبَ أَحَدًا عَنْ لِقَائِهِ ، بِحَاجَتِهِ مُؤَكَّدًا لِمَا سَبَقَ ، وَرَغْبِهِ فِي مَلَاقَةِ ذِي الْحَاجَةِ بِضَمِيرٍ صَغِيرٍ قَوْنُهُ : فَإِنَّهَا إِلَى قَوْلِهِ : قَضَائُهَا : أَيُّ لَمْ تَحْمَدْ فِيمَا بَعْدَ وَإِنْ قَضَيْتَهَا لَهُ ، وَتَقْدِيرُ الْكِبَرِ : وَكُلُّ أَمْرٍ كَانَ كَذَلِكَ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْجُبَ صَاحِبَهُ عَنْ لِقَائِكَ بِهِ وَيَذَادَ عَنْ أَبْوَابِكَ فِي أَوَّلِ وَرْدِهِ .

السَّادِسُ : أَمْرُهُ أَنْ يَعْتَبِرَ مَالَ بَيْتِ الْمُسْلِمِينَ وَيَصْرِفَهُ فِي مَصَارِفِهِ مَتَوَخِّيًا بِذَلِكَ الْأَحْوَجَ فَالْأَحْوَجُ وَيَحْمِلُ الْبَاقِيَ إِلَيْهِ . وَمُصَيَّبًا حَالًا . وَرَوَى : مُوَاضِعَ لِمُفَاقَرٍ . وَالْإِضَافَةُ لِتَغَايِيرِ اللَّفْظِينَ .

السَّابِعُ : أَمْرُهُ بِنَهْيِ أَهْلِ مَكَّةَ عَنْ أَخْذِ الْأَجْرَةِ مِمَّنْ يَسْكُنُ بِيُوتَهُمْ وَاحْتِجَ لِذَلِكَ بِالْآيَةِ مَفْسُورًا لَهَا ، وَهِيَ صَغْرَى ضَمِيرٍ . وَتَقْدِيرُ كِبَرَاهُ : وَكَمِ قَالَ اللَّهُ فِيهِ ذَلِكَ لَمْ يَجْزِ مَخَالَفَتُهُ . ثُمَّ خَتَمَ بِالْإِعْدَاءِ لِنَفْسِهِ وَلَهُ أَنْ يُوَفِّقَهُمْ لِمَحَابِهِ . وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ لِذَلِكَ .

٦٧ - وَمَنْ كَتَابَ لَهُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)

إِلَى سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ . رَحِمَهُ اللَّهُ ، قَبْلَ أَيَّامِ خِلَافَتِهِ

مَّا بَعْدُ : فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ : لَيِّنٌ مَسُّهَا ، قَاتِلٌ سُمُّهَا ، فَأَعْرِضْ عَمَّا يُعْجِبُكَ فِيهَا لِقَلِّهِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا ، وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا لِمَا أَتَقَنَّتْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا ، وَكُنْ أُنْسَ مَا تَكُونُ بِهَا أَحْذَرُ مَا تَكُونُ مِنْهَا ، فَإِنَّ صَاحِبَهَا

كُلَّمَا أَطْمَأَنَّ فِيهَا إِلَى سُرُورٍ ، أَشْخَصَتْهُ عَنْهُ إِلَى مَحْذُورٍ .

أقول : أشخصته : أذهبته .

ومدار الفصل على الموعظة وذم الدنيا ، وضرب لها مثلاً ، وذكر من وجوه الشبه من جانب الممثل به أمرين :

أحدهما : لَيْنِ المس وتمائله من جانب الدنيا رفاهية العيش ولذاته .

والثاني : قتل سمها ويمائله من الدنيا هلاك المنهمكين في لذاتها يوم القيامة ثم أمره في مقامه بها بأوامر :

أحدها : أن يعرض عما يعجبه منها . وعلل وجوب إعراضه بقوله : لقلة ما يصحبك منها ، وهي صغرى ضمير تقديرها : ما يصحبك منها قليل ، وتقدير كبراه : وكلما كان كذلك فينبغي أن يعرض عنه .

الثاني : أن يصع عنه هموم طلبها ، وعلل وجوب ذلك بضمير صغراه قوله : لما أيقنت من فراقها : أي لأنك متيقن لفراقها . وتقدير كبراه : وكلما تيقنت فراقه فواجب أن تضع همك عن طلبه .

الثالث : أن يكون آنس ما يكون بها أحذر ما يكون منها . ومصدرية ، وآنس ينصب على الحال ، وأحذر خبر كان : أي في حال كونك آنس بها كن أحذر ما تكون منها . والغرض أن يحذر منها بقدر جهده ولا يأنس بها . وعلل وجوب الحذر منها بقوله : فإن صاحبها . إلى آخره . وهو صغرى ضمير تقديرها : فإنها كلما اطمأن صاحبها فيها . إلى آخره . وتقدير كبراه : وكلما كان كذلك فيجب أن يحذر صاحبه منه ولا يأنس إليه ينتج فالدنيا يجب أن يحذر صاحبها منها .

٦٨ - ومن كتاب له عليه السلام

إِلَى الْخَارِثِ أَهْمَدَانِيَّ

وَتَمَسَّكَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ وَأَنْتَصَحَهُ ، وَأَجَلَ حَلَالَهُ ، وَحَرَّمَ حَرَامَهُ ،

وَصَدَّقَ بِمَا سَلَفَ مِنَ الْحَقِّ ، وَاعْتَبَرَ بِمَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا ، مَا بَقِيَ مِنْهَا ،
فَإِنَّ بَعْضَهَا يُشَبِّهُ بَعْضًا ، وَآخِرَهَا لَاحِقٌ بِأَوَّلِهَا ! وَكُلُّهَا حَائِلٌ مُفَارِقٌ ، وَعَظِيمٌ
أَسْمَ اللَّهِ أَنْ تَذْكُرَهُ إِلَّا عَلَى حَقٍّ ، وَأَكْثَرُ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَلَا
تَتَمَنَّ الْمَوْتَ إِلَّا بِشَرِّ وَثِيقٍ ، وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يَرْضَاهُ صَاحِبُهُ لِنَفْسِهِ ، وَيُكْرَهُ
لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ ، وَيُسْتَحَى مِنْهُ فِي
الْعَلَانِيَةِ ، وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْكَرَهُ . أَوْ اعْتَذَرَ مِنْهُ ، وَلَا
تَجْعَلْ عِرْضَكَ غَرَضًا لِنِيَالِ الْقَوْلِ ، وَلَا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ بِهِ ،
فَكَفَى بِذَلِكَ كَذِبًا ، وَلَا تَرُدَّ عَلَى النَّاسِ كُلِّ مَا حَدَّثُوكَ بِهِ ، فَكَفَى بِذَلِكَ
جَهْلًا ، وَكَظْمَ الْغَيْظِ وَاحْتِلَمَ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَتَجَاوَزَ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ ، وَأَصْفَحَ
مَعَ الدَّوْلَةِ تَكُنْ لَكَ الْعَاقِبَةُ ، وَاسْتَصْلِحْ كُلَّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللَّهُ عَلَيْكَ . وَلَا
تُضِيعَنَّ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عِنْدَكَ ، وَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ .

وَأَعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُهُمْ تَقْدِيمَةً مِنْ نَفْسِهِ ، وَأَهْبَهُ ، وَمَالِهِ ،
فَإِنَّكَ مَا تَقْدِّمُ مِنْ خَيْرٍ يَتَّقُ لَكَ ذُخْرُهُ ، وَمَا تُؤَخِّرُهُ يَكُنْ لِعَيْرِكَ خَيْرُهُ . وَاحْذَرْ
صَحَابَةَ مَنْ يَفِيلُ رَأْيُهُ ، وَيُنْكِرُ عَمَلُهُ ، فَإِنَّ الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ ، وَاسْكُنْ
الْأَمْصَارَ الْعِظَامَ فَإِنَّهَا جَمَاعُ الْمُسْلِمِينَ . وَاحْذَرْ مَنَازِلَ الْغَفْلَةِ ، وَالْجَفَاءِ ،
وَقِلَّةِ الْأَعْوَانِ ، عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَأَقْصِرْ رَأْيَكَ عَلَى مَا يَعْنِيكَ ، وَإِيَّاكَ وَمَقَاعِدَ
الْأَسْوَاقِ ، فَإِنَّهَا مَحَاصِرُ الشَّيْطَانِ ، وَمَعَارِيضُ الْفِتَنِ ، وَأَكْثَرُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَنْ
فُضِّلَتْ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ ، وَلَا تُسَافِرْ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ حَتَّى
تَشْهَدَ الصَّلَاةَ ، إِلَّا فَصِلًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ فِي أَمْرٍ تُعْذَرُ بِهِ ، وَأُطِعِ اللَّهَ
فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ ، فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ فَاضِلَةٌ عَلَى مَا سِوَاهَا ، وَخَادِعٌ نَفْسِكَ فِي
الْعِبَادَةِ ، وَارْفُقْ بِهَا وَلَا تَقْهَرَهَا ، وَخُذْ عَفْوَهَا وَنَشَاطَهَا ، إِلَّا مَا كَانَ مَكْتُوبًا
عَلَيْكَ مِنَ الْمَرِيضَةِ ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا ، وَتَعَاهِدِهَا عِنْدَ مَحَلِّهَا ، وَإِيَّاكَ
أَنْ يَنْزِلَ بِكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ أَبَقُ مِنْ رَبِّكَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا ، وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ
الْفُسَاقِ ، فَإِنَّ الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُنْحَقٌ ، وَوَقِّرِ اللَّهَ وَأَحْبِبْ أَجْبَاءَهُ ، وَاحْذَرِ الْغَضَبَ

فَإِنَّهُ جُنْدٌ عَظِيمٌ مِّنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ ، وَالسَّلَامُ .

أقول : هذا الفصل من كتاب طويل إليه . وقد أمره فيه بأوامره وزجره بزوجه مدارها على تعليم مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب .
أحدها : أن يتمسك بحبل القرآن . ولفظ الحبل مستعار كما سبق .
وأراد لزوم العمل به .

الثاني : أن ينتصحه : أي يتخذه ناصحاً له بحيث يقبل أمره وشوره لأنه يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

الثالث : أن يحل حلاله ويحرم حرامه ، وذلك أن يعتقد ما فيه من الحلال والحرام حلالاً وحراماً ويقف عند اعتقاده ويعمل بمقتضاه .

الرابع : أن يصدق بما سلف من الحق مما حكاه القرآن الكريم من أحوال لقرون الماضية وأحوال الأنبياء مع أممهم ليصح منه الاعتبار .

الخامس : أن يعتبر ماضي الدنيا بباقيها ويقيسه به فيجعل ما مضى أصلاً وما يبقى فرعاً ويحذر القدر المشترك بينهما من العلة وهو كونها مظنة التغير والزوال فيحكم في الفرع بحكم الأصل من وجوب الزوال ، وقد نبه على المشترك بقوله : فإن بعضها يشبه بعضاً . وعلى ما يلزم ذلك في الفرع بقوله : وآخرها لا حق بئولها وكلها حائل : أي زائل مفارق .

السادس : أن يعظم اسم الله ويكبره أن يذكره خالفاً إلا على حق .

السابع : أن يكثر ذكر الموت وما بعده فإن في ذكرهما أعظم واعظ وأشد زاجر عن الدنيا .

الثامن : نهاه أن يتمنى الموت إلا بشرط وثيق من نفسه يطمئن إليه في طاعة الله وولايته فإن تمنيه بدون ذلك سفه وحمق .

التاسع : أمره أن يحذر كل عمل يرضاه لنفسه ويكره للمسلمين وهو في المعنى نهى عن الاستئثار عليهم بالمكروه ولنفسه بالخيرات وهو كقوله : رد للناس ما تريد لنفسك واكره لهم ما تكره لها .

العاشر : أن يحذر ما يعمله في السر ويستحيي منه في العلانية .
والإشارة إلى معاصي الله ومفارقة الدنایا من المباحات ، وكذلك كل عمل من شأنه أن ينكره إذا سئل عنه ويعتذر منه .

الحادي عشر : أن يحفظ عرضه ونهاه أن يجعله غرضاً . واستعار لفظ الغرض والنبال لما يرمى به من القول : وقد سبق وجه الاستعارة .

الثاني عشر : أن يحدث الناس بكل ما سمع على وجه أن يقول : كان كذا وكذا دون أن يقول : سمعت فلاناً يقول : كذا . فإن بينهما فرقاً . ولذلك قل : وكفى بذلك كذباً . لأنه جاز أن يكون ما سمع في نفس الأمر كذباً فيكون قد كذب في قوله : كان كذا . وقوله : سمعت كذا . لا يكون كذباً إلا على وجه آخر .

الثالث عشر : أن لا يرد كل ما يحدث به الناس ويقابله بالتكذيب والإنكار لأنه جاز أن يكون حق فيحصل من إنكاره جهل بحق ، وقوله : فكفى . في الموضعين صغرى ضمير تقدير كبرى الأول : وكما كفى به كذباً فينبغي أن لا يتحدث به . وتقدير كبرى الثاني : وكلما كفى برده جهلاً وجب أن لا يرد .

الرابع عشر : أمره بكظم الغيظ . والحلم والتجاوز والصفح هي فضائل تحت ملكة الشجاعة وشرطها بوجود الغضب والقدرة ولدولة فيسمى حتماً وتجاوزاً وصفحاً وإلا لم يصدق عليها الاسم .

وقوله : تكن لك العاقبة .

أي لعاقبة الحسنة من ذلك ، وهي صغرى ضمير تقديرها : فإن فاعل هذه الخصال تكون له العاقبة منها ، وتقدير الكبرى : وكلما كانت له العاقبة لحسنة منها فيجب أن يفعلها .

الخامس عشر : أن يستصلح كل نعمة الله تعالى عليه بمداومة الشكر .

السادس عشر : أن لا يضيع من نعمة الله تعالى نعمة : أي بالقصور عن الشكر والغفلة عنه .

السابع عشر : أن يظهر أثر نعمة الله تعالى عليه بحيث يراها الناس .
فظهر أثرها عليه بإظهارها على نفسه وذويه وصرف فاضلها إلى أهل
الاستحقاق . وأعدمه بدليل وجوب ذلك من وجهين :

أحدها : قوله : إن أفضل المؤمنين أفضلهم تقدمة : أي صدقة تقدمها
من نفسه بأقواله وأفعاله وأمواله ، ومن أهله كذلك . وهو جذب له أن يجعل
نفسه من أفضل المؤمنين بالصدقة .

الثاني : قوله : وإنك . إلى قوله : خيره : أي ما تقدمه وتأخره من
المال وتخلّفه ، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما إذا قدمته كان لك
ذخراً وإذا أخرته كان لغيرك خيره . فواجب عليك تقديمه .

الثامن عشر : أن يحذر صحابة من يفيل رأيه : أي يصعف ، وينكر
عمله لسوئه . وعلل ذلك الحذر بقوله : فإن . إلى قوله : بصاحبه : أي
فإنك تقاس به لتنسب فعلك إلى فعله ، ولأن الطبع مع الصحبة أطوع للفعل
منه للقول فلو صحبه لشابه فعله فعله .

التاسع عشر : أن يسكن الأمصار العظام . والغرض الجمعية على دين
الله كقوله عليه السلام : عليكم بالسواد الأعظم ولذلك علّل بكونها جماع
المسلمين : أي مجمّعهم . وأطلق اسم المصدر على المكان مجازاً ، وهو
صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان كذلك فينبغي أن يخص بالسكنى .

العشرون . أن يحذر منازل الغفلة والجفاء لأهل طاعة الله .

الحادي والعشرون : أن يقصر رأيه على ما يعنيه فإن فيه شغلاً عما لا
يعنيه فتجاوزه إليه سفه .

الثاني والعشرون : أن يحذر مقاعد الأسواق . وأشار إلى وجه المفسدة
بقوله : فإنها . إلى قوله : الفتن . ومعنى كونه محاضر الشيطان كونها مجمع
الشهوات ومحل الخصومات التي مدّوها الشيطان . ومعارض : جمع معرض
وهو محل عروض الفتن . والكلام صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان
كذلك فلا يجوز القعود فيه .

الثالث والعشرون : أن يكثر نظره إلى من هو دونه ممن فضل عليه في النعمة . وعلل ذلك بقوله : فإن . إلى قوله : الشكر . ووجه كونه باباً للشكر أنه يكون سبباً للدخول إليه منه . وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان من أبواب الشكر فواجب ملازمته .

الرابع والعشرون : أن لا يسافر في يوم الجمعة إلا أن يكون في جهاد أو عذر واضح . وسره أن صلاة الجمعة عظيمة في الدين وهو محل التأهب لها والعبادة . فوضعه للسفر وضع للشيء في غير موضعه .

الخامس والعشرون : أن يطيع الله في جميع أموره . ورغب فيها بضمير صغراه قوله : فإن . إلى قوله : سواه . وتقدير كبراه : وكلما فضل ما سواه فالأولى لزومه وإيثاره على ما سواه .

السادس والعشرون : أن يخادع نفسه في العبادة . فإنه لما كان شأن النفس اتباع الهوى وموافقة الطبيعة فبالحري أن تخادع عن مألوفها إلى غيره تارة بأن يذكر الوعد ، وتارة الوعيد ، وتارة بالاستشهاد بمن هو دونه ممن شمر في عبادة الله ، وتارة باللوم لها على التفريط في جنب الله . فإذا سلك بها فينبغي أن يكون بالرفق من غير قهرها على لعبادة لكون ذلك داعية الملل والانقطاع ، كما أشار إليه سيد المرسلين عليه السلام : إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض فيه إلى نفسك عبادة الله فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ؛ بل تأخذ منها عفوها ونشاطها في العبادة إلا الفريضة فإنه لا يحوز المساهلة فيها .

السابع والعشرون : حذره أن ينزل به الموت حال ما هو آبق من ربه . واستعار له الآبق باعتبار خروجه عن أمره ونهيه في طلب الدنيا .

الثامن والعشرون : أن يحذر صحبة الفساق ، ونفر عن ذلك بضمير صغراه قوله : فإن السر بلشر ملحق : أي فإنه يصير لك شراً كشرهم لأن القرين بالمقارن يقتدي . وتقدير كبراه : وكل ما صير لك كذلك فلا يجوز فعله .

التاسع والعشرون : أن يجمع بين توقير الله وتعظيمه وبين محبة أحبائه وأوليائه ، وهما أصلان متلازمان .

الثلاثون : أن يحذر الغضب . ونقر عنه بقوله : فإنه . إلى آخره ، ومعنى كونه جنداً له لأنه من أعظم ما يدخل به على الإنسان فيملكه ويصير في تصرفه كالملك الداخل بالجنود العظيم على المدينة ، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان كذلك فواجب أن يحذر منه . وبالله التوفيق .

٦٩ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى سهل بن حنيف الأنصاري وهو عاملة على المدينة
(في معنى قوم من أهلها لحقوا بمعاوية)

أما بعد : فقد بلغني أن رجلاً ممن قبلك يتسللون إلى معاوية ، فلا تأسف على ما يقوتك من عددهم ويذهب عنك من مددهم ، فكفى لهم غيًّا ، ولك منهم شافياً . فرارهم من الهدى ، والحق ، وإيضاعهم إلى العمى ، والجهل ، وإنما هم أهل دنيا . مقببون عليها ، ومهطعون إليها ، وقد عرفوا العدل ، ورأوه ، وسمعوه ، ووعوه ، وعلموا أن الناس عندنا في الحق أسوة ، فهربوا إلى الأثرة ، فبعداً لهم وسحقاً !!

إنهم - والله - لم ينفروا من جور ، ولم يلحقوا بعدل ، وإننا لنطمع في هذا الأمر أن يذل الله لنا صعبه ، ويسهل لنا حزنه ، إن شاء الله ، والسلام .

أقول : التسلل : الذهاب واحداً بعد واحد . والإيضاع : الإسراع . وكذلك الإهطاع . والأثرة : الاستبداد .

فقوله : أما بعد إلى قوله : معاوية .

إعلامه بعلمه بحالهم .

وقوله : فلا تأسف . إلى قوله : مددهم .

تسلياً له عما فاتته من عددهم ومددهم .

وقوله : فكفى . إلى قوله : العدل .

استدراج له عن الأسف على فرارهم بذكر معائبهم في ضميرين صغرى الأولى منهما قوله : فكفى . إلى قوله : الجهل . وتقدير كسراه : وكل من كان كذلك فلا يجوز الأسف عليه . وفرار فاعل كفى ، وغياً وشاقياً تمييز . وصغرى الثانية قوله : وإنما هم أهل الدنيا : أي لما كان شأنهم ذلك وعرفوا العدل عندنا وعلموا تساوي الناس عندنا في الحق هربوا إلى الاستئثار والاستبداد عند معاوية . وتقدير كبراه : وكل من كان بهذه الحال فلا يجوز الأسف عليه ، ولذلك دعا عليهم البعد والسحق وهما مصدران وضعاً للدعاء . ثم أقسم أنهم لم يفروا من جور منه ولم يلحقوا بعدل من معاوية ليتأكد حصره لأحوالهم التي هربوا لأجلها . ثم وعده بما يطمع من الله تعالى من تذليل ما صعب من أمر الخلافة لهم ، وتسهيل حزنه بمشيئته سبحانه .

٧٠ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى المنذر بن الجارود العبدي
(وَقَدْ خَانَ فِي بَعْضِ مَا وَلَّاهُ مِنْ أَعْمَالِهِ)

أَمْ نَعُدُّ : فَإِنْ صَلَاحَ أَيْبِكَ غَرَّبِي مِنْكَ ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ ، وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ ، فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رَقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ ، لَا تَدْعُ لِهَوَاكَ أَنْقِيَاداً ، وَلَا تُبْقِي لِأَخْرَجِكَ عَتَاداً ، تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ أَخْرَجِكَ ، وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ . وَلَيْتُنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقّاً لَجَمَلِ أَهْلِكَ ، وَشَسْعِ نَعْلِكَ ، خَيْرُ مِنْكَ ، وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ ، فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرٌ ، أَوْ يُنْفَذَ بِهِ أَمْرٌ ، أَوْ يُعْلَى لَهُ قَدْرٌ ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ ، أَوْ يُؤْمَنَ عَنَى خِيَانَةٍ ، فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

قال الرضي : والمنذر هذا هو الذي قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام : « إِنَّهُ لَنَظَّارٌ فِي عَظْفِهِ ، مُخْتَالٌ فِي بُرْدِيهِ ، تَفْدُلُ فِي شِرَاكِيهِ » .

أقول : العتاد : العدة ، والشسع : سير بين الإصبعين في النعل العربي .

ومدار الفصل على توبيخه بسبب خيائته . فذكر سبب غروره وهو قياسه في الصلاح على أبيه الجارود العبدي في أنه يتبع ما كان عليه من الهدى . ثم ذكر ما رقي إليه عنه من الفارق من أربعة أوجه :

أحدها : انقياده لهواه في كل ما يقوده إليه .

الثاني : إعراضه عما يعتد به لآخرته من صالح الأعمال .

الثالث : كونه يعمر دنيه بما يستلزم خراب آخرته من تناول الحرام .

الرابع : كونه يصل عشيرته بما يقطع دينه من ذلك . وراعى السجع في القرينتين . ثم أخذ في توبيخه والحكم بنقصانه وحقارته إن حق ما نسب إليه ذلك بتفضيل جمل أهله وتشسع نعله عليه . وجمل الأهل مما يتمثل به في الهوا . وأصله فيما قيل : أن الجمل يكون لأب القبيلة فيصير ميراثاً لهم يسوقه كل منهم ويصرفه في حاجته فهو ذليل حقير بينهم . ثم حكم في معرض توبيخه على من كان بصفته أنه لا يصلح لولاية عمل يراد له الوالي . وراعى في القرائن الأربع السجع المتوازي . فالحذر بإزاء الأمر ولخيانة بإزاء الأمانة . وإنما قال : أو يشرك في أمانة . لأن الخلفاء أمناء الله في بلاده فمن ولّوه من قبلهم فقد أشركوه في أمانتهم .

وقوله : أو يؤمن على خيانة .

أي حال خيانتك . لأن كلمة على تفيد الحال . ثم بعد توبيخه استقدمه عليه عزلاً له . والذي حكاه السيد - رحمه الله - من وصف أمير المؤمنين عليه السلام له فكناية عن تكبره . والتفلس في الشرك : نفخ الغبار عنه . والحكاية مناسبة للكتاب لاشتمالها على الذم . وبالله التوفيق .

٧١ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى عبد الله بن عباس

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّكَ لَسْتَ بِسَابِقِ أَجَلِكَ ، وَلَا مَرْزُوقٍ مَا لَيْسَ لَكَ ، وَأَعْلَمُ
بِأَنَّ الدَّهْرَ يَوْمَانِ : يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ ، وَأَنَّ الدُّنْيَا دَارُ دُولٍ ، فَمَا كَانَ مِنْهَا
لَكَ أَتَاكَ عَلَى ضَعْفِكَ ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ .

أقول : الفصل موعظة . ونبهه فيها على دقائق :

إحديها : أنه لا يسبق أجله . ولما كان الأجل هو الوقت الذي علم الله
أن زيدا يموت فيه لم يمكن أن يموت زيد دونه لأن ذلك يستلزم انقلاب علم
الله جهلاً وأنه محال .

الثانية : ولا مرزوق ما ليس له : أي ما علم الله أنه ليس رزقاً له
فمحال أن يرزق إياه لما بيناه .

الثالثة : أعلمه أن الدهر يومان : يوم له وهو اليوم الذي فيه المنافع
كاللذة وكمالاتها ، ويوم عليه وهو ما يكون عليه فيه المضرة كالآلم وما
يستلزمه وذلك معنى كون الدنيا دار دول كما قال تعالى : ﴿ وتلك الأيام
نداولها بين الناس ﴾ (١) .

الرابعة : أعلمه بأن ما كان له من خير الدنيا أتاه على ضعفه وإن كان
أمراً كبيراً لعلم الله سبحانه بأنه يصل إليه ، وكذلك ما كان عليه من شرها لم
يتمكن من دفعه وإن كان قوياً . وذكر الضعف والقوة ليعلم استبد الأمور
والأرزاق إلى مدبر حكيم هو مفيضها ومبدئ أسبابها وناظم وجودها ومقسم
كمالاتها ومعطي كلاً منها ما استعد له من خير أو شر . فقد يحصل لضعف
للحيوان ويرزق رزقاً واسعاً ويكون ضعفه من الأسباب المعدة لسعة رزقه .
وبالعكس قد تحصل له القوة فتكون من أسباب الحرمان . والله من ورائهم
محيط وهو الرازق ذو القوة المتين .

٧٢ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى معاوية

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي عَلَى التَّرَدُّدِ فِي جَوَابِكَ ، وَالْإِسْتِمَاعِ إِلَى كِتَابِكَ ، لَمْوَهْنُ رَأْيِي ، وَمُخْطِئُ فِرَاسَتِي ، وَإِنَّكَ إِذْ تُحَاوِلُنِي الْأُمُورَ ، وَتُرَاجِعُنِي السُّطُورَ ، كَأَلْمُسْتَقِيلِ النَّائِمِ تَكْذِيبُهُ أَحْلَامَهُ ، وَالْمُتَحَيِّرِ الْقَائِمِ يَبْهَظُهُ مَقَامُهُ ، لَا يَدْرِي أَلَمْهَ مَا يَأْتِي أَمْ عَلَيْهِ ! وَلَسْتُ بِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ بِكَ شَبِيهُ ، وَأَقْسِمُ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَوْلَا بَعْضُ الْإِسْتِيقَاءِ ، لَوَصَلْتُ إِلَيْكَ مِنِّي قَوَارِعُ تَقَرُّعِ الْعَظَمِ ، وَتَهْلُسُ اللَّحْمِ ، وَأَعْلَمُ : أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ثَبَّطَكَ عَنْ أَنْ تُرَاجِعَ أَحْسَنَ أُمُورِكَ ، وَتَأْذَنَ لِمَقَالِ نَصِيحَتِكَ .

أقول : موهن : مضعف . وبهظه : أثقله . والقوارع : الشدائد . وتهلس اللحم : تذهب به ، وتسحبه ، وتقرب منه النهس . وثبطه عن كذا : شغله .

ومدار الفصل عى منافرتة وتوبيخه .

فقوله : أما بعد . إلى قوله : فراستي : أي مضعف رأيي وفراستي فيك لغبة ظني أن مكاتبك وجوبك لا فائدة فيه . ثم شبهه في محاولته أمر الشام وما يخدعه من جعل أمر الخلافة فيه بعده ومراجعتة السطور أي الكتب في ذلك بالمستقل في النوم . الغريق فيه ، وانتصب السطور بحذف الجار إما في أو الباء ، وأشار إلى وجه الشبه بقوله : تكذبه أحلامه . وأراد أن تخيلات وأمنيه في وصول هذا الأمر إليه تخيلات كاذبة صادرة عن جهل غالب كالأحلام الكاذبة للمستغرق في نومه إذا استيقظ لم يجد لها شيئاً ، وكذلك شبهه بالمتحير القائم ، وأشار إلى وجهه بقوله : يبهظه . إلى قوله : عليه . وبيانه أن معاوية مجد في هذا الأمر متحير في تحصيله متهور في طلبه مع جهله بعاقبة سعيه هل هي خير أو شر كالقائم المتحير في الأمر يتعب بطول مقامه ولا يعرف غايته من قيامه . ثم لم يرض له بذلك التشبيه بل زاد مبالغة

في غفلته ونومه في مرقد طبيعته وحيرته وقال : ولست به : أي ولست بهذا شبيهاً فيكون هو أصلاً لك في الشبه غير أنه بك شبيه : أي إنك أصل له في ذلك الشبه . ثم أقسم لولا بعض الاستبقاء : أي للأمور المصلحية لوصلت إليه منه قوارع . وأراد شدائد الحرب ، وكفى عن شدتها بكونها تقرر العظم وتهلس اللحم .

ثم أعلمه في معرض توبيخه أن الشيطان قد ثبطه عن مراجعة أحسن أموره وهو الدخول في طاعته وترك لفتنة وأن يأذن أي يصغي أذنه لمقال نصيحة . وهو جذب له إليهما بنسبة تركه لهما إلى تشيط الشيطان وبالله التوفيق .

٧٣ - ومن حلف له (عليه السلام)

كَتَبَهُ بَيْنَ رَبِيعَةَ وَالْيَمَنِ
وَنُقِلَ مِنْ خَطِّ هِشَامِ بْنِ الْكَلْبِيِّ

هَذَا مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْيَمَنِ : حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا ، وَرَبِيعَةُ : حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا ، أَنَّهُمْ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ ، يَدْعُونَ إِلَيْهِ وَيَأْمُرُونَ بِهِ ، وَيُجِيبُونَ مَنْ دَعَا إِلَيْهِ وَأَمَرَ بِهِ ، لَا يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا ، وَلَا يَرْضَوْنَ بِهِ بَدَلًا . وَأَنَّهُمْ يَدُّ وَاحِدَةً عَنِ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ وَتَرَكَهُ ، تُصَارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، دَعْوَتُهُمْ وَاحِدَةٌ ، لَا يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ لِمُعْتَبَةٍ غَائِبٍ ، وَلَا لِعُضْبٍ غَاضِبٍ ، وَلَا لِاسْتِذْلَالِ قَوْمٍ قَوْمًا ، وَلَا لِمُسَبَّةِ قَوْمٍ قَوْمًا ، عَلَى ذَلِكَ شَاهِدُهُمْ ، وَغَائِبُهُمْ ، وَسَفِيهِهِمْ ، وَعَالِمُهُمْ ، وَحَلِيمُهُمْ وَجَاهِلُهُمْ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ ، إِنَّ عَهْدَ اللَّهِ كَانَ مَسْئُولًا ، وَكَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ .

أقول : الحلف : العهد . وفيه نكت :

الأولى : قوله : هذا . مبتدأ وما موصولة وهي صفة المبتدأ ، وخبره أنهم . ويجوز أن يكون هذا مبتدأ خبره ما اجتمع عليه ، ويكون قوله : أنهم . تفسيراً لهذا . كأنه قل . ما الذي جتمعوا عليه ؟ فقل : على أنهم

على كتاب الله : أي اجتمعوا على ذلك ، وخبر أنهم على كتاب الله ، ويدعون حال ، والعامل متعلق الجار . وحاضرها وبأديها من أهل اليمن ، وكذلك من ربيعة .

الثانية : كونهم لا يشترون به ثمناً كناية عن لزومهم له وللعمل به .

الثالثة : قوله : وأنهم يد واحدة : أي يتعاونون على من خالفه . فأطلق اسم اليد على المتعاون مجزاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبب ، وأنصار خبر ثان لأن وبعضهم فاعله . ويجوز أن يكون بعضهم مبتدأ خبره أنصار .

الرابعة : قوله : ولا لاستدلال قوم قوماً : أي لا ينقضون عهدهم لكون القبيلة الأخرى استدلت قومهم أو سبتهم . وروي لمشيئة قوم قوماً : أي لإرادتهم . وفي رواية - كتب علي بن أبو طالب - وهي المشهورة عنه ^{عليه السلام} ووجهها أنه جعل هذه الكنية علماً بمنزلة لفظ واحدة لا يتغير إعرابها .

٧٤ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى معاوية في أول

(ما يبيع له ، ذكره الواقدي في كتاب الجمل)

من عبد الله علي مبر المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان : -

أما بعد : فقد علمت إغذري فيكم ، وإعراضي عنكم ، حتى كان ما لا بد منه ، ولا دفع له ، والحديث طويل ، والكلام كثير ، وقد أدبر ما أدبر ، وأقبل ما أقبل ، فبيع من قبلك ، وأقبل إلي في وفد من أصحابك .

أقول : الوفد : الوردون عى الملك .

وأعلمه أولاً ، إعداره فيهم إلى الله : أي إظهار عذره وذلك باجتهاده في نصيحة عثمان أولاً ، ونصرة بني أمية بالذب عنه ثانياً ، وإعراضه عنهم بعد إياسه من قبول عثمان لنصيحته وعجزه عن نصرته والدفع عنه حتى كان ما لا بد منه ولا دفع له من قبله . ثم قال : والحديث طويل والكلام كثير : أي في أمره ومن قبله .

وقوله : وقد أدبر . إلى قوله : أقبل .

يحتمل أن يكون إخباراً له بأن بعض الناس أدبر عنه كطلحة والزبير ومن تابعهما وبعضهم أقبل عليه ، ويحتمل أن يكون إنشاءً أي قد دخل في الإدبار من أدبر عني ودخل في الإقبال من أقبل عليّ . ثم أمره أن يبايع له من قبله من الجماعة ويقبل إليه ، ويحتمل أن يكون الضمير في قوله : فيكم وعنكم خطاباً لمعاوية وسائر المسلمين على سبيل التعتب والتشكي : أي قد علمت أنني أعذرت فيكم حيث لم أعجل مسيئكم بالعقوبة وأعرضت عنكم حتى كان ما كان من خروج طلحة والزبير ومن تابعهم مما لا بد من وقوعه منهم ولا دفع له . والحديث في شأنهم طويل ، والكلام في شبهتهم كثير ، وقد أدبر من أدبر : أي هؤلاء الخارجون ، وأقبل من أقبل . وتمام الكلام بحاله . والله أعلم .

٧٥ - ومن كتاب له (عليه السلام)

لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ
(عِنْدَ اسْتِخْلَافِهِ إِيَّاهُ عَلَى الْبَصْرَةِ)

سِعِ النَّاسَ بِوَجْهِكَ ، وَمَجْلِسِكَ ، وَحُكْمِكَ ، وَإِيَّاكَ وَالْغَضَبَ ، فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَأَعْلَمُ أَنَّ مَا قَرَّبَكَ مِنَ اللَّهِ ، يُبَاعِدُكَ مِنَ النَّارِ ، وَمَا بَاعَدَكَ مِنَ اللَّهِ ، يُقَرِّبُكَ مِنَ النَّارِ .

أقول : الطيرة : فعلة من الطيران ، ويستعمل في الخفة وما لا ثبات له . وروي : طيرة من التطير وهو التشأم .

وقد أمره بفضائل من الأخلاق .

أحدها : أن يسع الناس بوجهه ، وكفى بذلك عن البشر والطلاقة ، وبمجلسه . وهو كناية عن التواضع ، وبحكمه . وكفى به عن العدل لأن الحكم العدل يسع كل أحد . والجور ضيق لا يحتمله الكل .

الثانية : حذره من الغضب وهو أمر بفضيلة الثبات والحلم ، ونفّره

بقوله : فإنه طيرة من الشيطان : أي خفة ينشأ من الشيطان ، أو أنه مما يتشأم الناس بصاحبه ويكرهه . ونسبه إلى الشيطان لينفر عنه ، وأراد الغضب المذموم . وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان كذلك فواجب أن يحذر . ثم رغبه فيما يقربه من الله بما يستلزمه من كونه مباعداً له من النار ، ونفراً عما يبعده من الله بما يستلزمه من كونه مقرباً له إلى النار . وهما صغرىا ضميرين تقدير كبرى الأول منهما : وكل ما باعدك من النار فواجب أخذه ، وتقدير كبرى الثاني : وكل ما يقربك من النار فواجب أن يحذره . وبالله التوفيق .

٧٦ - ومن وصية له (عليه السلام)

لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ
(لَمَّا بَعَثَهُ لِلْإِحْتِجَاجِ إِلَى الْخَوَارِجِ)

لَا تُخَاصِمُهُمْ بِالْقُرْآنِ ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ حِمَالٌ ذُو وُجُوهِ ، تَقُولُ وَيَقُولُونَ ، وَكِنْ حَاجَجُهُمْ بِالسُّنَّةِ ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصاً .

أقول : لمحاصر : المعدل .

وقد نهاه أن يحاجهم بالقرآن . ونبهه على ذلك بضمير صغراه قوله : فإن القرآن . إلى قوله : ويقولون : أي إن الآيات التي يمكنه الاحتجاج بها غير ناصة في المطلوب بل لها ظاهر وتأويلات محتملة يمكنهم أن يتعلقوا بها عند لمجادة . وتقدير الكبرى : وكل ما كان كذلك فلا يتم الغرض به في مخاصمتهم . ثم أمره أن يحاجهم بالسنة . ونبه على ذلك بضمير صغراه قوله : فإنهم لا يجدون عنها معدلاً لكونها ناصة في المطلوب كقوله والله يبرئ : حربك يا عدي حري . ونحوه . وتقدير الكبرى : وكل ما لم يجدوا عنه معدلاً فالأولى محاجتهم به . وقد أشرنا من قبل إلى مجادلة ابن عباس .

٧٧ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى أبي موسى الأشعري جواباً في أمر الحكمين
ذكره (سعيد بن يحيى الأموي) في كتاب (المغازي)

فإن الناس قد تغير كثير منهم عن كثير من حظهم، فمالوا مع الدنيا،
ونطقوا بالهوى، وإنني نزلت من هذا الأمر منزلاً معجباً اجتمع به أقوام أعجبته
أنفسهم، فإنني أداوي منهم قرحاً أخاف أن يكون علقاً، وليس رَجُلٌ
- فاعلم - أحرص على جماعة أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم،
والفتها مني، أبتغي بذلك حسن الثواب، وكرم المآب وسأفي بالذي وأيت
على نفسي، وإن تغيرت عن صالح ما فارقني عليه. فإن الشقي من حرم
نفع ما أوتي من العقل والتجربة، وإنني لأعبد أن يقول قائل بباطل، وأن
أفسد أمراً قد أصلحه الله، فدع ما لا تعرف، فإن شرار الناس طائرون
إليك بأقويل السوء، والسلام.

أقول : العتق : الدم الغليظ . وأيت : وعدت . وأعبد : أستنكف
وأغضب .

وقوله : فإن الناس . إلى قوله : حظهم .

أي الحظ الذي ينبغي لهم من الدين والهدى .

وقوله : فمالوا . إلى قوله : الهوى .

بيان لأنواع تغيرهم .

وقوله : وإنني نزلت من هذا الأمر .

أي أمر الخلافة منزلاً معجباً وهو الحال التي انتهى إليها مع الصحابة
وصارت محل التعجب منها وكيف صار محكوماً لهم في قبول الحكومة
والرضى بالصلح وغيره .

وقوله : اجتمع به أقوام .

صفة منزل : أي أن هذا المنزل الذي أنا فيه من هذا الأمر قد اجتمع معي وشاركني في رأيي فيه أقوام أعجبتهم أنفسهم وآراؤهم فأفسدوا عليّ الأمر فأنا أداوي منهم قرحاً ، واستعار لفظ القرح لما أفسد من حاله باجتماعهم على التحكيم . ولفظ المساواة لاجتهاده في إصلاحهم ، وروي : أداري . وكذلك استعار لفظ العلق لما يخاف من تفاقم أمرهم من حاله .

وقوله : وليس رجل أحرص منه على ألفة جماعة محمد صلى الله عليه وسلم للغرض المذكور .

وقوله : فاعلم . اعتراض حس بين ليس وخبرها . ورجل يفيد العموم وإن كان مفرداً نكرة لكونه في سياق النفي على ما بين في أصول الفقه . ثم أخبر أنه سيقى بما وعد على نفسه من شرط الصلح على ما وقع عليه ، وتوعده بلزوم الشقاوة إن تغير عن صالح ما فارقه عليه من وجوب الحكم بكتاب الله وعدم اتباع الهوى والاعتراض بمقارنة الأشرار .

وفسر الشقي بمن حرم نفع ما أوتي من العقل والتجربة مشيراً بذلك إلى أنه إن خدع أو تغير بأمر آخر فقد حرم نفع عقله وسابقة تجربته فلزمته الشقاوة . ثم نبهه على أنه يأنف من قول الباطل ، وأن يفسد أمراً أصححه الله به وهو أمر الدين ليحترز من غضبه بلزوم الحق والصدق وحفظ جانب الله في حقه ، وأكد ذلك بقوله : فدع ما لا تعرف : أي من الحكم في هذه القضية بالشبهة .

وقوله : فإن شرار الناس . إلى آخره .

أراد عمرو بن العاص ونحوه فيما كان يسرع بإلقائه إليه من الوسائس والشبه الكاذبة التي هي أقاويل السوء .

٧٨ - ومن كتاب له (عليه السلام)

لَمَّا اسْتُخْلِيفَ إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلُكُمْ : أَنَّهُمْ مَنَعُوا النَّاسَ الْحَقَّ
فَاسْتَرَوْهُ ، وَأَخَذُوهُمْ بِالْبَاطِلِ فَأَقْتَدَوْهُ .

أقول : نفرهم عن منع الحق أهله ، ومعملتهم الناس بالباطل . يذكر أن ذلك هو سبب هلاك من كان قبلهم من أمثالهم .
وقوله : فاشتروه .

أي فبعوه وتعوضوا عنه بالباطل لما منعوا منه كقوله تعالى : ﴿ وشروه بثلثين بخس ﴾^(١) ، وكذلك قوله : وأخذوهم بالباطل : أي جعلوا تصرفاتهم معهم بالباطل فاقتدوه : أي اقتدوا الباطل وسلكوا فيه مسلك من أخذهم به كقوله تعالى : ﴿ فبهديهم اقتده ﴾^(٢) وبالله التوفيق .
تم باب الكتب و لوصايا والعهود والحمد لله حق حمده .

باب المختار من حكم أمير المؤمنين (عليه السلام)

ويدخل في ذلك المختار من أجوبة مسائله
والكلام القصير الخارج في سائر أغراضه

١ - قال (عليه السلام) : كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَأَبْنِ اللَّبُونِ ، لَا ظَهْرَ فِرْكَبَ ، وَلَا ضَرْعَ فَيَحْلَبَ .

أقول : ابن اللبون ولد الناقة إذا استكمل سنتين ودخل في الثالثة لأن أمه على الأغلب قد وضعت ولداً غيره فهي ذات لبن .

وقد أمر أصحابه في زمن الفتنة أن يتشبهه بابن اللبون ، وأشار إلى وجه الشبه بقوله لا ظهر إلى آخره . وأراد أنه يكون في زمانها حمل الذكر ضعيفاً غير مستكثر من المال كيلا يصلح لمعاونة الظالمين بنفسه ولا بماله ، ولا ينتفع به في لفتنة . كابن اللبون لا ينفع بظهره ولا لبنه . وظهر مبتدأ خبره محذوف تقديره : له . ويركب عطف على الجملة . وروي منصوباً بإضمار أن في جواب النفي ، وكذا قوله : فيحلب .

٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِحْدَى وَعَشْرِينَ كَلِمَةً مِنَ الْأَدَبِ وَالْحِثِّ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَهِيَ قَوْلُهُ :

(١) ٢١ - ٢٠ .

(٢) ٩٠ - ٦ .

أَزْرَى بِنَفْسِهِ مَنْ اسْتَشْعَرَ الطَّمَعَ ، وَرَضِيَ بِالذُّلِّ مَنْ كَشَفَ عَنْ ضُرِّهِ ،
وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مَنْ أَمَرَ عَلَيْهَا لِسَانَهُ . وَالْبُخْلُ عَارٌ . وَالْجُبْنُ مَنَقَصَةٌ ،
وَالْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفُطْنَ عَنْ حُجَّتِهِ ، وَالْمُقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلَدَتِهِ ، وَالْعَجْزُ آفَةٌ ،
وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ ، وَالزُّهْدُ ثَرْوَةٌ ، وَالْوَرَعُ جَنَّةٌ . وَنِعَمَ الْقَرِينُ الرَّضَى ، وَالْعِلْمُ
وَرَاثَةُ كَرِيمَةٍ ، وَالْأَدَابُ حُلٌّ مُجَدَّدَةٌ ، وَالْفِكْرُ مِرَاةٌ صَافِيَةٌ . وَصَدْرُ الْعَاقِلِ
صُنْدُوقُ سِرِّهِ ، وَالْبَشَاشَةُ حُبَالَةُ الْمَوَدَّةِ ، وَالْإِحْتِمَالُ قَبْرُ الْعُيُوبِ (وَالْمُسَالَمَةُ
خَبَاءُ الْعُيُوبِ) ، وَمَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّاخِطُ عَلَيْهِ . وَالصَّدَقَةُ دَوَاءٌ
مُنْجِحٌ ، وَأَعْمَالُ الْعِبَادِ فِي عَاجِلِهِمْ نَصَبُ أَعْيُنِهِمْ فِي آجِلِهِمْ .

الأولى : أزرى بنفسه من استشعر الطمع . وهو تنفير عن الطمع
المضاد لفضيلة القناعة بذكر ما يستنزله من التهاون بالنفس والإزدراء بها ،
وذلك أن الطمع بما في أيدي الناس يستلزم الحاجة إليهم والخضوع لهم وهو
يستنزله الهون عليهم وسقوط المنزلة . واستعار وصف الاستشعار لملازمة
الطمع ومبشرته للقلب كالشعر للجسد .

الثانية : قوله : ورضي بالذل من كشف عن ضره ، وهو أيضاً تنفير
للإنسان عن شكاية فقره وضره للناس بذكر ما يلزم ذلك من المذلة والرضى
به .

الثالثة : وهانت عليه نفسه من أمر عليها لسانه . وهو تنفير للإنسان عن
الإكثار في القول من غير تدبر ومراجعة لعقله بما يلزم ذلك من هوان نفسه
عليه أما في الدنيا فلأن زيادة القول قد يكون سبباً للهلاك ، وإليه أشار
القائل .

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغَنَّك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتل لسانه كنت تهاب لقاءه الأقران

وأما في الآخرة فلقوله ^{صلى الله عليه وسلم} : وهل يكب الناس على مناخرهم في النار
إلا حصائد ألسنتهم ؟ ولأهون لنفس الإنسان عليه أعظم من هلاكها . واستعار
وصف التأمير لتسليط اللسان على ما يؤذي النفس من غير مراجعتها فكأنها
صارت محكومة له .

الرابعة : قوله : والبخل عار . وذلك لأنه رذيلة التفريط من فضيلة الكرم . ويقدر حمد الإنسان على الكرم يكون ذمه وتعييره برذيلة البخل .

الخامسة : والجبن منقصة . لأنه رذيلة التفريط من فضيلة الشجاعة التي هي أصل من الكمالات النفسانية . فكان الجبن رذيلة ومنقصة .

السادسة : والفقر يخرس الفطن عن حجته . وذلك لكونه مذلة ، وله في النفس فعل عظيم بالقبض و لفتور والانفعال عن الغير . ومبدأ كل ذلك تصور العجز وتوهم القصور بسبب عدم لمال عن مقاومة لخصوم فيحصل التخوف من الكلام والعي عنه وإن كان صاحبه فطناً . واستعار لذلك وصف الخرّس ملاحظة لشبهه به .

السابعة : والمقل غريب في بلدته : أي الفقير . واستعار له لفظ الغريب باعتبار عدم التفات الناس إليه وقلة الأعوان ، والإحوان له لإقلاله فهو كالغريب الذي لا يعرف .

الثامنة : والعجز آفة . لعجز لفظ مهمل يحتمل العجز البدني وهو عدم القدرة على تصرفات البدنية عما من شأنه أن يقدر ، ويحتمل العجز النفسي وهو عدم القدرة على مقاومة الهوى ودفعه . والأول آفة بدنية ونقصان فيه .

والثاني : آفة في العقل وعاهة فيه .

التاسعة : والصبر شجاعة لصبر فضيلة تحت العفة ترسم بأنها مقاومة الهوى لئلا يقود النفس إلى قبائح اللذات . وهو جهاد مع النفس الأمارة يستلزم فضيلة الشجاعة فلذلك حمل الشجاعة عليه حمل اللازم على ملزومه .

العاشرة : والزهد ثروة . وهو فضيلة تحت العفة ، ورسم بأنه إعراض النفس عن متاع الدنيا وطياتها . ولما كانت الثروة في العرف عبارة عن الغنى بالمال وكثرته استعار لفظها للزهد لمشابهته إيها في استلزامهما للغنى وعدم الحاجة .

الحادية عشر : والورع جنة . وحقيقة الورع لزوم الأعمال الجميلة فلذلك استعار لفظ الجنة لمشايتها في الوقاية من عذاب الله في الآخرة ومن أكبر المصائب الدنيوية كما تجنّ بالترس وغيره من الصلاح .

الثانية عشر : ونعم القرين الرضا . وقد علمت أن الرضا بقضاء الله وما نزل به القدر باب عظيم من أبواب الجنة وغاية من الملكات الفاضلة ، وظاهر أنه نعم القرين في الدنيا والآخرة .

الثالثة عشر : والعلم وراثه كريمة . وهو فضيلة النفس العاقلة وهو أشرف الكمالات التي يعتنى بها ، وبحسب ذلك كان وراثه كريمة من العلماء ؛ بل كان أكرم موروث ومكتسب . وأراد الوراثة المعنوية كقوله تعالى : ﴿ فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ ^(١) أي العلم والحكمة .

الرابعة عشر : والآداب حلل مجددة . وأراد الآداب الشرعية ومكارم الأخلاق ، واستعار لها لفظ الحلل المجددة باعتبار دوام زينة الإنسان بها وتجدد بهائه وحسنه وتهذيب نفسه على استمرار الزمان بلزومها واستخراج محاسنها كالحلل التي لا تزال تجدد على لابسها .

الخامسة عشر : والفكر مرآة صافية . لفكر قد يراد به القوة المفكرة ، وقد يراد به حركة هذه القوة مطلقاً أية حركة كانت ، وقد يراد به معنى آخر . وعنى هنا القوة نفسها ، واستعار لها لفظ المرآة باعتبار أنها إذا وجهت نحو تحصيل المطالب التصورية والتصديقية أدركتها وتمثلت بها كما يتمثل في المرآة صور ما تحاذي بها .

السادسة عشر : وصدر العاقل صندوق سره . استعار للصدر لفظ صندوق السر باعتبار حفظه كما يحفظ الصندوق ما فيه ؛ وهو في المعنى أمر للإنسان بكتمان سره . ورغبه في ذلك بذكر العاقل . فكأنه قال : العاقل من جعل صدره صندوق سره وحفظه .

عبرة لمن اعتبر وكمال شهادة بوجود الصانع الحكيم لها ، ومن نظر في تشريح بدن الإنسان حضرته شواهد من الحكمة الإلهية يحار فيها لبّه ويدهش فيها عقله ، وقرأ الصادق عليه السلام قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ۝ ﴾^(١) ثم قال : وكيف لا يكون ضعيفاً وهو ينظر بشحم ويسمع بعظم وينطق بلحم ؟ وقد راعى في القرائن الأربع السجع المتوازي .

٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِذَا أُقْبِلَتِ الدُّنْيَا عَلَى أَحَدٍ أَعَارَتْهُ مَحَاسِنَ غَيْرِهِ ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ عَنْهُ سَلَبَتْهُ مَحَاسِنَ نَفْسِهِ .

يريد أن الدنيا إذا أقبلت بجاهها ومالها على قوم بحسب توافق أسباب السعادة الدنيوية لهم استلزم ذلك إقبال الناس عليهم وتقرب بهم إليهم بكل ممكن لميلهم إلى الدنيا ومحبتهم لها وحسنوا في أعينهم فاستعاروا لهم الأوصاف الجميلة التي كانت في غيرهم وإن لم يكونوا في نفس الأمر كذلك حتى يصفوا بالعلم الجاهل ، وبالكرم لمبذر ، وبالشجاعة المتهور ، وبالظرف ولطف الأخلاق الماجن .

وربما كان إقبال الدنيا عليهم أيضاً سبباً لاستعدادهم لتحصيل الكمالات النفسانية والممكات الفاضلة التي كانت محاسن لغيرهم قبلهم وإن كانوا قبل ذلك غير أهل لشيء منها . ويحتمل أن يريد بالمحسن محاسن الدنيا من مركوب وملبوس وأبهة وحسن إيالة وتصرف . وذلك ظاهر . وكونه عارية باعتبار عدم دوامه . وكذلك إذا أدبرت عنهم بحسب توافق أسباب الشقاوة فيها قبحوا في أعين الناس حتى يكون أحدهم ذا فضيلة في نفسه فيجحدوا الناس ويصفونه بضدها . فإن زهد في الدنيا نسبوه إلى الرياء والسمعة ، وإن حسنت أخلاقه نسبوه إلى الخلاعة والمجون ، وإن شجع نسبوه إلى التهور والجنون . وهو معنى سلبها لمحاسن أنفسهم ، وربما استعد ذو الفضيلة منهم بذلك لتركها وإهمالها والتخلق بضدها حتى تسلب عنه لفضيلة بالكلية .

٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً : إِنْ مِتُّم مَعَهَا بَكُوا عَلَيْكُمْ ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُوا إِلَيْكُمْ .

نبه بذلك على حسن المعاشرة للناس ومعاملتهم بمكارم الأخلاق . وكنى عن ذلك بقوله : إِنْ مِتُّم . إلى آخره . إذ من لوازم حسن المعاشرة للمخالط الحنة إليه في حياته وافتقاره . والبكاء عليه بعد وفاته . والجملة الشرطية في موضع نصب صفة المخالطة .

٦ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْرًا لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ .

وهو تنبيه على فضيلة العفو وجذب إليه بكونه شكراً للقدر : أي ملازم للشكر عليها ، وذلك أن القدرة على العدو نعمة من الله تعالى يجب شكرها والاعتراف لله والخضوع له ، ويلزمه الرقة وفتور الغضب ويتبع ذلك العفو فأقامه مقام الشكر للملازمة بينهما . ولما كان الشكر واجباً كان العفو لازماً .

٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الْإِخْوَانِ ، وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفَرَ بِهِ مِنْهُمْ .

الإخوان جمع أخو كخرب وخربان ، وأراد الأصدقاء الصادقين ، وفي الكلمة حث على مكارم الأخلاق لأن الإخوان لا يكتسبون إلا بها ، وإنما جعل العاجز عن تحصيلهم أعجز الناس لأن ذلك لا يحتاج إلى إتباع قوة بدنية ولا إعمال فكرة عقلية ، وإنما يفتقر إلى كرم الأخلاق وحسن المعاشرة والملاقة بالبشر والطلاقة وهي أمور طبيعية في أكثر الناس وهو أهون الأشياء عليهم فكان العاجز عنها أعجز الناس عما هو مقدور لهم . وإنما جعل من ظفر به منهم ثم ضيَّعه أعجز لأن المتكسب لا بد له من كلفة ما في اكتسابهم .

وأما الظافر فهو غير محتاج إلى ذلك القدر من الكلفة فكان سبب حفظ الإخوان أسهل من سبب تحصيلهم فكان المضيّع لحفظهم أعجز عن اكتسابهم لعجزه عن حفظ الأمر الأسهل .

فإن قلت : فقد قال : إِنَّ المَضِيعَ لَهُمُ أعْجَزُ من أعْجَزِ الناسِ فلا يكون أعْجَزُ الناسِ أعْجَزَ الناسِ . هذا خلف .

قلت : لفظ الناس لفظ مطلق وإنما يلزم الخلف أن لو كان للعموم .

٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِذَا وَصَلْتَ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ فَلَا تُنْفِرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ الشُّكْرِ .

نبه على وجوب الشكر على النعمة لغرض دوامها . ونفّر عن قلته بما يستلزمه من كونه تنفيراً لم يستقبل منها ، واستعار لفظ التنفير ملاحظة لشبهها بالطير المتصل إذا سقط أوله اتصل به آخره ، وفيه إيماء إلى أن دوام الشكر مستلزم لدوامها وكثرتها كقوله تعالى : ﴿ وَلئنْ شَكَرْتُمْ لأزِيدَنَّكُمْ ﴾^(١) .

٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ ضَيَّعَهُ الْأَقْرَبُ أُتِيحَ لَهُ الْأَبْعَدُ .

أي قدر . وأراد أن الله سبحانه جعل لكل شيء سبباً يجب معه وبه ولما كانت مدفع الإنسان وضروراته في الأغلب يقوم بها من كان أقرب إليه من أهله وعشيرته ولم يجب في الحكمة أن لا يكون له نفع له إلا من جهتهم لا جرم أنهم إذا ضيعوه وأهملوه لا بد أن يقدر الله له من يقوم بمصالحه ومعاونته ممن هو أبعد عنه .

١٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَا كُلُّ مَفْتُونٍ يُعَاتَبُ .

الفتنة قد تكون في الدين وقد تكون في الدنيا وقد تكون فيهما ، وعلى التقديرات فقد تلحق الإنسان بسبب منه من جهل بسيط أو مركب وقد تلحقه بأسباب قدرية خارجية معلومة وغير معلومة . والذي يعاتب على فتنته من هؤلاء من كانت أسباب فتنته منه أو بعضها كوقوع الفتنة لمصاحبة الفساق ونحوه . هـ إذا حملنا اللفظ على ظاهرة ، ويحتمل أن يريد ليس كل مفتون ينفع معه العتاب .

١١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : تَذِلُّ الْأُمُورُ لِلْمَقَادِيرِ حَتَّى يَكُونَ الْحَتْفُ فِي التَّدْبِيرِ .

استعار ذل الأمور لمطاوعتها للقدر وجريانها على وفق القضاء . ولما كان الإنسان جاهلاً بأسرار القدر جاز أن يكون من غايات مطاوعة الأمور للقدر كون ما يعتقد به الإنسان الجاهل مصلحة ويفعله تدبراً لمنفعة سبباً لحتفه وهلاكه . وفيه إيماء إلى وجوب إسناد الأمور إلى الله وعدم التوكل على التدبير ، والانقطاع إليه .

١٢ - وَسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، عَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « غَيْرُوا الشَّيْبَ وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ » ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ وَالَّذِينَ قُلُّ ، فَأَمَّا الْآنَ ، وَقَدْ اتَّسَعَ نِطَاقُهُ ، وَضُرِبَ بِجِرَانِهِ ، فَاْمَرُؤُومَا آخَتَارُ .

النطاق : شقة طويلة عريضة تنجر على الأرض إذا لبست . وجران البعير : صدره . وكان رسول الله ﷺ في أول الإسلام يأمر أهل الشيب من المسلمين بتغيير شيبهم ويبدعهم إليه ، وكان ينقروهم عن تركه بكونه تشبهاً باليهود لأن اليهود لم يكونوا يفعلون ذلك . فكانوا يخضبون بالسواد . وقيل : بالحناء . والغرض أن ينظر إليهم الكفار بعين القوة والشبيبة فينفعلون عنهم ولا يطمعون فيهم . فسئل ﷺ عن ذلك في زمن خلافته فجعله من المباح دون المندوب ، وأشار إلى أن تلك السنة إنما كانت حيث كان المسلمون قليلين فأما الآن وقد كثروا وضعف الكفار فهو مباح ، وكفى عن ذلك بقوله : فامرؤ وما اختار . واستعار لفظ النطاق لمعظمه وما انتشر منه . ولفظ الضرب بالجيران لثباته واستقراره وملاحظة لشبهه بالبعير المبارك . وقوله : فامرؤ مبتداً وما اختار عطف عليه ، وما مصدرية وخبر المبتداً محذوف تقديره مقرونان كقولهم كل امرئ وضعفته . وبالله التوفيق .

١٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الَّذِينَ آعْتَزَلُوا الْقِتَالَ مَعَهُ : خَذَلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَنْصُرُوا الْبَاطِلَ .

منهم عبدالله بن عمر وجماعة من القراء وغيرهم كأبي موسى الأشعري والأحنف بن قيس في حرب صفين . ويشبه أن يكون هذا إشارة إلى توسط درجتهم في الضلالة ويجري مجرى العذر لهم . فكأنه قال : إنهم وإن خذلوا الحق معنا لم ينصروا الباطل مع خصومنا .

١٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ جَرَى فِي عِنَانٍ أَمَلَهُ عَثْرٌ بِأَجَلِهِ .

وهو تنفير عن تطويل الأمل بذكر قطعه بالأجل ، واستعار لفظ العنان له ملاحظة لشبهه بالفرس ، ولفظ الجري للاندفاع في الأمل بحسب تطويله ولفظ العثار للامتناع عن ذلك الجري بعارض الأجل وقواطعه كعثار العادي بما يعرض له من حجر ونحوه .

١٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَقِيلُوا ذَوِي الْمُرُوءَاتِ عَثْرَاتِهِمْ فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إِلَّا وَيَدُ اللَّهِ بِيَدِهِ يَرْفَعُهُ .

رغب في إقالة ذوي المروآت عثراتهم التي يتفق وقوعها نادراً كبيعهم لما يلحقهم الندم عليه ونحوه بذكر كون يد الله بأيديهم يرفعهم ، واستعار لفظ العثرات لما يقع منهم خطأ ومن غير تثبت . ولفظ اليد لعناية الله وقدرته . وكنتي عن تعلقاته وتدارك حاله بكون يده بيده يرفعه وذلك أن المروة فضيلة عظيمة يستجلب همم الخلق وقلوبهم ومسعداتهم ، بحسب ذلك يكون استعداد العاثر من ذوي المروآت لعناية الله وقيامه من عثرته .

١٦ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : قُرْنَتِ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ ، وَالْحَيَاءُ بِالْجَرْمَانِ ، وَالْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، فَانْتَهَرُوا فُرْصَ الْخَيْرِ .

أراد بالهيبة الخوف من المقابل . وظاهر أن ذلك يستلزم عدم قضاء الحاجة منه والظفر بالمطلوب لعدم الانبساط في القول معه وهو معنى اقترانها بالخيبة ، وكذلك الحياء بالحرمان لاستلزام الحياء ترك الطلب والتعرض له . وهو تنفير عن الهيبة والحياء المذمومين . ثم أمر بانتهاز فرص الخير : أي المبادرة إلى فعله عند حضور وقت إمكانه ، ورغب في ذلك بضمير صغراه قوله : الفرصة تمر مر السحاب : أي أنها سريعة الزوال ، وتقدير الكبرى :

وكلما كان كذلك فواجب أن يبادر إليه ويغتني وقت إمكانه .

١٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَنَا حَقٌّ فَإِنْ أُعْطِينَاهُ وَإِلَّا رَكِبْنَا أَعْجَازَ الْإِبِلِ وَإِنْ طَالَ السَّرَى .

قال الرضي : وهذا من لطيف الكلام وفصيحته ، ومعناه إنا إن لم نعط حقنا كنا أذلاء ، وذلك أن الرديف يركب عجز البعير كالعبد والأسير ومن يجري مجراهما .

وقال الأزهري في تهذيب اللغة : قال القتيبي : أعجاز الإبل : ماخيرها - جمع عجز - وهو مركب شاق . قال : ومعناه إن منعنا حقنا ركبنا مركب المشقة وصبرنا عليه وإن طال ، ولم نجز منه محلين بحقنا . ثم قال الأزهري : لم يرد علي عليه السلام ركوب المشقة ولكنه ضرب أعجاز الإبل مثلاً لتأخره عن غيره في حقه من الإمامة وتقدم غيره عليه فأراد إن منعنا حقنا منها وأخرنا عن ذلك صبرنا على الأثرة فيها وإن طالت الأيام . والسرى : سير الليل . وأقول : الذي ذكره الثلاثة احتمالات حسنة وهي مقاربة لأن ركوب الأعجاز مظنة الذلة والمشقة وتأخر المنزلة . ويحتمل أن تكون كلها مرادة له . ولم يفرق الأزهري بين المثل والكناية فإن ركوب الأعجاز كناية عن الأمور المذكورة ، وكذلك طول السرى كناية عن طول المشقة لأنه مظنتها وملزومها ، ويحتمل أن يكون كناية بالمثل .

١٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ .

أي من لم يكن له عمل صالح حسن فتأخر بسبب ذلك عن معالي الرتب الدنيوية والآخرية لم يسرع به حسبه وشرف بيته إليها إن كان ذا حسب . وكفى ببطء عمله عن عدم وصوله إلى الخير لعدم ما يوصله إليه من زكى العمل وجعل الإسراع في مقابلة البطء .

١٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مِنْ كَفَّارَاتِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ : إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ ، وَالتَّنْفِيسُ عَنِ الْمَكْرُوبِ .

الملهوف : المظلوم يستغيث : والتنفيس : التفريج من الغم الذي

يأخذ بنفسه . وجعلها من كفارات الذنوب العظام لكونها فضيلة عظيمة تستلزم فضائل كالرحمة والعدل والسخاء والمروة وغيرها . وظاهر أن حصول هذه الملكات في النفس مما يستلزم ستر الذنوب ومحوها ومنافاة ملكات السوء التي يعبر عنها بالسيئات والذنوب كما سبقت الإشارة إليه .

٢٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا أَبَنَ آدَمَ ! إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعْمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَأَحْذَرُهُ .

نفر الإنسان عن معصية الله حال متابعة نعمه عليه بتحذيره منه ، وذلك أنه لما كان دوام شكرها يعدّ للمزيد منها كان كفرانها ومقابلتها بالمعصية المستلزم لعدم الشكر مستلزماً لعدم الاستعداد للمزيد ومعداً للنقصان ونزول النعمة كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (١) وهو محل الحذر منه . والواو في قوله : وأنت . للحال .

٢١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَاتٍ لِسَانِهِ ، وَصَفَحَاتٍ وَجْهِهِ .

الفلنة : الأمر يقع من غير تروؤ . وصفحة الوجه : بشرته . ولما كان الإنسان إنما يضمّر في نفسه أمراً مهماً عنده من عداوة أو بغض أو محبة إلى غير ذلك ، وكان الوجود اللساني عبارة عن الوجود النفساني ومظهراً له لم يتمكن المرء أن يحفظ ما أضمره بالكلية لأن مراعاة ذلك الحفظ إنما يكون للعقل بحسب ما يراه من المصلحة ، والعقل قد يشتغل بالتصرف في مهم آخر فيغفل عن ضبط ما أضمره فينفلت الخيال به من سرّ العقل فيبعثه في فلتات القول عن غير تروؤ ، وكذلك لما كانت التصورات والأمور النفسانية مبادئ للآثار الظاهرة كصفرة الوجل وحمرة الخجل لم ينفك بعض الأمور المضمرة عن ظهور ما يعرف به من الآثار في صفحات الوجه والعين . وشاهد ذلك التجربة .

٢٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِمْسِرْ بِدَائِكَ مَا مَشَى بِكَ .

وفي رواية : ما حملك : أي ما دام المرض لا يهظك ويعجزك فلا تنفعل عنه ولا تتعاجز به ؛ بل كن في صورة الأصحاء . وقيل : فيه إيماء إلى ما أمر به من كتمان المرض كما قال الرسول ﷺ : من كنوز البر كتمان الصدقة والمرض والمصيبة . وربما كانت فائدة ذلك كونه نوع تجلد ، والتجلد معاونة للطبيعة وتقوية لها على المرض ، ومن المرض ما يتحلل بالحركات البدنية . واستعداد للمرض وصف الماشي باعتبار أنه لا يلزمه الأرض والفراش فهو كالحامل له والماشي به .

٢٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَفْضَلُ الزُّهْدِ إِخْفَاءُ الزُّهْدِ .

الزهد منه ظاهر ومنه خفي وهو الزهد الحقيقي المستفيع به كما قال ﷺ : إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم . فلذلك كان أفضل . والمراد الزهد الخفي . فأضاف الصفة إلى الموصوف وقدمها لأنها أهم ولأن الزهد الظاهر يكاد لا ينفك عن رياء وسمعة فكان مفضولاً .

٢٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِذَا كُنْتُ فِي إِدْبَارٍ وَالْمَوْتُ فِي إِقْبَالٍ فَمَا أَسْرَعَ الْمُلْتَقَى .

وهو جذب بإقبال الموت ولقائه إلى الاستعداد له ولما بعده بالأعمال الصالحة ، والإدبار ، والإقبال أمران اعتباريان لأن الإنسان باعتبار أجزاء مدته وقتاً فوقتاً في إدبار ، وبحسب ذلك يكون اعتبار فئائه في إقباله إليه ، وبحسبهما يكون سرعة التقائهما . والملقى مصدر .

٢٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْحَذَرُ الْحَذَرُ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ سَتَرَ حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ غَفَرَ .

حذر من سخط الله بسبب معصيته لطول إمهاله وستره إلى الغاية المذكورة . وقوله : فوالله . إلى آخره صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من ستر على عبده إلى الغاية المذكورة فواجب أن يحذر غضبه ويجتنب معصيته ويرجع إلى طاعته التي هي الغاية من عنايته بستره .

٢٦ - وَسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْإِيمَانِ فَقَالَ : الْإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ : عَلَى الصَّبْرِ ، وَالْيَقِينِ ، وَالْعَدْلِ ، وَالْجِهَادِ .

وَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى الشَّوْقِ ، وَالشَّفَقِ ، وَالزُّهْدِ ، وَالتَّرَقُّبِ ، فَمَنْ أَشْتَقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ ، وَمَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ ، وَمَنْ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ .

وَالْيَقِينُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى تَبَصُّرَةِ الْفِطْنَةِ ، وَتَأَوُّلِ الْحِكْمَةِ ، وَمَوْعِظَةِ الْعِبَرَةِ ، وَسُنَّةِ الْأَوَّلِينَ ، فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي الْفِطْنَةِ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ عَرَفَ الْعِبَرَةَ ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبَرَةَ فَكَانَ كَأَنَّمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ .

وَالْعَدْلُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى غَايَةِ الْفَهْمِ ، وَغُورِ الْعِلْمِ ، وَزُهْرَةِ الْحُكْمِ ، وَرَسَاخَةِ الْجِلْمِ . فَمَنْ فَهِمَ عِلْمَ غُورِ الْعِلْمِ ، وَمَنْ عِلِمَ غُورِ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ الْحُكْمِ ، وَمَنْ حَلِمَ لَمْ يُفَرِّطْ فِي أَمْرِهِ وَعَاشَرَ فِي النَّاسِ حَمِيداً .

وَالْجِهَادُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالصَّدَقِ فِي الْمَوَاطِنِ ، وَشَتَائِنِ الْفَاسِقِينَ ، فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أَنْوَفَ الْمُنَافِقِينَ ، وَمَنْ صَدَّقَ فِي الْمَوَاطِنِ قَضَى مَا عَلَيْهِ ، وَمَنْ شَتَّى الْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ لِلَّهِ ، غَضِبَ اللَّهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْكُفْرُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ : عَلَى التَّعَمُّقِ ، وَالتَّنَازُعِ ، وَالزَّيْغِ ، وَالشَّقَاقِ ، فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنِبْ إِلَى الْحَقِّ وَمَنْ كَثُرَ نِزَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عَمَاهُ عَنِ الْحَقِّ ، وَمَنْ زَاغَ سَاءَتْ عِنْدَهُ الْحَسَنَةُ ، وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ السَّيِّئَةُ ، وَسَكِرَ سُكْرُ الضَّلَالَةِ ، وَمَنْ شَاقَّ وَغَرَّتْ عَلَيْهِ طُرُقُهُ ، وَأَعْضَلَ عَلَيْهِ

أَمْرُهُ ، وَضَاقَ عَلَيْهِ مَخْرَجُهُ .

وَالشُّكُّ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى التَّمَارِي ، وَالْهَوْلِ ، وَالتَّرَدُّدِ ،
وَالْإِسْتِسْلَامِ ، فَمَنْ جَعَلَ الْمِرَاءَ دَيْدَنًا لَمْ يُصْبِحْ لَيْلُهُ . وَمَنْ هَالَهُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ
نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ ، وَمَنْ تَرَدَّدَ فِي الرَّيْبِ وَطِثَّتْهُ سَنَابِكُ الشَّيَاطِينِ ، وَمَنْ
اسْتَسْلَمَ لِهَلَكَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ هَلَكَ فِيهِمَا .

قال الرضي : وَبَعْدَ هَذَا كَلَامٌ تَرَكْنَا ذِكْرَهُ خَوْفَ الإِطَالَةِ وَالْخُرُوجِ عَنِ
الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ فِي هَذَا الْكِتَابِ .

أقول : الدعائم : أعمدة البيت . والشعبة : الغصن . والتبصر :
التعرف . والتأويل : التفسير . والزهرة : النور . والشنآن : البغض .
والتعمق : التعسف في معنى الكلام . وأعضل : اشتد . والتماري :
الممارسة . والهول : الفزع . والديدن : العادة . والسنبك : جمع سنبك
وهو طرف حافر الفرس .

واعلم أن هذا الفصل من لطائف الحكمة . ومداره على شرح قواعد
الإيمان والإشارة إلى فروع تلك القواعد ثم إلى ثمرات تلك الفروع . ولما
كان الكفر مضاداً للإيمان ، والشك مقابلاً له مقابلاً لعدم الملكة أشار إلى
دعائم الكفر وشعب الشك لتبين بهما الإيمان . إذ ضدها يتبين الأشياء : أما
الإيمان فاعلم أنه ^{منه} أراد الإيمان الكامل وذلك له أصل وله كمالات بها
يتم أصله فأصله لهو التصديق بوجود الصانع تعالى وماله من صفات الكمال
ونعوت الجلال وبما تنزلت به كتبه وبلغته ، وكمالاته المتممة هي الأقوال
المطابقة ومكارم الأخلاق والعبادات .

ثم إن هذا الأصل ومتمماته هو كمال النفس الإنسانية لأنها ذات قوتين
علمية وعملية وكمالها بكمال هاتين القوتين . فأصل الإيمان هو كمال القوة
العلمية منها ومتمماته وهي مكارم الأخلاق والعبادات هي كمال القوة
العملية .

إذا عرفت هذا فنقول : لما كانت أصول الفضائل الخلقية التي هي

كمال الإيمان أربعاً هي الحكمة والعفة والشجاعة والعدل أشار إليها ، واستعار لها لفظ الدعائم باعتبار أن الإيمان الكامل لا يقوم في الوجود إلا بها كدعائم البيت فعبر عن الحكمة باليقين . والحكمة منها علمية وهي استكمال القوة النظرية بتصور الأمور والتصديق بالحقائق النظرية والعملية بقدر الطاقة البشرية . ولا تسمى حكمة حتى يصير هذا الكمال حاصلًا لها باليقين البرهاني . ومنها عملية وهي استكمال النفس بملكة العلم بوجوه الفضائل النفسانية الخلقية وكيفية اكتسابها ، ووجوه الرذائل النفسانية وكيفية الاحتراز عنها واجتنابها ، وظاهر أن العلم الذي صار ملكة هو اليقين . وعبر عن العفة بالصبر . والعفة هي الإمساك عن الشره في فنون الشهوات المحسوسة وعدم الانقياد للشهوة وقهرها وتصريفها بحسب الرأي الصحيح ومقتضى الحكمة المذكورة . وإنما عبر عنها بالصبر لأنها لازم من لوازمه . إذ رسمه أنه ضبط النفس وقهرها عن الانقياد لقبائح الذات . وقيل : هو ضبط النفس عن أن يقهرها ألم مكروه ينزل بها ويلزم في العقل احتمالاه أو يغلبها حبّ مشتهى يتوق الإنسان إليه ويلزم في حكم العقل اجتنابه حتى لا يتناوله على غير وجهه . وظاهر أن ذلك يلزم العفة ، وكذلك عبر عن الشجاعة بالجهاد لاستنزاهه إياها إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه . والشجاعة هي ملكة الإقدام الواجب على الأمور التي يحتاج الإنسان أن يعرض نفسه لاحتمال المكروه والآلام الواصلة إليه منها ، وأما العدل فهو ملكة فاضلة تنشأ عن الفضائل الثلاث المشهورة وتلزمها .

وقد عمت فيما سلف أن كل واحدة من هذه الفضائل محتوشة برذيلتين هما طرفا الإفراط والتفريط منها ومقابلة برذيلة هي ضده . وأما شعب هذه الدعائم : فاعلم أنه جعل لكل دعامة منها أربع شعب من الفضائل يتشعب منها وينفرع عليها فهي كالفروع لها والأغصان : أما شعب الصبر الذي هو عبارة عن ملكة العفة :

فأحدها : الشوق إلى الجنة ومحبة الخيرات الباقية .

الثاني : الشفق وهو الخوف من النار وما يؤدي إليها .

الثالث : الزهد في الدنيا وهو الإعراض بالقلب عن متاعها وطياتها .
الرابع : ترقب الموت . وهذه الأربع فضائل منبعثة عن ملكة العفة لأن
كلًا منها يستلزمها .

وأما شعب اليقين :

فأحدها : تبصرة الفطنة وإعمالها . والفطنة هي سرعة هجوم النفس
على حقائق ما تورده الحواس عليها .

الثاني : تأول الحكمة وهو تفسيرها واكتساب الحقائق ببراهينها
واستخراج وجوه الفضائل ومكارم الأخلاق من مظانها ككلام يؤثر أو عبرة
تعتبر .

الثالث : موعظة العبرة وهو أن يحصل من اعتبار العبر على اتعاظ
وانتजार .

الرابع : أن يلحظ سنة الأولين حتى يصير كأنه فيهم . وهذه الأربع هي
فضائل تحت الحكمة كالفروع لها ، وبعضها كالفرع لبعض .
وأما شعب العدل .

فأحدها : غوص الفهم : أي الفهم الغائص فأضاف الصفة إلى
الموصوف وقدمها للاهتمام بها . ورسم هذه الفضيلة أنها قوة إدراك المعنى
المشار إليه بلفظ أو كتابة أو إشارة ونحوها .

الثاني : غور العلم وأقصاه وهو العلم بالشيء كما هو بحقيقته وكنهه .

الثالث : نور الحكم : أي تكون الأحكام الصادرة عنه نيرة واضحة لا
لبس فيها ولا شبهة .

الرابع : ملكة الحلم . وعبر عنها بالرسوخ لأن شأن الملكة ذلك .
والحلم هو الإمساك عن المبادرة إلى قضاء وطر الغضب فيمن يجنى عليه
جدية يصل مكروهاها إليه . واعلم أن فضيلتي جودة الفهم وغور العلم وإن
كانتا داخلتين تحت الحكمة وكذلك فضيلة الحلم داخلة تحت ملكة الشجاعة

إلا أن العدل لما كان فضيلة موجودة في الأصول الثلاثة كانت في الحقيقة هي وفروعها شعباً للعدل . بيانه : أن الفضائل كلها ملكات متوسطة بين طرفي إفراط وتفریط وتوسطها ذلك هو معنى كونها عدلاً . فهي بأسرها شعب له وجزئيات تحته .

وأما شعب الشجاعة المعبر عنها بالجهاد :

فأحدها : الأمر بالمعروف .

والثاني : النهي عن المنكر .

والثالث : الصدق في المواطن المكروهة . ووجود الشجاعة في هذه الشعب . الثلاث ظاهر .

الرابع : شنآن الفاسقين ، وظاهر أن بعضهم مستلزم لعداوتهم في الله وثوران القوة الغضبية في سبيله لجهادهم وهو مستلزم للشجاعة .

وأما ثمرات هذه الفضائل فأشار إليها للترغيب في ثمراتها :

فثمرت شعب العفة أربع :

أحدها : ثمرة الشوق إلى الجنة وهو السلو عن الشهوات وظاهر كونه ثمرة له . إذ السالك إلى الله ما لم يشق إلى ما وعد المتقون لم يكن له صارف عن الشهوات الحاضرة مع توفر الدواعي إليها فلم يسئل عنها .

الثانية : ثمرة الخوف من النار وهو اجتناب المحرمات .

الثالثة : ثمرة الزهد وهي الاستهانة بالمصيبات لأن غالبها وعامها إنما يلحق بسبب فقد محبوب من الأمور الدنيوية فمن أعرض عنها بقلبه كانت المصيبة بها هينة عنده .

الرابعة : ثمرة ترقب الموت وهي المسارعة في الخيرات والعمل له ولما بعده .

وأما ثمرات اليقين فإن بعض شعبه ثمرة لبعض فإن تبين الحكمة وتعلمها ثمرات لإعمال الفطنة والفكرة ومعرفة العبر ومواقع الاعتبار

بالماضين ، والاستدلال بذلك على صانع حكيم ثمرة لتبين وجوه الحكمة وكيفية الاعتبار .

وأما ثمرات العدل فبعضها كذلك أيضاً . وذلك أن جودة الفهم وغوصه مستلزم للوقوف على غور العلم وغامضه ، والوقوف على غامض العلم مستلزم للوقوف على شرائع الحكم العادل والصدور عنها بين الخلق من القضاء الحق .

وأما ثمرة الحلم فعدم وقوع الحليم في طرف التفريط والتقصير عن هذه الفضيلة وهو رذيلة الجبن ، وأن يعيش في الناس محموداً فضيلته .

وأما ثمرات الجهاد :

فأحدها : ثمرة الأمر بالمعروف وهو شد ظهور المؤمنين ومعاونتهم على إقامة الفضيلة .

الثانية : ثمرة النهي عن المنكر . وهي إرغام أنوف المنافقين وإذلالهم بالقهر عن ارتكاب المنكرات وإظهار الرذيلة .

الثالثة : ثمرة الصدق في المواطن المكروهة وهي قضاء الواجب من أمر الله تعالى في دفع أعدائه والذب عن الحريم .

والرابعة : ثمرة بغض الفاسقين والغضب لله وهي غضب الله لمن أبغضهم وإرضاء يوم القيامة في دار كرامته .

وأما الكفر فرسمه أنه جحد الصانع أو إنكار أحد رسله عليهم ، أو ما علم مجيئهم به بالضرورة . وله أصل هو ما ذكرناه ، وكمالات ومتممات هي الرذائل الأربع التي جعلها دعائم له وهي لرذائل من الأصول الأربعة للفضائل الخلقية :

فأحدها : التعمق وهو الغلو في طلب الحق والتعسف فيه بالجهل والخروج إلى حد الإفراط وهو رذيلة الجور من فضيلة العدل ويعتمد الجهل بمظان طلب الحق . ونفر عن هذه الرذيلة بذكر ثمرتها وهي عدم الإنابة إلى الحق والرجوع إليه لكون تلك الرذيلة صارت ملكة .

والثانية : التنازع وهو رذيلة الإفراط من فضيلة العلم ويسمى جريزة يعتمد الجهل المركب ولذلك نفر عنه بما يلزمه عند كثرة وصيرورته ملكة من دوام العمى عن الحق .

والثالثة : الزيف ويشبه أن يكون رذيلة الإفراط من فضيلة العفة وهو الميل عن حاق الوسط منها إلى رذيلة الفجور ويعتمد الجهل ، ولذلك يلزمه قبح الحسنة وحسن السيئة وسكر الضلالة . واستعار لفظ السكر لغفلة الجهل باعتبار ما يلزمهما من سوء التصرف وعدم وضع الأشياء مواضعها ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى رذيلة التفريط من فضيلة الحكمة المسماة غباوة .

والرابعة : الشقاق وهو رذيلة الإفراط من فضيلة الشجاعة المسماة تهوراً أو مستلتماً له . ويلزمها توغر المسالك على صاحبها وضيق مخرجه من الأمور لأن مبدأ سهولة المسالك واتساع المداخل والمخارج في الأمور هو مسالمة الناس والتجاوز عما يقع منهم والحلم عنهم واحتمال مكروهمهم .

وأما الشك فعبارة عن التردد في اعتقد أحد طرفي النقيض ، ويقابس اليقين كما سبق . وذكر له أربع شعب :

أحدها : التماري وظاهر أن مبدأ المرء الشك ونفر من اتخذه ملكة وعادة بكونه لا يصبح ليله ، وذلك كناية عن عدم وضوح الحق له من ظلمة ليل الشك والجهل .

الثاني : الهول لأن الشك في الأمور يستلزم عدم العلم بما فيها من صلاح أو فساد ، وذلك يستلزم الفزع والخوف من الإقدام عليها . وثمرتها النكوص والرجوع على الأعقب .

الثالث : التردد في الشك : أي الانتقال من حالة إلى حالة ومن شك في أمر إلى شك في آخر من غير ثقة بشيء . وذلك دأب من تعود التشكك في الأمور . ونفر عن ذلك بما يلزمه مما كنى عنه بوطىء سنايك الشياطين وهو ملك الوهم والخيال لأرض قبه حتى يكون سلطان العقل بمعزل عن الجزم بما من شأنه الجزم به .

الرابعة : الاستسلام لهلكة الدنيا والآخرة . ولزومه عن الشك لأن الشاك في الأمور الدنيوية والآخروية المتعود لذلك غير عامل لشيء منها ولا مهتم بأسبابها وبحسب ذلك يكون استسلامه لما يرد منها عليه . ولزوم هلاكه فيهما لاستسلامه ظاهر . وبالله التوفيق .

٢٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : فَاعِلُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْهُ ، وَفَاعِلُ الشَّرِّ شَرٌّ مِنْهُ .

وإنما كان كذلك لأن العلة أقوى من معلولها فكان أقوى في خيريته وشريته وتأثيرهما مما صدر عنه من خير أو شر .

٢٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : كُنْ سَمَحًا وَلَا تَكُنْ مُبَذِّرًا ، وَكُنْ مُقَدِّرًا وَلَا تَكُنْ مُقْتَرًا .

وهو أمر بفضيلة السماحة والكرم ونهى عن الكون على طرفي الإفراط والتفريط منها فطرف الإفراط هو التبذير وطرف التفريط هو التقثير .

٢٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : شَرَفُ الْغِنَى تَرْكُ الْمُنَى .

المنى : جمع منية بمعنى التمني . ولما كان ذلك رذيلة تلزم عن رذائل كالشره والحرص ونحوهما . وأقلها أنها اشتغال عما يعني بما لا فائدة فيه رغب في تركها بأن فسر به أشرف الغنى حتى جعله هو هو ، وظاهر أن ترك المنى يستلزم القناعة . واستلزامها للغنى النفساني وعدم الحاجة ظاهر .

٣٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ أَسْرَعَ إِلَى النَّاسِ بِمَا يَكْرَهُونَ قَالُوا فِيهِ بِمَا لَا يَعْلَمُونَ .

لما كان من شأن الطبع النفرة عن الأذى وبغض المؤذي وعداوته كان من شأنه في غالب الخلق تقبيح ذكره بما يمكن من قول صادق أو كاذب أو محتمل لغرض أن يوافقهم السامعون على دفعه وأذاه .

٣١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ أَطَالَ الْأَمَلَ أَسَاءَ الْعَمَلَ .

لما كان طول الأمل في الدنيا مستلزماً للإقبال عليها والانهماك في العمل لها والغفلة عن الآخرة كان ذلك عملاً سيئاً بالنسبة إلى الآخرة .

٣٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَقَدْ لَقِيَهُ عِنْدَ مَسِيرِهِ إِلَى الشَّامِ ذَهَاقِينَ
الْأَنْبَارِ فَتَرَجَّلُوا لَهُ وَاشْتَدُّوا بَيْنَ يَدَيْهِ :

فَقَالَ : مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ ؟ فَقَالُوا : خُلِقْنَا مِنْ نِعْظِهِ بِهْ أَمْرَانَا .
فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا أَمْرَاؤُكُمْ ! وَإِنَّكُمْ لَتَشْقُونَ بِهْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي
دُنْيَاكُمْ ، وَتَشْقُونَ بِهْ فِي آخِرَتِكُمْ ، وَمَا أَخْسَرَ الْمَشَقَّةَ وَرَاءَهَا الْعِقَابُ ، وَأَرْبَحَ
الدَّعَاةُ مَعَهَا الْأَمَانُ مِنَ النَّارِ .

اشتدوا : عدوا بين يديه والشقاء في الآخرة بذلك لأنه تعظيم لغير الله .
وحاصله تنفيرهم عما اعتمدوه معه بضمير صفراء قوله : والله . إلى قوله :
آخرتكم . ونبه على الكبرى بقوله : وما أخسر المشقة وراءها العقاب
وتقديرها : وكلما كانت مشقة على النفس وتبعها العقاب في الآخرة فهو أشد
الخسارة . وجذبهم إلى ترك ذلك بما يلزمه من الدعة والراحة في الدنيا مع
الأمان من النار . فكأنه قال : فينبغي أن يتركوا ذلك التكلف فإنه دعة وراحة
مع الأمان من النار وكلما كان كذلك فهو أعظم الأرباح . وإنما يلزمهم الشقاء
بذلك في الآخرة لكونه تعظيماً لغير الله بما لا ينبغي إلا لله .

٣٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِابْنِهِ الْحَسَنِ :

يَا بُنَيَّ ؛ إِحْفَظْ عَنِّي أَرْبَعاً ، وَأَرْبَعاً ، لَا يَضُرُّكَ مَا عَمِلْتَ مَعَهُنَّ : إِنْ أَغْنَى
الْغِنَى الْعَقْلُ ، وَأَكْبَرُ الْفَقْرِ الْحُمُوقُ ، وَأَوْحَشُ الْوَحْشَةِ الْعُجْبُ ، وَأَكْرَمُ
الْحَسَبِ حُسْنُ الْخُلُقِ

يَا بُنَيَّ ؛ إِيَّاكَ وَمُضَادَّةُ الْأَحْمَقِ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرُّكَ ، وَإِيَّاكَ
وَمُضَادَّةُ الْبَخِيلِ فَإِنَّهُ يَبْعُدُ عَنْكَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ أَحْوَجَ ، وَإِيَّاكَ وَمُضَادَّةُ الْفَاجِرِ
فإِنَّهُ يَبْعُدُ بِالتَّافِهِ ، وَإِيَّاكَ وَمُضَادَّةُ الْكَذَّابِ فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ يَقْرُبُ عَلَيْكَ
الْبَعِيدَ ، وَيُبْعِدُ عَلَيْكَ الْقَرِيبَ .

إنما قال : أربعاً وأربعاً لأن الأربع الأول من باب واحد وهو اكتساب
الفضائل الخلقية الفسائية ، والأربع الثانية من باب المعاملة مع الخلق .

وقيل : لأن الأولى من باب الإثبات والثانية من باب النفي . أما الأربع الأولى :

فالأولى : العقل : وأراد المرتبة الثانية من مراتب العقل النظري المسمى عقلاً بالملكة وهو أن يحصل لنفسه من العلوم البديهية والحسية والتجريبية قوة أن يتوصل بها إلى العلوم النظرية ، وغاية ذلك أن يحصل على ما بعد هذه المرتبة من مراتب العقل . ورغب فيه بكونه أغنى الغنى وذلك أن به يحصل الدنيا والآخرة فهو أعظم أسباب الغنى وفيه الغنى .

الثانية : الحمق وهو رذيلة الغباوة وطرف التفريط من العقل المذكور ونفر عنه بكونه أكبر الفقر لأنه سبب للفقر من الكمالات خصوصاً النفسانية التي بها الغنى التام فكان أكبر فقر .

الثالثة : العجب وهو رذيلة الكبر ، وتضاد التواضع . ونفر عنها بكونها أوحش الوحشة . وظاهر كونها أقوى أسباب الوحشة ونفرة الأنيس لأن تواضع المتواضع لما استلزم انس الخلق به ، وشدة ميلهم إليه كان ضده مستلزماً لنفرتهم وتوحشهم التام منه .

الرابعة : حسن الخلق ورغب فيه بكونه أكرم الحساب لكونه أشرف الكمالات الباقية . وهذه المنفردات والمرغبات صغيريت ضمائر . وأما الأربع الثانية :

الأولى : الحذر من مصادقة الأحمق . ونفر عنه بما يلزم حمقه من وضع المضرة موضع المنفعة عند إرادتها لعدم الفرق بينهما .

الثانية : الحذر من مصادقة البخيل . ونفر عنه بما يستلزم بخله من قعوده عن صاحبه عند الحاجة . - أحوج - حال من الضمير في عنك .

الثالثة : الحذر من مصادقة الفاجر . والفجور رذيلة الإفراط من فضيلة العفة ونفر عنه بما يلزم فجوره من قلة وفائه وبيعته بالتافه وهو القليل من المال .

الرابعة : الحذر من مصادقة الكذاب . ونفر عنه بتشبيهه بالسراب .

وأشار إلى وجه الشبه بقوله : يقرب . إلى آخره . وبيانه أن الكذاب يوهم حقيقة ما يقول فيسهل الأمور العسرة البعيدة ويجعلها قريبة المتناول ويبعد الأمور السهلة القريبة ويجعلها بعيدة المتناول بحسب أغراضه وكذبه مع أنه ليس كذلك في نفس الأمر كالسراب الذي يظن ماء وليس به . والتنفيرات الأربع المقرونة بقوله : فإنه . صغريات ضمائر تقدير كبرياتها : وكلما كان كذلك فيجب أن يحذر صحبته ويجتنب مصادقته . وبالله التوفيق .

٣٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا قُرْبَةَ بِالنَّوَافِلِ إِذَا أَضُرَّتْ بِالْفَرَائِضِ .

والإضرار بالفرئض : تنقيص بعض أركانها وشرائطها . وقد يفعل الإنسان ذلك لتعبه من الاشتغال بالنافلة أو لما يريد أن يستقبله منها . ولا قربة فيما يستلزم ترك الواجب لاستلزامه المعصية والعقاب ومتافاتها للقربة .

٣٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ ، وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ .

قال الرضي : (وَهَذَا مِنَ الْمَعَانِي الْعَجِيبَةِ لَشَرِيفَةِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ أَنَّ الْعَاقِلَ لَا يُطْلِقُ لِسَانَهُ إِلَّا بَعْدَ مُشَاوَرَةِ الرَّوِيَّةِ وَمُؤَامَرَةِ الْفِكْرَةِ ، وَالْأَحْمَقُ تَسْبِقُ حَدَقَاتُ لِسَانِهِ وَفَلَتَاتُ كَلَامِهِ عَلَى مُرَاجَعَةِ فِكْرِهِ ، وَمُمَاخَضَةِ رَأْيِهِ . فَكَانَ لِسَانُ الْعَاقِلِ تَابِعَ لِقَلْبِهِ ، وَكَانَ قَلْبُ الْأَحْمَقِ تَابِعَ لِّلِسَانِهِ) .

رَوِيَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا الْمَعْنَى بِلَفْظٍ آخَرَ وَهُوَ قَوْلُهُ : قَبُ الْأَحْمَقِ فِي فِيهِ ، وَلِسَانُ الْعَاقِلِ فِي قَلْبِهِ .

وأقول : إنه استعمل لفظ الورا في الموضوعين لما يعقل من تأخر لفظ العاقل عن رويته ومن تأخر روية الأحمق وفكره فيما يقول عن بواطن مقاله من غير مراجعة لعقله . والمعنى ما أشار إليه السيد - رحمه الله - . وعلى الرواية الأخرى فأراد أن ما يتصوره الأحمق هو في فيه : أي يبرز على لسانه من غير فكر ، وأما نطق العاقل فمخزون في عقله لا يخرج إلا عن روية صادقة . ولفظ القلب في الأول مجاز فيما يبرز من تصورات في ألفاظه ، ولفظ اللسان مجاز في ألفاظه الذهنية .

٣٦ - وَقَالَ لِيَعُضْ أَصْحَابِهِ فِي عِلَّةِ اغْتَلَّهَا : جَعَلَ اللَّهُ مَا كَانَ مِنْ شُكْوَاكَ حَطًّا لِسَيِّئَاتِكَ ، فَإِنَّ الْمَرَضَ لَا أَجْرَ فِيهِ ، وَلَكِنَّهُ يَحُطُّ السَّيِّئَاتِ ، وَيَحُتُّهَا حَتُّ الْأَوْرَاقِ . وَإِنَّمَا الْأَجْرُ فِي الْقَوْلِ بِاللِّسَانِ ، وَالْعَمَلِ بِالْأَيْدِي وَالْأَقْدَامِ ، وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُدْخِلُ بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَالسَّرِيرَةِ الصَّالِحَةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الْجَنَّةَ .

قال الرضي : وأقول صدق عليه السلام ، إن المرض لا أجر فيه ؛ لأنه من قبيل ما يستحق عليه العوض لأن العوض يستحق على ما كان في مقابلة فعل الله تعالى بالعبد من الآلام والأمراض وما يجري مجرى ذلك ، والأجر والثواب يستحقان على ما كان في مقابلة فعل العبد ، فبينهما فرق قد بينه عليه السلام كما يقتضيه علمه الثاقب ورأيه الصائب .

وأقول : دعاء الله لصاحبه بما هو ممكن وهو حط السيئات بسبب المرض ولم يدع له بالأجر عليه معللاً ذلك بقوله : فإن المرض لا أجر فيه . والسرف فيه أن الأجر والثواب إنما يستحق بالأفعال المعدة له كما أشار إليه بقوله : وإنما الأجر في القول . إلى قوله : الأقدام : وكفى بالأقدام عن القيام بالعبادة وكذلك ما يكون كالفعل من عدمات الملكات كالصوم ونحوه على ما بيناه قبل فأمّا المرض فليس هو بفعل العبد ولا عدم فعل من شأنه أن يفعله فأمّا حطه للسيئات فباعتبار أمرين .

أحدهما : أن المريض تنكسر شهوته وغضبه اللذين هما مبدءاً للذنوب والمعاصي ومادتها .

والثاني : أن من شأن المرض أن يرجع الإنسان فيه إلى ربه بالتوبة والندم على المعصية والعزم على ترك مثلها كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضَّرَّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَائِماً أَوْ قَاعِداً ﴾ (١) الآية . فما كان من السيئات حالات غير متمكنة من جوهر النفس فإنه يسرع زوالها منها وما صار ملكة فربما يزول على طول المرض ودوام الإنابة إلى الله تعالى ، واستعار لزوالها

لفظ الحط وشبهه في قوة الزوال والمفارقة بحط الأوراق . ثم نبه عليه بقوله : وإن الله إلى آخره على أن العبد إذا احتسب المشقة في مرضه لله بصدق نيته مع صلاح سريره فقد يكون ذلك معداً لإفاضة الأجر والثواب عليه ودخوله الجنة . ويدخل ذلك في أعدام الملكات المقرونة بنية القربة إلى الله . وكلام السيد - رحمه الله - مقتضى مذهب المعتزلة .

٣٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذِكْرِ خَبَابِ بْنِ الْأَرْتِ : يَرْحَمُ اللَّهُ (خَبَابُ بْنُ الْأَرْتِ) ؛ فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِباً ، وَهَاجَرَ طَائِعاً ، وَعَاشَ مُجَاهِداً . طُوبَى لِمَنْ ذَكَرَ الْمَعَادَ ، وَعَمِلَ لِلْحِسَابِ ، وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ ، وَرَضِيَ عَنِ اللَّهِ .
خَبَابُ بالخاء المعجمة والباء المشددة كان من المهاجرين ومن أصحابه عليه السلام ومات بعد انصرافه من صفين بالكوفة وهو أول من قبره عليه السلام .
وقد مدحه بأوصاف ثلاثة من أوصاف الصالحين :
أحدها : إسلامه عن رغبة وهو الإسلام المنتفع به .

الثاني : مهاجرته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم طائعاً وهي الهجرة لتامة عن رغبة في الله ورسوله .

الثالث : كونه عاش مجاهداً أما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فللكفار ، وأما في وقته عليه السلام فللبغاة والخوارج والناكثين .
وقوله : طوبى . إلى آخره .

في معرض مدح خَبَابٍ يشعر بأن خَبَاباً كان كذلك . وطوبى فعلى من الطيب . قيل في التفسير : هي شجرة في الجنة . رغب بها في ذكر المعاد والحساب المستلزم للعمل لهما ولفضيلة لقناعة والرضا عن الله في قضائه وقدره . والقناعة فضيلة تحت العفة ، والرضا فضيلة تحت العدل .

٣٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هَذَا عَلَى أَنْ يُبَغِّضَنِي مَا أَبْغَضَنِي ، وَلَوْ ضَبَيْتُ الدُّنْيَا بِجِمَّاتِهَا عَلَى الْمُنَافِقِ عَلَى أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحَبَّنِي ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قُضِيَ فَأَنْقَضَى عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، أَنَّهُ قَالَ : « يَا عَلِيُّ ! لَا يُبَغِّضُكَ مُؤْمِنٌ وَلَا يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ » .

الخيشوم : أصل الأنف . والجِمَّات : جمع جمّة وهو مجتمع الماء من

الأرض . ولما كان الإيمان الحق يوجب الاتحاد وصدق المحبة في الله بين المؤمنين لا جرم لم يجتمع معها البغض . ولما كان النفاق منافياً للإيمان كان منافياً لما يلزمه من المحبة في الله فلا يجتمع معه ولو ببذل أجزل مال للمنافق . واستعار لفظ الجَمَّات لمجامع أموال الدنيا ملاحظة لمشابهته المعقولة ، نعم قد يحصل بسبب ذلك محبة عرضية فانية بفناء مادتها من بذل المال ونحوه وليس الكلام في ذلك النوع من المحبة . وذلك سر قوله عليه السلام : لا يبغضك . إلى آخره . وأحال عليه السلام ذلك على ما قضي فانقضى أي قدر على لسان النبي صلى الله عليه وسلم .

٣٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : سَيِّئَةٌ تَسُوُّكَ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ .

أراد بالسيئة التي تسوؤه كذنب يصدر عنه فيندم عليه ويحزن لفعله ، وبالحسنة التي تعجبه كصلة أو صدقة يحصل بها إعجاب . فأما أن تلك السيئة خير عند الله من هذه الحسنة فلأن الندم المعقب للسيئة ماحٍ لها ولحسنة المستعقبة للعجب مع إحباطها به يكون لها أثر هو سيئة ورذيلة تسود لوح النفس فكانت السيئة أهون فكانت خيراً عند الله .

٤٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : قَدَّرُ الرَّجُلُ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرْوَعِيَّتِهِ ، وَشَجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ انْفَتِهِ ، وَعِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ .
أشار إلى أمور أربعة وجعلها مبادئ لأمر أربعة :

أحدها : الهمة وجعلها مبدءاً لقدر الرجل . وقدره هو مقداره في اعتبار الناس من رفعة رتبة وتبجيل أو حسة واحتقار وهو من لوازم علو همته أو دناءتها . فعلو الهمة هو أن لا يقتصر على بلوغ غاية من الأمور التي يزداد بها فضيلة وشرفاً حتى يسمو إلى ما وراءها مما هو أعظم قدراً وأجل خطراً ويلزم ذلك نبهه وتعظيمه ومدحه ، وصغرهما أن يقتصر على محقرات الأمور وخسائسها ويقصر عن علياتها وبحسب ذلك يكون صغر خطره وقلة قدره .

الثانية : جعل مبدأ الصدق المروءة . والمروءة فضيلة يتعاطى معها

الإنسان الأفعال الجميلة واجتناب ما يعود إليه بالنقص وإن كان مباحاً فلذلك يلزمه الصدق في مقاله، وبقدر قوة هذه الفضيلة وضعفها يكون قوة لازمها وضعفها .

الثالثة : جعل الأنفة مبدءاً للشجاعة . والأنفة حمية الأنف وثوران الغضب لما يتخيل من مكروه يعرض استنكاراً له واستنكافاً من وقوعه . وظاهر كونه مبدءاً للشجاعة والإقدام على الأمور وبحسبها تكون قوة الإقدام وضعفه .

الرابعة : جعل الغيرة مبدءاً للعفة . والغيرة نفرة طبيعية تكون من الإنسان عن تخيل مشاركة الغير في أمر محبوب له أو معتقد لوجوب حفظه . وبحسب شدة ذلك الاعتقاد والتخيل وضعفهما وتصور وقوع مثل ذلك الفعل في نفسه أو حريمه ومثلاً يكون امتناعه عن مشاركة الغير وقوفه عن اتباع الشهوة في مشاركة الناس في الأمور المحبوبة لهم كزوجة ونحوها . وهو معنى العفة .

٤١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الظُّفَرُ بِالْحَزْمِ ، وَالْحَزْمُ بِإِجَالَةِ الرَّأْيِ ، وَالرَّأْيُ بِتَحْصِينِ الْأَسْرَارِ .

الحزم أن يقدم العمل في الحوادث الواقعة في باب الإمكان قبل وقوعها بما هو أقرب إلى السلامة وأبعد من الغرور . وإجالة الرأي : إعماله . وتحصين الأسرار : كتمانها وحفظها . وأشار إلى المبدأ القريب للظفر وهو الحزم وإلى البعيد منها وهو كتمان السر وإلى الوسط منها وهو إجالة الرأي . فأما سببية كتمان السر للرأي الصحيح فلأن إظهار السر فيما يرى من الرأي في الحرب وغيرها يستلزم ظهور العدو على ذلك ولعمل فيما يعارضه ويفسده وذلك من فاسد الرأي ، وأما سببية إجالة الرأي في اختيار المصلحة للحزم فلأنه لولاه لجاز أن يكون العمل المتقدم في الحوادث المستقبلية غير موافق فلا يحصل الحزم ، وأما أن الحزم سبب للظفر فظاهر .

٤٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِحْذَرُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ ، وَاللَّيْمِ إِذَا

شَبِعَ .

أراد بالكریم شریف النفس ذا الهمة العلیة . وجوعه كناية عن شدة حاجته وذلك مستلزم لثوران حمیته وغضبه عند عدم التفات الناس إليه ، وحمل نفسه على المبالغة في طلب أمر كبير یصول علیهم به ویتسلط بواسطته على قهرهم ومكافأهم كالولاية علیهم ونحوها فلذلك أوجب الحذر منه والاحتراز من صولته بالالتفات إليه في حاجته وأوقات ضرورته بما يدفعها . وشبع اللثیم كناية عن غنه وعدم حاجته . وذلك یستلزم استمراره على مقتضى طباعه من اللؤم . وشبعه مؤكد لذلك ، وأما جوعه فربما كان سبباً لتغیر أخلاقه وتجويدها لغرض . واستمرار ذي الشبع من اللثام على مقتضى طباعه من اللؤم مستلزم لأذى من كان تحت يده ومن یحتج إليه من الناس فمن الواجب إذن أن یحذر صولته ویحسم أسباب شبعه عند التمكن من ذلك .

٤٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : قُلُوبُ الرِّجَالِ وَخَشِيَّةٌ فَمَنْ تَأَلَّفَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ .

جعل عليه السلام الوحشة هنا أصليّة وذلك باعتبار كون الألفة مكتسبة . والوحشة عدم لألفة عما من شأنه أن يألف . والمعنى ظاهر .

٤٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : عَيْبُكَ مَسْتُورٌ مَا سَعَدَكَ جَدُّكَ .

سعادة الجد عبارة عن حسن البخت وتوافق أسباب لمصلحة في حق الإنسان ومن مصالحه ستر العيوب والردائل وبحسب دوام ذلك يدوم سترهما

٤٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أُولَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ .

لما كانت فضيلة العفو إنما تطلق في العرف على من قدر على العقوبة ولم يعاقب وكان العفو والقدرة مقولين بالأشد والأضعف لا جرم كانت أولوية العفو تابعة لأولوية القدرة وأشدّيتها : أي من كان أشد قدرة على العقوبة وعدمه كان أولى بأن يسمى عفواً .

٤٦ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : السَّخَاءُ مَا كَانَ آيْتِدَاءً ، فَأَمَّا مَا كَانَ عَنْ

مَسْأَلَةٌ فَحَيَاءٌ وَتَذَمُّمٌ .

التذمُّم : الاستنكاف . والسخاء : عبارة عن ملكة بذل المال لمن يستحقه بقدر ما ينبغي ابتداءً عن طيب نفس وحسن المواساة لذوي الحاجة منه ، وبهذا الرسم يتبين أن ما كان من البذل عن مسألة فخارج عن رسم السخاء . وذكر له سببين :

أحدهما : الحياء من السائل أو من الناس فيتكلف البذل لذلك .
الثاني : الاستنكاف مما يصدر من السائل من لجاج أو مسبة بالبخل ونحوه .

٤٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

أربع كلمات :

لَا غِنَى كَالْعَقْلِ ، وَلَا فَقْرٌ كَالْجَهْلِ ، وَلَا مِيرَاثٌ كَالْأَدَبِ ، وَلَا ظَهِيرٌ كَالْمُشَاوَرَةِ .

إحديها : لا غنى كالعقل . لما سبق أنه أغنى الغنى وأنه لا يكون غنى مثله .

الثانية : ولا فقر كالجهل . وذلك لم مر أن أكبر الفقر الحمق ، والمراد بالجهل هنا ما يقابل العقل بالملكة وهو الحمق أو ما يلزمه .

الثالثة : ولا ميراث كالأدب . الأدب هو التحلي بمكارم الأخلاق وهو أفضل من كل موروث من مال وقنية .

الرابعة : ولا ظهير كالمشورة . تنتج في غالب الأحوال الرأي الصحيح فيما يراد من الأمور ، والرأي الصحيح أنفع في التدبير من القوة وكثرة العدد كما قال أبو الطيب : الرأي قبل شجاعة الشجعان . البيت . لا جرم لم يكن للمشاورة التي هي مظنة ما يساويها في المعونة على المنفعة من الأمور التي يستظهر بها ويستعان .

٤٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الصَّبْرُ صَبْرَانِ : صَبْرٌ عَلَى مَا تَكْرَهُ ، وَصَبْرٌ

عَمَّا تُحِبُّ .

التعدد في الصبر هنا تعدد وصفي لأن حقيقته في الموضعين واحدة على ما عرفت حقيقته .

٤٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْغِنَى فِي الْغُرْبَةِ وَطَنٌ ، وَالْفَقْرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ .

استعار لفظ الوطن للغنى في الغربة باعتبار أنه يسكن إليه ويؤنس فلا يرى أثر الغربة على الإنسان معه ، واستعار لفظ الغربة للفقير في الوطن باعتبار ضيق الخلق معهما وتعسر الأمور فيهما .

٥٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْقَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْقُذُ .

القناعة هي ضبط قوة النفس عن الاشتغال بما يخرج عن مقدار الكفاية ومبلغ الحاجة من المعاش والأقوات وعدم ما يشاهد من ذلك عند الغير ، واستعار لها لفظ المال بوصف عدم النفاذ باعتبار دوام الغنى معها كالمال الموصوف .

٥١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَلْمَالُ مَادَّةُ الشَّهَوَاتِ .

أي منه يكون استمدادها وزيادتها ، والمادة هي الزيادة . وفي الكلمة تنفير عن الاستكثار من المال لما يلزمه من إمداد الشهوة وتقويتها على معصية العقل .

٥٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ حَذَرَكَ كَمَنْ بَشَّرَكَ .

أراد من حذرك من الأمر كمن بشرك بالنجاة منه ، ووجه الشبه ظاهر . وهو ترغيب في الإقبال على المحذر واستماع تحذيره لغرض النجاة بتشبيهه بالمبشر .

٥٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَلَلِّسَانُ سَبْعٌ إِنْ خُلِيَ عَنْهُ عَقَرٌ .

استعار لفظ السبع للسان باعتبار أنه إن ترك عن ضبط العقل له نطق بما فيه هلاك صاحبه كالسبع إذا لم يحفظ .

٥٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْمَرْأَةُ عَقْرَبٌ حُلُوَّةُ اللَّبْسَةِ .

اللبسة للعقرب : لسعها . واستعار للمرأة لفظ العقرب بالوصف المذكور باعتبار أن من شأنها الأذى لكن أذاها مشوب بما فيها من اللذة بها فلا يحس به وهو كأذى الجرب لمشوب بلذته في زيادة حكته .

٥٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَسْفِيعُ جَنَاحِ الطَّالِبِ .

استعار له لفظ الجناح باعتبار كونه وسيلة له إلى مطلوبه كجناح الطائر .

٥٦ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَهْلُ الدُّنْيَا كَرَكِبٍ يُسَرُّ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ .

ووجه لشبه قوله : يسار بهم وهم نيام . وذلك أن الدنياء لأهلها طريق هم فيها سائرون إلى الآخرة حال ما هم في غفلة عن غايتهم والعمل لها حتى يوافوها . فأشبهوا الركب الذين يسيرون وهم نيام حتى يوافوا منزلهم .

٥٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : فَقَدْ الْأَجَبَةُ غُرْبَةً .

استعار لفظ الغربة لفقد الأحبة باعتبار ما يلزمهما من الوحشة وعدم الأنس .

٥٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : فَوْتُ الْحَاجَةِ أَهْوَنُ مِنْ طَلِبِهَا إِلَى غَيْرِ

أَهْلِهَا .

فغير أهلها هم اللثام ومحدثو النعمة وساقطو الأصوات ، وإنما كنت أهون لأن فوتها يستلزم غماً واحداً وأما طلبها إلى غير أهلها فإنها لا تحصل غالباً فيستلزم غمّ فوتها ثم ثقل الاستنكاف والندم من رفعها إليهم ثم غمّ ذلّ الحاجة إلى اللثام وله ألم عظيم كما قال : الموت أحلى من سؤال النثم . ثم غمّ ردهم لها . وهي غموم أربعة . وكذلك إن قضيت كان فيها غمّ ثقل الاستنكاف ثم ذلّ الحاجة إليهم فكان فوتها أهون على كل حال . وهذه الكلمة تجذب إلى فضيلتي لقناعة وعلو الهمة .

٥٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا تَسْتَحِ مِنْ إِعْطَاءِ الْقَلِيلِ ؛ فَإِنَّ الْجِرْمَانَ

أَقْلُ مِنْهُ .

أراد بقوله : أقل منه : أي أحقر في الاعتبار وذلك أن الحرمان هو عدم العطاء عما من شأنه أن يعطى وليس ذلك العدد من باب الكم ليلحقه القلة والكثرة . ونفر عن الحياء من إعطاء القليل بضمير صغراه قوله : فإن الحرمان أقل منه . وتقدير كبراه : وكلما كان الحرمان أقل منه فينبغي أن لا يستحي منه بل من الحرمان الذي هو أقل منه .

٦٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَلْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ .

العفاف : العفة . وقد علمت أنها فضيلة القوة الشهوية . والفقر إذا ضبط شهوته بزمام عقله من ميولها الطبيعية كملت نفسه بفضيلة العفة وزان فقره بفضيلته . في أعين المعبرين وإذا أهملها وأسلس قيادها تقحمت به في موارد القبح وقادته إلى الهلع والحرص والحسد والمنى والكدية وحصل بسببها في أقبح صورة .

٦١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِذَا لَمْ يَكُنْ مَا تُرِيدُ فَلَا تُبَلِّ مَا كُنْتَ .

أي إذا فاتك مرادك من الأمر فلا تبلى بأي حال كنت عليه في ذلك الأمر . ومفهوم هذه الكلمة النهي عن الاهتمام والأسف على ما لم يقع من الأمور المطلوبة وذلك أن الأسف على فوات المراد يستلزم غماً وألماً وهو مضرة عاجلة لا يثمر فائدة فارتكابه سفه .

٦٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا تَرَى الْجَاهِلَ إِلَّا مُفْرِطاً أَوْ مُفَرِّطاً .

الجهل إما بسيط وهو طرف التفريط من فضيلة ويسمى غباوة وإما مركب وهو طرف الإفراط منها وذلك أن الجاهل جهلاً مركباً قد بالغ في طلب الحق وحصل من اجتهاده على شبهة غطت عين بصيرته من إدراكه مع جزمه بأنها برهان أصاب به الحق ، وقد يسمى هذا الطرف جريزة فكان أبدأ على أحد الوجهين . وبحسب جهله يكون حاله في أفعاله وأقواله على أحد طرفي الإفراط والتفريط .

٦٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِذَا تَمَّ الْعَقْلُ نَقَصَ الْكَلَامُ .

تمام العقل يستلزم كمال قوته على ضبط القوى البدنية وتصريفها

بمقتضى الآراء المحموده الصالحة ، ووزن ما يبرز إلى الوجود الخارجي عنها من الأقوال والأفعال بميزان الاعتبار وفي ذلك من الكلفة والشرائط ما يستلزم نقصان الكلام بخلاف ما لا يوزن ولا يعتبر من الأقوال .

٦٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَلَدَّمَرُ يُخْلِقُ الْأَبْدَانَ ، وَيَجِدُّ أَلَمَالَ ، وَيَقْرُبُ أَلْمَنِيَّةَ ، وَيُبَاعِدُ أَلْأَمْنِيَّةَ ، مَنْ ظَفَرَ بِهِ نَصَبٌ ، وَمَنْ فَاتَهُ تَعَبٌ .

إخلاقه للأبدان إعداده لضعفها وفساده بمروره وما يلحق أجزاءه وفصوله من الحر والبرد والمتاعب المنسوبة إليه ، وتجديده للأمال بحسب الغرور الحاصل بالبقاء والصحة فيه وأكثر ما يعرض ذلك لمشايخ فإن طول أعمارهم وتجاربهم لم يعرض فيه من الحاجة والفقر يغريهم بالحرص على الجمع ومدّ الأمل فيه لتحصيل الدنيا ، وتقريبه للمنية بحسب أخلاقه للأبدان ، وتبعيده للأمنية بحسب تقريبه للمنية ، ومن ظفر به : أي بمواناته وإعداده لما يراد فيه من متاع الدنيا نصب بها وشقي بضبطها وحفظها ، ومن فاته ذلك منه تعب في تحصيلها وشقي بعدمها . وراعى الله في القرينتين الأوليين السجع المتوازن وفي المتوسطتين السجع المطرف ، وفي الأخيرتين السجع المتوازي .

٦٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ ، وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا ، أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ .

أشار إلى آداب أئمة العلم ومكارم الأخلاق :

فالأول : وجب على لإمام البدأ بتعليم نفسه : أي برياضتها بما يعلم من الآداب ليكون أفعاله وقوائمه موافقة لعلمه وذلك لأن الناس أقرب إلى الاقتداء بما يشاهد من الأفعال والأحوال منهم بالأقوال فقط خصوصاً مع مشاهدتهم لمخالفتها بالأفعال فإن ذلك يكون سبباً لسوء الاعتقاد في الأقوال المخالفة للفعل والجرأة على مخالفة ما اشتهر منها ، وإن كان ظاهر الصدق : وإلى مثل ذلك أشار القائل :

لاتنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

الثاني : أرشده إلى البدأة في التعليم بالسيرة وحميدة الأفعال لما بيننا أن الطباع لمشاهدة الأفعال أطوع وأسرع انفعلاً منها للأقوال ثم يطابقها بعد ذلك بالأقوال . ثم رغب في تأديب النفس بكون مؤدب نفسه أحق بالتعظيم والإجلال من مؤدب غيره وذلك لكمال مؤدب نفسه بالفضيلة وكون تأديب الغير فرعاً على تأديب النفس والأصل أشرف وأحق بالتعظيم من الفرع وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان بالإجلال أحق وجب عليه أن يبدأ بما لأجله كان أحق بالتعظيم من غيره .

٦٦ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : نَفْسُ الْمَرْءِ خُطَاةٌ إِلَى جَلِيلِهِ .

استعار للنفس لفظ الخطا باعتبار أنه على التعاقب والتقضي فهو مقرب من الغاية التي هي الأجل كالخطا المتعاقبة الموصلة للإنسان إلى غايته من طريقه .

٦٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : كُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ .

والكليتان من المشهورات الخطابية في معرض الموعظة ، والأولى إشارة إلى أنفاس العباد وحركاتهم . والثانية تخويف بما يتوقع من الموت وتوابعه .

٦٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا أَشْتَبَهَتْ أَعْتَبِرَ أَخْرُهَا بِأَوَّلِهَا .

أي إذا التبست في مبادئها معرفة وجه تحصيلها وتعرس الدخول فيها قيس على ذلك آخرها واستدل على أنه كذلك في العسر فيجب التوقف عنها وعدم التعسف فيها .

٦٩ - وَمِنْ خَبَرِ ضَرَّارِ بْنِ حَمْزَةَ الضُّبَّائِيِّ عِنْدَ دُخُولِهِ عَلَى مُعَاوِيَةَ ، وَمَسْأَلَتِهِ لَهُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : فَأَشْهَدُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ وَقَدْ أَرْخَى اللَّيْلُ سُدُونَهُ ، وَهُوَ قَائِمٌ فِي مُحَرَّابِهِ ، قَابِضٌ عَلَى لِحْيَتِهِ ، يَتَمَلَّمُ تَمَلُّمَ السَّلِيمِ ، وَيَبْكِي بُكَاءَ الْحَزِينِ ، وَيَقُولُ :

يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا ، إِلَيْكَ عَنِّي ، أَبِي تَعَرَّضْتَ ؟ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتَ ؟ لَا حَانَ
حَيْنُكَ هَيْهَاتَ أَغْرَى غَيْرِي ، لَا حَاجَةَ لِي فِيكَ ، قَدْ طَلَّقْتُكَ ثَلَاثًا لَا رَجْعَةَ
فِيهَا ، فَعَيْشُكَ قَصِيرٌ ، وَخَطَرُكَ يَسِيرٌ ، وَأَمْلُكَ حَقِيرٌ ، آه مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ ،
وَطُولِ الطَّرِيقِ ، وَبُعْدِ السَّفَرِ ، وَعَظِيمِ الْمَوْرِدِ .

أقول : كان هذا الرجل من أصحابه عليه السلام فدخل على معاوية بعد موته
فقال : صف لي علياً فقال : أو تعفيني عن ذلك . فقال : والله لتفعلن .
فتكلم بهذا الفصل . فبكى معاوية حتى اخضلت لحيته . والضباء بطن من
فهر بن مالك بن النضر بن كنانة . والسدول : جمع سدل وهو ما أسيل على
الهودج . والتملل : التقلقل من الألم والهم . والسليم : الملسوع .
والوله : أشد الحزن . وقد نظر عليه السلام إلى الدنيا بصورة امرأة تزينت وتعرضت
لوصوله إليها مع كونها مكروهة إليه . فخاطبها بهذا الخطاب . وإليك : من
أسماء الأفعال : أي تنحي . وعني متعلق بما فيه من معنى الفعل .
وستفهامه عن تعرضها به وتشوقها إليه استفهام استنكار لذلك منها واستحقار
لها واستبعاد لموافقتها إياها على ما تريد ولا حان حينك : أي لا قرب وقتك :
أي وقت نخداعي لك وغرورك لي . وقوله : هيهات : أي بعد ما تطلين
مني . ثم أمرها بغرور غيره وهو كناية عن أنه لا طمع لها في ذلك منه لا أنه
أراد منها غرور غيره وهذا كمن يقول لمن يخدعه وقد اطلع على ذلك منه :
اخدع غيري : أي أن خداعك لا يدخل علي . ثم خاطبها خطاب الزوجة
المكرهة منافراً لها فأخبرها بعدم حاجته إليها .

ثم أنشأ طلاقها ثلاثاً لتحصل البينة بها مؤكداً لذلك بقوله : لا رجعة
فيها . وهو كناية عن غاية كراهيتها ، وأكد طلاقها لميله عليه السلام إلى ضررتها التي
هي مظنة الحسن والبهاء . ثم أشار إلى المعائب التي لأجلها كرهها وطلقها
وهي قصر العيش : أي مدة الحياة فيها ، ويسير الخطر : أي قلة قدرها
ومحلها في نظره ، ثم حقرة ما يؤمل منها . ثم تأوّه من أمور :

أحدها : قلة الزاد في السفر إلى الله تعالى ، وقد عمت أنه التقوى

والأعمال الصالحة . وهكذا شأن العارفين في استحقاق أعمالهم .

الثاني : طول الطريق إلى الله ولا شيء في الاعتبار أطول مما لا يتناهى .

الثالث : بعد السفر ، وذلك لبعد غايته وعدم تناهيها .

الرابع : عظم المورد وأول منازل الموت ، ثم البرزخ ، ثم القيامة الكبرى . والله المستعان . وروي : وخشونة المضجع وهو القبر .

٧٠ - وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لِلسَّائِلِ الشَّامِي لَمَّا سَأَلَهُ : « أَكَانَ مَسِيرُنَا إِلَى الشَّامِ بِقَضَاءٍ مِنَ اللَّهِ وَقَدَرٍ ؟ » بَعْدَ كَلَامٍ طَوِيلٍ هَذَا مُخْتَارُهُ :
وَيُحَكِّكَ ! لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءً لَازِمًا ، وَقَدَرًا حَاتِمًا ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لَبَطَلَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ ، وَسَقَطَ الرَّعْدُ وَالْوَعِيدُ ، إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ عِبَادَهُ تَخْيِيرًا ، وَنَهَاهُمْ تَحْذِيرًا ، وَكَلَّفَ يَسِيرًا وَلَمْ يُكَلِّفْ عَسِيرًا ، وَأَعْطَى عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيرًا . وَلَمْ يُعْصَ مَغْلُوبًا ، وَلَمْ يُطْعَ مُكْرَهًا ، وَلَمْ يُرْسَلِ الْأَنْبِيَاءُ لَعِبًا ، وَلَمْ يُنْزَلِ الْكُتُبُ لِلْعِبَادِ عَبَثًا ، وَلَا خُلِقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ .

أقول : روي أن السائل لما قال له عليه السلام : أخبرنا عن سيرنا إلى الشام أكان بقضاء الله وقدره ؟ قال : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما وطينا موطنك ولا هبطنا وادياً إلا بقضاء وقدر . فقال السائل : عند الله أحسب : أي ما أرى لي من الأجر شيئاً . فقال : مه أيها الشيخ لقد أعظم الله أجركم في مسيركم وأنتم سائرون وفي منصرفكم وأنتم منصرفون ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين وإليها مضطرين . فقال الشيخ : وكيف والقضاء والقدر ساقانا ؟ فقال : ويحك . الفصل . إلا أن بعد قوله : والوعيد قوله : والأمر ولنهي ولم تأت لائمة من الله لمذنب ولا محمداً لمحسن تلك مقالة عبدة الأوثان وجنود الشياطين وشهود الزور وأهل العمى عن الصواب وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها لأن الله تعالى أمر عباده تخييراً إلى آخره . فقال الشيخ :

فما القضاء والقدر اللذين ما سرنا إلّا بهما ؟ فقال : هو الأمر من الله تعالى والحكم . ثم قرأ ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلّا إياه ﴾ ^(١) فنهض الشيخ مسروراً وهو يقول :

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته يوم النشور من الرحمن رضوانا
أوضحت من ديننا ما كن ملتبساً جزاك ربك عنافيه إحسانا

والويح : كلمة ترحم . والحاتم : الواجب . وتقرير سؤال السائل : إن كان مسيرنا بقضاء من الله وبقدر لم يكن لنا في تعبنا ثواب وذلك أن القضاء قد يراد به في اللغة الخلق وما خلقه الله تعالى في العبد فلا اختيار له فيه وم لا اختيار له فلا ثواب له فيما فعله .

وقوله : ويحك . إلى قوله : الوعيد .

بيان لمنشأ وهمه وهو ما لعله يظنه من تفسير القضاء والقدر بمعنى العلم الملزم والإيجاد الواجب على وفقه .
وقوله : إن الله سبحانه أمر عباده تخييراً .

إشارة إلى تفسير القضاء بالأمر كما صرح به في جواب السائل عن معناه مستشهداً في تفسيره بالأمر والحكم بقوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ﴾ الآية . ومعلوم أن أمر الله ونهيه لا ينافي اختيار العبد في فعله . وهذا الجواب إقناعي بحسب فهم السائل . وربما فسر القضاء بأنه عبارة عن إبداع الأول تعالى لجميع صور الموجودات الكلية والجزئية التي لا نهاية لها من حيث هي معقولة في العالم العقلي ثم لم كان إيجاد ما يتعلق منها بالمادة في مادته وإخراج ما فيها من قبول تلك الصور من القوة إلى الفعل واحداً بعد واحد كان القدر عبارة عن الإيجاد لتلك الأمور وتفصيلها واحداً بعد واحد كما قال تعالى : ﴿ وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزله إلّا بقدر معلوم ﴾ ^(١) .

(١) ٢ - ١٨١ .

(١) ١٥ - ٢١ .

واعلم أنه على هذا التفسير يمكن تقرير الجواب عن السؤال المذكور أيضاً وذلك أن القضاء بالمعنى المذكور لا ينافي اختيار العبد وحسن تكليفه وثوابه وعقابه لأن معنى الاختيار هو علم العبد بأن له قوة صالحة للفعل والترك الممكنين مهيئة لهما إذا انضم إليها الميل إلى الفعل المسمى بإرادة فعل أو النفرة المسمى كراهة ترك وذلك أمر لا ينافي في علم الله تعالى بما يقع أو لا يقع من الطرفين وإن حصل عنه وجوب فهو خارج عرضي .

ثم إن التكليف لم يرد على حسب ما في علم الله تعالى بل له مبدآن :

أحدهما : فاعلي وهو حكمته تعالى أعني إيجاده الموجودات على أحكم وجه وأتقنه ، وسوق ما هو ناقص منها من مبدئها إلى كمالها سوقاً ملائماً لها .

والثاني : قابلي وهو كون العبد بالصفة المذكورة من الاختيار ، ولذلك ذكر من لوازم الاختيار والتكليف المقصود من الحكمة لغايته أموراً عشرة :

أحدها : أمره لعباده تخييراً . وتخييراً مصدر سدّ مسدّد الحال .

الثاني : نهيم تحذيراً . وتحذيراً مفعول له .

الثالث : تكليفهم اليسير ليسهل عليهم العمل فيرغبوا فيه .

الرابع : عدم تكليفهم العسير لغرض أن يكونوا بحال الاختيار فلا يخرجون بالعسير إلى التكليف بما لا يطاق كما أشار إليه تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾^(١) .

الخامس : من إعطائه على القليل كثيراً في العمل . وذلك من لوازم اختيارهم أيضاً .

السادس : أنه تعالى لم يعص حال كونه مغلوباً عنهم . إذ هو القاهر فوق عباده . بل لأنه خلّى بينهم وبين أفعالهم وهيأهم لها وذلك من لوازم

اختيارهم .

السابع : أنه لم يطع مكرهاً أي لم يكن طاعة مطيعهم له عن إكراه منه تعالى له عيها وذلك من لوازم اختيارهم .

الثامن : ولم يرسل الأنبياء لعباً بل ليكونوا مبشرين ومنذرين لمن أطاع بالجنة ولمن عصى بالنار وذلك من لوازم الاختيار .

التاسع : ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً بل ليعرفوا منه وجوه تكليفهم وأحكام أفعالهم التي مرو أن يكونوا عليها وبيان حدود الله التي أمرهم بالوقوف عندها وكل ذلك من لوازم اختيارهم .

العاشر : ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً بل على وجوه من الحكمة . منها : أن يحصل لعباده بما وهب لهم من الفكر في آياتها اعتبر فيتنبهوا من ذلك للطيف حكمته ويستدلوا على كمال عظمته كما قال تعالى : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبصار ﴾ ^(١) الآيات ، ونقر عن اعتقاد غير ذلك ﴿ بأنه ظن الذين كفروا ﴾ والآية اقتباس .

٧١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : خُذِ الْحِكْمَةَ أَتَى كَانَتْ ، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ الْمُنَافِقِ فَتَلْجُلُجُ فِي صَدْرِهِ حَتَّى تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَى صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ .

مر بتعلم الحكمة أين وجدت ولو من المنافقين ورغب من عساه ينفر من أخذها من بعض الموضع أن يأخذها من كل موضع وجدها بضمير صغراه قوله : فإن الحكمة . إلى آخره ، وكنت بتلجلجها أو اختلاجها على الروايتين عن اضطرابها وعدم ثباتها في صدر المنافق وكونه ليس مظنة لها غير مستقرة فيه إلى أن تخرج إلى مظنتها وهي صدر لمؤمن فيسكن إلى صواحِبها من الحكم فيه . وتقدير كبراه : وكل ما كان كذلك فيجب على المؤمن أخذه إلى مظنته وإخراجه من غير مظنته .

٧٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ ، فَخُذِ الْحِكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ .

استعار الضالة للحكمة بالنسبة إلى المؤمن باعتبار أنها مطلوبه الذي يبحث عنه وينشده كما ينشد الضالة صاحبها .

٧٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : قِيَمَةُ كُلِّ أَمْرٍ مَا يُحْسِنُهُ .

غرض هذه الكلمة الترغيب في أعلى ما يكتسب من الكمالات النفسانية والصناعات ونحوها . وقيمة المرء مقداره في اعتبار المعترين ومحلّه في نفوسهم من استحقاق تعظيم وتبجيل أو احتقار وانتقاص . وظاهر أن ذلك تابع لما يحسنه المرء ويكتسبه من الكمالات المذكورة فأعلاهم قيمة وأرفعهم منزلة في نفوس الناس أعظمهم كمالاً ، وأنقصهم درجة أخسهم فيما هو عليه من حرفة أو صناعة وذلك بحسب اعتبار عقول الناس للكمالات ولوازمها .

٧٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَوْصِيَكُمْ بِخَمْسٍ لَوْ ضَرَبْتُمْ إِلَيْهَا آبَاطَ الْإِبِلِ لَكَانَتْ لِدَيْكَ أَهْلًا : لَا يَرْجُونَ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا رَبَّهُ ، وَلَا يَخَافُونَ إِلَّا ذَنْبَهُ ، وَلَا يَسْتَحِينُ أَحَدٌ إِذَا سُئِلَ عَمَّا لَا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ « لَا أَعْلَمُ » ، وَلَا يَسْتَحِينُ أَحَدٌ إِذَا لَمْ يَعْلَمْ الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ ، وَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ، وَلَا خَيْرَ فِي جَسَدٍ لَا رَأْسَ مَعَهُ ، وَلَا فِي إِيمَانٍ لَا صَبْرَ مَعَهُ .

كنى بضرب آباط الإبل عن الرحلة في طلبها وذلك أن الراكب للجمل يضرب إبطيه بكعبيه .

فإحدى الخمس : الرجاء لله دون غيره . ومن لوازم ذلك إخلاص العمل له ودوام طاعته .

الثانية : أن يخاف ذنبه دون غيره . وذلك أن أعظم مخوف هو عقاب الله ، ولما كان إنما يحق العبد بواسطة ذنبه فبالأولى أن يجعل الخوف من الذنب دون غيره . وهو جذب إلى الهرب عنه بذكر الخوف منه .

الثالثة : عدم استحياء من لا يعلم الشيء من قول لا أعلم . فإن الاستحياء من ذلك القول يستلزم القول بغير علم وهو ضلال وجهل يستلزم إضلال الغير وتجهيله وفيه هلاك الآخرة . قال عليه السلام : من أفتى بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض . وقد يكون سبباً للهلاك الدنيوي أيضاً .

الرابعة : عدم استحياء من لا يعلم الشيء من تعلمه . لما في استحياء الجاهل عن التعلم من بقاءه على جهله ونقصانه وهلاك آخرته .

الخامسة : فضيلة الصبر . وأمر باقتنائها لأن كل الفضائل لا يخلو عنها وأقل ذلك الصبر على اكتسابها ثم على البقاء عليها وعن الخروج عنها ولذلك شبهها من الإيمان بالرأس من الجسد في عدم قيامه بدونه . ثم أكد التشبيه والمناسبة بينهما بقوله : لا خير في جسد . إلى آخره .

وقوله : فإن الصبر . صغرى ضمير رغب به فيه ، وتقدير كبراه : وكلما كان كذلك فواجب اقتناؤه وأخذه .

٨٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَجُلٍ أَفْرَطَ فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَكَانَ لَهُ مُتَّهِمًا : أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ ، وَفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ .

فقوله : أنا دون ما تقول : جواب إفراطه في المدح .

وقوله : وفوق ما في نفسك .

جواب لما في نفسه مما يتهمه به من عدم فضيلته .

٧٦ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : بَقِيَّةُ السَّيْفِ أَبْقَى عَدَدًا وَأَكْثَرُ وَلَدًا .

لا أرى ذلك إلا للعناية الإلهية ببقاء النوع وحفظه وإقامته وبإخلاف من قتل ممن بقي . والله أعلم .

٧٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ تَرَكَ قَوْلَ « لَا أَذْرِي » أَصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ .

ترك هذا القول كناية عن القول بغير علم . وصابة لمقاتل كناية عن الهلاك الحاصل بسبب القول بالجهل لم فيه من الضلال والإضلال وربما يكون بسببه هلاك الدنيا والآخرة .

٧٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : رَأَيْ الشَّيْخَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَلْدِ الْغُلَامِ وَرُؤْيٍ مِنْ مَشْهَدِ الْغُلَامِ .

جلده قوته وقد مر أن الرأي مقدم على القوة والشجاعة لأصالة منفعة . وإنما خصّ الرأي بالشيخ والجلد بالغلام لأن كلا منهما مظنة ما خصه به فإن الشيخوخة مظنة الرأي الصحيح لكثرة تجارب الشيخ وممارساته للأمور والغلام مظنة القوة والجلد ، وعلى الرواية الأخرى فمشهده حضوره والمعنى ظاهر .

٧٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : عَجِبْتُ لِمَنْ يَقْطُ وَتَعَهُ الْأَسْتِغْفَارُ .

القنوط : اليأس من الرحمة . ولما كان الاستغفار بإخلاص مبدءاً للرحمة بشهادة القرآن الكريم كما سيأتي كان القنوط معه محل التعجب .

٨٠ - وَحَكَى عَنْهُ أَبُو جَعْفَرٍ

مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْبَاقِرُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ :

كَانَ فِي الْأَرْضِ أَمَاتَانِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، وَقَدْ رُفِعَ أَحَدُهُمَا فَدُونَكُمْ الْآخَرُ فَتَمَسَّكُوا بِهِ . أَمَّا الْأَمَانُ الَّذِي رُفِعَ : فَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ . وَأَمَّا الْأَمَانُ الْبَاقِي فَالْأَسْتِغْفَارُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

قال الرضي : (وَهَذَا مِنْ مَحَاسِنِ الْأَسْتِخْرَاجِ وَلَطَائِفِ الْأَسْتِثْنَاءِ) .

كون وجود الرسول ﷺ بين الأمة ورجوعه إلى الله في رحمة أمته وكون الاستغفار بإخلاص معدين لنزول رحمة الله ورفع عذابه مما يشهد به البحث العقلي . وقد أكد ذلك بصادق الشاهد السمعي كما استخرجه عليه السلام .

٨١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ ، أَصْلَحَ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ أَصْلَحَ أَمْرَ آخِرَتِهِ ، أَصْلَحَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظُ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ .

فإصلاح ما بينه وبين الله بتقواه المستلزم لرضاه ، ولما كان من تقواه إصلاح قوتي الشهوة والغضب اللذين هما مبدءا الفساد بين الناس ، ولزوم العدل فيهما كان من لوازم ذلك الإصلاح إصلاح ما بينه وبين الناس .

وكذلك من لوازم إصلاح أمر الآخرة عدم مجاذبة الناس دنياهم والكف عن الشره فيما بأيديهم منها ، وذلك مع مسالمتهم ومعاملتهم بمكارم الأخلاق التي هي من إصلاح أمر الآخرة مستلزم انفعالهم وميلهم إلى من كان كذلك وإقبالهم عليه بالنفع والمعونة وكف الأذى وبحسب ذلك يكون صلاح دنياه ، ولأن الدنيا المطلوبة لمن أصلح أمر آخرته سهلة وهي مقدار حاجته على الاقتصاد وذلك أمر قد تكفلت العناية الإلهية بتهيئته وإصلاحه مدة الحياة الدنيا .

وأما لثلاثة فلأن واعظ النفس باعث على تقوى الله ولزوم العدل في قوتي الشهوة والغضب اللذين هما مبدءا الشر المستلزم للهلاك في الدارين وذلك مستلزم لحفظ الله فيهما .

٨٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : كُلُّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقْنَطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَلَمْ يُؤَيِّسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، وَلَمْ يُؤْمِنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ .

كنى بقوله : كل الفقيه عن تمامه : أي الفقيه الكامل في فقهه . وذلك أن من فقه وضع الكتاب العزيز علم أن غرضه الأول جذب لناس إلى الله في سبل مخصوصة بوجوه من الترغيب والترهيب والوعد والوعيد والبشارة والندارة وغيرها فمن ضرورته إذن أن لا يقنط الناس من رحمة الله بآيات وعيده ونذارته ولا يؤيسهم بذلك من روحه لما يلزم اليأس من إغراء العصاة بالمعصية ، واتباع الهوى الحاضر الذي لا يرجى من نهى النفس عنه ثمرة في الآخرة ولذلك قال تعالى : ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (١) وقال : ﴿ إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ (٢) ، وأن لا يؤمنهم من مكر

(١) ٣٩ - ٥٤ .

(٢) ١٢ - ٨٧ .

الله بالجزم بآيات وعده وبشارته لما يستلزم السكون إلى ذلك والاعتماد عليه من الانهماك في المعاصي واتباع الهوى ولذلك قال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٣) بل يكون تابعاً في وعظه وجذبه إلى الله مقاصد سنته ووضع شريعته .

٨٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَوْضَعُ الْعِلْمَ مَا وَقِفَ عَلَى اللِّسَانِ ، وَارْفَعَهُ مَا ظَهَرَ فِي الْجَوَارِحِ وَالْأَرْكَانِ .

كنى بالأول عن العلم الذي لا عمل معه وظهوره ووقوفه على اللسان فقط وهو أنقص درجات العلم وأراد بالثاني العلم المقرون بالعمل فإن الأعمال الصالحة لما كانت من ثمرات العلم بالله وما هو أهله كان العلم فيها ظاهراً على جوارح العبد وأركانه ظهور العلة في معلولها وذلك هو العلم المنتفع به في الآخرة .

٨٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ ، فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكَمِ .

النفوس قد يقع لها انصراف عن العلم الواحد وملال للنظر فيه بسبب مشابهة بعض أجزائه لبعض فإذا اطلعت النفس على بعضه قاست ما لم تعلم منه على ما علمت ولم يكن الباقي عندها من الغريب لتلتذ به وتدوم على النظر فيه ، ولما كان ذلك الملل والانصراف غير محمود لها أمر بطلب طرائف الحكمة لها . وأراد لطائفها وغرائبها المعجبة للنفس اللذيذة لها لتكون أبداً في اكتساب الحكمة والتذاذ في انتقالها من بعض غرائبها إلى بعض وأراد بالحكمة العملية وأقسامها أو أعم منها .

٨٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَلْفِتَةٍ » لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَةٍ ، وَلَكِنْ مَنْ اسْتَعَاذَ فَلَيْسَتْ بَعْدَ مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ . وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَخْتَبِرُهُم بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، لِيَتَبَيَّنَ

السَّاحِطَ لِرِزْقِهِ ، وَالرَّاضِيَ بِقِسْمِهِ ، وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَكِنْ لَتُظْهَرَ الْأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ ، لِأَنَّ بَعْضَهُمْ يُجِبُ الذُّكُورَ وَيَكْرَهُ الْإِنَاثَ ، وَبَعْضُهُمْ يُجِبُ تَثْمِيرَ الْمَالِ وَيَكْرَهُ أَنْثْلَامَ الْحَالِ .

قال الرضي : (وَهَذَا مِنْ غَرِيبٍ مَا سَمِعَ مِنْهُ فِي التَّفْسِيرِ) .

حاصل الكلام أن الفتنة أعم من الفتنة المستعاذ منها لصدقها على المال والبنين باعتبار ابتلاء الله تعالى عباده واختباره لهم بهما وهما غير مستعاذ منهما إذا راعى العبد فيهما أمر الله ولزم طاعته وأما الفتنة المستعاذ منها فهي التي يستلزم الوقوع فيها الضلال عن سبيل الله كالخروج في المال عن واجب العدل وصرفه في إمداد الشهوات واتباع الهوى .

٨٦ - وَسُئِلَ عَنِ الْخَيْرِ مَا هُوَ ؟

فَقَالَ : لَيْسَ الْخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مَالُكَ وَوَلَدُكَ ، وَلَكِنَّ الْخَيْرَ أَنْ يَكْثُرَ عِلْمُكَ ، وَأَنْ يَعْظُمَ حِلْمُكَ ، وَأَنْ تُبَاهِيَ النَّاسَ بِعِبَادَةِ رَبِّكَ ، فَإِنْ أَحْسَنْتَ حَمِدَتِ اللَّهُ ، وَإِنْ أَسَأْتَ اسْتَغْفَرَتْ اللَّهُ ، وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لِرَجُلَيْنِ : رَجُلٌ أَذْنَبَ ذُنُوبًا فَهُوَ يَتَذَكَّرُهَا بِالتَّوْبَةِ ، وَرَجُلٌ يُسَارِعُ فِي الْخَيْرَاتِ . وَلَا يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ التَّقْوَى ، وَكَيْفَ يَقِلُّ مَا يُتَقَبَّلُ .

أقول : الخير في العرف العامي هو كثرة المال والقينيات الدنيوية ، وفي عرف السالكين إلى الله هو السعادة الأخروية وما يكون وسيلة إليها من الكمالات النفسانية . وربما فسرهم قوم بما هو أعم من ذلك . وقد نفى ^{سبح} عن أن يكون الأول خيراً وذلك لفنائه ومفارقته ولما عساه أن يلحق بسببه من الشر في الآخرة وفسره بالثاني وعد فيه كمال القوى الإنسانية فكثرة العلم كمال القوى النظرية للنفس العاقلة ، وعظم الحلم من كمال القوة العملية وهو فضيلة القوة الغضبية ، ومباهاة الناس بعبادة ربه : أي المفاخرة بها بالكثرة والإخلاص وحمد الله على توفيقه للحسنة واستغفاره للسيئة وذلك من فضائل القوة الشهوية وكامل القوة العملية . ثم حصر خير الدنيا في أمرين ، وذلك أن الإنسان إما أن يشتغل بمحو السيئات وإعدامها ويتدارك فارتطبه فيعد

نفسه بذلك لاكتساب الحسنات أو يشتغل بإيجاد الحسنات فيها . ولا واسطة من الخير المكتسب بين هذين الأمرين . ثم حكم بعدم قلة العمل المقرون بتقوى الله منبهاً بذلك على أن تدارك الذنوب بمحوها والمصارعة في الخيرات مستلزم للتقوى ، وإنما كان غير قليل لأنه مقبول عند الله والمقبول عنده مستلزم لثوابه العظيم . وذلك ترغيب في الأمرين المذكورين .

٨٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِالْأَنْبِيَاءِ أَعْلَمُهُمْ بِمَا جَاءُوا بِهِ ، ثُمَّ تَلَا : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّ وَلِيَّ مُحَمَّدٍ مَنَ اطَّاعَ اللَّهَ ، وَإِنْ بَعُدَتْ لُحْمَتُهُ ، وَإِنْ عَدُوَّ مُحَمَّدٍ مَنَ عَصَى اللَّهَ وَإِنْ قَرُبَتْ قَرَابَتُهُ .

ولما كان الغرض من الأنبياء عليهم السلام جذب الخلق إلى الله طاعته فكل من كان أبلغ في الطاعة كان أشد موافقة لهم وأقرب إلى قلوبهم وأقوى نسبة إليهم . ولما لم يمكن طاعتهم إلا بالعلم بما جاءوا به كان أعلم الناس بذلك أقربهم إليهم وأولاهم بهم . وبرهان ذلك الآية المذكورة . وذكر حال الأنبياء ليعلم مراده الإجمالي ثم خصص الذكر بمحمد صلى الله عليه وسلم كما هو عادة الخطيب . والمراد بالولي هنا الأولى . وأشار إلى أن طاعة الله علة للأولوية بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ومعصيته علة لعداوته وإن بعدت قرابة المطيع أو قربت قرابة العاصي ليعلم أن الطاعة والمعصية علتان مستقلتان للأولوية بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والعداوة له فتحصل الرغبة في الطاعة والنفرة عن المعصية .

٨٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَقَدْ سَمِعَ رَجُلًا مِنَ الْخَرُورِيَّةِ يَتَهَجَّدُ وَيَقْرَأُ فَقَالَ : نَوْمٌ عَلَى يَقِينٍ خَيْرٌ مِنْ صَلَاةٍ فِي شَكٍّ .

والحرورية فرقة من الخوارج نسبوا إلى حروراء - بمد وبقصر - قرية بالنهر وان وكان أول اجتماعهم بها . والتهجد : السهر في العبادة . وإنما كان كذلك لأن نوم العالم على يقين منه بما ينبغي تيقنه وعلمه أيضاً مما ينبغي له ، وعبادة الجاهل على شك فيما ينبغي تيقنه من أصول العبادة مما لا ينبغي لما فيه من إتعاب البدن من غير فائدة . فكان الأول أولى وخيراً من الثاني . وأراد ما هم عليه من الشك في إمامة إمام الوقت الذي هو مبدأ تعليم

العبادات وكيفيةها ، والعلم به ركن من أركان الدين فإن الشك فيه يستلزم عدم الاستفادة منه ، والشك في كثير مما يحتاج إليه فيه كعلم التوحيد وأسرار العبادات وكيفية السلوك إلى الله تعالى بطاعته .

٨٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : **عَقِلُوا الْخَبَرَ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ لَا عَقْلَ رِوَايَةٍ ، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ ، وَرِعَاةَهُ قَلِيلٌ .**

عقل الرعاية : ضبطه بالفهم ورعاية العلم . وعقل الرواية : ضبط ألفاظها وسماعها دون تفهم المعنى . ورغب في ذلك بضمير صغراه قوله : فإن رواة العلم . إلى آخره . وتقديره كبراه : وكلما كان كذلك فينبغي أن يعقل عقل رعاية لتكثر رعايته .

٩٠ - وَسَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ . فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : **إِنْ قَوْلُنَا : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْمُلْكِ . وَقَوْلُنَا : ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْهَلَكِ .**
والكلمة بتفسيرها ظاهر .

٩١ - وَمَدَحَهُ قَوْمٌ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ : **اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي ، وَإِنَّا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْهُمْ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا خَيْرًا مِمَّا يَظُنُّونَ ، وَاعْفِرْ لَنَا مَا لَا يَعْلَمُونَ .**

هذا كسر لنفسه عليه السلام في مقابلة المدح الموجب للعجب . ثم سأل الله أن يعلي درجته في الخير فوق ما يظنونه فيه وأن يغفر له ما لا يعلمون من عيبه .

فإن قلت : إنه معصوم فكيف يصدر عنه عيب يطلب مغفرته ؟

قلت : قد بينا فيما سلف أن عيب مثله عليه السلام وما يسمى ذنباً في حقه إنما هو من باب ترك الأولى وليس هو من الذنوب المتعارفة التي عصم عنها .

٩٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : **لَا يَسْتَقِيمُ قَضَاءُ الْحَوَائِجِ إِلَّا بِثَلَاثٍ : بِاسْتِصْغَارِهَا لِتَعْظُمَ ، وَبِاسْتِكْتَامِهَا لِتُظْهَرَ ، وَبِتَعْجِيلِهَا لِتَهْتَنُ .**

اشترط في استقامة قضاء الحوائج : أي كون قضائها على ما ينبغي من العدل ثلاث شرائط :

أحدها : استصغار قاضي الحاجة لها ليعرف بالسماحة وكبر النفس فيعظم عطاؤه ويشتهر .

الثانية : أن يكتمها فإن طباع الناس أدعى إلى إظهار ما استكتكم وأكثر عناية به من غيره .

الثالث : أن يعجلها لتهناً : أي لتكون هنيئة يقال : هنا الطعام يهناً وذلك أن الإبطاء بقضاء الحاجة ينغصها على طالبها فتكون لذتها مشوبة بتكدير بطئها .

٩٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُقَرَّبُ فِيهِ إِلَّا الْمَاحِلُ ، وَلَا يُظَرَّفُ فِيهِ إِلَّا الْفَاجِرُ ، وَلَا يُضَعَّفُ فِيهِ إِلَّا الْمُنْصِفُ : يَعْدُونَ الصَّدَقَةَ فِيهِ غُرْمًا ، وَصِلَةَ الرَّجِمِ مَنًّا ، وَالْعِبَادَةَ اسْتِطَالَةً عَلَى النَّاسِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ السُّلْطَانُ بِمَشُورَةِ النِّسَاءِ ، وَإِمَارَةُ الصَّبِيَّانِ ، وَتَدْبِيرُ الْخِصْيَانِ .

وأقول : الماحل : الساعي بالنميمة إلى السلطان ، وأصل المحل الكيد والمكر . وروي الماجن مكان الفاجر وهو المتكلم بما يشتهي من الباطل والهزل والاستهزاء . والغرم : الدين . يريد أن ذلك الزمان لسوء أهله وبعدهم عن الدين وقوانين الشريعة تجعل فيه الرذائل مكان الفضائل ويستعمل ما لا ينبغي مكان ما ينبغي فيقرب الملوك السعاة إليهم بالباطل مكان أصحاب الفضائل ومن ينبغي تقريبه ، ويعدّ الفاجر وهو صاحب رذيلة الإفراط في قوته الشهوية صاحب فضيلة الظرف في حركاته .

وقوله : ولا يضعف . إلى آخره .

أي إذا رأوا إنساناً عنده ورع وإنصاف في معاملة الناس عدّوه عاجزاً ضعيفاً ، ويحتمل أن يريد بقوله : يضعف أي يستصغر عقله لتركه الظلم كأنه تارك حق ينبغي له أخذه ، وتعد فيه الصدقة التي ينبغي أداءها برغبة طلباً للثواب غرماً كأداء الدين في الثقل ، وكذلك تعدّ صلة الرحم مناً وفيه إبطال

للفضيلة المذكورة لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ ، ويستطال بالعبادة على الناس ويرفع بها كالمسان عليهم بذلك . ثم جعل من علامات ذلك الزمان كون السلطان والملك يدبر بمشورة الإماء ، وإمارة الصبيان وتدبير الخصيان وهي علامات زماننا وقبله بمدة .

٩٤ - وَرُئِيَ عَلَيْهِ إِزَارٌ خَلِقُ ، مَرْقُوعٌ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ : يَخْشَعُ لَهُ الْقَلْبُ ، وَتَذِلُ بِهِ النَّفْسُ ، وَيَقْتَدِي بِهِ الْمُؤْمِنُونَ .

ذكر في لبس ذلك الخلق ثلاثة مقاصد : خشوع القلب : خضوع النفس العاقلة وانكسارها عن الفقر ، وذلة النفس انكسار للنفس الأمارة بالسوء عنه ، واقتداء المؤمنين بذلك للقاصدين الأولين .

٩٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عَدَوَّانِ مُتَفَاوَتَانِ ، وَسَبِيلَانِ مُخْتَلِفَانِ ، فَمَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَتَوَلَّاهَا أَبْغَضَ الْآخِرَةَ وَعَآذَاهَا ، وَهُمَا بِمِثْلَةِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَآشٍ بَيْنَهُمَا ، كُلَّمَا قُرِبَ مِنْ وَاحِدٍ بَعُدَ مِنَ الْآخَرِ ، وَهُمَا بَعْدُ ضَرَّتَانِ .

استعار لفظ العدو لهما باعتبار ما بينهما من البعد لطالبيهما ، وظاهر كونهما سبيلين مختلفين . ومن لوازم ما بينهما من العداوة والاختلاف كون المحب لإحديهما مبغضاً للآخرى . ثم شبههما بالشرق والمغرب ، ووجه الشبه تباينهما واختلاف جهتيهما ، وشبه الطالب لهما بالماشي بينهما ووجه الشبه قوله : كلما قرب . إلى آخره فإن الطالب للدنيا بقدر توجهه في طلبها تكون غفلته عن الآخرة ، وانقطاعه عنها وكلما أمعن في تحصيلها ازداد غفلة وبعداً عن الآخرة ، وبالعكس كالماشي إلى أحد جهتي المشرق والمغرب . ثم شبههما بعد ذلك بالضرتين ووجه الشبه أيضاً أن القرب من إحديهما يستلزم البعد عن الأخرى كالزوج ذي الضرتين .

٩٦ - وَعَنْ نَوْفٍ الْبِكَالِيِّ قَالَ : « رَأَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ فِرَاشِهِ فَنَظَرَ فِي النُّجُومِ ، فَقَالَ لِي : « يَا نَوْفُ : أَرَأَيْدَ أَنَّكَ

أَمْ رَامِقُ ؟ فَقُلْتُ : « بَلْ رَامِقٌ » قَالَ : « يَا نَوْفُ » :

طُوبَى لِلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا الرَّاعِغِينَ فِي الْآخِرَةِ ، أُولَئِكَ قَوْمٌ اتَّخَذُوا
الْأَرْضَ بَسَاطًا ، وَتَرَابَهَا فِرَاشًا ، وَمَاءَهَا طَبِيبًا ، وَالْقُرْآنَ شِعَارًا ، وَالْدُّعَاءَ
دِثَارًا ، ثُمَّ قَرَضُوا الدُّنْيَا قَرْضًا عَلَى مِنْهَاجِ الْمَسِيحِ .

يَا نَوْفُ ؛ إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَامَ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ
فَقَالَ : إِنَّهَا سَاعَةٌ لَا يَدْعُو فِيهَا عَبْدٌ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَشَّارًا ، أَوْ
عَرِيفًا ، أَوْ شُرْطِيًّا ، أَوْ صَاحِبَ عَرْطَبَةٍ (وَهِيَ الطُّنْبُورُ) ، أَوْ صَاحِبَ كُوبَةٍ .
(وَهِيَ الطُّبْلُ) وَقَدْ قِيلَ أَيْضًا : إِنَّ الْعَرْطَبَةَ : الطُّبْلُ ، وَالْكُوبَةُ : الطُّنْبُورُ .

أقول : البكالي بكسر الباء : منسوب إلى بكالة قرية من اليمن .
والرامق : النظر : والعريف : نقيب الشرطة .

وكان خروجه عليه السلام في ذلك الوقت لما نقله عن داود عليه السلام ولأنه محل
الفراغ للاعتبار والفكر في خلق السماوات وزينتها . ثم عرف الزاهدين في
الدنيا بستة أوصاف لغرض الاقتداء بهم :

أحدها : اتخاذهم الأرض بساطًا .

الثاني : وترابها فراشًا .

الثالث : وماءها طيبًا ، وذلك من لوازم زهدهم في متاعها وتركها عن
طيب نفس بذلك .

الرابع : اتخاذهم للقرآن شعارًا .

الخامس : والدعاء دثارًا ، واستعار لفظ الشعار للقرآن باعتبار ملازمتهم
لدرسه وتفهم مقاصده كالشعار الملازم للجسد . ولفظ الدثار للدعاء باعتبار
احتراسهم به من عذاب الله والشدائد النازلة بهم كلاحتراس بالذثار عن البرد
ونحوه .

السادس : قرضهم للدنيا : أي قطعها عنهم بأيسر ما يدفع ضرورتهم

منها كما فعله المسيح عليه السلام من هذه الأوصاف . وكان قيامه عليه السلام في النصف الأخير من الليل وإنما كان مظنة الإجابة لخلو النفس فيه عن الاشتغال بشواغل النهار المحسوسة وتوفرها بعد النوم على الالتفات إلى حضرة الملاء الأعلى واستعدادها لقبول السوانح الإلهية . وإنما استثنى المذكورين لملازمتهم المعصية التي تحجب نفوسهم عن قبول رحمة الله تعالى .

٩٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ اللَّهَ أَفْتَرَضَ عَلَيْكُمْ الْفَرَائِضَ فَلَا تُضَيُّعُوهَا ، وَحَدَّ لَكُمْ حُدُوداً فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَنَهَاكُمْ عَنْ أَسْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا وَسَكَتَ لَكُمْ عَنْ أَسْيَاءَ وَلَمْ يَدْعَهَا نِسْيَاناً فَلَا تَنْكُفُوهَا .

فرائض الله : واجبت دينه . وحدوده : نهايات ما أباحه من نعمه ورخص فيه . والأشياء المنهي عنها : ما جاوز حدوده من المحرمات والردائل . وما سكت عنه كتكليف دقائق علم لا نفع له في الآخرة فإنه لم يسكت عنه نسياناً لتقدسه عن ذلك بل لعدم فائدته الأخروية ، واستلزام الاشتغال به ترك الاشتغال بعلم نافع فيلزمه المضرة .

٩٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ لِاسْتِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضَرُّ مِنْهُ .

لما كانت مطالب الناس في الدنيا إذا فتح باب الطب لها غير متناهية لكون كل مطلوب يحصل معداً لطلب الزيادة فيه والاستكثار منه وتحصيل شرائطه ولوازمه، وكان بعد لانسان عن الله بقدر قربه من الدنيا وبعد أمله فيها كان كل أمر استصلحت به الدنيا لأنها دنيا معداً لفتح باب من أبواب طلبها وإصلاحها وهو أضر من الأول لكونه أشد إغلاً فيها وإبعاداً عن الله .

٩٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : رَبُّ عَالِمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ وَعِلْمُهُ مَعَهُ لَا يَنْفَعُهُ .

أراد العلماء بما لا نفع فيه من العلوم كعلم السحر واليئرنجات بل كعلم النحو وغيره من العلوم العقلية مثلاً بمن جهل شرائع الإسلام فأفتى بغير علم أو تعدى حداً وارتكب منهياً فكان ذلك سبب هلاكه في الدنيا والآخرة .

أو كعلم ما لا نفع فيه في الآخرة استلزم ترك علم مهم فيها فكان سبب هلاكه هناك مع عدم انتفاعه وخلاصه بما علم .

١٠٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَقَدْ عُلِقَ بِنِيَّاطِ هَذَا الْإِنْسَانِ بَضْعَةٌ هِيَ أَعْجَبُ مَا فِيهِ وَهُوَ الْقَلْبُ . وَلَهُ مَوَادُّ مِنَ الْحِكْمَةِ وَأَضْدَادٌ مِنْ خِلَافِهَا ، فَإِنْ سَنَحَ لَهُ الرَّجَاءُ أَذَلَّهُ الطَّمَعُ ، وَإِنْ هَاجَ بِهِ الطَّمَعُ أَهْلَكَهُ الْجَرُّ ، وَإِنْ مَلَكَهُ الْيَأْسُ قَتَلَهُ الْأَسَفُ ، وَإِنْ عَرَضَ لَهُ الْغَضَبُ أَشْتَدَّ بِهِ الْغَيْظُ ، وَإِنْ أَسْعَدَهُ الرِّضَى نَسِيَ التَّحْفُظَ ، وَإِنْ نَالَهُ الْخَوْفُ شَغَلَهُ الْحَذَرُ ، وَإِنْ اتَّسَعَ لَهُ الْأَمْنُ اسْتَلَبَتْهُ الْغِرَّةُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَضَحَهُ الْجَزَعُ ، وَإِنْ أَفَادَ مَالًا أَطْغَاهُ الْغِنَى ، وَإِنْ عَضَّتْهُ الْفَاقَةُ شَغَلَهُ الْبَلَاءُ ، وَإِنْ جَهَدَهُ الْجُوعُ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ ، وَإِنْ أَفْرَطَ بِهِ الشَّبَعُ كَطَتْهُ الْبِطْنَةُ ، فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهِ مُضِرٌّ ، وَكُلُّ إِفْرَاطٍ لَهُ مُفْسِدٌ .

أقول : النياط : عرق علق به القلب . وغاله : أخذه على غرة .

وأراد بالمواد من الحكمة الفضائل الخلقية فإنها بأسرها من الحكمة وهي العلم مما ينبغي أن يفعل وهو الأصلح في كل باب وهي مواد كمال القلب ، وأشار بأضدادها المخالفة لها إلى الرذائل المضادة للفضائل وهي التي أطراف التفريط والإفراط منها :

فالأولى : الطمع وهي رذيلة الإفراط من الرجاء ونفر عنها بما يلزمها من الذلة للمطموع فيه وبما يلزم اشتداد الطمع من الحرص المهلك في الدارين .

الثانية : اليأس وهو رذيلة التفريط من الرجاء ونفر عنها بما يلزمها من شدة الأسف القاتل .

الثالثة : رذيلة الإفراط من الغضب وهي اشتداد الغيظ المسمى طيشاً . والوسط من الغضب فضيلة الشجاعة وكظم الغيظ .

الرابعة : ترك التحفظ ونسيانه وهو رذيلة الإفراط من رضا الإنسان بما يحصل عليه من دنياه .

الخامسة : رذيلة الإفراط من عروض الخوف وهي الاشتغال بالخطر عما لا ينبغي عند عروضه والذي ينبغي فيه الأخذ بالحزم وترك الإفراط في الخوف والعمل للأمر المخوف .

السادسة : رذيلة التفريط في عروض ضده وهو الأمن وهي استلاب الغرة لعقل الأمن حتى لا يفكر في مصلحته وحفظ ما هو عليه من الأمن .

السابعة : رذيلة التفريط من فضيلة الصبر على المصيبة وهي الجزع ونفر عنه بما يلزمه من الافتضاح به .

الثامنة : رذيلة الإفراط من حصول المال وهو الطغو بكثرتة والغنى منه . والطغو : تجاوز الحد .

التاسعة : رذيلة التفريط من الصبر على الجوع . وذكر لازمها وهو قعود الضعف به عما ينبغي . ونفر به عنها .

الحادية عشر : رذيلة إفراط الشبع من فضيلة القصد فيه وما يلزم تلك الرذيلة من جهد البطنة . ونفر عنها بما يلزمها . ثم ختم ذلك بالتفكير من طرف الإفراط والتفريط فيها إجمالاً بما يلزم التفريط من مضرة القلب بعدم الفضيلة ويلزم الإفراط فيها من إفساده بخروجه عنها . وبالله العصمة .

١٠١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : نَحْنُ النَّمْرُقَةُ الْوُسْطَى ، بِهَا يَنْحَقُّ الْتَّالِي ، وَإِلَيْهَا يَرْجَعُ الْغَالِي .

النمرقة : الوسادة الصغيرة . واستعار لفظها له ولأهل بيته بصفة الوسطى باعتبار كونهم أئمة الحق ومستنداً للخلق في تدبير معاشهم ومعادهم على وجه العدل المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط ومن حق الإمام الحق المتوسط في الأمور أن يلحق به التالي أي المفرط المقصر ، وأن يرجع إليه الغالي أي المفرط المتجاوز لحد العدل .

١٠٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا يُقِيمُ أَمْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا مَنْ لَا يُضَارِعُ وَلَا يُضَارِعُ ، وَلَا يَتَّبِعُ الْمَطَامِعَ .

المصانعة : المصالحة برشوة ونحوها . والمضارعة : مفاعلة من الضرع وهو الذلة كأن كلاً منهما يضرع للآخر . وظاهر أن مصانعة الغير يستلزم طلب رضاه وذلك يمنع من إقامة حدود الله وأمره في حقه ، وكذلك المضارعة واتباع المطامع من الغير فإنهما يستلزمان ترك مواجهته بما يشق عليه من أوامر الله وحدوده .

١٠٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (وَقَدْ تَوَفَّي سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ الْأَنْصَارِيُّ بِالْكُوفَةِ بَعْدَ مَرْجِعِهِ مَعَهُ مِنْ صِفِّينَ وَكَانَ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ) :
لَوْ أَحْبَبْنِي جَبَلٌ لَتَهَافَّتَ .

قَالَ الرُّضِّي : وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْمِحْنَةَ تَغْلُظُ عَلَيْهِ فَتُسْرِعُ الْمَصَائِبُ إِلَيْهِ ، وَلَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْأَتْقِيَاءِ الْأَبْرَارِ وَالْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ . وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ :
مَنْ أَحَبَّنَا ، أَهْلَ الْبَيْتِ ، فَلَيْسَتْ عَدَّ لِلْفَقْرِ جَلْبَاباً .
وَقَدْ يُؤَوَّلُ ذَلِكَ عَلَى مَعْنَى آخَرَ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهِ .

أقول : تهافت : سقط قطعة قطعة . وذلك مبالغة في كثرة ما يلحقه ومحبيه من المصائب والابتلاء .

وقوله : من أحبنا فليستعد للفقير جلباباً .

أي يهيء له ذلك . والجلباب مستعار لتوطين النفس على الفقر والصبر عليه ، ووجه الاستعارة كونهما ساترين للمستعد بهما من عوارض الفقر وظهوره في سوء الخلق وضيق الصدر والتحير الذي ربما يؤدي إلى الكفر كما يستر بالملحفة ، ولما كانت محبتهم عليهم السلام ، بصدق يستلزم متابعتهم والاقتراء بهم والاستشعار بشعارهم ومن شعائرهم الفقر ورفض الدنيا والصبر على ذلك وجب أن يكون كل محب لهم مستشعراً للفقر ومستعداً له جلباباً من توطين النفس عليه والصبر . وقد ذكر ابن قتيبة هذا المعنى بعبارة أخرى فقال : من أحبنا فليقتصر على التعلل من الدنيا والتقنع فيها . قال : وشبه الصبر على الفقر بالجلباب لأنه يستر الفقر كما يستر الجلباب البدن ، قال : ويشهد بصحة هذا التأويل ما روي أنه عليه السلام رأى قوماً على بابهم فقال : يا قنبر من

هؤلاء ؟ فقال : شيعتك يا أمير المؤمنين . فقال : ما لي لا أرى فيهم سيما الشيعة . قال : وما سيما الشيعة ؟ قال : خمص البطون من الطوى يمس الشفاء من الظماء عمش العيون من البكاء .

وقال أبو عبيد : إنه لم يرد الفقر في الدنيا ألا ترى أن فيمن يحبهم مثل ما في سائر الناس من الغنى ، وإنما أراد الفقر يوم القيامة . وأخرج الكلام مخرج الوعظ والنصيحة والحث على الطاعات فكأنه أراد من أحبب فليعد لفقره يوم القيامة ما يجبره من الثواب والتقرب إلى الله تعالى والزلفة عنده .

قال السيد المرتضى رحمه الله : والوجهان جميعاً حسنان وإن كان قول ابن قتيبة أحسن فذلك معنى قول لسيد - رضي الله عنه - وقد يؤول ذلك على معنى آخر .

وذكر القطب الراوندي احتمالاً ركيكاً لا يصلح محملاً لهذا الكلام . فلم نطول بذكره .

١٠٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : سَبْعُ عَشْرَ كَلِمَةً .

لَا مَالَ أَعُودُ مِنَ الْعَقْلِ . وَلَا وَحْدَةَ أَوْحَشُ مِنَ الْعُجْبِ ، وَلَا عَقْلَ كَالْتَّدْبِيرِ ، وَلَا كَرَمَ كَالْتَّقْوَى ، وَلَا قَرِينَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ ، وَلَا مِيرَاثَ كَالْأَدَبِ ، وَلَا قَائِدَ كَالْتَّوْفِيقِ ، وَلَا تِجَارَةَ كَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَلَا رِبْحَ كَالثَّوَابِ ، وَلَا وَرَعَ كَالْوُقُوفِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ ، وَلَا زُهْدَ كَالزُّهْدِ فِي الْحَرَامِ ، وَلَا عِلْمَ كَالْتَّفَكُّرِ ، وَلَا عِبَادَةَ كَأَدَاءِ الْفَرَائِضِ ، وَلَا إِيْمَانَ كَالْحَيَاءِ وَالصَّبْرِ ، وَلَا حَسَبَ كَالْتَّوَاضُعِ . وَلَا شَرَفَ كَالْعِلْمِ ، وَلَا مَظَاهِرَةَ أَوْثَقُ مِنَ الْمُشَاوَرَةِ .

أحدها : لا مال أعود من العقل . أي أعود بالنفع على صاحبه وستعار لفظ المال للعقل باعتبار أن به غنى النفس وهو رأس مالها الذي به يكتسب الأرباح الباقية والكمالات المستعدة كالمال الذي به الكمال الظاهر ، ولما كان بين المالمين من التفاوت في الشرف ما علمت لا جرم لم يكن مال أعود منه بالنفع .

الثانية : ولا وحدة أوحش من العجب وجعل الوحدة من جنس العجب باعتبار ما يستلزمه من الوحشة الموحشة وقد سبق بيان استلزام العجب لها .

الثالثة : ولا عقل كالتدبير أراد بالعقل تصرف العقل العملي فأطلق عليه اسمه مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبب . وظاهر أن جملة تصرفاته التدبير واستخراج الآراء المصلحية في الأمور . ولما كان المقصود منه التدبير لا جرم لم يكن له تصرف يشبهه فلا عقل مثله .

الرابعة : ولا كرم كال تقوى . والمفهوم من الكرم بذل ما ينبغي بذله ، ولما كانت تقوى الله عبارة عن خشيته وكان من لوازمها الزهد في الدنيا والإعراض عن متعتها كان ذلك في الحقيقة بذلاً لجميعها ، وإذا كان بذل بعض قيناتها يسمى كرمًا فبذلها بأسرها ممن ينبغي له ذلك أولى أن يكون كرمًا لا يشبهه كرم كما قال عليه السلام فيما سبق في وصفها : ورأيته محتاجة فوهبت جملتها لها .

الخامسة : ولا قرين كحسن الخلق . قد عرفت الأخلاق الحسنة ، وظاهر أنه ليس فيما يعدّ قريناً أشرف منها لأن غاية سائر القراء أن يستفاد من صحبتهم ومحبتهم حسن الخلق . وكون حسن الخلق بنفسه الذي هو الغاية قريناً أشرف من ذي الغاية الذي عساه لا يحصل منه . فلا قرين إذن يشبهه .

السادسة : ولا ميراث كالآداب . وقد مر بيانه عن قرب .

السابعة : ولا قائد كال توفيق : أي إلى المطالب . ولما كان التوفيق عبارة عن توافق الأسباب للشيء وشرائطه حتى يكون بمجموعها مستلزماً لحصوله لا جرم لم يكن للمرء قائد إلى مطالبه كال توفيق في سرعة وصوله إليه .

الثامنة : ولا تجارة كالعمل الصالح . استعار لفظ التجارة له باعتبار كونه مستلزماً للخير كالتيجارة المستلزمة للربح . ولما كان شرف التجارة بشرف ثمرتها وربحها فكلمة كان الربح أشرف كانت التجارة أشرف . ولما كان ربح هذه التجارة الثواب الدائم الآخروي الذي لا ربح أعظم منه لم يكن لتجارة العمل الصالح ما يشبهها من التجارات .

التاسعة : ولا ربح كالثواب . وهو ظاهر .

العاشرة : ولا ورع كالوقوف عند الشبهة . قد يفسر الورع بأنه الوقوف عن المناهي والمحرمات . ولما كان الوقوف عما اشتبه من الأمور في حله وحرمة أبلغ أصناف الورع وأكثرها تحرزاً به لم يكن فيها ما يشبهه .

الحادي عشر : ولا زهد كالزهد في الحرام . ولما كان الزهد في الحرام هو المأمور به والواجب دون غيره من أصناف الزهد كان أفضل أفضلية الواجب على المندوب .

الثانية عشر : ولا علم كال تفكر : أي كالعلم الحاصل عن التفكير وذلك بالقياس إلى ما يدعى علماً من حفظ المنقولات كالأحاديث والسير ونحوها وإلى العلوم الحاصلة عن الحواس لأن العلم الفكري كلي وهو أشرف وحكم الشارع والخطيب أكثر . وأراد التفكير فيما ينبغي من خلق السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ، وتحصيل العبرة منه . وأطلق اسم التفكير على العلم الحاصل عنه إطلاقاً لاسم السبب على المسبب . ويحتمل أن يريد العلم بكيفية التفكير والقوانين التي تعصم مراعاتها الفكر من الضلال .

الثالثة عشر : ولا عبادة كأداء الفرائض . لكونها واجبة والواجب أشرف من غيره .

الرابعة عشر : ولا إيمان كالحياء والصبر . أي لا إيمان كإيمان كمل بالحياء والصبر ، وذلك أشرف هاتين الفضيلتين كما سبق وأطلقهما على الإيمان مجازاً إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه .

الخامسة عشر : ولا حسب كالتواضع . لما كان الحسب ما يعد من المآثر والفضائل كان التواضع أشرف ما يعد بالقياس إلى كثير منها لما يستلزم من الخيرات كما سبق بيانه .

السادس عشر : ولا شرف كالعلم : أي كشراف العلم فأطلق اسم الملزوم على لازمه مجازاً ، وظاهر أن العلم أشرف الكمالات ولا شرف كشرفه .

السابعة عشر : ولا مظاهره أوثق من مشاورة . أي أقوى . وقد مرّ بيانه في قوله : ولا ظهير كالمشورة .

واعلم أن الحكم في كثير من هذه الكمالات أكثرى وغرضه الترغيب في العقل والتدبير والتقوى وحسن الخلق والأدب والتوفيق بالرغبة إلى الله فيه والعمل الصالح ولثواب والوقوف عند الشبهة والزهد في الحرام والفكر والمحافظة على الفرائض واقتناء الحياء والصبر والتواضع والعلم والمشورة في الأمور .

١٠٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِذَا اسْتَوَلَى الصَّلَاحُ عَلَى الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ ثُمَّ أَسَاءَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُ خَزِيَّةٌ فَقَدْ ظَلَمَ ، وَإِذَا اسْتَوَلَى الْفَسَادُ عَلَى الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ فَأَحْسَنَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ فَقَدْ غَرَّرَ .

قد مرّ أن الزمان من جملة الأسباب المعدة لتوافق أسباب صلاح الخلق في معاشهم ومعادهم فيسمى زمان الصلاح والخير ، كذلك هو من جملة الأسباب المعدة لعدم ذلك فيقال : فسد الزمان ، وزمان فاسد . والأول هو الزمان الذي استولى الصلاح عليه وعلى أهله وبحسب ذلك يكون مظنة فعل الخير أن يحسن الظن بأهله فمن أساء الظن حينئذ في أحد منهم لم يظهر منه ما يخزي به عند الناس من فعل رذيلة فقد وضع إساءة ظنه في غير موضعها وهو خروج عن العدل وظلم . وروي : حوبة : أي إثم .

والثاني : هو الزمان الذي استولى الفساد عليه وعلى أهله وبحسب ذلك يكون مظنة فعل الشر وسوء الظن بأهله فمن أحسن الظن في أحدهم حينئذ فقد غرر : أي أوقع نفسه في الغرة به والغفلة عن حاله .

١٠٦ - وَقِيلَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « كَيْفَ تَجِدُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ » فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : كَيْفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ يَفْنَى بَقَائِهِ ، وَيَسْقُمُ بِصِحَّتِهِ ، وَيُؤْتَى مِنْ مَأْمَنِهِ .

أجاب بصورة حاله على طريق الموعظة والتشكي . ولما كان البقاء عبارة عن استمرار زمان الوجود وكان استمرار الزمان وتعاقب أجزائه مقرباً

للأجل كان لبقائه سبباً في فناءه وكذلك لما كان من غايات الصحة السقم كان لصحته سبباً في سقمه وأما كونه يؤتى من مأمنه فيشبه أن يكون المأمّن هنا مصدراً والمراد أن الداخر على المرء ونزول ما يكره به من الموت وأحوال الآخرة هو أمانه في الدنيا وسكونه اليها وغفلته عما وراءها مما لا بد منه .

ويحتمل أن يكون المأمّن محل الأمن وهو الدنيا ، ومعنى كونه يؤتى من مأمنه : أي أن ما يدخل عليه من الأدواء التي تلحقه هو من أحوال الدنيا التي هي مأمّنه وعوارضها التي يعرض له من مأمّنه حال أمانه فيه بحيث لا يمكنه الاحتراز منه .

١٠٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَمَغْرُورٍ بِالسُّتْرِ عَلَيْهِ ، وَمَقْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ ، وَمَا أَتَى اللَّهَ أَحَدًا بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ .

المستدرج : المأخوذ على غرة . والإملاء : الإمهال وتأخير المدة .

وقد ذكر الله من الأمور التي ابتلى الله بها عباده أربعة :

أحدها : الإحسان إلى العبد بضروب النعم .

الثاني : ستر المعصية عليه .

الثالث : حسن القول فيه وثناء الخلق عليه .

الرابع : تأخير مدته وإمهاله . ولما كنت غاية الابتلاء بهذه الأمور التي

كلها نعم في الحقيقة إما شكرها أو كفرها كما قال تعالى : ﴿ لِيَلْوَنِي أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ (١) الآية . وكان الشكر هو الغاية الخيرية المطلوبة بالدات نبه المبتلى بالنعمة الأولى على وجوب شكره بأنه كثيراً ما يستدرج به فينبغي أن لا يغفل عنها ، ونبه المبتلى بالثانية على أنها كثيراً ما تكون سبباً لغرته بالله والأمن من مكره فينهمك في المعاصي ، ونبه الثالث بكون نعمته قد تكون سبباً لفتنته وصرفه عن شكر الله وارتكابه لرذيلة العجب بنفسه ، ونبه الرابع

بكون نعمته أعظم ما يتلى به من النعم .

١٠٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : هَلَكَ فِي رَجُلَانِ : مُجِبُّ غَالٍ ، وَمُبْغِضُ قَالٍ .

لما كانت محبة أولياء الله فضيلة نفسانية كان طرف التفريط والتقصير فيها إلى غاية مقابلتها بالبغض وطرف الإفراط إلى غاية الغلو وتجاوز ما ينبغي منها رذيلتين يستلزمان هلاك صاحبهما في الآخرة . أم رذيلة التفريط فلأن بغض أولياء الله مستلزم لعداوتهم ومن عادى ولياً من أولياء الله فقد عادى الله وكان من الهالكين ، وأما رذيلة الغلو والإفراط فلأن الغلاة أخرجوه عن حد البشرية إلى سماء الإلهية وهو صريح الكفر المستلزم للهلاك .

١٠٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِضَاعَةُ الْفُرْصَةِ غُصَّةٌ .

أي إن تضييع الأمر وقت مكانه من نفسه يستلزم الأسف والحزن على تفويته . وهو تنفير عن تضييع الفرصة بما يلزمه .

١١٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسْهًا وَالسُّمُّ النَّاقِعُ فِي جَوْفِهَا ، يَهْوِي إِلَيْهَا الْغَرُّ الْجَاهِلُ ، وَيَحْذَرُهَا ذُو اللَّبِّ الْعَاقِلُ .

مثل الدنيا بالحية ، ووجه التمثيل قوله : لَيِّنٌ مَسْهًا . إلى آخره . وذلك أن الدنيا لذيدة المتناول سهلة في عين الناظر إليها مع أن فيما يشتهيها منها ويتناولها الشقاوة الأخروية والعذاب الأليم . فيهوى إليها الجاهل بما فيها من سوء العاقبة ويحذرها العاقل العارف بها كما أن الحية لَيِّنٌ مَسْهًا حسن منظرها يحسبها الجاهل سواراً من ذهب أو فضة يهوى إليها لغرته بما فيها من سم ويحذرها من يعرفه .

١١١ - وَسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : عَنْ قُرَيْشٍ فَقَالَ : أَمَّا بَنُو مَخْزُومٍ فَرِيحَانَةٌ قُرَيْشٌ تُجِبُّ حَدِيثَ رَجَالِهِمْ ، وَالنِّكَاحَ فِي نِسَائِهِمْ ، وَأَمَّا بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ : فَأَبْعَدُهَا رَأْيًا ، وَأَمْنَعُهَا لِمَا وَرَاءَ ظَهْرِهَا ، وَأَمَّا نَحْنُ : فَأَبْذَلُ لِمَا فِي أَيْدِينَا ، وَأَسْمَحُ عِنْدَ الْمَوْتِ بِنُفُوسِنَا ، وَهُمْ أَكْثَرُ وَأَمْكُرُ وَأَنْكَرُ ، وَنَحْنُ أَفْصَحُ ، وَأَنْصَحُ ، وَأَصْبَحُ .

بنو مخزوم بطن من قريش وهو مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب ابن لوي بن غالب . ومنهم أبو جهل بن هشام بن المغيرة وآل المغيرة وكان لمخزوم ربح طيبة كالخزاعي ولون كلونه ، والولد يشبه الوالد غالباً ، ولذلك كانت هذه البطن تسمى بريحانة قريش ، وكان المعيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم تسمى بذلك . وقيل : لأنه كان في رجالهم كيس لذلك يحب الحديث إليهم وفي نسائهم لطف وتصنع وتحبب إلى الرجال ولذلك يحب نكاحهم .

وأما بنو عبد شمس بن عبد مناف فمنهم ربيعة وابناه شيبة وعتبة ، والأعياص ، وحرب بن أمية وابنه أبو سفيان . واسيد بن عتاب ، ومروان ابن الحكم . ووصف هذا البطن ببعد الرأي وهو كناية عن جودته يقال : فلان بعيد الرأي . إذا كان يرى المصلحة من بعيد لقوة رأيه ، ثم بكونها أمنع لما وراء ظهورها وهو كناية عن الحمية . ثم وصف أهل بيته وهم بنو هاشم بكونهم أبذل لما في أيديهم : أي أسخى ثم بكونهم أسمح عند الموت بنفوسهم : أي أشجع ثم وصفهم بفضيلة خارجية ورذيلتين ووصف بني هاشم بثلاث فضائل بدنيّتين ونفسانيّة والفضيلة فيهم هي كثرة العدد والرذيلتان كونهم أمكر : أي أكثر حيلة وخداعاً وكونهم أنكر : أي أكثر نكراً . والنكر : المنكر ، وأما فضائل بني هاشم فكونهم أفصح وكونهم أصبح : أي أحسن وجوهاً وأجمل وهم فضيلتان يتعلق بالبدن ، ويحتمل أن يريد بالأصبح كونهم ألقى للناس بالطلاقة والبشر ومبدأ ذلك فضيلة نفسانية ، ثم كونهم أنصح . والنصيحة لمن ينبغي نصيحته فضيلة نفسانية تحت العفة .

١١٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : شَتَانُ مَا بَيْنَ عَمَلَيْنِ : عَمَلٌ تَذْهَبُ لَذَّتُهُ وَتَبْقَى تَبِعَتُهُ ، وَعَمَلٌ تَذْهَبُ مَوْؤَنَتُهُ وَيَبْقَى أَجْرُهُ .

وشتان : أي افترق بينهما .

والأول : العمل للدنيا . وتبعته هو ما يتبعه من الشقاوة الأخروية .

والثاني : عمل الآخرة . وظاهر أن بينهما فرقاً عظيماً .

١١٣ - وَتَبِعَ جَنَازَةً فَسَمِعَ رَجُلًا يَضْحَكُ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ ، وَكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا وَجِبَ ، وَكَأَنَّ الَّذِي نَرَى مِنَ الْأَمْوَاتِ سَفَرُ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ، نُبُوَّتُهُمْ أَجْدَانُهُمْ ، وَنَأْكُلُ تُرَائِهِمْ ؛ كَأَنَّا مُخْلَدُونَ بَعْدَهُمْ قَدْ نَسِينَا كُلَّ وَاعِظَةٍ ، وَرُمِينَا بِكُلِّ جَائِحَةٍ !! طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ ، وَطَابَ كَسْبُهُ ، وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ ، وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ ، وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ لِسَانِهِ ، وَوَسِعَتْهُ السُّنَّةُ ، وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَى الْبِدْعَةِ .

قَالَ الرُّضِي : أَقُولُ : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُنْسَبُ هَذَا الْكَلَامَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

الأحداث : القبر . والجائحة : الداهية المستأصلة .

وغرض الفصل التنفير عن وضع الضحك في غير موضعه والتذكير بأمر الآخرة .

وذكر تشبيهات ثلاث :

أحدها : تشبيه الموت بالمكتوب على غير الإنسان .

والثاني : تشبيه الحق الواجب عليه بما وجب على غيره دونه .

والثالث : تشبيه ما يشاهد من الأموات بالمسافرين الذين يقدمون عن قريب .

ووجه الشبه في الثلاثة قلة اهتمام الناس بالموت والتفاتهم إلى أداء واجب حق الله عليهم وعدم اعتبارهم بمن يموت .

وقوله : نبؤهم . إلى قوله : جائحة .

من تمام وجه التشبيه فإن الفاعل مثل هذا الفعل بالأموات كأنه لقساوة قلبه وعدم اتعاظه لم يكتب عليه ما كتب عليهم من الموت .

وقوله طوبى . إلى آخره . ترغيب في اقتناء الفضائل المذكورة بأن له

طوبى وهي في الحقيقة الحالة الشريفة التي لأولياء الله في الآخرة من طيب الحال واللذة الباقية . وذكر ثمان فضائل :

أحدها : ذلة النفس لله عن ملاحظة حاجتها وفقرها إليه ، ونظرها إلى معادها .

الثانية : طيب الكسب بأخذه من وجوهه التي ينبغي .

الثالثة : صلاح السريرة لله وإخلاص الباطن من فساد النيات في المعاملات مع الخلق

الرابعة : حسن الخلق واقتناء فضائله .

الخامسة : إنفاق الفضل عن الحاجة من المال فيما ينبغي من وجوه القربات إلى الله وهي فضيلة السخاء .

السادسة : إمساك الفضل من المقال أي ما زاد منه مما لا ينبغي وهو السكوت في موضعه .

السابعة : عزل الشر عن النفس وهو العدل أو لازمه .

الثامنة : لزوم سنة الله ورسوله وعدم الخروج عنها إلى ما يتدع في الدين ولا ينبغي .

١٢٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : غَيْرَةُ الرَّجُلِ إِيْمَانٌ ، وَغَيْرَةُ الْمَرْأَةِ كُفْرٌ .

أما الأول : فلأن غيرة الرجل تستلزم سخطه لما سخط الله من اشتراك رجسين في امرأة . وسخط ما سخط الله موافق لرضاه ومؤيد لنهيه . وذلك إيمان .

وأما الثاني : فلأن المرأة تقوم بغيرتها في تحريم ما أحل الله وهو اشتراك مرأتين فما زاد في رجل واحد وتقابله بلرد والإنكار . وتحريم ما أحل الله وسخطه ما رضىه ردّ عليه وهو لا محالة كفر .

١١٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَأَنْسُبَنَّ الْإِسْلَامَ نِسْبَةً لَمْ يَنْسُبَهَا أَحَدٌ قَبْلِي : الْإِسْلَامُ هُوَ التَّسْلِيمُ ، وَالتَّسْلِيمُ هُوَ الْيَقِينُ ، وَالْيَقِينُ هُوَ التَّصَدِيقُ ؛

وَالْتَّصْدِيقُ هُوَ الْإِقْرَارُ ، وَالْإِقْرَارُ هُوَ الْأَدَاءُ ، وَالْأَدَاءُ هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ .

هذا قياس مفصول مركب من قياسات طويت نتائجها . وينتج القياس الأول : أن الإسلام هو اليقين .

والثاني : أنه التصديق .

والثالث : أنه الإقرار .

والرابع : أنه الأداء .

والخامس : أنه العمل .

أما المقدمة الأولى : فلأن الإسلام هو الدخول في الطاعة ويلزمه التسليم لله وعدم النزاع في ذلك . وصدق اللازم على ملزومه ظاهر .

وأما الثانية : فلأن التسليم الحق إنما يكون عن تيقن استحقاق المطاع للتسليم له فكان اليقين بذلك من لوازم التسليم لله فصدق عليه صدق اللازم على ملزومه .

وأما الثالثة : فلأن اليقين باستحقاقه للطاعة والتسليم مستلزم للتصديق بما جاء به على لسان رسول الله ﷺ : من وجوب طاعته فصدق على اليقين به أنه تصديق له .

وأما الرابعة : فلأن التصديق لله في وجوب طاعته إقرار بصدق الله .

وأما الخامسة : فلأن الإقرار والاعتراف بوجوب أمر يستلزم أداء المقر المعترف لما أقر به فكان إقراره أداءً لازماً .

وأما السادسة : وهو أن الأداء هو العمل فلأن أداء ما اعترف به لله من الطاعة الواجبة لا يكون إلا عملاً .

ويؤول حاصل هذا الترتيب إلى إنتاج أن الإسلام هو العمل لله بمقتضى أوامره وهو تفسير بخاصة من خواصه كما سبق بيانه .

١١٦ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : عَجِبْتُ لِلْبَخِيلِ يَسْتَعْجِلُ الْفَقْرَ الَّذِي مِنْهُ

هَرَبَ ، وَيَقُوتُهُ الْغِنَى الَّذِي إِيَّاهُ طَلَبَ ، فَيَعِيشُ فِي الدُّنْيَا عَيْشَ الْفُقَرَاءِ ، وَيُحَاسِبُ فِي الْآخِرَةِ حَسَبَ الْأَغْنِيَاءِ ، وَعَجِبْتُ لِلْمُتَكَبِّرِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ نُطْفَةً وَيَكُونُ غَدًا جِيفَةً ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ شَكَّ فِي اللَّهِ وَهُوَ يَرَى خَلْقَ اللَّهِ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ نَسِيَ الْمَوْتَ وَهُوَ يَرَى الْمَوْتَ . وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ النُّشْأَةَ الْآخِرَى وَهُوَ يَرَى النُّشْأَةَ الْأُولَى ، وَعَجِبْتُ لِعَامِرٍ دَارَ الْفَنَاءِ وَتَارِكٍ دَارَ الْبَقَاءِ .

تعجب عليه السلام من ستة هم محل لعجب والغرض التنفير عن رذائلهم :

الأول : البخيل وجعل محل التعجب منه ثلاثة أمور :

أحدها : أنه إنما يخل خوف الفقر في العاقبة لو أنفق المال . وتقديره وعدم انتفاعه به في الحال صورة فقر حاضر فكان بذلك مستعجلاً للفقر الذي هرب منه إلى البخل .

الثاني : أنه طالب للغنى يخله ويخله أبداً سبب لفقره الحاضر المنافي لغناه والمفقوت له . فما يعتقده سبب الغنى هو المفقوت للغنى .

الثالث : أنه يعيش في الدنيا عيش الفقراء لعدم انتفاعه بماله ، ويحاسب في الآخرة حساب لأغنياء لمشاركته إياهم في جمع المال ومحبة اللذين هما مبدء الحساب . فكان منهم بهذا الاعتبار .

الثاني : المتكبر ونبه على وجه العجب منه بذكر مبدأ كونه وهو كونه نطفة في غاية الحقارة والسخف المنافي للكبر ، وغايته وهو كونه جيفة في نهاية القذارة . فجمعه بين هذين الأمرين وبين التكبر من العجب العجيب .

الثالث : الشاك في الله وهو يرى خلقه وذلك جمع بين الشك في وجوده وبين رؤيته ظاهراً في وجود مخلوقاته وعجائب مصنوعاته وهو محل العجب .

الرابع : الناسي لموته مع رؤيته لمن يموت . وظاهر أن نسيان الموت مع رؤيته دائماً محل التعجب .

الخامس : منكر النشأة لأخرى وإعادة الأبدان بعد عدمها . وظاهر أن

إنكاره لذلك مع اعترافه بالنشأة الأولى وهي الوجود الأول للخلق من العدم
الصرف محل التعجب لأن الأخرى أهون كما قال تعالى : ﴿ وهو أهون
عليه ﴾ (١).

السادس : عامر الدنيا مع كونها فانية زائلة مع تركه لعمارة الآخرة
الباقية والباقي ما فيها محل التعجب .

وغرض التعجب من هؤلاء والإشارة إلى وجوه تنفير الخلق من الأمور
المذكورة .

١١٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ قَصَرَ فِي الْعَمَلِ ابْتُلِيَ بِأَلْهَمٍ ، وَلَا
حَاجَةَ لِلَّهِ فِيمَنْ لَيْسَ لِلَّهِ فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ نَصِيبٌ .

المقصر في العمل لله يكون غلب أحواله متوفراً على الدنيا مفرطاً في
طلبها وجمعها وبقدر التوفر عليها يكون شدة الهم في جمعها وتحصيلها أولاً
ثم في ضبطها والخوف على فواتها ثانياً ، وفي المشهور : خذ من الدنيا ما
شئت ومن الهم ضعفه . فنفر عن التقصير في الأعمال البدنية والمالية بقوله :
ولا حاجة لله . إلى آخره . وكفى بعدم حاجته فيه عن إعراضه عنه وعدم
النظر إليه بعين الرحمة لعدم استعداده لذلك .

١١٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : تَوَقَّوا الْبَرْدَ فِي أَوَّلِهِ ، وَتَلَقَّوْهُ فِي آخِرِهِ فَإِنَّهُ
يَفْعَلُ فِي الْأَبْدَانِ كَفْعِلِهِ فِي الْأَشْجَارِ ، أَوَّلُهُ يُحْرِقُ وَآخِرُهُ يُورِقُ .

إنما وجب اتقؤه في أوله وهو أول الخريف لأن الصيف والخريف
يشتركان في اليبس فإذا ورد البرد وحينئذ ورد على أبدان استعدت بحرارة
الصيف ويسه للتدخل وتفتح المسام والجفاف فاشتد انفعال لبدن عنه
وأسرع تأثيره في قهر الحرارة الغريزية فيقوى بذلك في البدن قوتا البرد
واليبس اللتان هما طبيعة الموت فيكون بذلك يبس الأشجار واحتراق الأوراق
وانحسارها وضمور الأبدان وضعفها ، وأما أمره بالتقائه في آخره ، وهو آخر
الشتاء وأول زمان الربيع فلأن الشتاء والربيع يشتركان في الرطوبة ويفترقان بأن

الشتاء بارد والربيع حار فالبرد المتأخر إذا امتزج بحرارة الربيع وانكسرت
سورته بها لم يكن له بعد ذلك نكاية في الأبدان فقويت لذلك الحرارة
الغريزية وانتعشت فكان من اعتدالها بالبرد مع الرطوبة استعداد لمزاج هو
طبيعة الحياة، وكان منه النمو وقوة الأبدان وبروز الأوراق والثمار .

وقوله : فإنه . إلى آخره .

صغرى ضمير نبه به على توقيه وتلقيه . وتقدير كبراه : وكل ما كان
كذلك فإنه يجب توقّي أوله وتلقي آخره .

وقوله : أوله يحرق وآخره يورق .

وهو وجه لتشبيهه .

١١٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : عِظُمُ الْخَالِقِ عِنْدَكَ يُصَغِّرُ الْمَخْلُوقَ فِي
عَيْنِكَ .

هذا أمر وجده العارفون بالله فإن من عرف عظمة الله وجلاله ولحظ
جميع المخلوقات بالقياس إليه حتى علم مالها من ذواتها وهو الإمكان
والحاجة وعدم استحقاق الوجود إلاّ منه تعالى علم أنها في جنب عظمته عدم
ولا أحقر من العدم . وشدة صغر المخلوق في اعتبار العارف بحسب درجته
في عرفانه . وقيل لبعض العارفين : فلان زاهد . فقال : فيما ذا ؟ فقيل :
في الدنيا . فقال : الدنيا لا قرن عند الله جناح بعوضة فكيف يعتبر الزهد
فيها ؟ والزهد إنما يكون في شيء والدنيا عندي لا شيء .

١٢٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَقَدْ رَجَعَ مِنْ صِفِّينَ فَأَشْرَفَ عَلَى الْقُبُورِ
بِظَاهِرِ الْكُوفَةِ :

يَا أَهْلَ الدِّيَارِ الْمُوَحِّشَةِ وَالْمَحَالِّ الْمُقْفِرَةِ ، وَالْقُبُورِ الْمُظْلِمَةِ ! يَا أَهْلَ
التُّرْبَةِ . يَا أَهْلَ الْغُرْبَةِ ، يَا أَهْلَ الْوَحْدَةِ يَا أَهْلَ الْوَحْشَةِ ! أَنْتُمْ لَنَا فَرَطُ
سَابِقٍ ، وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ لَاجِقٌ ، أَمَّا الدُّورُ فَقَدْ سَكِنَتْ ، وَأَمَّا الْأَزْوَاجُ فَقَدْ
نَكَحَتْ ، وَأَمَّا الْأَمْوَالُ فَقَدْ قُسِمَتْ ، هَذَا خَيْرٌ مَا عِنْدَكَ فَمَا خَيْرٌ مَا عِنْدَكُمْ ؟

ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ : أَمَا لَوْ أَدِنَ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ لِأَخْبَرُوكُمْ أَنَّ ﴿ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ .

الفرط : الذي يتقدم الواردة فيهيء الإرشاء والدلاء . وخطابهم ^{المنع} خطاب من يسمع إقامة لحالهم المعهودة مقام أشخاصهم الموجودة . والديار الموحشة والمحال المقفرة : القبور . وغرض الفصل ترقيق القلوب القاسية وتنبيه النفوس الغافلة عن غاية الدنيا ومتاعها لغاية العمل فيها كما ينبغي ، ولما كان الحق هو أن خير الزاد التقوى كما نطق به القرآن الكريم وكان ذلك أمراً شاهد المتقون في جزائهم بتقواهم والفجار في حرمانهم بعدمه لا جرم لو أذن لهم في الجواب وأعطوا الله لكان جوابهم ما عرفوا من الحق .

١٢١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ سَمِعَ رَجُلًا يَذُمُّ الدُّنْيَا : أَيُّهَا الدَّامُ لِلدُّنْيَا الْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا ، الْمَخْدُوعُ بِأَبَاطِيلِهَا ! اتَّغَتَّرَ بِالدُّنْيَا ثُمَّ تَذُمُّهَا ؟ أَنْتَ الْمُتَجَرِّمُ عَلَيْهَا أَمْ هِيَ الْمُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ ؟ مَتَى اسْتَهْوَتْكَ أَمْ مَتَى غَرَّتْكَ ؟ أَيْمَصَّارِعَ أَبَائِكَ مِنَ الْبَلَى ؟ أَمْ بِمَضَاجِعِ أُمَهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَى ؟ كَمْ غَلَّتْ بِكَفِّكَ ؟ وَكَمْ مَرَضَتْ بِبَيْدِكَ ؟ تَبْغِي لَهُمُ الشِّفَاءَ وَتَسْتَوْصِفُ لَهُمُ الْأَطْيَاءَ ، غَدَاةَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ دَوَاؤُكَ ، وَلَا يُجِدِّي عَلَيْهِمْ بُكَائُكَ . وَلَمْ يَنْفَعْ أَحَدَهُمْ إِشْفَاؤُكَ ، وَلَمْ تُسَعِّفْ فِيهِ بَطْلِيَّتِكَ ، وَلَمْ تَدْفَعْ عَنْهُ بِقُوَّتِكَ ! وَقَدْ مَثَلَتْ لَكَ بِهِ الدُّنْيَا نَفْسُكَ ! وَبِمَضْرَعِهِ مَضْرَعُكَ .

إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا ، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا ، وَدَارُ غِنَى لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا ، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنْ اتَّعَظَ بِهَا ، مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللَّهِ ، وَمُصَلَّى مَلَائِكَةِ اللَّهِ ، وَمَهْبُطُ وَحْيِ اللَّهِ ، وَمَتَجَرُّ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ ، اكْتَسَبُوا فِيهَا الرِّحْمَةَ ، وَرَبِحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ ، فَمَنْ ذَا يَذُمُّهَا وَقَدْ آذَنْتْ بَيْنَهَا ، وَنَادَتْ بِفِرَاقِهَا ، وَنَعَتْ نَفْسَهَا ، وَأَهْلَهَا ، فَمَثَلَتْ لَهُمْ بِبَلَائِهَا الْبَلَاءَ ، وَشَوْقَتَهُمْ بِسُرُورِهَا إِلَى السُّرُورِ !! ؟ رَاحَتْ بِعَافِيَةٍ ، وَابْتَكَرَتْ بِفَجِيعَةٍ ، تَرْغِيئاً وَتَرْهِيئاً ، وَتَخْوِيفاً وَتَحْذِيرَآ ، فَذَمُّهَا رِجَالُ غَدَاةِ النَّدَامَةِ ، وَحَمْدُهَا آخِرُونَ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ذَكَّرْتَهُمُ الدُّنْيَا فَتَذَكَّرُوا ، وَحَدَّثْتَهُمْ فَصَدَّقُوا ، وَوَعَّظْتَهُمْ فَاتَّعَظُوا .

أقول : المتجرم : المدعي جريمة واستهوتك : طلبت هواك إليها وهواك فيها . ومثّلت : صوّرت .

وقوله : أيها الدّام ، إلى قوله : غرتك .

توبيخ له على الاغترار بها وذمها مع ذلك وكذب دعواه أنها هي ذات الجريمة عليه باستفهامه عن وقت استهوائها له استفهام منكر لذلك وموبّخ عليه وأكد ذلك باستفهام أن ذلك الغرور له منها بأي شيء كان أمن مصارع الآباء أم بمضاجع الأمهات ، وذلك على وجه الاستهزاء منه والتنبيه له على ما يوجب النفرة منها وعدم الاغترار بها من سوء صنيعها بأهلها حتى كأنها قاصدة لذلك التنبيه والتنفير عنها .

وقوله : كم عللت . إلى قوله : مصرعك .

صغرى ضمير دلّ به على ما ادعاه لها من كونها منبهة من الغفلة وليس قصدها الغرور وتقديرها : قد صوّرت لك الدنيا نفسك بمن أكثرت تعليله وتمريضه من أهلك طلباً له الشفاء ومستوصفاً له الأطباء فلم ينفعه ذلك منك ، ومثّلت بمصرعه مصرعك . وتقدير الكبرى : وكل من مثل لك ذلك وصوّره لك فليس من أهل التليس عليك والغرور لك . بل من نصحاتك ومنبهيك من غفلتك . ثم لما نفى عنها الذم أخذ في مدحها وذكر لها أوصافاً ثمانية :

أحدها : أنها دار صدق لمن صدقها : أي فيما أخبر به بلسان حالها من فنائها وزوالها . وتصديقه لها اعترافه بذلك منها والعمل به .

الثاني : ودار عافية لمن فهم عنها ما أخبرت عنها من عظاتها حتى احترز من آفاتها وعوفي من عذاب الله بها .

الثالث : ودار غنى لمن اتخذ فيها التقوى زاداً لسفره إلى الله . وظاهر أن التقوى وثمرتها في الآخرة أعظم غنى للمتقين .

الرابع : ودار موعظة لمن اعتبر بها فعلم وصفها وغايتها .

الخامس : كونها مسجد أحباء الله من رسله وأوليائه .

السادس : كونها مصلى ملائكة الله الأرضية الذين سجدوا لآدم عليه السلام .

السابع : كونها مهبط وحي الله .

الثامن : كونها متجر أولياء الله الذين اكتسبوا بعبادتهم فيها رحمته وربحوا جنته .

ثم استفهم بعد هذه الممادح عمن يذمها منكراً عليه ومبيناً لأحوال أخرى لها ينافي ذمها أي فمن ذا يذمها ولها الصفات المذكورة وهي على هذه الأحوال ؟ وذكر منها ستة :

إحديها : كونها آذنت أهلها وأعلمتهم بفراقها . والواو في قوله : وقد للحال .

الثاني : ونادت بفراقها .

الثالث : ونعت نفسها . كل ذلك بلسان حالها من التغير والانتقال المؤذن . بالزوال .

الرابع : كونها مثلت لهم ببلاتها البلاء في الآخرة .

الخامس : وشوقتهم بسرورها إلى السرور في الجنة . وإنما كان كذلك لأن كل ما في هذا العالم فهو صورة ومثال لما في عالم الغيب ونسخة منه يعتبر به ويقاس إليه ولولا ذلك لانسد طريق الترقى إلى الحضرة الإلهية وتعذر الوقوف على شيء من أسرارها . فالسالكون إلى الله لما شاهدوا بلاء الآخرة من بلاء الدنيا عملوا للخلاص منه وشاهدوا سرورها من سرور الدنيا وعلموا أن بينهما فرقاً عظيماً وأن الأشرف لا يحصل إلا برفض الأخس فاقتضت آراؤهم الصالحة بيع سرور الفاني بالباقي .

السادس : رواحها بعافية وابتكارها بفجعية . وهو كناية عن سرعة انتقال أحوالها وتبدل أطوارها من رخاء إلى شدة ومن صحة إلى سقم ونسب

هذه الأفعال إليها لأن لها سببية ما في ذلك .

ولما نسب إليها الأفعال الاختيارية جعل لها منها غايات وهي ترغيب الناس إلى الله وترهيبهم منها . ثم أشار إلى سبب ذمها ممن ذمها وهو ندامة المفرطين في اتخاذ زاد التقوى إلى الآخرة منها فنسبوا ذلك التفريط إلى غرورها لهم وهو باطل كما بينه ، ثم إلى سبب مدحها ممن مدحها وهو ثلاثة :

أحدها : تذكرها لهم بزوالها أن وراءها غية باقية يجب العمل لها فتذكروا ما ذكرتهم وعملوا .

الثاني : حديثها لهم بذلك حتى صدقوا .

الثالث : وعظها لهم بعبرها حتى اتعظوا .

١٢٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ لِلَّهِ مَلَكًا يُنَادِي فِي كُلِّ يَوْمٍ : لَبُّدُوا لِلْمَوْتِ ، وَأَبْنُوا لِلْخَرَابِ ، وَأَجْمَعُوا لِلْفَنَاءِ .

ذلك النداء على وفق ما لم من القضاء الإلهي في طبيعة الدنيا وغايتها ، والأمور الثلاثة وهي الموت والفناء والخراب غايات طبيعية . واللام فيها هي المسماة بلام العاقبة .

١٢٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الدُّنْيَا دَارُ مَمَرٍ إِلَى دَارٍ مَقَرٍّ ، وَالنَّاسُ فِيهَا رَجُلَانِ : رَجُلٌ بَاعَ فِيهَا نَفْسَهُ فَأَوْثَقَهَا ، وَرَجُلٌ ابْتَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا .

أوثقها : أهلكها . وكون الدنيا دار ممر باعتبار أنها طريق إلى الآخرة التي هي دار المقر . واستعار لفظ البيع لبائع نفسه باعتبار تسليمه لها إلى الهلاك الآخروي واعتيضه عنها ما أصابه من اللذة الدنيوية ، وكذلك لفظ الابتاع لمشتري نفسه باعتبار إنقاذها من ذلك الهلاك ببذل ما قدر عليه من حاضر اللذات والإعراض عنه . وحصر لمكلفين في الرجسين المذكورين ظاهر .

١٢٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا يَكُونُ الصَّدِيقُ صَدِيقًا حَتَّى يَحْفَظَ أَخَاهُ فِي ثَلَاثٍ : فِي نَكْبَتِهِ ، وَغَيْبَتِهِ ، وَوَفَاتِهِ .

جعل لصديق الصدق خاصة يعرف بها ، وهو أن يحفظ صديقه في الأمور الثلاثة . وحفظه بالقيام مقامه فيما ينبغي فعله في صلاح حاله بقدر الإمكان .

١٢٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ أُعْطِيَ أَرْبَعًا لَمْ يُحْرَمَ أَرْبَعًا : مَنْ أُعْطِيَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحْرَمِ الإِجَابَةَ ، وَمَنْ أُعْطِيَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمِ الْقَبُولَ ، وَمَنْ أُعْطِيَ الْإِسْتِغْفَارَ لَمْ يُحْرَمِ الْمَغْفِرَةَ ، وَمَنْ أُعْطِيَ الشُّكْرَ لَمْ يُحْرَمِ الزِّيَادَةَ . وَتَصَدِّقْ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، قَالَ اللَّهُ فِي الدُّعَاءِ : ﴿ أَذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ وَقَالَ فِي الْإِسْتِغْفَارِ : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ وَقَالَ فِي الشُّكْرِ : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ وَقَالَ فِي التَّوْبَةِ : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

أقول : الأمور الأربعة الأولى إذا كانت بإخلاص كان كل منها سبباً في إعداد النفس لقبول صورة الرحمة الإلهية من واهبها . فالدعاء لإجابته ، والتوبة لقبولها وإسقاط ثمرة المعصية ، والاستغفار للمغفرة ، والشكر للزيادة . والشواهد الإلهية ناطقة بذلك على وفق مقتضى العمل .

١٢٦ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الصَّلَاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ ، وَالْحَجُّ جِهَادُ كُلِّ ضَعِيفٍ ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ ، وَزَكَاةُ الْبَدَنِ الصِّيَامُ ، وَجِهَادُ الْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعْلِ .

التبعل : معاشرة البعل وصحبته والكلام إشارة إلى بعض أسرار هذه العبادات : فمن أسرار الصلاة كونها قرباناً إلى الله تعالى وقد علمت أنها أعظم ما يتقرب إليه المتقون به من العبادات ، ومن أسرار الحج كونه جهاداً في سبيل الله لما فيه من مشقة السفر ومجاهدة الطبيعة ومقاومة النفس الأمارة بالسوء ، مع قوتها لشبهة عدم الاطلاع على أسرار الحج وفائدته مع ما في كیفيته من الأفعال التي يعجب منها الجاهلون . وإنما خصّ الضعيف بذلك جذباً له إليه ولأن للقوى جهاد آخر هو المشهور ، ومن أسرار الصوم كونه زكاة

للبدن لما فيه من تنقيص قوته وكسر شهوته لغاية طاعة الله والثواب الأخروي ، وكما أن الزكاة تنقيص في المال مستلزم لزيادة الثواب في الآخرة ، ومن أسرار التبعل حسن معاشرة البعل وطاعته في طاعة الله وفي ذلك كسر النفس الأمانة للمرأة وانقيادها في صراط الله .

١٢٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : اسْتَزِلُّوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ .

ومن أيقن بالخلف جاد بالعطية .

وفي الكلمة فائدتان :

إحديهما : الترغيب في الصدقة بذكر كونها سبباً لاستئزال الرزق . وقد مر أن الصدقة باب عظيم لذلك معد لحصوله ، ومن وجوه إعدادها كونها نفعا متعديا يستلزم تألف قلوب أهل الله والصالحين من عبده واجتماع همهم على دعاء الله لصلاح حال المتصدق .

الثانية : التنبيه على أقوى الأسباب الباعثة عليها وعلى البذل في أكثر الخلق ليعتمد فيسهل معه البذل وهو الثقة بالله واليقين بالخلف منه كما نطق به وعده تعالى ﴿ إِن تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يَضَاعِفْ لَكُمْ ﴾ (١) الآية .

١٢٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : تَنْزِلُ الْمَعُونَةُ عَلَى قَدْرِ الْمُؤْنَةِ .

المؤونة : التعب والشدة وهي مفعلة من الأين . والمراد أن الشدة والثقل بالعيال ونحوهم معد لاستئزال معونة الله برزقه وقوته على القيام بأحوالهم ودفع المؤونة من جهتهم .

١٢٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَا أَعَالَ مَنْ أَقْتَصَدَ .

العيلة : الفقر . والاقتصاد : الإنفاق بقدر الحاجة المتعارفة . وذلك معد لعدم الحاجة لأن قدر الحاجة من المال أمر قد تكفل الله بإداره مدة البقاء وهو ما لا بد للمقتصد منه .

١٣٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : قِلَّةُ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارَيْنِ ، وَالتَّوَدُّدُ نِصْفُ الْعَقْلِ . وَالْهَمُّ نِصْفُ الْهَرَمِ .

أما الأول : فلأن الغنى المتعارف يكون بحصول المال وللمال اعتباران :

أحدهما : حصوله .

والثاني : عدم إنفاقه . فحصوله يسار ، وعدم إنفاقه على العيال لقلتهم يسار ثان . وأطلق اليسار على قلة العيال مجازاً إطلاقاً لاسم المسبب على السبب .

وأما الثاني : فأراد العقل العملي . ولفظه مجاز في تصرفاته إطلاقاً لاسم السبب على المسبب ومن جملة تصرفاته في التدبير التودد إلى الخلق . ولما كان الإنسان محتاجاً في إصلاح معاشه إلى غيره وكانت معاملته لهم في ذلك إما على وجه التودد وما يلزمه من جميل المعاشرة وحسن الصحبة والمسامحة والترغيب ، وإما على وجه القهر والغلبة والترهيب لا جرم كان التودد وما يلزمه نصف العقل : أي نصف تصرفه في تدبير أمر معاشه .

وأما الثالث : فلأن الهرم إما طبيعي ، وإما لسبب من خارج وهو الهم والحزن والخوف المستلزم له فهو إذن قسيم للسبب الطبيعي . وقسم من أسباب الهرم كالنصف له فاستعار له لفظ النصف وأراد : والهم نصف سبب الهرم .

١٣١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَنْزِلُ الصَّبْرُ عَلَى قَدْرِ الْمُصِيبَةِ ، وَمَنْ ضَرَبَ يَدَهُ عَلَى فَخْذِهِ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ حَبِطَ أَجْرُهُ .

إن الله سبحانه جعل للإنسان قوة استعداد لأن يصبر بمقدار مصيبته فمن تم استعداده أفيض عليه ذلك المقدار من الصبر ومن قصر في الاستعداد لحصول هذه الفضيلة وارتكب ضدها وهو الجزع حبط أجره ، وهو ثوابه على الصبر ، وكُنِيَ عن الجزع بما يلزمه في العادة من ضرب اليدين على الفخذين . وقيل : بل يحبط ثوابه السابق لأن شدة الجزع يستلزم كراهية

قضاء الله وسخطه وعدم الالتفات إلى ما وعد به من ثواب الصابرين وهو معد لمحو الحسنات من لوح النفس وسقوط ما يلزمها من ثواب الآخر :

١٣٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ وَالظَّمَأُ ، وَكَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ وَالْعَنَاءُ ، حَبْدًا نَوْمُ الْأَكْيَاسِ وَإِفْطَارُهُمْ .

أراد بذلك من أخل بشرط من شرائط صيامه وقيامه ولم يأت على وجه الإجزاء ، وأعظم شرط لهما توجههما إلى المعبود الحق عز سلطانه ، وكثرة خلل العبادة وفسادها من كثير من الخلق إنما يكون للجهل بهذا الشرط . وكفى بالقيام عن الصلاة . وإنما مدح نوم الأكياس لأن الكيس هو الذي يستعمل ذكائه وفطنته في طرق الخير وعلى الوجه المرضي للشارع ، ويضع كل شيء موضعه . ومن كان كذلك كان نومه وإفطاره وجميع تصرفاته في عباداته موضوعة موضعها من رضاء الله ومحبه .

١٣٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : سُوسُوا إِيْمَانَكُمْ بِالصَّدَقَةِ ، وَحَصَّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ ، وَأَدْفَعُوا أُمُوجَ الْبَلَاءِ بِالْدُّعَاءِ .

سوسوا : أي املكوا . وذلك أن الصدقة من الإيمان التام مملكه وحفظه لا يكون بدونها ، وأما تحصين المال بالزكاة فلأن منعها إنما يكون عن البخل وشدة الحرص ، وذلك باعث لمستحقها على ذمه وداع للخلق إلى التسبب في أذاه فكان مانعها متعرضاً بذلك لتلف ماله وبأدائها محصناً له . واستعار لفظ الأمواج للحوادث المتواترة وقد مر أن الدعاء بإخلاص مما يعد النفس للإجابة بالمطلوب . وغرضه الحث على الصدقة والزكاة والدعاء .

١٣٤ - وقال (عليه السلام) لكميل بن زياد النخعي رحمه الله ، قال

كميل :

أَخَذَ بِيَدِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَخْرَجَنِي إِلَى الْجَبَّانِ ، فَلَمَّا أَصْحَرَتَنْفَسَ الصُّعْدَاءُ ثُمَّ قَالَ :

يَا كَمِيلُ إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا ، فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ

لَكَ :

النَّاسُ ثَلَاثَةٌ : فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ ، وَهَمَّجٌ رَعَاغٌ ،
أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ . لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ ، وَلَمْ
يَلْجَأُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ .

يَا كَمِيلُ ؛ الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ
الْمَالَ ، وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النِّفَقَةُ وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِتْقَانِ ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ
بِزَوَالِهِ .

يَا كَمِيلُ ؛ الْعِلْمُ دِينٌ يُدَانُ بِهِ ، بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ ،
وَجَمِيلَ الْأُخْدُوَّةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ .

يَا كَمِيلُ ؛ هَلَكَ خُزَانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءُ ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ
الدَّهْرُ ، أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ . هَا إِنَّ هَامُنَا لِعِلْمًا
جَمًّا (وَأَشَارَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى صَدْرِهِ) لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً ، نَلَى أُصِيبُ لَقَنًا
غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ ، مُسْتَعْمِلًا آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا ، وَمُسْتَظْهِرًا بِنِعْمِ اللَّهِ عَلَى
عِبَادِهِ ، وَيُحْجِجُهُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ، أَوْ مُنْقَادًا لِحَمَلَةِ الْحَقِّ لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي
أَحْنَائِهِ ، يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ . أَلَا لَا ذَا وَلَا ذَاكَ ،
أَوْ مَنُهِمًا بِاللَّذَّةِ سَلَسَ الْقِيَادِ لِلشَّهْوَةِ ، أَوْ مُغْرَمًا بِالْجَمْعِ وَالْإِدْخَارِ ، لَيْسَا مِنْ
رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ ، أَقْرَبُ شَيْءٍ شَبَهَا بِهِمَا الْأَنْعَامُ السَّائِمَةُ . كَذَلِكَ يَمُوتُ
الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ .

اللَّهُمَّ بَلِّ . لَا تَخْلُوا الْأَرْضَ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ ، إِمَّا ظَاهِرًا
مَشْهُورًا ، أَوْ خَائِفًا مَغْمُورًا . لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ ، وَكَمْ ذَا ؟ وَأَيْنَ
أُولَئِكَ ، أُولَئِكَ - وَاللَّهِ - الْأَقْلُونَ عَدَدًا ، وَالْأَعْظَمُونَ قَدْرًا ، بِهِمْ يَحْفَظُ اللَّهُ
حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ ،
هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ ، وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ ، فَاسْتَلَانُوا مَا
اسْتَوْعَرَهُ الْمُتَرَفُّونَ ، وَأَنَسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ . وَصَحِبُوا الدُّنْيَا

بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى ، أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ،
وَالدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ . آه آه شَوْقًا إِلَى رُؤْيَيْهِمْ ، أَنْصَرِفْ إِذَا شِئْتَ .

أقول : الجبان : الصحراء . والصعداء : نوع من النفس يصعده
المتلهف والحزين . والهمج : ذباب صغيرة كالبعوض . والرعا : الأحداث
والعوام . واللقن : سريع الفهم . والأحناء : الجوانب . والمنهوم باللذة :
الشره فيها الحريص عليها . والمغرم بالجمع : شديد المحبة له . وهجم :
دخل بغتة .

وفي الفصل نكت :

إحديهما : أنه ^{عليه السلام} أعده ونبهه للفهم عنه بقوله : إن هذه القلوب .
إلى قوله : لك .

الثانية : قسم الناس إلى ثلاثة أصناف . ووجه القسمة أن الناس إما
عالم أو ليس . والثاني : إما طالب للعلم أو ليس . ثم قيّد كلاً من الأقسام
الثلاثة بصفة أو صفات :

فالأول : العالم . ووصفه بالرباني نسبة إلى الرب تعالى على غير
قياس : أي العالم علم ربوبيته وهو العارف بالله تعالى وزيدت الألف والنون
للمبالغة في النسبة ، قال الله تعالى : ﴿ كُونُوا رَبَّانِينَ ﴾ ^(١) وقيل : سموا بذلك
لأنهم يربّون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها . وقيل : لأنهم يربّون
العلم : أي يقومون بإصلاحه .

الثاني : المتعلّم . ووصفه بكونه على سبيل النجاة . ولما كان العلم
سبباً للنجاة في الآخرة وكان المتعلم في طريق تحصيله كان على سبيل النجاة
ليصل إليها بالعلم الذي هو غايته المطلوبة .

الثالث : العوام . ووصفهم بأوصاف :

أحدها : استعار لهم لفظ الهمج باعتبار حقارتهم .

الثاني : وصفهم بالعامية والحدائث لكونهما مظنتي الجهل .

الثالث : كونهم أتباع كل ناعق ملاحظة لشبههم بالغنم في الغفلة والغباوة .

الرابع : كنى بكونهم يميلون مع كل ريح عن ضعفهم عن التماسك في مذهب واحد والثبات عليه .

الخامس : كونهم لم يستضيؤوا بنور العلم وهو كونهم على ظلمة الجهل .

السادس : ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق . واستعار الركن الوثيق للاعتقادات الحقبة البرهانية التي يعتمد عليها في دفع مكاره الآخرة .

الثالثة : في مدح العلم . وتفضله على المال من وجوه :

أحدها : أن العلم يحرس صاحبه من مكاره الدنيا والآخرة والمال يحرسه صاحبه ، والفرق بين ما يكون حارساً لصاحبه وبين ما يحتاج صاحبه إلى حراسته في الفضيلة والنفع ظاهر .

الثاني : أن العلم يزكو ويزيد بإخراجه وإفادته لطالبه لتذكر العالم بتعليمه ومذاكرته لما غفل منه واستنباطه ما لم يكن عنده ، والمال تنقصه النفقة والإخراج منه .

الثالث : أن صنيع المال وهو الإحسان به يزول بزوال المال ، والإحسان بالعلم باق لبقائه . وصنيع : فعيل بمعنى مفعول .

الرابع : كون معرفة العلم - أي تحصيله - ديناً يدان به . وقد علمت كونه الأصل في الدين .

الخامس : كونه يكسب الإنسان طاعة الخلق له في حياته وجميل الأحدث بعد وفاته . وهما من فضائله الخارجية .

السادس : كونه حاكماً على المال والمال محكوماً عليه : أي أن تصرفه في جمعه وإنفاقه إنما يكون على وفق العلم بوجوه تحصيله ومصارفه .

السابع : من أفضليته على المال كون خزان المال هالكين في الآخرة محكوم عليهم بذلك في الدنيا وإن صدق عليهم أنهم أحياء كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ﴾ (١) الآية ، وأما العلماء فباقون أبداً ، وإن فقدت أعيانهم من الدنيا فصورهم في القلوب مشاهدة موجودة .

الرابعة : أشار بعد تقرير كمال هذه الفضيلة إلى أن في صدره منها شيئاً كثيراً . وإنما يمنعه عن إظهاره عدم وجدان من يحمله عنه و - ها - للتنبيه . وجواب - لو - محذوف تقديره لأظهرته .

الخامسة : استثبت من يجده وبه على عدم صلاحيتهم لحمل ما عنده من العلم ، وأشار إلى أربعة أصناف منهم ، ووجه القسمة أن غير أهل العلم من الناس إما طالبون له أو غير طالبين ، والطالبون إما قادرون على القيام بالحجة أو غير قادرين ، وغير الطالبين له هم المشغولون بغيره عنه فاشتغالهم إما بالانهماك في لذاتهم وسهولة الانقياد لشهواتهم ، وإما بمحبة جمع المال ودخاره .

فالأول : هو الخبيث لموصوف برذيلة الجربزة ، وأشار إليه بقوله : بلى أصيب لقناً . إلى قوله : على أوليئه .

وأشار إلى وجوه عدم صلاحيته لحمله :

أحدها : كونه غير مأمون عليه : أي هو مظنة أن يذيعه إلى غير أهله [أن يذيعه - خ -] ويضعه في غير مواضعه . والضمير في قوله : عليه . للعلم .

الثاني : كونه مستعملاً لآلة الدين وهو العلم في الدنيا واستعماله فيها كالتكسب به ، ومستظهماً بنعم الله وهي العلم على عباده كالفخر عليهم ومغالبتهم واستعمال حجة الله وما علمه منها في مقابلة أوليائه وتلبيس الحق بالباطل .

وأما الثاني : ممن لا يصلح لحمله فهو المقلد ، وأشار إليه بقوله :
ومنقاداً . إلى قوله : شبهة . ومنقاداً عطف على لقناً ، وأراد بالانقياد للحق
الإيمان به وتسليمه على سبيل الجملة ، وأشار إلى كونه غير صالح لحمله من
وجهين :

أحدهما : كونه لا بصيرة له في جوانب العلم وتفصيله .

الثاني : كونه ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة . وذلك
لعدم العلم وثباته في نفسه بالبرهان والحجة الواضحة .

وقوله : لا ذا ولا ذاك . أي من حملة العلم .

الثالث : هو المشار إليه بقوله : أو منهوماً . إلى قوله : للشهوة .

والرابع : هو المشار إليه بقوله : أو مغرماً بالجمع والادّخار . وأتبعهما
في معرض الذم لهما بوصفين :

أحدهما : كونهما ليسا من رعاة الدين في شيء : أي لا تعلق لهما
بالدين وأهله .

الثاني : كونهما أقرب شبهاً بهما الأنعام السائمة باعتبار غفلتهما عن
الدين وثمرته في الآخرة . وقوله : كذلك : أي تقارب تلك الأحوال من عدم
من يصلح لحمل العلم ووجدان من لا يصلح له موت العلم بموت حامله لأن
التشبيه يفيد مقارنة الأحوال ، وعنى بحامله نفسه ومن عساه يكون من أهله
يومئذ . ثم استدرك بقوله : اللهم بلى . عدم خلوّ الأرض من قائم لله بحجة
إما ظاهراً أو مستتراً مغموراً في الناس . وأراد بالظاهر من عساه يتمكن من
إظهار العلم والعمل به من أولياء الله وخلفاء أوليائه في موضع من الأرض ،
وبالخائف المغمور إلى من لم يتمكن من ذلك .

قالت الشيعة : هذا تصريح منه عليه السلام بوجوب الإمامة بين الناس في
كل زمان ما دام التكليف باقياً وأن الإمام قائم بحجة الله على خلقه ويجب
بمقتضى حكمته . وهو إما أن يكون ظاهراً معروفاً كالذين سبقوا إلى الإحسان
ووصلوا إلى المحل الأعلى من ولده الأحد عشر ، وإما أن يكون خائفاً مستوراً

لكثرة أعدائه وقلة المخلص من أوليائه كالحجة المنتظر لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

وقوله : وكم ذا . استبطاء لمدة غيبة صاحب الأمر وتبرّم من امتداد دولة أعدائه .

وقوله : أين هم . استقلال لعدد أئمة الدين . ولذلك نبه بقوله : أولئك والله الأقلون عدداً . وذكر في معرض مدحهم أوصافاً :

أحدها : الأقلون عدداً الأعظمون قدراً عند الله .

الثاني : أن بهم يحفظ حججه وبيّناته المشتمل عليها دينه حتى يودعوها أمثالهم ويزرعوها في قلوب أشبههم بعدهم .

الثالث : كونهم : يهجم بهم لعلم على حقيقة البصيرة : أي فاجأهم ودخل على عقولهم دفعة لأن علومهم لدنيّة حدسية ، وقيل : ذلك على المقلوب : أي هجمت بهم عقولهم على حقيقة العلم .

الرابع : وباشروا روح اليقين : أي وجدوا لذته .

الخامس : وستلنوا ما استوعر منه المترفون من لأمر الشاقة كجشوبة المطعم وخشونة المضجع والمببس ومصابرة الصيام والسهر . وذلك في جنب ما وجدوه من لذة اليقين وحلاوة العرفان هيّن لئن عندهم .

السادس : وأنسوا بما استوحش منه لجاهلون ، وهو الأحوال التي ألفوها مما ذكرنا فإن الجاهل لجهله بشمرتها ينفر منها ويستوحش من أهلها .

السابع : وصحبوا الدنيا بأبدان أرواح معلقة بالمحل الأعلى عاشقة لما شاهدته من جمال حضرة الربوبية وصحبة الملا الأعلى من الملائكة . ولما ميّزهم بالأوصاف المذكورة أشار في معرض مدحهم أيضاً إلى أن هؤلاء لما اشتهوا عيه من هذه الأوصاف هم خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه . ثم تأوّه شوقاً إلى رؤيتهم و- آه - كلمة توجع أصلها - أوه - ولفصل من أفصح ما نقل عنه عليه السلام .

١٣٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ .

أي حاله مستورة في عدم نطقه فحذف المضاف للعلم به . وتحت لسانه كناية عن سكوته ، وذلك أن مقداره بمقدار عقله ومقدار عقله يعرف من مقدار كلامه لدلالته عليه فإذا تكلم بكلام الحكماء ظهر كونه حكيماً أو بكلام السفهاء عرف كونه منهم وما بين المرتبتين بالنسبة .

١٣٦ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : هَلَكَ أَمْرٌ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَهُ .

قد علمت أن قدره هو مقداره في نفس الأمر ومنزلته من الفضيلة وعدمها ؛ ومن لم يعرف منزلته أوشك أن يتجاوزها فيهلك . مثلاً من لم يعرف محله من العلم أوشك أن يرفع به فوق محله أو يعنى بما لا يعرف لاعتقاده كماله فيقع في الهلاك الآخروي وربما تبعه هلاك دنياه ، ولزمه من تجاوزه تلعب السنة الناس وأيديهم به وهلاكه بذلك .

١٣٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَجُلٍ سَأَلَهُ أَنْ يَعِظَهُ :

لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ الْعَمَلِ ، وَيُرْجَى التَّوْبَةُ بِطُولِ الْأَمَلِ ، يَقُولُ فِي الدُّنْيَا يَقُولُ الزَّاهِدِينَ . وَيَعْمَلُ فِيهَا بِعَمَلِ الرَّاغِبِينَ ، إِنْ أُعْطِيَ مِنْهَا لَمْ يَشْبَعْ ، وَإِنْ مُنِعَ مِنْهَا لَمْ يَقْنَعْ ، يَعْجُزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُوتِيَ ، وَيَبْتَغِي الزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ ، يَنْهَى وَلَا يَنْتَهِي ، وَيَأْمُرُ بِمَا لَا يَأْتِي ، يُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَا يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ ، وَيُبْغِضُ الْمُنْذِينَ وَهُوَ أَحَدُهُمْ ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِ ، وَيُقِيمُ عَلَى مَا يَكْرَهُ الْمَوْتَ لَهُ ، إِنْ سَقِمَ وَإِنْ صَحَّ ظَلَّ نَادِماً ، أَمِنْ لَاهِيَا ، يُعْجَبُ بِنَفْسِهِ إِذَا عُوْفِيَ ، وَيَقْنَطُ إِذَا آتَبَلِيَ ، إِنْ أَصَابَهُ بَلَاءٌ دَعَا مُضْطَرّاً ، وَإِنْ نَالَ رَخَاءً أَعْرَضَ مُغْتَرّاً ، تَغْلِيهِ نَفْسُهُ عَلَى مَا يَظُنُّ ، وَلَا يَغْلِبُهَا عَلَى مَا يَسْتَقِينُ ، يَخَافُ عَلَى غَيْرِهِ بِأَذْنَى مِنْ ذَنْبِهِ ، وَيَرْجُو لِنَفْسِهِ بِأَكْثَرِ مِنْ عَمَلِهِ ، إِنْ اسْتَغْنَى بِطَرَفَيْنِ ، وَإِنْ أَفْتَقَرَ قَنَطَ وَوَهَنَ ، يُقْصِرُ إِذَا عَمِلَ ، وَيُبَالِغُ إِذَا سَأَلَ ، إِنْ عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ أَسْلَفَ الْمَعْصِيَةَ ، وَسَوَّفَ التَّوْبَةَ ، وَإِنْ عَرَّتْهُ مِحْنَةٌ أَنْفَرَجَ عَنْ شَرَائِطِ الْمِلَّةِ ، يَصِفُ الْعِبْرَةَ وَلَا يَعْتَبِرُ ، وَيُبَالِغُ فِي الْمَوْعِظَةِ وَلَا

يَتَعَظُّ ، فَهُوَ بِالْقَوْلِ مُدِلٌّ ، وَمِنْ أَلْعَمَلِ مُقِلٌّ ، يُنَافِسُ فِيمَا يَفْنَى ، وَيُسَامِحُ فِيمَا يَبْقَى ، يَرَى الْغُنْمَ مَغْرَمًا ، وَالْغُرْمَ مَغْنَمًا ، يَخْشَى الْمَوْتَ ، وَلَا يُبَادِرُ الْفُوتَ ، يَسْتَعْظُمُ مِنْ مَعْصِيَةِ غَيْرِهِ مَا يَسْتَقِلُّ أَكْثَرُ مِنْهُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَيَسْتَكْثِرُ مِنْ طَاعَتِهِ مَا يَحْقِرُهُ مِنْ طَاعَةِ غَيْرِهِ ، فَهُوَ عَلَى النَّاسِ طَاعِنٌ ، وَلِنَفْسِهِ مُدَاهِنٌ ، أَلَلَّهُوْا مَعَ الْأَغْنِيَاءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ مَعَ الْفُقَرَاءِ ، يَحْكُمُ عَلَى غَيْرِهِ لِنَفْسِهِ ، وَلَا يَحْكُمُ عَلَيْهَا لِغَيْرِهِ ، يُرْشِدُ غَيْرَهُ وَيُغْوِي نَفْسَهُ ، فَهُوَ يُطَاعُ وَيَعْصَى ، وَيَسْتَوْفِي وَلَا يُوفِي ، وَيَخْشَى الْخَلْقَ فِي غَيْرِ رَبِّهِ ، وَلَا يَخْشَى رَبَّهُ فِي خَلْقِهِ .

قال الرضي : ولو لم يكن في هذا الكتاب إلا هذا الكلام لكفى به موعظة ناجعة ، وحكمة بالغة ، وبصيرة لمبصر ، وعبرة لناظر مفكر .

أقول : يرجئها : يؤخرها . ويروى : يزجئها - بالزا المعجمة - : أي يدفعها . القنوط : اليأس . وعرته : عرضت له . ومدل : أي واثق .

وحاصل الفصل نهى طالب الموعظة عن أربع وثلاثين رذيلة :

أحدها : رجاء الآخرة وثوابها بغير عمل فإن ذلك منى على الله ، وقد علمت أن المنى بضائع النوكى .

الثانية : ترجية التوبة أو إزجاؤها بطول الأمل فإن ذلك يستلزم البقاء على المعصية والعذاب بها في الآخرة .

الثالثة : أن يجمع بين قول الزاهدين في الدنيا وعمل الراغبين فيها ، وهو خداع لله . وعمله فيها عمل الراغبين يستلزم أن يصيبه ما أصابهم من عذاب الآخرة بها .

الرابعة : أن لا يشبع مما يعطى منها . وذلك رذيلة الشره والحرص .

الخامسة : أن لا يقنع إن منع . وذلك رذيلة التفريط من فضيلة القناعة .

السادسة : أن يجمع بين العجز عن شكر ما أوتي من نعمة الله وبين

طلب الزيادة من فاضلها . وهو جمع بين رذيلة التفريط من فضيلة الشكر وبين رذيلة الحرص .

السابعة : أن يجمع بين نهيه عن المعاصي وعدم تناهيه عنها وهو نفاق وخداع لله .

الثامنة : أن يأمر بما قصر عن فعله . وهو كالذي قبله .

التاسعة : أن يحب الصالحين ويقصر عن عملهم . وتقصيره النقض على محبته لهم .

العاشرة : أن يبغض المذنبين وهو أحدهم . فيكون فعله كالنقض على بغضه لهم .

الحادية عشر : أن يكره الموت لكثرة ذنوبه ويقوم على ما يكره الموت له من كثرة الذنوب بإقامته على ذنوبه كالنقض على كراهيته للموت لأجلها مع ما يلزمها من العذاب الأخروي .

الثانية عشر : أن يجمع بين ندمه حال سقمه على تفريطه في جنب الله وبين لهوه في لذته حال أمنه وهو أيضاً كالتناقض .

الثالثة عشر : أن يعجب بنفسه حين عافيته فإن العجب من المهلكات .

الرابعة عشر : أن يقنط إذا ما ابتلاه ربه ويأس من رحمته . وذلك كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١) .

الخامسة عشر : أن يجمع بين دعاء الله باضطراب إليه عند نزول البلاء به وبين الإعراض عنه والاعتزاز بالدنيا عند إصابته للرخاء فإن الأول رذيلة إفراط والثاني رذيلة تفريط .

السادسة عشر : أن يجمع بين الانقهار لنفسه والانقياد لها إلى ما يظنه فائدة من الأمور الدنيوية وبين عدم قهرها وغلبها إلى ما يستيقنه من ثواب

الآخرة وعذابها فلا يلزمها العمل لذلك فإن ذلك عند العقل سفه وجنون .

السابعة عشر : أن يجمع بين الخوف على غيره من ذنوب هي أقل من ذنوبه وبين الرجاء لنفسه ثواباً أكثر مما يستحق على عمله فإن الحق من ذلك أن يخاف على نفسه أكثر من الخوف على غيره لأكثرية ذنوبه ويعمل لذلك الخوف .

الثامنة عشر : أن يبطر ويفتن إن أصاب غنى فإن ذلك فجور .

التاسعة عشر : أن يقنط ويضعف إن يفتقر وهو رذيلة تقصير وتفريط .

العشرون : أن يقصر في العمل .

الحادية والعشرون : أن يبالغ إذا سئل وهو رذيلة الإلحاف في السؤال .

الثانية والعشرون : أن يقدم المعصية إن عرضت شهوته ويؤخر التوبة منها .

الثالثة والعشرون : أن يفرج عن شرائط الملة عند نزول المحنة به : أي يخرج من فضيلة الصبر على المصيبة الذي هو شرط الملة ويتركها .

الرابعة والعشرون : أن يجمع بين وصف العبرة وبين عدم الاعتبار .

الخامسة والعشرون : أن يبالغ في الموعظة حال ما لا يتعظ فإن ذلك يدخله في مقت الله تعالى لقوله : ﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾^(١) .

السادسة والعشرون : أن يجمع بين المنافسة فيما يفنى وهو الدنيا والمسامحة فيما يبقى وهو ثواب الآخرة وهو جهل وسفه ظاهر .

السابعة والعشرون : أن يرى الغنم مغرمًا كالإنفاق في سبيل الله . والغرم مغنمًا كالإنفاق في معصيته ، وهو عكس مقتضى العقل .

الثامنة والعشرون : أن يجمع بين خشية الموت وعدم مبادرته بالأعمال الصالحة المستلزمة للخلاص من أهواله وما بعده .

التاسعة والعشرون : أن يستعظم من معصية غيره ما يستقل أكثر منه من نفسه ، وكذلك يستكثر من طاعته ما يحقره من طاعة غيره . ويلزم من ذلك أن يكون طاعناً على الناس في أفعالهم ومداهاً لنفسه في فعلها .

الثلاثون : أن يكون اللهم مع الأغنياء أحب إليه من ذكر الله مع الفقراء . وذلك لفراط محبة الدنيا .

الحادية والثلاثون : أن يحكم لنفسه على غيره فيما يشتهيهِ وإن كان باطلاً ولا يحكم عليها لغيره في حق وهو ظلم .

الثانية والثلاثون : أن يجمع بين إرشاد غيره بالهادي من القول وبين إغواء نفسه بفعله : أي يعمل عمل الغاوين . ويلزم ذلك أن يطيعه غيره وهو يعصي الله .

الثالثة والثلاثون : أن يستوفي ما له على غيره ولا يوفي ما عليه من حق الله أو حق خلقه .

الرابعة والثلاثون : أن يجمع بين خشية الخلق في غير الله : أي في أمر ليس لله وبين عدم خشية الله في خلقه ، ويلزم الأول أن يرضيهم بما يسخط الله ، ويلزم الثاني أن يسخط الله بما يسخط خلقه ، وأكثر هذه مشتملة من علم الفصاحة على التقابل والتضاد وردّ العجز على الصدر .

١٣٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ حُلْوَةٌ أَوْ مُرَّةٌ .

وأشار إلى غايته من حركاته الخيرية والشرية . فغاية الخيرية الجنة ولذاتها وهي العاقبة الحلوة . وغاية الشرية النار وعذابها وهي العاقبة المرة . واستعار لفظي الحلوة والمرة للذيد والمكروه .

١٣٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لِكُلِّ مُقْبِلٍ إِدْبَارٌ ، وَمَا أُدْبِرَ كَانَ لَمْ يَكُنْ .

وأراد المقبل من لذات الدنيا في معرض التزهيد والمقبل من شدائد

في معرض تهوينها وتسهيلها. وكأن من أخوات إن مخففة واسمها محذوف.
١٤٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا يَعْدَمُ الصَّبُورُ الظُّفْرَ وَإِنْ طَالَ بِهِ الزَّمَانُ .

فالصبور : كثير الصبر . ورغب فيه بما يلزمه من الظفر وإن تأخر .
وذلك عند كمال استعداد الصبور بالصبر وقوته .

١٤١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الرَّاغِبُ بِفِعْلِ قَوْمٍ كَالدَّاخِلِ فِيهِ مَعَهُمْ ، وَعَلَى كُلِّ دَاخِلٍ فِي بَاطِلٍ إِثْمَانٌ : إِثْمُ الْعَمَلِ بِهِ ، وَإِثْمُ الرِّضَى بِهِ .

ووجه التشبيه اشتراكهم في الرضا به المستلزم للميل إليه ومناسبته لطبعه . ونفر عن الدخول في الباطل بما يلزمه من الإثمين : أما إثم العمل فظاهر ، وأما إثم الرضا فلأن الرضا بالباطل يستلزم محبته وهي رذيلة وإثم .

١٤٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : بِعْتَصِمُوا بِالذَّمِّ فِي أَوْتَادِهَا .

فالذم : العهود والعقود والأيمان . واستعار لفظ الأوتاد لشرائط العهود وأسباب إحكامها كأنها أوتاد حافظة لها . وأراد امتنعوا من سخط الله وعذابه بحفظ الذم في أوتادها فكان العصمة منه تكون في أسباب حفظها و - في - متعلق باعتصموا . وروي : استعصموا .

١٤٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : عَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ مَنْ لَا تُعْذِرُونَ بِجَهَالَتِهِ .

يريد الله تعالى . وقيل : هو إيجاب لطاعة من يجب طاعته من أئمة الحق الذين يجب العلم بحقيّة إمامتهم ولا يعذر الناس في الجهل بهم لتعلم قوانين الدين وأحكامه منهم .

١٤٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : قَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ ، وَقَدْ هُدِيتُمْ إِنْ أَهْتَدَيْتُمْ ، وَأُسْمِعْتُمْ إِنْ أَسْتَمَعْتُمْ .

أي قد بصرتكم سبيل الرشاد وهديتكم إليها وأسمعتكم الدلالة عليها إن كان لكم استعداد أن تبصروها وتسمعوها وتهتدوا إليها . وقد مرّ مثله .

١٤٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : عَاتِبْ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَآرُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ .

أي اجعل مكان عتابه بالقول والفعل الإحسان إليه والإنعام في حقه فإنهما أنفع في عطف جانبه إليك ودفع شره عنك . والعتاب مستعار للإحسان لاستلزامهما رجوع المعاتب .

١٤٦ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مَوَاضِعَ التُّهْمَةِ فَلَا يُلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنُّ .

لأنه هو السبب في إساءة الظن بنفسه ولا لوم على من أساء به الظن لأن ظنه ذلك مستند إلى أمانة من شأنها توليد الظن .

١٤٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ثَلَاثَ كَلِمَاتٍ :

مَنْ مَلَكَ اسْتَأْثَرَ ، وَمَنْ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ ، وَمَنْ شَاوَرَ الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُولِهَا .

إحديها : من ملك استأثر : أي استبد . وأراد أن الملوك من شأنهم الاستبداد بالأمور المرغوب فيها والانفراد وذلك لتسلطهم وعدم المنازع لقواهم الأمرة بالسوء فيهم . وهي كالمثل يضرب لمن غلب على أمر فاختص به ومنعه غيره .

الثانية : ومن استبد برأيه هلك . لأن انفراد الإنسان برأيه وعدم قبوله للنصيحة واستشارته في الحرب ونحوها مظنة الخطأ فيه المستلزم للهلاك فكأنه قال : من استبد برأيه فهو في مظنة الهلاك فأقام الهلك مقام مظنته مجازاً إطلاقاً لما بالفعل على ما بالقوة .

الثالثة : ومن شاور الرجال شاركها في عقولها . وذلك أنه يستتج فيها الرأي الأصالح ليعمل به فكان عقول الرجال بأسرها حاصلة لانتفاعه بثمرتها وهو ترغيب في الاستشارة .

١٤٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتْ الْخَيْرَةُ بِيَدِهِ .

وهو ترغيب في كتمان السر : أي كان مختاراً في إذاعته وكتمانه بخلاف من أذاع سره فإنه لا يتمكن بعد ذلك من كتمانته .

١٤٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْفَقْرُ الْمَوْتُ الْأَكْبَرُ .

استعار له لفظ الموت بوصف الأكبر . أما كونه موتاً فلانقطاع الفقير عن مشتبهاته ومطلوباته التي هي مادة الحياة ، وتآلمه لفقدائها . وأما أنه أكبر فلتعاقب آلامه على الفقير مدة حياته ، وأما ألم الموت ففي وقت واحد . وهو مبالغة في شدته .

١٥٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ قَضَى حَقَّ مَنْ لَا يَقْضِي حَقَّهُ فَقَدْ عَبَدَهُ .

أراد قضاء الحق بين الإخوان . وإنما كان كذلك لأن قضاء الغير عنه لحق من لا يقضي حقه لا يكون لوصول نفع منه ولا دفع مضرة المرء ؛ بل يكون عملاً له لأنه هو أو خوفاً منه أو طمعاً فيه وذلك صورة عبادة .

١٥١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ .

وذلك كالوضوء بالماء المغصوب والصلاة في الدار المغصوبة . ويحمل النفي هنا على نفي جواز الطاعة كما هو المنقول عنه وعن أهل بيته عليهم السلام . وعند الشافعي قد يصح الطاعة والنفي لفضيلتها .

١٥٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا يُعَابُ الْمَرْءُ بِتَأْخِيرِ حَقِّهِ إِنَّمَا يُعَابُ مَنْ أَخَذَ مَا لَيْسَ لَهُ .

أخذ الحق قد يكون واجباً لمن هو له وقد يكون مندوباً ، وأقله أن يكون مباحاً ولا حرج في أمر المباح . وأما أخذ ما ليس له فظلم وهو من أقبح الرذائل التي يعاب بها المرء .

١٥٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْإِعْجَابُ يَمْنَعُ مِنَ الْإِرْذِيَادِ .

إعجاب المرء بفضيلته الداخلة كعلمه أو الخارجة كغناه وقبيلته إنما يكون عن تصور كماله فيها واعتقاده أنه قد بلغ منها الغاية ، والاعتقاد يمنعه

عن طلب الزيادة منها .

١٥٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْأَمْرُ قَرِيبٌ ، وَالْإِصْطِحَابُ قَلِيلٌ .

أراد أمر الله وهو الموت والإصطحاب في الدنيا .

١٥٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : قَدْ أَضَاءَ الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ .

هو تمثيل . واستعار لفظ الصبح لسبيل الله ووصف الضياء لوضوحها وظهورها بوصف الشارع ودلالته عليها ، ويحتمل أن يكون ذلك تمام وصف سبق منه للحق . كأن سائلاً سأل عن أمر فشرحه له مرة أو مراراً ، وهو يستزيده فقال له هذا القول أي قد أوضحت لك الحق إن كنت تبصر .

١٥٦ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : تَرَكُ الذَّنْبَ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ .

الترك لا كلفة فيه لكونه عدماً وطلب التوبة من الله يحتاج إلى استعداد شديد يصلح معه العبد لقبولها منه وإفاضة العفو عليه .

١٥٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : كَمْ مِنْ أَكْلَةٍ مَنَعَتْ أَكْلَاتٍ .

وهو يجري مجرى المثل يضرب لمن يفعل فعلاً يكون سبباً لحرمائه ما كان يناله من خير سابق . وأصله أن الرجل يمتليء من الطعام فيتخم ويمرض فيحتاج إلى الحمية والامتناع من الأكل . وفي معناه : من يعاشر ملكاً ويسعد بالانبساط معه فيكون ذلك سبباً لبعده عنه وزوال سعادته منه .

١٥٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا .

الجهل بالشيء مستلزم لعدم تصور منفعة العلم به فيحصل الجاهل من ذلك على اعتقاد أنه لا فائدة في تعلمه فيستلزم ذلك مجانته له ، ثم يتأكد تلك المجانية والبعد بكون العلم أشرف فضيلة يفخر بها أهله على الجهال ويكون لهم بها الحكم عليهم وانتقاصهم وحطهم عن درجة الاعتبار ، مع اعتقاد الجهال لكمالهم أيضاً لذلك . فيشتد لذلك مجانبتهم للعلم وأهله وعداوتهم لهذه الفضيلة .

١٥٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ اسْتَقْبَلَ وُجُوهَ الْأَرَاءِ عَرَفَ مَوَاقِعَ الْخَطَا .

لا شك أن المتصفح لوجوه الآراء والمفكر في أيها أصوب لا بد أن يعرف مواقع الخطأ في الأمور ومظانها . وهو ترغيب في الاستشارة والفكر في استصلاح الأعمال قبل الوقوع فيها .

١٦٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ أَحَدَّ سِنَانَ الْغَضَبِ لِلَّهِ قَوِيَ عَلَى قَتْلِ أَشْدَاءِ الْبَاطِلِ .

لما كان تعالى هو العزيز المطلق كان استناد قوة الغضب والحمية له إلى عزته . وصولة الغاضب اعتزازاً به أشد بكثير من صولته بدون ذلك الاستناد وبحسب تأكيد القوة بعزة الله يكون ضعفها بالاستناد إلى الباطل المضاد لدينه . ولذلك قهر أولياء الله على قتلهم في مبدأ الإسلام أعداءه على كثرتهم . وأطاع هو سنان . وقع بب خير على شدته أو قتل جبابرة العرب . واستعار لفظ السنان لحدة الغضب باعتبار استلزامها للنكاية في العدو ، ورشح بذكر أحد .

١٦١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِذَا هَبْتَ أَمْرًا فَقَعْ فِيهِ فَإِنَّ شِدَّةَ تَوَقُّيهِ أَعْظَمُ مِمَّا تَخَافُ مِنْهُ .

إن للنفوس فيما يتوقع مكروهه انفعالاً كثيراً وفكراً عظيماً في كيفية دفعه والخلاص منه ، وذلك أصعب بكثير من الوقوع فيه لطول زمان الخوف هناك وتأكده بتوقع الأمر المخوف . ورغب في الوقوع فيه بضمير صغراه قوله : فإن . إلى آخره . وتقدير كبره : وكلما كان أعظم مما يخاف من الشيء فينبغي أن يعدل عنه إلى الوقوع فيه . ينتج أن شدة توقيه ينبغي أن يعدل عنها إلى الوقوع فيه .

١٦٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : آلَةُ لَرِّيَاسَةِ سَعَةِ الصَّدْرِ .

سعة الصدر فضيلة تحت الشجاعة وهي أن لا يدع الإنسان قوة التجلد عند ورود الأحداث المهمة عليه واعتلاجها ولا يحار أو يدهش فيها . بل يتحملها ويستعمل الواجب في معناها . وقد يسمى ذلك رحب الذراع . وهي

من أعظم لوازم الرياسة الحقبة التي ينبغي لها إذ الرياسة مظنة ورود الأحداث المهمة والخطوب العظيمة وأحوال الخلق المختلفة . فمن لم يكن محتملاً لهذه الأمور وسيع الصدر بها فلا بد أن يحار فيها ويدهش فيما يرد عليه منها فيعجز عن تدبيرها ويلزم ذلك فساد دولته وزوال رياسته .

١٦٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِرْجُرِ الْمُسِيءَ بِثَوَابِ الْمُحْسِنِ .

تصور المسيء جزاء المحسن بإحسانه يدعوه إلى الإحسان والرجوع عن الإساءة فكانت المجازاة بالإحسان كالزجر للمسيء في استلزامها ارتداعه وانزجاره . فاستعير لفظ الزجر لها .

١٦٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَحْصِدِ الشَّرَّ مِنْ صَدْرٍ غَيْرِكَ بِقَلْعِهِ مِنْ صَدْرِكَ .

أغلب ما ينشأ الشر في صدر العدو بسبب ما يتخيله في عدوه من إضممار الشر له وظن ذلك فيه ، وذلك التخيل والظن لا بد أن يكون عن أمرة حركات عدوه وفلتات لسانه بالقول في حقه ما دامت عداوته وإضممار الشر له قائماً في صدره فإذا محا ما أضممر له من العداوة والشر زالت أمارات ذلك من لسانه ووجهه ، وبحسب ذلك ينقص تخيل العداوة ويضعف سوء ظن العدو به ولا يزال يتأكد بعدم تلك الأمارات وبأمارات حالية أو مقالية تظهر منه إلى أن ينمحي ذلك الظن في حقه . واستعار لفظ الحصد لإزالته ملاحظة لشبهه بالزرع في زيادته بسقي تلك الأمارات من عدوه وتواترها ، ونقصانه وعدمه بعدمها .

١٦٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَلَلْجَجَةُ تَسُلُّ الرَّأْيَ .

أي تأخذه وتذهب به . وذلك أن الإنسان قد يطلب شيئاً والرأي الحق هو الثاني في طلبه والتثبت فيه . فيحمله طبعه على اللجاجة فيه حتى يكون ذلك سبباً لفواته ، واستعار لفظ السل له ونسبه إلى اللجاجة مجازاً باعتبار أنها هي المعونة له فكانها أخذته وغيبته .

١٦٦ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ .

استعار لفظ الرق للطمع باعتبار ما يستلزمه من التعبد للمطموع فيه والخضوع له كالرق ، وتأنيده باعتبار دوام التعبد بسببه فإن الطامع دائم العبودية لمن يطمع فيه ما دام طامعاً وهو في ذلك كلدائم من الرق .

١٦٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ثَمَرَةُ الْحَزْمِ السَّلَامَةُ ، وَثَمَرَةُ التَّفْرِيطِ النَّدَامَةُ .

التفريط إضاعة الحزم في الأمور ، ولما عرفت أن الحزم عبارة عن تقديم العمل للحوادث الممكنة المستقبلية بما هو أقرب إلى السلامة وأبعد من الغرور لا جرم كان ذلك مظنة السلامة منها ، وكنت إضاعته والتفريط في العمل لما يستقبل من الحوادث مظنة الوقوع فيها وعدم السلامة من بلائها وهو مستلزم للندامة على التفريط فيها . فكانت الندامة من ثمراته .

١٦٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا خَيْرَ فِي الصَّمْتِ عَنِ الْحُكْمِ كَمَا أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي الْقَوْلِ بِالْجَهْلِ .

الصمت عن النطق بالحكمة طرف تفريط من فضيلة القول ، والنطق عن الجهل رذيلة مضادة لها ، والحق العدل هو النطق بالحكمة وهو الفضيلة النطقية .

١٦٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَا اخْتَلَفَتْ دَعْوَتَانِ إِلَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا ضَلَالَةً .

الاختلاف الحقيقي إنما يكون بين النقيضين . ولما كانت الدعوة إما إلى الحق وهو سلوك سبيل الله أو إلى غيره . وكان كل ما عدا الحق مما يدعي إليه فهو ضلال عن الحق وعدول عن سبيل الله لا جرم لم يختلف دعوتان إلا كانت إحداهما حقاً والأخرى ضلالة أو مستلزماً للضلال ، وهذا يستلزم بطلان كون كل مجتهد مصيئاً . ومذهبه المنقول عنه عليه السلام أن الحق واحد وفي جهة والمصيب له واحد .

١٧٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَا شَكَّكَ فِي الْحَقِّ مُدُّ أَرِيَّتُهُ .

من كان له استعداد درك الحق كمثله عليه السلام ، واستاذ كرسول الله

عليه السلام في إعداده وتربيته ، وطول صحبة لمثل ذلك الأستاذ كصحبه فمحال أن يعرض له شك في أمر يرى برهانه ويحرم من الحق .

١٧١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَا كَذَبْتُ ، وَلَا كُذِّبْتُ ، وَلَا ضَلَلْتُ ، وَلَا ضَلَّ بِي .

أما عدم كذبه وضلاله فلتربيته من حين الطفولية بالصدق ومكارم الأخلاق حتى صار ذلك ملكة له تنافي الكذب والضلal وتعضم منهما . وأما كونه لم يكذب فيما أخبر به من الحوادث المستقبلية والعلوم الغيبية ، ولم يضل به فلكون مخبره معصوماً وهو الرسول ﷺ والعصمة منافية للأميرين ومستلزمة لهداية المدلول وعدم زيغه .

١٧٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لِلظَّالِمِ الْبَادِي غَدَاً يَكْفُهُ عِصَّةٌ .

احترز بالبادي عن المجازي للظلم بمثله ، وكنى بغد عن يوم القيامة وبعض كفه عن ندامته على تفريطه في جنب الله كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ والغرض التنفير عن الظلم .

١٧٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الرَّحِيلُ وَشَيْكٌ .

أي قريب ، وأراد الرحيل إلى الآخرة في معرض الوعظ والتخويف بالموت .

١٧٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ .

أي من تجرد لنصرة الحق في مقابلة كل أحد هلك عند جهلة الناس لضعف الحق عندهم وغلبة حب الباطل على نفوسهم . وكنى بإبداء صفحته عن إظهار نفسه ونصبها لذلك . وقد مرّ بيانه .

١٧٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ لَمْ يَنْجِهْ الصَّبْرُ ، أَهْلَكَهُ الْجَزَعُ .

قد تكون المصيبة عظيمة تستلزم الجزع المهلك بسببها وحينئذ يجب أن يقابل الجزع فيها بصبر ينجي من الهلاك ، والتقدير من لم يصبر على المصيبة لينجوف جزع هلك . ويحتمل أن يريد الهلاك الآخروي : أي من لم

ينجيه فضيلة الصبر هلك برذيلة الجزع . وهو تنفير عن الجزع وحث على الصبر .

١٧٦ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَاعْجَبَاهُ أَتَكُونُ الْخِلَافَةُ بِالصَّحَابَةِ وَالْقَرَابَةِ .

قَالَ الرَّضِي : وَرُوي لَهُ شِعْرُي هَذَا الْمَعْنَى :
فَإِنْ كُنْتَ بِالشُّورَى مَلَكَتْ أُمُورَهُمْ فَكَيْفَ بِهِذَا وَالْمُشِيرُونَ غُيِّبُ
وَإِنْ كُنْتَ بِالْقُرْبَى حَجَجْتَ خَصِيمَهُمْ فَغَيْرُكَ أَوْلَى بِالنَّبِيِّ وَأَقْرَبُ

روي هذا القول عنه بعد بيعة عثمان وهو صورة جواب ما كان يسمعه من تعليل استحقاق عثمان للخلافة تارة بالشورى وتارة بأنه من أصحاب رسول الله ﷺ .

تقريره : أن استحقاقه للخلافة إما أن يكون معللاً بالشورى أو بصحبة رسول الله أو بقربته . فإن كان الأول فكيف يملك عثمان أمور الناس للشورى وأكثر من يستحق الاستشارة منهم لم يكونوا حاضرين ؟ وذلك معنى إشارته بقوله : فإن كنت بالشورى . إلى تمام البيت ، وإن كان الثاني فكيف يملك أمورهم بلصحة بوجود من له لصحة التامة والقربة معاً ؟ بل يكون هذا أولى ، وإن كان الثالث فغيره أولى منه بالنبي وأقرب إليه . وعنى نفسه في الوجهين . وقوله : فكيف بهذا . أي فكيف يملكه بهذا .

١٧٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّمَا الْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَایَا ، وَنَهَبُ بُبَادِرَةِ الْمَصَائِبِ ، وَمَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرْقٌ ، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غُصَصٌ ، وَلَا يَنَالُ الْعَبْدُ نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقٍ أُخْرَى . وَلَا يَسْتَقْبِلُ يَوْمًا مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا بِفِرَاقٍ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ ، فَتَحْنُ عَوَانُ الْمُنُونِ ، وَأَنفُسُنَا نُصَبُ الْحَتُوفِ ، فَمِنْ أَيْنَ نَرْجُو الْبَقَاءَ وَهَذَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَمْ يَرْفَعَا مِنْ شَيْءٍ شَرْفًا إِلَّا أَسْرَعَا الْكَرَّةَ فِي هَدْمِ مَا بَنَيْنَا وَتَفْرِيقِ مَا جَمَعْنَا ؟ !

الانتضال : الرمي . وهذا فصل لطيف من الموعظة وقد اشتمل على ثمان كلمات من الموعظة :

إحديها : استعار لفظ الغرض للإنسان باعتبار رمية بمقدمات المنايا وأسبابها من الأمراض والأعراض المهلكة . ووصف الانتضال لذلك الرمي كأن المنايا هي الرامية .

الثانية : استعار لفظ النهب بمعنى المنهوب باعتبار سرعة المصائب إلى أخذه .

الثالثة : كنى عن تنغيص لذات الدنيا بما يشوبها ويخالطها من الأعراض والأمراض بقوله : مع كل جرعة . إلى قوله : غصص .

الرابعة : كون العبد لا ينال نعمة إلا بفراق أخرى . إذ النعمة الحقة هي اللذة وما يكون وسيلة إليها نعمة بواسطتها . وظاهر أن النفس في الدنيا لا يمكن أن تحصل عى لذتين دفعة بل ما لم ينتقل عن لذة أولى ويتوجه نحو اللذة الحادثة لا يحصل لها الالتذاذ بها .

الخامسة : ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجله لأن طبيعة الزمان التقضي والسيلان .

السادسة : كوننا أعوان المنون باعتبار أن كل نفس وحركة من الإنسان فهي مقربة له إلى أجله فكأنه ساع نحو أجله ومساعد عليه .

السابعة : كون نفوسنا نصب الحتوف . ونصب بمعنى منصوبة كالغرض .

الثامنة : الاستفهام عن جهة رجاء البقاء استفهام إنكار لوجودها مع وجود الزمان الذي من شأنه أنه لم يرفع بشيء شرفاً ويجمع الأمر شملًا إلا أسرع العود في هدم ما رفع وتفريق ما جمع : أي أعد للثاني كما أعد للأول .

١٧٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا أَبْنُ آدَمَ ! مَا كَسَبْتَ فَوْقَ قُوَّتِكَ فَأَنْتَ فِيهِ خَازِنٌ لِغَيْرِكَ .

إذ اكتساب الزيادة على القوت والمؤونة بقدر الحاجة وأدخاره غير نافع . بل مضر للمدخر . إذ من ضرورته مفارقة ما أدخره ووصوله إلى الوارث

وغيره . فهو إذن يشبه الخازن فاستعار لفظه له . وهو تنفير عن البخل بالفضل من المال عن قدر الحاجة .

١٧٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ لِلْقُلُوبِ شَهْوَةً ، وَإِقْبَالَ ، وَإِدْبَاراً فَاتُّوْهَا مِنْ قَبْلِ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَا ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أَكْرَهَ عَمِي .

أراد بالإقبال الميل ، وبالإدبار النفرة عن ملال ونحوه . وأمر بإعمال النفوس فيما ينبغي إعمالها فيه من فكر ونظر ، وحملها على ذلك حين ميلها إليه وإقبالها عليه لأن ذلك بنشاط في القوى النفسانية ومعاونة ومواتاة للنفس . ونفر عن حملها عليه مع النفرة عنه والكراهية له بضمير صغراه قوله : فإن القلب إذا أكره عمي : أي إن إكراه النفس على الفكر في الشيء حين نفرتها عنه عن ملال أو ضعف قوة ونحوه يزيد كراهية له ونفرة ويقوم لها بذلك مانع من الوهم ، والخيال عن إدراك ما تفكر فيه فلا يدركه وإن كن واضحاً حتى يكون كالأعمى ولذلك استعار له وصف الأعمى ، وتقدير كبراه : وكلما كان عماه في إكراهه على شيء فلا يجوز كراهته .

١٨٠ - وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ : مَتَى أَشْفِي غَيْظِي إِذَا غَضِبْتُ ؟ أَحِينَ أَعْجَزُ عَنِ الْإِتِّقَامِ فَيُقَالَ لِي لَوْ صَبَرْتُ ؟ أَمْ حِينَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ فَيُقَالَ لِي لَوْ عَفَوْتُ ؟ !

استفهم عن وقت جواز شفاء الغيظ استفهام إنكار لوجوده في معرض التنفير عن هذه الرذيلة : ونفر عنها بقوله : أحين . إلى آخره ، وذلك أنه إما حين العجز عن الانتقام أو حين القدرة عليه . وشفاء الغيظ في الوقت الأول لا يجوز لأنه يكون بالسب والشناعة وتقطيع العرض ونحوه وذلك مستلزم للأئمة لخلق وتعييبهم وقولهم في الحث على فضيلة الصبر : لو صبرت لكان أولى . وفي لثاني أيضاً لا يجوز لاستلزام الشروع في العقوبة لأئمة الخلق والعدول عن فضيلة العفو التي هي أولى ، وقول الناس عليها : لو عفوت وأن العفو بك أولى .

١٨١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَدْ مَرَّ بِقَدَرٍ عَلَى مَرْبَلَةٍ : هَذَا مَا بَخِلَ بِهِ الْبَاخِلُونَ .

وَرُوي فِي خَبَرٍ آخَرَ أَنَّهُ قَالَ : هَذَا مَا كُنتُمْ تَتَنَافُسُونَ فِيهِ بِالْأُمْسِ .

أشار إليه بذلك لأنه غاية ما بخل به الباخلون وتنافس الناس فيه من المال والطعام إقامة للغاية مقام ذي الغاية .

١٨٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَمْ يَذْهَبْ مِنْ مَالِكَ مَا وَعَظَكَ .

أي القدر الذي يذهب من مالك على طريق امتحان الله وابتلائه لك بأمر يذهبه فيحصل لك بذهابه موعظة لا يعدد مالا ذاهبا بل كأنه باق لبقاء منفعته وشرف ثمرته وهي الموعظة .

١٨٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَمَّا سَمِعَ قَوْلَ الْخَوَارِجِ « لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ » : كَلِمَةً حَقٌّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ .
وقد مر تفسيره .

١٨٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صِفَةِ الْغَوَغَاءِ : هُمُ الَّذِينَ إِذَا اجْتَمَعُوا غَلَبُوا ، وَإِذَا تَفَرَّقُوا لَمْ يُعْرِفُوا وَقِيلَ : بَلْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : هُمُ الَّذِينَ إِذَا اجْتَمَعُوا ضُرُّوا ، وَإِذَا تَفَرَّقُوا نَفَعُوا فَقِيلَ : قَدْ عَرَفْنَا مَضْرَّةَ اجْتِمَاعِهِمْ فَمَا مَنَفَعُهُ أَفْتَرَأَقِيهِمْ ؟ فَقَالَ : يَرْجِعُ أَصْحَابُ الْمِهْنِ إِلَى مِهْنَتِهِمْ فَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهِمْ . كَرَجُوعِ الْبَنَاءِ إِلَى بَنَائِهِ ، وَالنَّسَاجِ إِلَى مَنَسَجِهِ ، وَالْخَبَّازِ إِلَى مَخْبَزِهِ .
المهنة : الحرفة والصناعة . والفصل ظاهر .

١٨٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَأَتَيْ بِجَانٍ وَمَعَهُ غَوَغَاءٌ فَقَالَ : لَا مَرْحَبًا بِوُجُوهِ لَا تَرَى إِلَّا عِنْدَ كُلِّ سَوْءَةٍ .
أي لا ترى مجتمعة . إذ العوام لا تجتمع غالبا إلا في مثل ذلك .
فكلام الخطيب على أغلب الأحوال . والسوءة : فعلة من السوء .

١٨٦ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنْ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ مَلَكَ يَحْفَظَانِهِ ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدَرُ خَلِيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، وَإِنْ الْأَجَلَ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ .
أي إذا جاء القدر بموته على وفق القضاء الإلهي وهو كقوله تعالى :

﴿ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت﴾^(١) الآية : واستعار لفظ الجنة بوصف الحصينة للأجل ، وقد بينا ذلك في قوله : وإن علي من الله جنة حصينة .

١٨٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ قَالَ لَهُ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ : نُبَايَعُكَ عَلَى أَنْ شُرَكَائِكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ : لَا وَلَكِنَّا شَرِيكَاكَ فِي الْقُوَّةِ وَالْإِسْتِعَانَةِ ، وَعَوْنَانِ عَلَى الْعَجْزِ وَالْأَوْدِ .

الأود : الاعوجاج .

وقوله : وعونان على العجز والأود .

أي دفع ما يعرض منهما أو حال وجودهما لأن كلمة على تفيد الحال .

١٨٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَيُّهَا النَّاسُ ، اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِنْ قُلْتُمْ سَمِعَ ، وَإِنْ أَضْمَرْتُمْ عَلِمَ ، وَبَادَرُوا الْمَوْتَ الَّذِي إِنْ هَرَبْتُمْ [مِنْهُ] أَدْرَكَكُمْ ، وَإِنْ أَقَمْتُمْ أَخَذَكُمْ ، وَإِنْ نَسِيتُمْ ذَكَرَكُمْ .

ولمعنى ظاهر . رغب في تقوى الله والخشية منه باعتبار سمعه لم يقول العبد وعلمه بضميره . حذف المفعولين للعلم بهما : أي سمع مقالكم وعلم ضميركم . ورغب في مبادرة الموت ومسايقته بالأعمال لصالحه إلى حفظ النفوس بها من عذاب الآخرة وهول الموت ، ونفر منه ليسارع إلى مبادرته بكونه لا ينجو منه أحد . واستعار لوروده على الإنسان لفظ الذكر في مقابلة النسيان ملاحظة لشبهه بالقاصد له عن علم به .

١٨٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا يُزْهَدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لَا يَشْكُرُكَ لَكَ ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ ، وَقَدْ تُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الْكَافِرُ ، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

نهى عن الزهد في المعروف بسبب عدم شكر المحسن إليه له ورغب فيه بضمائر ثلاثة : صغرى الأول قوله : فقد يشكرك عليه . إلى قوله : منه .

وذلك لمحبة الناس للإحسان والمحسين . وتقدير كبراه : وكلما يشكرك عليه من لم يستمتع بشيء منه فواجب أن تفعله ، وصغرى الثاني قوله : وقد تدرك . إلى قوله : الكفر : أي قد يحصل لك من شكر من لم تحسن إليه أكثر مما أضاعه كافر نعمتك ومن شكر إحسانك إليه . وتقدير كبراه : وكلما أدركت من شكر الشاكر بسببه أكثر مما أضاع الكافر فواجب أن تفعله ، وصغرى الثالث قوله : والله يحب المحسين : أي لإحسانهم وتقدير كبراه : وكل من يحبه الله لفعل فواجب أن يدخل العاقل في زمرة ويتقرب إلى الله بمثل فعله .

١٩٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : كُلُّ وَعَاءٍ يَضِيقُ بِمَا جُعِلَ فِيهِ إِلَّا وَعَاءُ الْعِلْمِ فَإِنَّهُ يَتَّسِعُ بِهِ .

لأوعية المحسوسة لما كانت متناهية الاتساع فمن شأنها أن تضيق بما يجعل فيها ، وأوعية العلم معقولة وهي النفوس وقوة إدراك العلوم فيها غير متناهية وكل مرتبة من إدراكها تعدّ لما بعدها إلى غير النهاية فبالواجب أن يتسع بالعلم ويزيد بزيادته .

١٩١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَوَّلُ عَوَظٍ الْحَلِيمِ مِنْ حَلِيمِهِ أَنَّ النَّاسَ أَنْصَارُهُ عَلَى الْجَاهِلِ .

ويحتمل أن يريد من عدم حلمه . إذ العوض يكون عن شيء فئت كالطيش ونحوه فحذف المضاف وفيه ترغيب في هذه الفضيلة بم يلزمه من نصرة الناس لصاحبها على الجاهل عند سفهه عيه .

١٩٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنْ لَمْ تَكُنْ حَلِيمًا فَتَحَلَّمْ ، فَإِنَّهُ قَلٌّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ إِلَّا وَأَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ .

أمر بتعلم هذه الفضيلة فإن مبادئ الملكات الخلقية حالات مكتسبة عن التعلم ورغب في تعلّمها بضمير صغراه قوله : فإنه قل . إلى آخره ، والضمير في إنه ضمير الشأن . وتقدير الكبرى : وكل من أوشك أن يكون من أهل الحلم بتعلمه له فواجب أن يتعلّمه .

١٩٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ثلاث كلمات :

مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ رِبْحَ ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَسِرَ ، وَمَنْ خَافَ أَمِنَ ، وَمَنْ
اعْتَبَرَ أَبْصَرَ ، وَمَنْ أَبْصَرَ فَهُمْ ، وَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ .

إحديها : من حاسب نفسه ربح . لأن المحاسب لنفسه على أعمالها
يعلم خسرانه من ربحه فيعمل للربح ويحترز من الترك المستلزم للخسران .

الثانية : ومن غفل عنها خسر ، وذلك أن قربها من اللذات الحاضرة
يستلزم ميلها إليها ما لم يجذب عنها بالجواذب الإلهية من الزواجر والمواعظ
المذكورة فالغفلة عن جذبها وتنبيهها من مراقد الطبيعة بتذكير وعد الله ووعيده
يستلزم إهمالها للأعمال الصالحة التي ينزمها ربح السعادة الأخروية
والحصول على تركها ذلك هو الخسران .

الثالثة : ومن خاف أمن : أي أمن من عذاب الله ، وعمل للخلاص
منه ليأمن لحوقه .

الرابعة : ومن اعتبر أبصر : أي من نظر مواقع العبرة بعين الفكر
والاعتبار أبصر الطريق إلى الحق ، ومن أبصرها فهم المعبور منها إليها ، ومن
فهم ذلك حصل له العلم النافع بالحق .

١٩٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَتَعْطِفَنَّ الدُّنْيَا عَلَيْنَا بَعْدَ شِمَاسِهَا عَطْفَ
الضَّرُوسِ عَلَى وَدِهَا ، وَتَلَا عَقِيبَ ذَلِكَ ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ
اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ ، وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ، وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ .

الضروس : الناقة سيئة الخلق تعضّ حالبها ليبقى لبنها لولدها ، وذلك
لفرط شفقتها عليه . واستعار لفظ الشماس للدنيا باعتبار إعدادها لمنعه ^{منه}
منها ملاحظة لشبهها بالفرس الذي يمنع ظهره أن يركب . وشبه عطفها بعد
ذلك عليهم وإعدادها لتمكنهم من الحكم فيها بعطف الضروس على ولدها ،
ووجه الشبه شدة العطف . والاستشهاد بالآية ظاهر .

١٩٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِتَّقُوا اللَّهَ تَقِيَّةً مَنْ شَمَرَ تَجْرِيداً ، وَجَدَّ

تَشْمِيرًا ، وَكُمَشَ فِي مَهَلٍ ، وَبَادَرَ عَنْ وَجَلٍ ، وَنَظَرَ فِي كُرَّةِ الْمَوْئِلِ ،
وَعَاقِبَةِ الْمَصْدَرِ ، وَمَغْبَةِ الْمَرْجِعِ .

أكمش : أسرع . والمهل : الإمهال . والكرة : الرجعة . والموئل :
المرجع . والمغبة : العاقبة . وأراد اتقوا الله كتقية . من شمر عن ساق الجد
في طاعة الله ، وجرد نفسه لمرضاته تشميراً ، وسارع بالأعمال الصالحة ما
دام في مهلة الحياة ، وبادر مغفرته في وجل من ثمرات سيئاته ، وفكر في
عوده إلى الملجأ الأول الذي منه بدأ وهو حضرة الربوبية ، وكذلك عاقبة
المصدر الذي عنه صدر في ابتداء كونه وإليه يعود ، ومغبة المرجع من خير
للحصول عليه أو شر ليعمل للخلاص منه .

١٩٦ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ثَلَاثَ عَشَرَ كَلِمَةً :

الْجُودُ حَارِسُ الْأَعْرَاضِ ، وَالْعِلْمُ فِدَامُ السَّفِيهِ ، وَالْعَفْوُ زَكَاةُ الظُّفْرِ ،
وَالسَّلْوُ عَوْضُكَ مِمَّنْ غَدَرَ ، وَالْإِسْتِشَارَةُ عَيْنُ الْهَدَايَةِ ، وَقَدْ خَاطَرَ مَنْ آسَتْغَنَى
بِرَأْيِهِ ، وَالصَّبْرُ يَنْضِلُ الْجَذَائِنَ ، وَالْجَزْعُ مِنْ أَعْوَانِ الزَّمَانِ ، وَأَشْرَفُ الْغِنَى
تَرَكَ الْمُنَى ، وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرَ تَحْتَ هَوَى أَمِيرٍ ، وَمِنْ التَّوْفِيقِ حِفْظُ
التَّجَرِبَةِ ، وَالْمُودَّةُ قَرَابَةُ مُسْتَفَادَةٍ ، وَلَا تَأْمَنَنَّ مَلُولًا .

أحدها : الجود حارس الأعراض . واستعار له لفظ الحارس باعتبار أن
الجود يقي عرض صاحبه من السب كالচারس .

الثانية : والحلم فدام السفيه . والفدام : ما يسد به المجوسي فمه .
واستعار لفظه للحلم باعتبار أن الحليم إذا قابل السفيه بحمله عن عقوبته
سكت عنه وأقلع عن سفه في حقه فأشبهه الفدام له .

الثالثة : والعفو زكاة الظفر . استعار لفظ الزكاة للعفو باعتبار أنه فضيلة
تستلزم زيادة الثواب في الآخرة . ولحظ في ذلك شبه الظفر بالمال الواجبة
زكاته . وهو ترغيب في العفو .

الرابعة : والسلو عوضك ممن غدر . وهو أمر للإنسان بالسلو عن الهم
بسبب غدر من يطلب وفاه . ورغب فيه بكونه عوضاً منه ونعم العوض .

الخامسة : والاستشارة عين الهداية . الاستشارة طلب أصلح الآراء في الأمر وهي مستلزمة للهداية إليها ، وجعلها عينها تأكيداً لقوة استلزامها لها .

السادسة : وقد خاطر من استغنى برأيه : أي أشرف على الهلاك من استبد برأيه لأن ذلك مظنة الخطأ المستلزم للهلاك . وقد مر مثله .

السابعة : والصبر يناضل الحدثان . استعار لفظ المناضلة للصبر باعتبار دفعه الهلاك عن الجزع في المصائب .

الثامنة : والجزع من أعوان الزمان . الزمان معد للهرم والفناء ، والجزع معد لذلك فكان معيناً له .

التاسعة : وأشرف الغنى ترك المني . لأن أشرف الغنى غنى النفس بالكمالات النفسانية من الحكمة ومكارم الأخلاق وهو مستلزم لترك المني وإلا لجاز اجتماعه مع المني المستلزم للحرق إذ هو إشغال النفس بما لا ينبغي عما ينبغي وللإفراط في محبة الدنيا مع كثير من الرذائل كالحرص والحسد والشره ونحوها . فيلزم من ذلك اجتماع الضدين الفضيلة والرذيلة .

العاشرة : وكم من عقل أسير تحت هوى أمير . العقل إما أن يقوى على قهر النفس الأمارة بالسوء وبصرفها حسب ما يراه ، أو يقاومها كالمصارع لها فمرة له ومرة عليه ، أو يكون مقهوراً ومغلوباً لها . والأول هو العقل المطيع لله القوي بأمره ويلحقه الثاني من وجه .

وأما الثالث فهو العاصي بانقياده لهواه فهو كالأسير له وهو القسم الأكثر في عالم الإنسان لحضور الذات الحسية دون العقلية فلذلك أخبر عنه بكم .

الحادية عشر : ومن التوفيق حفظ التجربة : أي لرومها ومداومتها لغاية الانتفاع بها ، وظاهر أن ذلك من توفيق الله : أي تسهيله لأسبابها وتقديره لتوافقها في حق العبد .

الثانية عشر : والمودة قرابة مستفدة لأن القرابة اسم من القرب وهو إما أن يكون أصلياً كقرب النسب أو مستفدة أكتسب كقرب الصداقة والمودة .

الثالثة عشر : ولا تأمنن ملولاً . لأن الملول يصرفه ملاله عن الثبات على الصداقة والعهد وكتمان السر ونحوها . فمن الحزم إذن أن لا يؤمن على شيء من ذلك .

١٩٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : عَجِبُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدٌ حُسَادٍ عَقْلِهِ .

استعار له لفظ الحاسد باعتبار أنه يؤثر في منع العقل من ازدياد الفضيلة والاستكثار منها كما يؤثر الحاسد بحسده في حال المحسود وتنقيصه .

١٩٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَغْضِرْ عَلَى الْقَذَى وَالْأَلَمِ تَرْضَ أَبَدًا .

الإغضاء على القذى كناية عن كظم الغيظ واحتمال المكروه وهو فضيلة تحت الشجاعة . ولما كانت طبيعة الدنيا معجونة بالمكارة لم يخل الإنسان في أكثر أحواله من ورودها عليه فما لم يقابلها بالاحتمال بل بالتسخط والغضب والتبرم بها لم يزل ساخطاً تاعباً بغضبه لدوام ورود المكارة عليه .

١٩٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ لَانَ عُودُهُ كَثُفَتْ أَغْصَانُهُ .

استعار لفظ العود للطبيعة ، وكنى بليته عن التواضع ، وكذلك استعار لفظ الأغصان للأعوان والأتباع ، وكنى بكثافتها عن اجتماعهم عليه وكثرته وقوته بهم . والمراد أن من كانت له فضيلة التواضع ولين الجانب كثر أعوانه وأتباعه وقوي باجتماعهم عليه .

٢٠٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْخِلَافُ يَهْدِمُ الرَّأْيَ .

وأصله : أن رأي الجماعة يجتمع على أمر تكون المصلحة فيه فيقع من بعضهم خلاف فيه فيهدم ما اجتمعوا عليه ورأوه من المصلحة . كما رأى عليه السلام هو وجماعة من أصحابه عند رفع أهل الشام المصاحف صبيحة ليلة الهيرير من إتمام القتال وهو المصلحة فهدم ذلك الرأي من خالف فيه من أصحابه حتى وقع بذلك ما وقع .

٢٠١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ نَالَ اسْتِطَالَ .

إن من نال ما يوجب الاستطالة من جاه وسلطان أو مال استطال بسبب ذلك : أي كان في مظنة أن يستطيل على غيره بما ناله . فأقام ما بالفعل مقام ما بالقوة ويصدق بالفعل أيضاً . لأن كلام الخطيب مطلق يصدق ولو بمرة . والكلمة تجري مجرى المثل

٢٠٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : فِي تَقَلُّبِ الْأَحْوَالِ عِلْمٌ جَوَاهِرِ الرُّجَالِ .

أي تقلب أحوال الدنيء على المرء كرفعته بعد اتضاعه وبالعكس ، وكنزول الشدائد به يفيد العلم التجري بأحواله الباطنة من خير وشر وجلادة وضعف وفضيلة ورذيلة . ونحوه ما قيل : الولايات مضامير الرجال .

٢٠٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : حَسَدُ الصَّدِيقِ مِنْ سُقْمِ الْمَوَدَّةِ .

المودة الخالصة تستلزم أن يريد الإنسان لمن يوده ما يريد لنفسه ويكره له ما يكره لها . والحسد ينافي ذلك لاستلزامه إرادة زوال الخير عن المحسود . فمودة الحاسد إذن مدخولة غير صحيحة وهو المراد بسقمها .

٢٠٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَكْثَرُ مَصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطَامِعِ .

العقل من شأنه الذي ينبغي له أن يقاوم النفس الأمارة ويكسره ويصرفها بحسب آرائه الصالحة ، ومن شأن النفس مخادعة العقل وغروره بزينة الحياة الدنيا وقيناتها وإطماعه بها . فالعقول الضعيفة غير المؤيدة من الله أكثر ما تنخدع وتنصرع في حربها للنفوس لأمارة إذا لاح لها مطمع وهمي من الدنيا . فاستعار لفظ المصارع للعقول ملاحظة لقهرها عن النفوس وانفعالها . فأشبهت في الذلة والانقياد لها وترك مقاومتها من أخذ مصرعه من الحرب ، وكذلك استعار لفظ البروق لما لاح من تصور المطموع فيه . وكثيراً ما تشبه العلوم والخواطر الذهنية بالبروق للطفه وضياؤه وسرعة حركته . وإنما قال : تحت . لأن المصارع من شأنها أن تكون تحت .

٢٠٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ الْقَضَاءُ عَلَى الثَّقَّةِ بِالظَّنِّ .

أي من كان عندك ثقة معروفاً بالأمانة فحكمك عليه بالخيانة عن ظن

خروج عن العدل وهو رذيلة الجور .

٢٠٦ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : بِئْسَ الزَّادُ إِلَى الْمَعَادِ ، الْعُدْوَانُ عَلَى الْعِبَادِ .

لأن الظلم رذيلة عظيمة متعدية الأذى مستلزمة للشقاء الأشقى . فهي بئس الزاد إذن . ولفظ الزاد مستعار باعتبار حمل هذه الرذيلة في جوهر النفس إلى الآخرة كالزاد .

٢٠٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مِنْ أَشْرَفِ أَعْمَالِ الْكَرِيمِ غَفْلَتُهُ عَمَّا يَعْلَمُ .

أي تغافله وإغضاؤه عما يعلم من معائب الناس ومن هفواتهم . لاستلزام ذلك فضائل كاحتمال المكروه والحلم والعفو والصفح . وكلها فضائل يلزم الكرم لأنه قد يراد به إمساك الإنسان عن المبادرة إلى قضاء وطر الغضب فيمن يغضبه وما استلزم هذه الفضائل فهو من أشرف الأفعال .

٢٠٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ كَسَاهُ الْحَيَاءُ ثَوْبَهُ لَمْ يَرَ النَّاسُ عَيْبَهُ .

استعار لفظ الثوب لما يشمل الإنسان من الحياء ، ورشح بذكر الكسوة . والمراد أن فضيلة الحياء تستلزم ترك المعائب فلا يرى في صاحبه ، أو إن ارتكب ما يعاب به من الرذائل كان على غاية من التستر به والاجتهاد في إخفائه وهو بمظنة أن لا يراه الناس .

٢٠٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : بِكَثْرَةِ الصُّمْتِ تَكُونُ الْهَيْبَةُ ، وَبِالنَّصْفَةِ يَكْثُرُ الْمُوَاصِلُونَ ، وَبِالْإِفْضَالِ تَعْظُمُ الْأَقْدَارُ ، وَبِالتَّوَاضُّعِ تَتِمُّ النِّعْمَةُ ، وَبِاحْتِمَالِ الْمُؤْنِ يَجِبُ السُّودُّ ، وَبِالسَّيْرِ الْعَادِلَةِ يُقْهَرُ الْمُنَاوِي ، وَبِالْحِلْمِ عَنِ السَّفِيهِ تَكْثُرُ الْأَنْصَارُ عَلَيْهِ .

أشارت إلى سبع فضائل ورغب في كل منها بما يستلزمه من الخير .

إحديها : كثرة الصمت وما يلزمها كون الصامت مهيباً في أعين الناس لأن الصمت من توابع العقل غالباً ومهابة أهل العقل ظاهرة . فإن عرف أن

كثرة صمت الصامت عن عقل كانت مهابته أوكد ، وإن لم تعرف حاله كانت لتجوز أن تكون عن كمال عقله . وقد يعرف أنه لنقصان في غريزته وعيّه في الكلام ويحترم مع ذلك لعدم اختلاطه في القول .

الثانية : النصفة وهي فضيلة العدل . ورغب فيها بما يلزمها من كثرة الواصلين لأن قلة الإنصاف مستلزمة للفرقة وقطع الألفة كما قال أبو الطيب :

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة بين الرجال وإن كانوا ذوي رحم
الثالثة : الإفضال على الخلق بما يحتاجون إليه . ويلزمه علو الأقدار وعظمتها لتعيين الحاجة إلى المتفصل ومحبته .

الرابعة : التواضع ويلزم تمام النعمة بكثرة الإخوان وأهل المودة لأن فضيلة التواضع نعمة وما يلزمها كالتمام لها .

الخامسة : احتمال المؤن . ويلزمه السؤدد لأن احتمال مؤن الخلق يستلزمه فضيلة سعة الصدر واحتمال المكروه وبحسب ذلك تحصل مطالب الخلق من المتحمل غير مشوبة بشيء من كدر المقابلة برّد منّة ونحوهما . فيكثر تعبدهم له ، ويقوى أمره وسؤدده فيهم .

السادسة : السيرة العادلة . ويلزمها قهر المناوي . والمناواة : المعادة ، وذلك أن العدو لا يجد لصاحب السيرة العادلة عيباً يستظهر به عليه ويسعى به في فساد أمره فيبقى مقهوراً مأموراً .

السابعة : الحلم عن السفية . ويلزمه كثرة الأنصار عليه . وقد مرّ بيانه .

٢١٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : اَلْعَجَبُ لِغَفْلَةِ اَلْحُسَادِ عَنْ سَلَامَةِ اَلْأَجْسَادِ .

لأن الغالب أن الحسد إنما يكون بالغنى والجاه وسائر قينات الدنيا . فترك الحساد الحسد بصحة الجسد مع كونها أكبر نعم الدنيا محل التعجب . والفرق أن تلك نعم مشاهدة تقلّ الغفلة عنها وينفرد المحسود بها ، وأكثر الترفع على حسد الحاسد يكون بها . فأما نعمة الصحة فمعقولة تكثر الغفلة

عنها ومشتركة .

٢١١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الطَّامِعُ فِي وَثَاقِ الدُّلِّ .

استعار لفظ الوثاق للذل المقيد له في طاعة المطموع فيه . وقد مر مثله في قوله : الطمع رق مؤبد .

٢١٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْإِيمَانُ مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ ، وَإِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ ، وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ .

الأركان : هي المساجد الخمسة . وأراد الإيمان الكامل .

٢١٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ أَصْبَحَ عَلَى الدُّنْيَا حَزِينًا فَقَدْ أَصْبَحَ لِقَضَاءِ اللَّهِ سَاحِطًا ، وَمَنْ أَصْبَحَ يَشْكُو مُصِيبَةً نَزَلَتْ بِهِ فَقَدْ أَصْبَحَ يَشْكُو رَبَّهُ ، وَمَنْ أَتَى غَنِيًّا فَتَوَاضَعَ [لَهُ] لِعِغْنَاهُ ذَهَبَ ثُلَاثًا دِينَهُ ، وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ فَهُوَ مِنْ كَانَ يَتَّخِذُ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوءًا ، وَمَنْ لَهَجَ قَلْبُهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا أَلْطَافَ قَلْبِهِ [مِنْهَا] بِثَلَاثٍ : هُمْ لَا يُعْبَهُ ، وَجِرْصٍ لَا يَتْرُكُهُ ، وَأَمَلٍ لَا يُدْرِكُهُ .

أشار إلى خمس خصال نفر عن كل منها بما يلزمه من الشر :

إحديها : الحزن على فائت الدنيا . ويلزمه سخط العبد لقضاء الله لأن فوت ذلك كان بقضاء منه وسخط قضائه كفر .

الثانية : شكوى المصيبة . ويلزمها الشكوى من الله لأن الله تعالى هو لمتبلي بها .

الثالثة : التواضع للغني باعتبار غناه . ويلزمه ذهاب ثلثي دين المتواضع لوجوه :

أحدها : أن مدار الدين على كمال النفس الإنسانية بالحكمة ، وكمال القوة الشهوية بالعفة وقوة الغضب بالشجاعة . ولما كان التواضع للغنى من جهة غناه يستلزم زيادة محبة الدنيا والخروج عن فضيلة الشهوة إلى طلب الفجور حتى كأنه عابد لغير الله ، ويستلزم الخروج عن الحكمة التي مقتضاها وضع كل شيء موضعه وهي فضيلة النفس الناطقة كان خارجاً عن فضيلتي هاتين القوتين وهما ثلثا الدين .

الثاني : أن مدار الدين على الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان . ومن شأن المتواضع للغني لغناه اشتغال لسانه بمدحه وشكره واشتغال جوارحه بخدمته عن طاعة الله والقيام بشكره فهو مهمل لثلاثي دينه . قيل : إن التواضع للغني لغناه يستلزم حب الدنيا وحبها رأس كل خطيئة . فاستعمل ^{الله} لفظ الثلاثين هنا في الأكثر مجازاً إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه .

الرابعة : كون قراءة القرآن مع دخول النار مستلزماً لكون القاريء ممن كان يتخذ آيات الله هزواً ، وذلك أن قراءة القرآن لله بالإخلاص والعمل بمقتضاه يستلزم دخول الجنة فعدم دخولها ودخول النار يستلزم عدم الإخلاص في قراءة القرآن وعدم العمل به فيكون في قرائته إذن كالمستهزئ بآيات الله إذ شأن المستهزئ أن يقول ما لا يعتقده ولا يعمل به . فاستعار له لفظ المستهزئ .

الخامسة : ومن لهج قلبه بحب الدنيا التاط : أي لصق واختلط منها بثلاثة . ووجه لزوم الثلاثة للحرص والولوع بها أن حبها يستلزم الجد في طلبها وجمعها ، ولما كان حصولها مشروطاً بأسباب مقدورة للعباد وأسباب غير مقدورة والمقدورة منها قد لا تكون مقدورة للطالب ، وإن كانت لكنها تكون متعسرة منه لتوقفها على أسباب كثيرة أو عسرة لا جرم يلزمه الحزن غالباً في تحصيلها والهم الذي لا يغيبه : أي لا يأتيه غباً وهو يوم لا ويوم نعم ثم في حفظها وخوف فوتها والحرص على استخراجها من وجوها وطول الأمل في وجوه مكاسبها وأرباحها وتجاراتها وعماراتها . ونبه على طوله بقوله : لا يدركه . ونفر عنه بذلك .

٢١٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : كَفَى بِالْقَنَاعَةِ مُلْكاً ، وَبِحُسْنِ الْخُلُقِ نَعِيماً .

استعار لفظ الملك للقناعة لأن غاية الملك الغناء عن الخلق والترفع عليهم بذلك والالتذاذ والقناعة مستلزمة لهذه الغيات ، وكذلك استعار لفظ النعيم لحسن الخلق باعتبار استلزامهما للالتذاذ .

٢١٥ - وَسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلْنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ فَقَالَ : هِيَ الْقَنَاعَةُ .

ففسرها بـلازمها وهو الحياة الطيبة .

٢١٦ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : شَارِكُوا الَّذِي قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ الرِّزْقُ ، فَإِنَّهُ أَخْلَقَ لِلْغِنَى ، وَأَجْدَرُ بِإِقْبَالِ الْحَظِّ عَلَيْهِ .

أخلق وأجدر : أي أولى . ولما كان إقبال الرزق يتوافق أسبابه في حق من أقبل عليه كانت مشاركته مظنة إقبال حظ الشريك وإقبال الرزق عليه بمشاركته . ورغب فيها بضمير صغراه قوله : فإنه . إلى آخره . والضمير في قوله : فإنه يعود إلى ما دلّ عليه شاركوا من المصدر . وتقدير كبراه : وكلما كان كذلك ففعله مصلحة .

٢١٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ : الْعَدْلُ : الْإِنْصَافُ ، وَالْإِحْسَانُ : التَّفَضُّلُ .

وهو تعريف لفظ بلفظ أوضح منه عند السائل .

٢١٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ يُعْطِ بِالْيَدِ الْقَصِيرَةِ يُعْطِ بِالْيَدِ الطَّوِيلَةِ .

وذلك إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿ إِنْ تَقْرَضُوا مِنْ اللَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ ﴾ ^(٢) واستعار لفظ اليد في الموضعين للنعمة والعطاء . وكنى بالطول والقصر عن الكثرة والقلّة .

٢١٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِابْنِهِ الْحَسَنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ : لَا تَدْعُونَ إِلَى مِبَارَزَةٍ وَإِنْ دُعِيتَ إِلَيْهَا فَاجِبٌ ، فَإِنَّ الدَّاعِيَ بَغٍ وَالْبَاغِي مَصْرُوعٌ .

نفر عن الدعوة إلى المبارزة بقياس كامل من الشكل الأول وهو قوله : فإن الداعي . إلى قوله : مصروع . وبيانه أن الدعاء إلى المبارزة خروج عن فضيلة الشجاعة إلى طرف الإفراط منها وهو التهور وهو بغي وعدوان لأنه

(١) ٦ - ١٦١ .

(٢) ٦٤ - ١١١ .

خروج عن فضيلة العدل في القوة الغضبية ، وأما أن الباغي مصروع ففي غالب الأحوال . لاستعداده ببغيه لذلك . لأن المجازاة واجبة في الطبيعة .

٢٢٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : خِيَارُ خِصَالِ النِّسَاءِ شِرَارُ خِصَالِ الرَّجَالِ : الزَّهْوُ ، وَالْجُبْنُ ، وَالْبُخْلُ ، فَإِذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ مَزْهُوَّةً لَمْ تُمْكِنْ مِنْ نَفْسِهَا ، وَإِذَا كَانَتْ بَخِيلَةً حَفِظَتْ مَالَهَا وَمَالَ بَعْلِهَا ، وَإِذَا كَانَتْ جَبَانَةً فَرَقَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَعْزِضُ لَهَا .

الأخلاق الثلاثة المذكورة رذائل للرجال وهي فضائل للنساء ، وبيان كونها فضائل هو ما ذكره . والمزهوة : المتكبرة ، ولا يبنى الفعل من الزهو إلا للمفعول . يقال : زهى الرجل وزهيت المرأة فهي مزهوة . والفرق : الخوف .

٢٢١ - وَقِيلَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : صِفْ لَنَا الْعَاقِلَ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : هُوَ الَّذِي يَضَعُ الشَّيْءَ مَوَاضِعَهُ فَقِيلَ : فَصِفْ لَنَا الْجَاهِلَ ، فَقَالَ : قَدْ فَعَلْتُ . قال الرُّصِي : يَعْنِي أَنَّ الْجَاهِلَ هُوَ الَّذِي لَا يَضَعُ الشَّيْءَ مَوَاضِعَهُ ، فَكَأَنَّ تَرْكَ صِفَتِهِ صِفَةً لَهُ ، إِذْ كَانَ بِخِلَافِ وَصْفِ الْعَاقِلِ .

عرف العاقل بخاصة من خواصه ، ولما كان الجاهل عديم ملكة العاقل كان تعريفه بما يقاب خاصة العاقل تعريفاً بالمناسب وهو خاصة أيضاً من خواص الجاهل .

٢٢٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَاللَّهِ لَدُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَهْوَنُ فِي عَيْنِي مِنْ عِرَاقٍ خَنْزِيرٍ فِي يَدٍ مَجْدُومٍ .

عراق : جمع عرق وهو جمع غريب كتوأم وتوأم وهو العظم الذي يسحت عنه اللحم ، وذلك مبالغة في هون الدنيا وحقارتها في عينه ونفرته عنها لأن العرق لا خير فيه فإذا تأكد بكونه من خنزير ثم بكونه في يد مجذوم بلغت النفرة منه الغاية .

٢٢٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللَّهَ رَغْبَةً فِتْنِكَ عِبَادَةُ

التَّجَارِ ، وَإِنْ قَوْمًا عَبَدُوا اللَّهَ رَهْبَةً فِتْلِكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ ، وَإِنْ قَوْمًا عَبَدُوا اللَّهَ شُكْرًا فِتْلِكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ .

قسم عليه السلام عبادة العابدين بحسب أغراضها إلى ثلاثة وهي عبادة الرغبة وعبادة الرهبة وعبادة الشكر ، وجعل الأولى عبادة التجار باعتبار أنهم يستغيضون عنها ثواب الآخرة ويطلبونه بها فهم في حكم التجار المكتسبين للأرباح . والثانية عبادة العبيد في الدنيا لأن خدمتهم لساداتهم أكثر ما تكون رهبة . والثالثة عبادة الشاكرين وهم الذين يعبدون الله لا لرغبة ولا لرهبة . بل لأنه هو مستحق العبادة وهي عبادة العارفين ، وأشار عليه السلام إليها في موضع آخر فقال عليه السلام : ما عبدتك خوفاً من عقابك ولا طمعاً في ثوابك بل وجدتك أهلاً للعبادة وعدتك .

٢٢٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْمَرْأَةُ شَرُّ كُلِّهَا ، وَشَرُّ مَا فِيهَا ، أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهَا .

وأراد أن أحوالها كلها شر على الرجل : أما من جهة مؤونتها فظاهر ، وأما من جهة لذتها واستمتاعه بها فلاستلزام ذلك البعد عن الله تعالى والاشتغال عن طاعته . وأسباب الشر ضرور وإن كانت عرضية . ولما كان كونها لا بد منها أعني وجوب الحاجة إليها في طبيعة الوجود الدنيوي هو السبب في تحمّل الرجل للمرأة ووقوعه في ضرورها وجب أن يكون ذلك الاعتبار أقوى الشرور المتعلقة بها لأن السبب أقوى من المسبب .

٢٢٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ أَطَاعَ التَّوَانِي ضَيَّعَ الْحُقُوقَ ، وَمَنْ أَطَاعَ الْوَأَشِي ضَيَّعَ الصُّدِيقَ .

الانقياد في سك التواني عن الحقوق المطلوبة يخرجها عن وقت الفرصة لحصولها وذلك يستلزم تضييعها وتفويتها ، وكذلك الواشي مظنة السعي بالفساد بين المتصادقين فطاعته فيما يقول مظنة وقوع الوحشة بينهما وتضييع كل منهما لصاحبه .

٢٢٦ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْحَجَرُ الْغَصِيبُ فِي الدَّارِ ، زَهْنٌ عَلَى

خَرَابَهَا .

استعار لفظ الرهن للحجر المغصوب في دار الظالم باعتبار كونه سبباً لخرابها كما أن الرهن سبب لأداء ما عليه من المال وهو كناية عن مطلق استلزام الظلم لهلاك الظالم وخراب ما يبينه بظلم وإن تأخر أمده ، وقد عرفت كون الظلم معداً لذلك . ونحوه قول الرسول ﷺ : اتقوا الحرام في البنيان فإنه أسباب الخراب .

٢٢٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَوْمُ الْمَظْلُومِ عَلَى الظَّالِمِ أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ الظَّالِمِ عَلَى الْمَظْلُومِ .

وأراد بيوم المظلوم يوم القيامة وخصصه به لأنه يوم إنصافه وأخذ حقه وكذلك تخصيص يوم لظالم بوقت ظلمه لأنه في الدنيا .

٢٢٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِتَّقِ اللَّهَ بَعْضَ التَّقَى وَإِنْ قُلَّ ، وَاجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ سِتْرًا وَإِنْ رَفَّ .

أمر بالتقوى لأنها الزاد إلى الله ، ولما كان الاستكثار منها مستلزماً للقرب من الله وسرعة الوصول إليه كان الأولى كثرتها وإلا فالبعض منها وإن قل لأن لها الأقلية والأكثرية والأشدية والأضعفية ولا يجوز ترك الزاد بالكلية في الطريق لصعوبة الطويلة . واستعار لفظ الستر لحدود الله الساترة من عذابه وأمر أن يجعلها بينه وبين الله : أي يحفظ حدوده ولا يهتكها فيقع في مهاوي الهلاك فغظ الستر شدة المحافظة على حدود الله وعدم استيفاء المباحات لخوف الوقوع في الحرام ورقته باستيفاء الأمور الجائزة من المباحات والمكروهات .

٢٢٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِذَا أَرَدَحَمَ الْجَوَابُ خَفِيَ الصَّوَابُ .

أي إذا سئل عن مسألة فأجاب جماعة كل بما يخطر له في المسألة أو شخص بعدة من الأجوبة خفي الصواب فيها لالتباس الحق من تلك الأجوبة وأكثر ما يكون ذلك في المسائل الاجتهادية . وازدحامه : كثرتة .

٢٣٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ لِلَّهِ فِي كُلِّ نِعْمَةٍ حَقًّا ، فَمَنْ أَدَّاهُ زَادَهُ مِنْهَا ، وَمَنْ قَصَرَ عَنْهُ خَاطَرَ بَزَوَالِ نِعْمَتِهِ .

حق الله في النعمة شكرها الواجب ، وأما استلزام أدائه للمزيد منها وكون التقصير مظنة زوالها فلقوله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ ^(١) الآية . ورغب في الشكر ونقر عن الكفران بذكر كون ذلك حقاً لله . وقد مرّ بيانه مراراً .

٢٣١ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِذَا كَثُرَتِ الْمَقْدِرَةُ قَلَّتِ الشَّهْوَةُ .

لأن قليل القدرة على ما يشتهي لا يزال مستشعراً لخوف فواته عند حصوله . فيكون ذلك الخوف معاقباً للذته به فلا يزال في قلبه دغدغة نفسانية تحمله على مشتهاه وتبعث شهوته عليه . أما إذا تمت قدرته عليه فإنه يأمن فوته وبحسب ذلك يضعف الباعث للشهوة فيقل لجأه عليه وشهوته له .

٢٣٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِحْذَرُوا نِفَارَ النِّعَمِ ، فَمَا كُلُّ شَارِدٍ بِمَرْدُودٍ .

استعار لفظ النفار والشرود لزوال النعم ملاحظة لشبهها بالنعم . وحذر منه حثاً على تقييدها بالشكر ، ونبه على وجوب ذلك الحذر بقوله : فما كل . إلى آخره . وهو صغرى ضمير تقديرها : الشارد جاز أن لا يرد ، وتقدير كبراه : وكلما جاز أن لا يرد لم يجز تنفيره .

٢٣٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْكَرَمُ أَعْطَفُ مِنَ الرَّحْمِ .

أي أشد عطفاً . ويفهم منه أحد معنيين :

الأول : أن الكريم بكرمه أعطف على المنعم عليه من ذي الرحم على ذي رحمه لأن عاطفة الكريم طبع وعاطفة ذي الرحم قد يكون تكلفاً وقد لا يكون أصلاً .

الثاني : أن الكرم يستلزم عاطفة الخلق على الكريم ومحبتهم له أشد من عاطفة ذي الرحم على رحمه .

٢٣٤ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدَّقَ ظَنَّهُ .

أي افعل ما ظنه فيك من خير ، وتصديق الظن مطابقة الواقع الذي ظن وقوعه له بوقوعه . وذلك حث على فعل الخير .

٢٣٥ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ مَا كُرِهْتَ نَفْسَكَ عَلَيْهِ .

أراد من الأعمال الصالحة . وأفضلها أنفعها وأكثرها استلزاماً للشواب . وإنما كان كذلك لأن فائدة لأعمال الصالحة تطويع النفس الأمانة للنفس المطمئنة ورياضتها بحيث تصير مؤتمرة للعقل وإكراه النفس على الأمر يكون لشدة فكلما كان أشد كان أقوى في رياضتها وأنفع في تطويعها وكسرهما ، وبحسب ذلك يكون أكثر منفعة فكان أفضل ، ونحوه من الحديث قوله عليه السلام : أفضل الأعمال أحمرها بالزاي المعجمة : أي أشقها .

٢٣٦ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : عَرَفْتُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَزَائِمِ ، وَحُلِّ الْعُقُودِ .

أراد معرفة وجوده تعالى . ووجه الاستدلال أن الإنسان قد يعزم على أمر ويعقد ضميره على فعله بحسب ما يتصوره من المنفعة الداعية إليه . ثم عن قريب ينحل ذلك العزم وينفسخ ذلك العقد لزوال ذلك الداعي أو لخاطر معارض له .

إذا عرفت ذلك فنقول : تلك التغيرات والخواطر المتعاقبة المرجحة لفعل الأمر المعزوم عليه أمور ممكنة محتاجة في طرفي وجودها وعدمها إلى المرجح والمؤثر . فمرجحها إن كان من العبد كان الكلام فيه كالكلام في الأول ولزم الدور أو التسلسل وهما محالان فلا بد من الانتهاء إلى الله تعالى مقلب القلوب والأبصار . وذلك هو المطوب .

٢٣٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَرَاةُ الدُّنْيَا حَلَاوَةٌ الْآخِرَةِ ، وَحَلَاوَةُ الدُّنْيَا مَرَاةُ الْآخِرَةِ .

أي مستلزمة لها . واستعار لفظي الحلاوة والمرارة للذة والألم ، وظاهر أن آلام الدنيا اللازمة عن ترك لذاتها وعدم الالتذاذ بها طلباً للآخرة ، وشوقاً إلى ثوابها مستلزمة لحلاوة الآخرة ولذاتها ، وكذلك الابتهاج للذات الدنيا يستلزم الغفلة عن الآخرة وترك العمل لها وذلك مستلزم لعذابها ومستعقب لشقاوتها .

٢٣٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : فَرَضَ اللَّهُ الْإِيمَانَ تَطْهِيراً مِنَ الشَّرِكِ ، وَالصَّلَاةَ تَنْزِيهاً عَنِ الْكِبَرِ ، وَالزَّكَاةَ تَسْبِيهاً لِلرِّزْقِ ، وَالصَّيَّامَ آتِلَاءَ لِإِخْلَاصِ الْخَلْقِ ، وَالْحَجَّ تَقَرُّبَةً لِبُدَيْنِ ، وَالْجِهَادَ عِزًّا لِلْإِسْلَامِ ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعَوَامِّ ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ رَدْعاً لِلشُّفَهَاءِ ، وَصِلَةَ الرَّجَمِ مَنَمَةً لِلْعَدَدِ ، وَالْقِصَاصَ حَقًّا لِلدِّمَاءِ ، وَإِقَامَةَ الْحُدُودِ إِعْظَاماً لِلْمَحَارِمِ ، وَتَرَكَ شُرْبِ الْخَمْرِ تَحْصِيناً لِلْعَقْلِ ، وَمُجَانَبَةَ السَّرِقَةِ إِيجَاباً لِلْعِفَّةِ ، وَتَرَكَ الزُّنَا تَحْصِيناً لِلنَّسَبِ ، وَتَرَكَ اللَّوَاطِ تَكْثِيراً لِلنَّسْلِ ، وَالشَّهَادَةَ اسْتِظْهَاراً عَلَى الْمُجَاحِدَاتِ . وَتَرَكَ الْكَذِبَ تَشْرِيفاً لِلصِّدْقِ ، وَالسَّلَامَ أَمَاناً مِنَ الْمَخَافِ ، وَالْأَمَانَاتِ نِظَاماً لِلْأُمَّةِ ، وَالطَّاعَةَ نِعْظِيماً لِلْإِمَامَةِ .

أقول : أشار عليه السلام إلى فرائض الله ، ونبه على عللها الغائية في الحكمة ليكون أوقع لذكرها في النفوس . وذكر منها تسع عشرة فريضة :

الأولى : بدء بالإيمان . لأنه الأصل لجميع الفرائض والسنن ، وجعل من أغراضه التطهير عن الشرك . ولما كان للتطهير من الشرك غاية مطلوبة للشارع وهي كمال النفس بمعرفة الله تعالى كان التطهير غاية غرضه من الإيمان .

الثانية : الصلاة . ولم كان وضعها لتطويع النفس الأمانة التي هي مبدأ الكبر للنفس المطمئنة ، ورياضتها ، وقهرها لا جرم كان من غاياتها تنزيه الإنسان عن الكبر .

الثالثة : الزكاة . وذكر من غايات فرضها كونها سبباً للرزق . إذ كان منها رزق الفقراء والمساكين ومن عينتها الشريعة حقاً له .

الرابعة : الصيام . ولما كان من الشدائد الشاقة على الأبدان خصه

بأن غايته كونه ابتلاء من الله لإخلاص خلقه وإن كانت هذه غاية من كل العبادات .

الخامسة : الحج . وإنما جعل غايته كونه تقوية للدين لأنه عبادة تستلزم اجتماع أكثر أهل الملة في مجمع واحد على غاية من الذلة والخضوع والانقياد لله ، ومشاهدة كل من الخلق الحاضرين لذلك الجمع العظيم من الملوك وغيرهم فيتأكد في قلبه قوة الدين في عظمتة دون سائر العبادات .

السادسة : الجهاد . وكون غايته عز الإسلام وقوته ظاهر .

السابعة : الأمر بالمعروف . وغايته إصلاح أحوال العوام في معاشهم ومعادهم . وخصّ العوام لأنهم أغلب الخلق ، ولأن من عداهم هم العلماء والولاة الأمرون بالمعروف الفاعلون له .

الثامنة : النهي عن المنكر . وكون غايته ردع السفهاء ظاهر . لأن السفية ما لم يكن له ردع من سلطان الدين يكثر مفسدته المضادة لمصلحة العالم .

الثامنة : صلة الأرحم . ومن غايتها كونها منمة للعدد : أي عدد أولى الرحم . إذ زيادة عددهم باستقامة أمر معاشهم . وصلة الرحم سبب لذلك .

التاسعة : القصاص . وغايته حقن الدماء والكفّ عن سفكها لخوف المكافأة كقوله تعالى : ﴿ ولکم فی القصاص حياة ﴾^(١) . وقولهم : القتل أنفى للقتل .

العاشر : إقامة حدود الله . وغايتها حرمان محارم الله كي لا تنتهك وتنحرف الخلق إليها عن قصد السبيل فيضيع غرض الشارع من وضع الدين .

الحادية عشر : ترك شرب الخمر . وغايته تحصين العقل من محاصرتها وإشغاله عما خلق له من طلب الاستكمال لكمال الحكمة .

الثانية عشر : مجانبة السرقة . وغايتها إيجاب العقبة . إذ السرقة تنشأ عن

كمال طاعة الشهوة والعبور فيها إلى حد الإفراط والفجور. فكان من غايات
تحریمها وقوف من في طباعه ذلك على حد العفة.

الثالثة عشر: ترك الزنا. ومن غاياته حفظ الأنساب وما يتبعها من
الموارث. فإن الزنا يوجب اختلاط الأنساب وضياع الأموال التي هي قوام
الخلق في الدنيا. وقد سبق سرّه.

الرابعة عشر: ترك اللواط. وغايته تكثير النسل وتوفير مادته على محالّه
لغاية كثرة النوع وبقائه.

الخامسة عشر: الشهادات. وغايتها استظهار المستشهد على مجاهدة
خصمه كي لا يضيع لو لم يكن بينهما شاهد.

السادسة عشر: ترك الكذب ومن غاياته تشريف الصدق وتعظيمه
بتحريم ضده لبناء مصلحة العالم عليه ونظام أمور الخلق به. وقد سبق بيان
مفاسد الكذب الموجب لتحريمه.

السابعة عشر: الإسلام. ومن غاياته الأمن من مخاوف الدنيا لصولة
الإسلام على سائر الأديان، ومن مخاوف الآخرة وهو ظاهر. وروى: السلام.
ولما كان سبباً للتودّد إلى الخلق كان أمناً من مخاوفهم.

الثامنة عشر: الإمامة وغاية فرضها كونها نظاماً لأمر الأمة. إذ الخلق
متى كان لهم رئيس منبسط اليد قويّ الشوكة يردع الظالم عن ظلمه ويأخذ
للمظلوم بحقه كان بذلك صلاح أحوالهم ونظام أمورهم في معاشهم
ومعادهم، ولا كذلك إذا لم يكن مثل ذلك الرئيس.

التاسعة عشر: طاعة الإمام وغاية فرضها تعظيم إمامة الامم لغاية
امثال الخلق لقوله، والافتداء به. وقد سبقت الإشارة الى أسرار كثير من
هذه الفرائض مفصلة.

٢٣٩ - وقال (عليه السلام) يقول:

أَحْلِفُوا الظَّالِمَ - إِذَا أَرَدْتُمْ يَمِينَهُ - بِأَنَّهُ بَرِيٌّ مِنْ حَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ فَإِنَّهُ إِذَا

حَلَفَ بِهَا كَاذِباً عُوْجِلَ [الْعُقُوبَةُ]، وَإِذَا حَلَفَ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَمْ يُعَاجِلْ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ وَحَّدَ اللَّهَ تَعَالَى .

قد يرى المجتهد تأكيد اليمين بمثل ما ذكر عليه السلام لغاية نكول الكاذب عنها وأداء الحق، وذلك أن نفس الكاذب يفعل عن مثل هذا اللفظ لعلمه بظلمه وتوهمه تصديق الله تعالى ومطابقته لقوله بفعل المدعوى به بخلاف اليمين المعتادة فيستعد بذلك لمعاجلته بالعقوبة. وروي أن شيئاً سعى بالصادق عليه السلام إلى المنصور فاستحضره وقال: إن فلانا ذكر عنك كذا وكذا. فقال عليه السلام: لم يكن ذلك مني. وأبى الساعي إلا كونه منه. فحلفه الصادق بالبراءة من حول الله وقوته إن كان كاذباً. فحلف. فم. نقطع كلامه حتى أصيب بالفالج فصار كقطعة لحم فجرّ برجله. ونجا الصادق منه.

٢٤٠ - وقال (عليه السلام):

يَا ابْنَ آدَمَ؛ كُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ فِي مَالِكَ، وَاعْمَلْ فِيهِ مَا تُؤَثِّرُ أَنْ يُعْمَلَ فِيهِ مِنْ بَعْدِكَ.

أي كما توصي من بعدك أن يوضع مالك موضع القربات وانتفاع أهلِكَ به فكن أنت ذلك الوصي وضعه تلك المواضع في حياتك. وهو حث على بذل المال في وجهه

٢٤١ - وقال (عليه السلام):

الْحِدَّةُ ضَرْبٌ مِنَ الْجُنُونِ، لِأَنَّ صَاحِبَهَا يَنْدَمُ، فَإِنْ لَمْ يَنْدَمْ فَجُنُونُهُ مُسْتَحْكَمٌ.

لما كان الجنون حالة مخصوصة تعرض للإنسان بسبب خروج القوى النفسانية عن قبول تصرف العقل إلى طرفي الإفراط والتفريط كانت الحدة خروج قوة الغضب عن ضبط العقل لها على قانون العدل الإلهي إلى طرف الإفراط كانت قسماً من الجنون وتفصل الحدة بالرجوع في الغضب إلى طاعة العقل.

٢٤٢ - وقال (عليه السلام):

صِحَّةُ الْجَسَدِ، مِنْ قِلَّةِ الْحَسَدِ.

أي أن الحسد قد يكون أيضاً بالصحة كما يكون بغيرها فيفعل فيها وذلك هو الحسد البالغ. فكانت صحة الجسد دليلاً على أقلية الحسد إذ لم يتعلق بها.

٢٤٣ - وقال (عليه السلام):

لكمبيل بن زياد النخعي: يَا كُمْبِيلُ، مُرْ أَهْلَكَ أَنْ يَرُوحُوا فِي كَسْبِ الْمَكَارِمِ، وَيُدْلِجُوا فِي حَاجَةٍ مَنْ هُوَ نَائِمٌ! فَوَالَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ مَا مِنْ أَحَدٍ أَوْدَعَ قَلْبًا سُرُورًا إِلَّا وَخَلَقَ اللَّهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ السُّرُورِ لُطْفًا؛ فَإِذَا نَزَلَتْ بِهِ نَائِبَةٌ جَرَى إِلَيْهَا كَالْمَاءِ فِي أَنْحَادِهِ حَتَّى يَطْرُدَهَا عَنْهُ كَمَا تُطْرَدُ غَرِيبَةٌ الْإِبِلِ.

الإدلاج: السير بالليل. والنائبة: المصيبة، وأراد أن إدخال السرور على قلب ذي الحاجة بقضائها يجعله الله سبباً يلطف به لقاضي الحاجة ويقيه بها من مصيبة تعرض له. ويشبه أن يكون ذلك اللطف هو إخلاص ذي الحاجة ومتعلقه في إمداده ومعونته بدعاء الله له وشكره وثنائه واستجلاب قلوب الخلق بذلك له وكل ذلك لطف يعدّه الله لوقايته له وطرد المصائب عنه، وشبه جري ذلك اللطف إلى دفع المكروه عنه بجري الماء في انحداره، ووجه الشبه سرعة الانحدار للدفع والحفظ لأنه من أمر الله. وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر، وكذلك دفع ذلك اللطف للنائبة بطرد غريبة الإبل، ووجه الشبه شدة الطرد والإبعاد، وباقي الفصل ظاهر.

٢٤٤ - وقال (عليه السلام):

إِذَا أَمْلَقْتُمْ فَتَاجِرُوا اللَّهَ بِالصَّدَقَةِ.

والإملاق: الفقر. وقد مرّ أن الصدقة تعدّ للمزيد من فضل الله. فأمر

الفقراء أن يتصدقوا بما عساه يقع في أيديهم ولو بشق تمره ليستعدوا بذلك لإفاضة فضل الله، ورغبهم في ذلك بذكر التجارة وهي استعارة لاستعاضة ما يحصل عمّا يبذل . والفقراء أولى باستجلاب الرزق بالصدقة من الأغنياء لانفعال القلوب لهم ورقتها عليهم ولما يسبق الى اذهان الخلق أنّ ذلك منهم عن إخلاص دون الأغنياء .

٢٤٥ - وقال (عليه السلام) :

الْوَفَاءُ لِأَهْلِ الْغَدْرِ غَدْرٌ عِنْدَ اللَّهِ ؛ وَالْغَدْرُ بِأَهْلِ الْغَدْرِ وَفَاءٌ عِنْدَ اللَّهِ .

وذلك أنّ من عهد الله في دينه الغدر وعدم الوفاء لهم إذا غدروا لقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾^(١) قيل نزلت في يهود بني قينقاع وكان بينهم وبين الرسول ﷺ عهد فعزموا على نقضه فأخبره الله تعالى بذلك وأمره بحربهم ومجازاتهم بنقض عهدهم فكان الوفاء لهم غدرٌ بعهد الله . والغدر بهم إذا غدروا وفاء بعهد الله .

فصل نذكر فيه شيئاً من اختيار غريب كلامه المحتاج إلى التفسير

١ - في حديثه (عليه السلام)

فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ ضَرْبَ يَعْسُوبٍ الدِّينَ بِذَنْبِهِ، فَيَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ كَمَا يَجْتَمِعُ قَرْعُ الْخَرِيفِ .

قال الرضي : اليعسوب : السيد العظيم المالك لأمر الناس يومئذ، والقرع : قطع الغيم التي لا ماء فيها .

أقول : أو ما بقوله ذلك إلى علامات ذكرها في آخر الزمان لظهور صاحب الأمر، واستعار له لفظ اليعسوب وهو في الاصل أمير النحل ملاحظة لشبهه به فأما ضربه بذنبه فقليل فيه أقوال :

أحدها: أنَّ الضرب هو السير في الأرض، وذنبه استعارة في أعوانه وأتباعه والباء للاستصحاب.

الثاني: لَمَّا كان ضرب النحل بذنبه لسعه كُنِيَ بذلك عن نصب سيوفه وسهامه في أعدائه لقتلهم وأذاهم.

الثالث: أَنَّهُ كناية عن ثورانه وغضبه لدين الله ملاحظة لشبهه بالسبع حال صولته وغضبه، وهذا الوجه أشبه الثلاثة.

وشبّه اجتماع المؤمنين وأهل طاعة الله باجتماع قطع الغيم المتفرقة. ووجه الشبه سرعة الاجتماع لأنَّ قزع الخريف سريع التأليف.

٢ - وفي حديثه (عليه السلام)

هَذَا الْخَطِيبُ الشَّحْشُحُ.

يريد الماهر بالخطبة الماضي فيها، وكل ماضٍ في كلام أو سير فهو شحشح؛ والشحشح في غير هذا الموضع: البخل الممسك.

يروى أَنَّهُ رأى خطيباً يخطب فقال: ما هذا الخطيب الشحشح: أي الماهر في خطبته.

٣ - وفي حديثه (عليه السلام)

إِنَّ لِلْخُصُومَةِ قُحْمًا.

يريد بالقحم المهالك؛ لأنها تقحم أصحابها في المهالك والمتالف في الأكثر، ومن ذلك «قحمة الأعراب» وهو أن تصيبهم السنة فتعرق أموالهم فذلك تقحمها فيهم. وقيل فيه وجه آخر، وهو أنها تقحمهم بلاد الريف، أي: تحوجهم إلى دخول الحضر عند محول البدو.

هذا ما قاله السيد - رحمه الله - وأقول: يروى أَنَّهُ عليه السلام وكَلَّ أخاه في خصومة، وقال: إِنَّ لَهَا لِقُحْمًا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُهَا. والقحم: المهالك. وذلك أَنَّها مظنة ثوران الفتنة الغصبيّة والخروج عن حدّ العدل فيها إلى رذيلة الإفراط التي هي مظنة الهلاك.

٤ - وفي حديثه (عليه السلام)

إِذَا بَلَغَ النِّسَاءَ نَصَّ الْحَقَّاقِ فَأَلْعَصَبُهُ أُولَى .

والنص : منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها كالنص في السير لأنه أقصى ما تقدر عليه الدابة . وتقول : نصصت الرجل عن الأمر ؛ إذا استقصيت مسأله عنه لتستخرج ما عنده فيه . فنص الحقائق يريد به الإدراك لأنه منتهى الصغر والوقت الذي يخرج منه الصغير إلى حد الكبير ، وهو من أفصح الكنايات عن هذا الأمر وأغربها ، يقول : فإذا بلغ النساء ذلك فالعصبة أولى بالمرأة من أمها إذا كانوا محرماً مثل الأخوة والأعمام ، وبتزوجها إن أرادوا ذلك والحقاق محاكاة الأم للعصبة في المرأة وهو الجدال والخصومة وقول كل واحد منهما للآخر «أنا أحق منك بهذا» يقال منه : حاقفته حقاً ، مثل جادلته جدالاً . وقد قيل : إن «نص الحقائق» بسوغ العقل ، وهو الإدراك ؛ لأنه عليه السلام إنما أراد منتهى الأمر الذي تجب فيه الحقوق والأحكام ، ومن رواه «نص الحقائق» فإنما أراد جمع حقيقة .

هذا معنى ما ذكره أبو عبيد [القاسم بن سلام] والذي عندي أن المراد بنص الحقائق ههنا بلوغ المرأة إلى الحد الذي يجوز فيه تزويجها وتصرفها في حقوقها ، تشبيهاً بالحقاق من الإبل ، وهي جمع حقة وحق ، وهو الذي استكمل ثلاث سنين ودخل في الرابعة ، وعند ذلك يبلغ إلى الحد الذي يتمكن فيه من ركوب ظهره ، ونصه في السير ، والحقائق أيضاً : جمع حقة . فالروايتان جميعاً ترجعان إلى معنى واحد ، وهذا أشبه بطريقة العرب من المعنى المذكور .

وأقول : الذي ذكره السيد أنسب إلى كلام العرب كما قال . غير أن نص الحقائق استعارة لا تشبيه وإن كانت الاستعارة تعتمد التشبيه . والعصبة : بنو الرجل وقرباته لأبيه سموا بذلك لأنهم عصبوا به وعلقوا عليه . وقيل : يحتمل أن يراد بالنص الارتفاع . يقال : نصت الضبة رأسها : إذا رفعت ، ومنه منصّة العروس لارتفاعها عليها . وتكون قد استعار لفظ الحقائق لأثداء الصغيرة

إذا انهدت وارتفعت لشبهها بالحقة صورة: أي إذا بلغن حدَّ ارتفاع أُنْدَاهُنَّ كانت العصبية أولى بهنَّ من الأمِّ لأنَّه وقت إدراكهنَّ وعلامة صلاحيتهنَّ للتزويج .

٥ - وفي حديثه (عليه السلام)

إِنَّ الْإِيمَانَ يَبْدُو لَمْظَةً فِي الْقَلْبِ كُلَّمَا أَزْدَادَ الْإِيمَانُ أَزْدَادَتِ اللَّمْظَةُ .
واللمظة مثل النكتة أو نحوها من البياض . ومنه قيل : فرس المظ ، إذا كان بجحفلته شيء من البياض . وأقول : أراد أنَّ الإيمان وهو التصديق بوجود الصانع تعالى أوَّل ما يكون في النفس يكون حالة ثم لا يزال يتأكَّد بالبراهين والأعمال الصالحة إلى أن يصير ملكة تامَّة ، ولفظ اللمظة استعارة لما يبدو من نور الايمان في النفس أوَّل كونه ملاحظة لشبهه باللمظة من البياض والنكتة من نور الشمس . ونصب لمظة على التمييز . والجحفلة من الفرس هي المسمَّاة من الإنسان شفة .

٦ - وفي حديثه (عليه السلام)

إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ لَهُ الدَّيْنُ الظَّنُّونُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُزَكِّيَهُ لِمَا مَضَى إِذَا قَبَضَهُ .

فالظنون الذي لا يعلم صاحبه أيقضيه من الذي هو عليه أم لا ، فكأنه الذي يظن به فمرة يرجوه ومرة لا يرجوه . وهذا من أفصح الكلام ؛ وكذلك كل أمر تطلبه ولا تدري عى أي شيء أنت منه فهو ظنون وعلى ذلك قول الأعشى .

مَا يُجْعَلُ الْجَدُّ الظَّنُّونُ الَّذِي جُنِبَ صَوَّبَ اللَّجِبِ الْمَاطِرِ
مِثْلُ لَفْرَاتِي إِذَا مَا طَمَا يَقْذِفُ بِالْبُوصِيِّ وَالْمَاهِرِ

الجد : البئر والظنون : التي لا يعلم هل فيها ماء أم لا .

قيل : يقول الله : إذا كان لك مثلاً عشرون ديناراً ديناراً على رجل ، وقد أخذها منك ووضعها كما هي من غير تصرف فيها وأنت تظن إن

استرددتها منه ردها إليك، فإذا مضى عليها أحد عشر شهراً واستهلّ هلال الثاني عشر وجبت زكاتها عليك. واللبج في قول الأعشى هو السحاب المصوّت ذو الرعد. وأراد بالفراثي الفرات، والياء للتأكيد كقولهم: والدهر بالإنسان دواريّ: أي دوّار. ويحتمل أن يريد نهر الفراتي. والبوصيّ: ضرب من صغار السفن. والماهر: السابح، ومراده أنه لا يقاس البئر الذي يتشكك هل فيه ماء أم لا لبعده بالفرات إذا ما طما. وهو كالمثل لعدم مساواة البخيل للكريم.

٧- وفي حديثه (عليه السلام)

أنه سيع جيشاً يغزيه فقال: إَعْذُبُوا عَنِ النِّسَاءِ مَا اسْتَطَعْتُمْ.

ومعناه اصدفوا عن ذكر النساء وشغل القلب بهن، وامتنعوا من المقاربة لهن، لأن ذلك يفت في عضد الحمية ويقدح في معاقد العزيمة، ويكسر عن العدو، ويلفت عن الإبعاد في الغزو. وكل من امتنع من شيء فقد أعذب عنه. والعاذب والعدوب: الممتنع من الأكل والشرب. قوله: يفت في عضد الحمية كناية عن كسرها.

٨- وفي حديثه (عليه السلام)

كَالْيَاسِرِ الْفَلَجِ يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاجِهِ.

الياسرون: هم الذين يتضاربون بالقداح على الجزور، ولفالج: القاهر والغالب، يقال: فلج عليهم، وفلجهم، وقال الراجز:
لما رأيت فالجا قد فلجا

وأقول: قد مرّ شرحه في قوله: أمّا بعد فإن الأمر ينزل من السماء إلى لأرض كقطر المطر.

٩- وفي حديثه (عليه السلام)

كُنْ إِذَا أَحْمَرَ الْبَاسُ اتَّقِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى لَعْدُوِّهِ.

ومعنى ذلك أنه إذا عظم الخوف من العدو واشتد عضاض الحرب فزع المسلمون إلى قتال رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقوله «إذا احمر البأس» كناية عن اشتداد الأمر، وقد قيل في ذلك أقوال أحسنها: أنه شبه حمى الحرب بالنار التي تجمع الحرارة والحمرة بفعلها ولونها، ومما يقوي ذلك قول رسول الله ﷺ «قد رأى مجتلد الناس يوم حنين وهي حرب هوازن: «الآن حمى الوطيس» فالوطيس: مستوقد النار، فشبه رسول الله ﷺ استحر من جلاد القوم باحتدام النهر وشدة التهابها.

وأقول: استعار وصف احمرار البأس لشدة ملاحظة لشبهه بالنار الموقدة. وقد مرّ مثل ذلك في بعض كتبه عليه السلام.

٢٤٦ - وقال (عليه السلام)

لما بلغه إغارة أصحاب معاوية على الأنبار: فخرج بنفسه ماشياً حتى أتى النخيلة فأدركه الناس، وقالوا: يا أمير المؤمنين، نحن نكفيكهم، فقال: مَا تَكْفُونَنِي أَنْفُسَكُمْ فَكَيْفَ تَكْفُونَنِي غَيْرَكُمْ؟ إِنْ كَانَتِ الرَّعَايَا قَبْلِي لَتَشْكُو حَيْفَ رُعَاتِيهَا، وَإِنِّي الْيَوْمَ لَأَشْكُو حَيْفَ رِعِيَّتِي، كَأَنِّي الْمُقُودُ وَهُمْ الْقَادَةُ، أَوْ الْمَوْزُوعُ وَهُمْ الْوَزَعَةُ!

فلما قال ﷺ هذا القول في كلام طويل قد ذكرنا مختاره في جملة الخطب، تقدم إليه رجلان من أصحابه فقال أحدهما: إني لا أملك إلا نفسي وأخي فمر بأمرك يا أمير المؤمنين ننقد له فقال ﷺ: وَأَيْنَ تَقَعَانِ مِمَّا أُريدُ؟ أقول: هذا الفصل قد مرّ مشروحاً في الخطب.

وقيل إن الحارث بن حوت أتاه ﷺ فقال: أتراني أظن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة؟

فقال ﷺ: يَا حَارِثُ، إِنَّكَ نَظَرْتَ تَحْتَكَ وَلَمْ تَنْظُرْ فَوْقَكَ فَجَرَتْ! إِنَّكَ لَمْ تَعْرِفِ الْحَقَّ فَتَعَرَّفَ مَنْ أَتَاهُ؛ وَلَمْ تَعْرِفِ الْبَاطِلَ فَتَعَرَّفَ مَنْ أَتَاهُ. فقال الحارث: فإني أعتزل مع سعد بن مالك وعبد الله بن عمر؟ فقال عليه

السلام: إِنَّ سَعْدًا وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ لَمْ يَنْصُرَ الْحَقَّ وَلَمْ يَخْذُلَا الْبَاطِلَ.

قوله أتراني . استفهام إنكار لرؤيته كذلك . ورخم حارث في بعض النسخ . وقيل في قوله: إِنَّكَ نظرت تحتك وم تنظر فوقك: أي نظرت في أعمال الناكثين من أصحاب الجمل المتمسكين بظاهر الإسلام الذين هم دونك في المرتبة لبغيهم على إمام الحق فاغتررت بشبهتهم واقتديت بهم ولم تنظر إلى من هو فوقك وهو إمامك الواجب الطاعة ومن معه من المهاجرين والأنصار ولا سمعت حكمهم بكون خصومهم على الباطل فكان ذلك سبب حيرتك . ويحتمل أن يكون نظره تحته كناية عن نظره إلى باطل هؤلاء وشبهتهم المكتسبة عن محبة الدنيا التي هي الجنبه السافلة، ونظره فوقه كناية عن نظره إلى الحق وتلقيه من الله .

وقوله: إِنَّكَ: إلى آخره .

تفصيل لسبب حيرته وهو عدم معرفته للحق والباطل المستلزم لجهله بأهلها ولو عرفهما لجزم باتباع الحق واجتناب البطل وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: كل من كان كذلك وقع في الحيرة والضلال . وسعد ابن مالك هو سعد ابن أبي وقاص فإنه لما قتل عثمان اشترى أغدماً وانتقل إلى لبادية وكان يتعيش بتلك الأغنام حتى مات ولم يشهد بيعة علي عليه السلام . وأما عبد الله بن عمر فالتجأ إلى أخته حفصة زوجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما بايع لأمير المؤمنين عليه السلام ولكنه لم يشهد معه حرب الجمل، وقال: قد أعجزتني العبادة عن الفروسة والمحاربة فلست مع علي ولا مع أعدائه . فأما قوله في جوابه: إِنَّ سَعْدًا، إلى آخره فهو صغرى ضمير نبه فيه على أنه لا يجوز له متابعتهم في الاعتزال وهي من المخيلات المنقرة التي في صورة الذم وإن كانت صدقة . وتقدير الكبرى: وكل من كان كذلك فلا يجوز متابعتة .

٢٤٧ - وقال (عليه السلام)

صَاحِبُ السُّلْطَانِ كَرَائِبِ الْأَسَدِ: يُغْبِطُ بِمَوْقِعِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَوْضِعِهِ.

أي يتمنى موقعه وهو يعلم أنه في غاية من المخاطرة بالنفس والتغريب

بها، وذلك هو وجه الشبه براكب الأسد.

٢٤٨ - وقال (عليه السلام)

أَحْسِنُوا فِي عَقَبِ غَيْرِكُمْ تَحْفَظُوا فِي عَقَبِكُمْ.

العقب من يخلفه الإنسان من الولد وأولادهم. وإنما كان كذلك لأن المجازاة واجبة في الطبيعة ولأن الذكر الجميل بذلك يعطف الناس على عقب المحسن من بعده.

٢٤٩ - وقال (عليه السلام)

إِنَّ كَلَامَ الْحُكَمَاءِ إِذَا كَانَ صَوَاباً كَانَ دَوَاءً، وَإِذَا كَانَ خَطأً كَانَ دَاءً. وذلك لقوة اعتقاد الخلق فيهم وشدة قبولهم لما يقولونه فإن كان حقاً كان دواء من الجهل وإن كان باطلاً أوجب للخلق داء الجهل. ولذلك قيل: زلة العالم زلة انعام.

٢٥٠ - وسأله رجل أن يعرفه الإيمان فقال (عليه السلام)

إِذَا كَانَ الْغَدُ فَأْتَنِي حَتَّى أُخْبِرَكَ عَلَى أَسْمَاعِ النَّاسِ، فَإِنْ نَسِيتَ مَقَالَتِي حَفِظْتُهَا عَلَيْكَ غَيْرُكَ، فَإِنَّ الْكَلَامَ كَالشَّارِدَةِ يَنْقُفُهَا هَذَا وَيُخْطِئُهَا هَذَا. وقد ذكرنا ما أجابه به فيما تقدم من هذا الباب وهو قوله «الإيمان على أربع شعب».

وجه تشبيه الكلام بالشاردة من الإبل قوله: ينفقها: أي يجدها في ضلالها. إلى آخره. ولفصل ظاهر.

٢٥١ - وقال (عليه السلام)

يَا أَبْنَ آدَمَ، لَا تَحْمِلْ هَمَّ يَوْمِكَ الَّذِي لَمْ يَأْتِكَ عَنْ يَوْمِكَ الَّذِي قَدْ أَتَاكَ؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ مِنْ عُمْرِكَ يَأْتِ اللَّهُ فِيهِ بِرِزْقِكَ.

أي ينبغي أن يكون الاهتمام بحاجة كل يوم مخصوصاً بذلك اليوم. والكلمة صغرى ضمير نبيه به على ترك الاهتمام بما لم يأت من الأيام، وتقدير

الكبرى: وكلما كان كذلك فلا ينبغي الاهتمام له.

٢٥٢ - وقال (عليه السلام)

أَحَبُّ حَبِيبِكَ هَوْنًا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِضِكَ يَوْمًا، وَأَبْغَضُ بَغِضِكَ هَوْنًا، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبِكَ يَوْمًا.

فائدة هذه الكلمة الأمر بالاعتدال في المحبة والبغض وعدم الإفراط فيهما لما في الإفراط من المفسدة. والهون: السكينة والوقار وهو صفة مصدر محذوف: أي حباً هيناً معتدلاً. - وما - في الموضعين يفيد شيئاً ما في الهون واليوم، وإن الغرض منه مقدار الإفراط ووقت من الأوقات وإن لم يكن معيناً. ونه على سر ذلك بقوله: عسى. في الموضعين وهم صغرى ضميرين أما مفسدة إفراط المحبة فلاستلزامه اطلاع المحب لمحبوبه على أسرارهِ وتوقيفه على أحواله فربما ينقلب بعد ذلك عدواً له فيكون أقدر على هلاكه من غيره من الأعداء. وكذلك مفسدة إفراط البغض وهو عدم الإبقاء على لمبغوض وذلك يستلزم دوام المعاداة. فالاعتدال في ذلك أولى لأنه ربما عاد العدو إلى الصداقة فكان المبغض قد أبقي للصداقة موضعاً، وتقدير كبرى الأول: وكل حبيب جاز أن يكون عدواً في وقت ما فينبغي أن لا يفرط في محبته. وتقدير كبرى الثاني: وكل عدو جاز أن يكون صديقاً يوماً ما فينبغي أن لا يفرط في بغضه.

٢٥٣ - وقال (عليه السلام)

الْأَنْسُ فِي الدُّنْيَا غَامِلَانِ: غَامِلٌ عَمَلٌ فِي الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا، قَدْ شَغَلَتْهُ دُنْيَاهُ عَنْ أَجْرَتِهِ، يَخْشَى عَلَى مَنْ يَخْضِفُهُ الْفَقْرُ وَيَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَيُفْنِي عُمُرَهُ فِي مَنَفَعَةٍ غَيْرِهِ، وَغَامِلٌ عَمَلٌ فِي الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا فَجَاءَهُ الَّذِي لَهُ مِنَ الدُّنْيَا بَغِيرُ عَمَلٍ، فَأَحْرَزَ الْحَظَّيْنِ مَعاً، وَمَلَكَ الدَّارَيْنِ جَمِيعاً فَأَصْبَحَ وَجْهَهُ عِنْدَ اللَّهِ لَا يَسْأَلُ اللَّهَ حَاجَةً فَيَمْنَعُهُ.

لما كان العمل في هذه الحياة لا بد منه فعمل العاقل إمّا لها أو لغيرها

وغيرها هو الآخرة فإذن الناس عاملان، وأشار إلى الأول في معرض ذمه بقوله: قد شغلته دنياه. إلى قوله: غيره، ومعنى ذلك أنه يشتغل بتحصيل الدنيا خوف الفقر على ولده من بعده فيفني عمره في منفعة يتخيلها لغيره ولا يخشى الفقر الأكبر في الآخرة من الخيرات الباقية على نفسه. وذلك ضلال مبين. وأشار إلى الثاني في معرض مدحه بقوله: وعامل. إلى قوله: فجاءه الذي له من الدنيا: أي المكتوب له في اللوح المحفوظ من رزق ونحوه. وقوله: بغير عمل.

أي للدين لأن العمل بقدر الضرورة من الدنيا ليس من العمل لها بل للآخرة وهو مقصود من الدنيا بالعرض، وبذلك يحرز حظيه من الدنيا والآخرة، ويكون في الدنيا ملكا بقناعته وفي الآخرة بثمرة أعماله ووجاهته عند الله وعلو منزلته في استعداده بطاعته المستلزم لقبول دعوته وإجابتها فيما سأل.

وروي أنه ذكر عند عمر بن الخطاب في أيامه حلي الكعبة وكثرته، فقال قوم: لو أخذته فجهزت به جيوش المسلمين كان أعظم للأجر وما تصنع الكعبة بالحي؟ فهم عمر بذلك، وسأل أمير المؤمنين عليه السلام:

٢٥٤ - فقال (عليه السلام)

إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ (ص) وَالْأَمْوَالُ أَرْبَعَةٌ: أَمْوَالُ الْمُسْلِمِينَ فَقَسَّمَهَا بَيْنَ الْوَرَثَةِ فِي الْفَرَائِضِ، وَالْفَيْءِ فَقَسَّمَهُ عَلَى مُسْتَحِقِّيهِ، وَالْخُمْسُ فَوَضَعَهُ اللَّهُ حَيْثُ وَضَعَهُ، وَالصَّدَقَاتُ فَجَعَلَهَا اللَّهُ حَيْثُ جَعَلَهَا، وَكَانَ حَلِي الْكَعْبَةِ فِيهَا يَوْمَئِذٍ، فَتَرَكَهُ اللَّهُ عَلَى خَالِهِ، وَلَمْ يَتْرُكْهُ نَسِيَانًا، وَلَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ مَكَانًا، فَقَرَّهَ حَيْثُ أَقَرَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. فَقَالَ لَهُ عمر: لولاك لافتضحنا، وترك الحلي بحاله.

القصة مشهورة وخلاصة حجة عليه السلام ضمير أشار إلى صفراء وتقديرها: إن حي الكعبة قد أقره الله على حاله ورسوله من غير نسيان له ولا جهل

بمكانه مع تعرضه لجميع الأموال. وتقدير الكبرى: وكلما أقره الله ورسوله على حاله وجب الاقتداء بهما في إقراره. ولذلك أمره بصورة النتيجة وهو قوله: فأقره الله ورسوله. ونسياناً نصب على الحال، ومكاناً على التمييز.

وروي أنه عليه السلام رفع إليه رجلان سرقا من مال الله: أحدهما عبد من مال الله، والآخر من عرض الناس:

٢٥٥ - فقال (عليه السلام)

أَمَّا هَذَا فَهُوَ مِنْ مَالِ اللَّهِ وَلَا حَدَّ عَلَيْهِ، مَالُ اللَّهِ أَكَلَ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَأَمَّا الْآخَرُ فَعَلَيْهِ الْحَدُّ فَقَطَعَ يَدَهُ.

عرض الناس سائرهم وعامتهم. واحتج للعبد بضمير صفراء قوله: فهو مال الله أكل بعضه بعضاً. وتقدير كبراه: وكلما كان كذلك فلا قطع عليه. وأما المقطوع فإنه قد كان سرق نصاباً من مال الغنيمة من حرز ولم يكن له نصيب منها، وأما إن كان له نصيب فإن كان المسروق فوق نصيبه نصاباً قطع وإلا فلا.

٢٥٦ - وقال (عليه السلام)

لَوْ قَدْ أَتَوْتُ قَدَمَائِي مِنْ هَذِهِ الْمَدَاحِضِ لَغَيَّرْتُ أَشْيَاءَ.

المداحض: المزالق. وستواء قدميه كناية عن ثباته وتمكّنه من إجراء الأحكام الشرعية على وجوهها في المسائل الاجتهادية المشكّلة التي يخفى حكم الشرع فيها على غيره، وذلك أنه في خلافته لم يتمكّن من تغيير شيء من أحكام الخلفاء قبله وكن له في بعضها رأي غير ما رآه. واستعار لتلك المسائل لفظ المداحض باعتبار أنها مزالق أقدام العقول ومزالها. وأوماً بقوله: لغيرت أشياء. إلى ما كان يرى فساداً من أحكام غيره في تلك المسائل وأن أقدام عقولهم قد زلقت فيها عن سواء الصراط.

٢٥٧ - وقال (عليه السلام)

اعْلَمُوا عِلْمًا يَقِينًا أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِلْعَبْدِ - وَإِنْ عَظُمَتْ حِيلَتُهُ،
وَأَشْتَدَّتْ طَلِبَتُهُ، وَقَوِيَتْ مَكِيدَتُهُ - أَكْثَرَ مِمَّا سُمِّيَ لَهُ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، وَلَمْ
يَحُلْ بَيْنَ الْعَبْدِ فِي ضَعْفِهِ وَقَلَّةِ حِيلَتِهِ، وَبَيْنَ أَنْ يَبْلُغَ مَا سُمِّيَ لَهُ فِي الذِّكْرِ
الْحَكِيمِ. وَالْعَارِفُ لِهَذَا الْعَامِلُ بِهِ أَعْظَمُ النَّاسِ رَاحَةً فِي مَنَفَعَةٍ، وَالتَّارِكُ لَهُ
الشَّاكُّ فِيهِ أَعْظَمُ شُغْلًا فِي مَضَرَّةٍ؛ وَرَبُّ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ مُسْتَذْرَجٌ بِالنُّعْمَى؛ وَرَبُّ
مُبْتَلَى مَصْنُوعٌ لَهُ بِالْبَلْوَى. فَرَدَّ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ فِي شُكْرِكَ، وَقَصَّرَ مِنْ عَجَلَتِكَ،
وَقَفَّ عِنْدَ مُنْتَهَى رِزْقِكَ.

وفي هذا الفصل لطائف. لما قام البرهان على أن ما علم الله تعالى
وجوده فهو واجب الوقوع وما علم عدمه فهو ممتنع الوقوع لا جرم لم يكن
لكل من القوي والضعيف من الرزق ونحوه إلا ما علم الله تعالى وصوله إليه
بقلم القضاء الإلهي في الذكر الحكيم واللوح المحفوظ ولم يبلغ عظيم الحيلة
قوي المكيده بحيلته أكثر مما سمي له. ولا قصر الضعيف بضعفه عن بلوغ ما
سمي له. ولأجل ثبوت ذلك بالبرهان أمرهم بتيقنه، ورغبهم في علمه والعمل
به بضمير صغراه وقوله: والعارف. إلى قوله: في منفعة. أما راحته فلعلمه أن
ما كتب له لا بد أن يصل إليه فيترك لذلك شدة الاهتمام به والكدح له، ولما
كانت راحته قلبية وبدنية كانت أعظم الراحة، ولما كانت مع منفعة بما يصل
إليه تأكد شرفها. وكذلك نفر عن الشك في ذلك وترك العمل به بقوله:
والتارك لهذا الشاك فيه. إلى آخره. وهو ضمير تقدير كبراه: وكل من كان
كذلك فلا ينبغي له الشك فيه وتركه، وإنما كان أعظم الناس شغلاً لأنه شغل
قلبه وبدنه فيما لا فائدة فيه فيلزمه مضرة خالصة.

فإن قلت: فهذا ينافي الأمر بالدعاء وبالسعي في طلب الرزق كقوله
تعالى: ﴿فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾^(١) ونحوه.

قلت: قد بينا أنه لا ينافي، وذكرنا سرّ الدعاء وفائدته. وحاصله أنه قد يكون الدعاء سبباً لوجود الرزق فيعلم الله تعالى وجوده بواسطة سببه ولا تنافي بينهما.

الثانية: تبه أهل النعمة والغنى وأهل الابتلاء على وجوب شكر الله تعالى على حالهما أما أهل النعمة فنبههم بأن نعمتهم قد تكون استدراجاً لهم ليشكروا الله عليها كيلا يستدرجهم بها، وأما أهل البلوى فنبههم بأن بلواهم قد تكون صنعة من الله في حقهم ليعدهم بها لشوابه الجزيل فيجب عليهم شكر ذلك الصنع. والمقدمتان صغرياً ضميرين تقدير الأولى منهما: بعض المنعم عليه مستدرج بالنعمة. وتقدير الكبرى: وكلّ مستدرج بالنعمة يجب عليه أن يحترز بشكر نعمة الله عليه من الاستدراج بها، وكذلك تقدير الثانية: وبعض المبتلى مصنوع له بالبلوى. وتقدير الكبرى: وكلّ مصنوع إليه فيجب عليه شكر صنع الله في حقه. ولذلك أمر المستمعين مطلقاً بزيادة الشكر مع أن فيهم المنعم عليهم والمبتلى. ثم أمر بالتقصير عن العجلة في طلب الرزق والوقوف دون حدّ الإفراط على حدّ العدل.

٢٥٨ - وقال (عليه السلام)

لَا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلًا، وَيَقِينَكُمْ شَكًّا إِذَا عَلِمْتُمْ فَأَعْمَلُوا، وَإِذَا تَيَقَّنْتُمْ فَأَقْدِمُوا.

نهاهم أن يجعلوا علمهم بما أهم علمه من أحوال الآخرة جهلاً: أي في قوة الجهل، ويقينهم شكاً: أي في قوة الشك وبمنزلته لتركهم العمل على وفق ما علموه وتيقنوه. ولذلك أمرهم بالعمل على وفق علمهم والإقدام عليه على وفق يقينهم.

٢٥٩ - وقال (عليه السلام)

إِنَّ الطَّمَعَ مُورِدٌ غَيْرُ مُصْدِرٍ، وَضَامِنٌ غَيْرُ وَفِيٍّ. وَرُبَّمَا شَرِبَ الْمَاءَ قَبْلَ رِيِّهِ، وَكُلَّمَا عَظُمَ قَدْرُ الشَّيْءِ الْمُتَنَافَسِ فِيهِ عَظُمَتِ الرَّزِيَّةُ لِفَقْدِهِ،

وَالْأَمَانِيُّ تُعْمِي أَعْيُنَ الْبَصَائِرِ، وَالْحَظُّ يَأْتِي مَنْ لَا يَأْتِيهِ.

نفر عن الطمع في الدنيا والحرص في طلبها وتمنيها واقتنائها بوجوه:

الأول: ضمير صغراه قوله: إن الطمع. إلى قوله: وفي: أي يورد الطامع موارد الهلكة ولا يصدره عنها. واستعار له لفظ الضامن غير الوفي باعتبار أنه يرغب في الطلب ويدعو إليه مع أنه قد يكون كاذباً كمن يضمن شيئاً ويخلف فيه، وتقدير كبراه: وكلما كان كذلك فلا ينبغي أن يتبع ويوثق به.

الثاني: قوله: وربما. إلى قوله: ربه. وهو تنبيه على أنه لا يجوز الاسترسال في طلب الدنيا بضمير كنى عن صغراه بذلك، وتقديرها: أن المسترسل في طلبها قد يخترم ويقتطع دون بلوغ أمله فيها. وتقدير الكبرى: وكل ما كان كذلك فلا ينبغي له الاسترسال في طلبها.

الثالث: نفر عن المنافسة فيما عظم قدره من متاعها بضمير صغراه قوله: وكلما. إلى قوله: لفقده. والرزية: المصيبة. وتقدير الكبرى: وكلما عظمت الرزية لفقده فلا ينبغي اقتناؤه. إذ كان من ضرورته فقده وفناؤه.

الرابع: نفر عن الأمانى بضمير صغراه قوله: والأمانى تعمي أعين البصائر وذلك أنها تشغل الفكر بما لا يعنى عن طلب ما يعنى من الكمالات العقلية. واستعار لفظ الأعين للأفكار باعتبار إدراكهما. وتقدير الكبرى: وكلما كان كذلك وجب اجتنابه.

الخامس: نبه على ترك طلب الحظ من الدنيا بقوله: والحظ يأتي من لا يأتيه: أي الحظ لمن كان له حظ يصل إليه وإن لم يسع في طلبه، وهو في قوة صغرى ضمير، وتقدير كبراه: وكلما كان كذلك فلا حاجة إلى طلبه وإتيانه.

٢٦٠ - وقال (عليه السلام)

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ تُحَسِّنَ فِي لَامِعَةِ الْعُيُونِ عَلَائِيَّ، وَتُقَبِّحَ فِيمَا

أَبْطُنْ لَكَ سَرِيرَتِي ، مُحَافِظاً عَلَى رِثَاءِ النَّاسِ مِنْ نَفْسِي بِجَمِيعِ مَا أَنْتَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ مِنِّي ، فَأَبْدِي لِلنَّاسِ حُسْنَ ظَاهِرِي ، وَأَفْضِي إِلَيْكَ بِسُوءِ عَمَلِي ، تَقَرُّباً إِلَى عِبَادِكَ ، وَتَبَاعُداً مِنْ مَرَضَاتِكَ .

أَفْضَى : أَصْل . وَاسْتَعَاذَ بِاللَّهِ أَنْ يَجْتَمَعَ لَهُ حَسَنُ الظَّنِّ فِي عَيُونِ النَّاسِ مَعَ قَبْحِ بَاطِنِهِ عِنْدَ اللَّهِ بِالرِّيَاءِ وَالتَّصَنُّعِ بِالزَّهَادَةِ وَالْعِبَادَةِ الظَّاهِرَةِ لِمَا يَطْلُبُ الدُّنْيَا . وَالْأَمْعَةُ الْعَيُونُ إِضَافَةٌ لِلصِّفَةِ إِلَى الْمُوصُوفِ : أَيِ الْعَيُونِ الْوَالِدَةِ . وَمُحَافِظاً حَال . وَتَقَرُّباً وَتَبَاعُداً مُصَدِّرَانِ سَدّاً مَسدّاً لِحَالٍ ، وَيَحْتَمِلُ نَصْبَهُمَا عَلَى الْمَفْعُولِ .

٢٦١ - وَقَالَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)

لَا وَالَّذِي أَمْسَيْنَا مِنْهُ فِي غُبْرِ لَيْلَةٍ دَهْمَاءَ تَكْشُرُ عَنْ يَوْمٍ أَغْرَمَ كَانَ كَذَا وَكَذَا .

فَغُبْرِ اللَّيْلِ : بَقَايَاهُ . وَالْدَهْمَاءُ : السُّودَاءُ . وَالتَّكْشُرُ : التَّبَسُّمُ بِحَيْثُ تَبْدُو الْأَسْنَانَ . وَالْأَغْرَمُ : الْوَاضِحُ . وَلَقَطَ التَّكْشُرَ مُسْتَعَاراً لِلَّيْلَةِ بِاعْتِبَارِ إِسْفَارِهَا عَنْ ضَوْءِ يَوْمِهَا . فَهِيَ كَالضَّاحِكَةِ . وَالْيَمِينُ فِي غَايَةِ الْفَصَاحَةِ ، وَعَنْ مِثْلِهَا يَنْفَعِلُ الْحَالِفُ وَالسَّامِعُ .

٢٦٢ - وَقَالَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)

قَلِيلٌ تَدْوُمُ عَلَيْهِ أَرْجَى مِنْ كَثِيرٍ مَمْلُولٍ [مِنْهُ] .

وَأَرَادَ مِنَ الْأَفْعَالِ فَإِنَّ الْقَلِيلَ الدَّائِمَ أَكْثَرَ مِنَ الْكَثِيرِ الْمَمْلُولِ الْمَنْقُطِعِ وَأَقْوَى إِعْدَاداً لِلنَّفْسِ فَكَانَ أَنْفَعُ فِي الْآخِرَةِ .

٢٦٣ - وَقَالَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)

إِذَا أَضْرَبْتَ النَّوَافِلَ بِالْفَرَائِضِ فَارْفُضُوهَا .

أَيِ إِذَا أَخَلَّتْ بَعْضُ شَرَائِطِ الْفَرَائِضِ وَجِبَ تَرْكُهَا وَقَدْ مَرَّ ذَلِكَ مُشْرُوحاً .

٢٦٤ - وقال (عليه السلام)

مَنْ تَذَكَّرَ بَعْدَ السَّفَرِ اسْتَعَدَّ.

وأراد أنَّ المتذكر لبعد طريق الآخرة يلزمه الاستعداد لها بالتقوى.

٢٦٥ - وقال (عليه السلام)

لَيْسَتْ الرُّؤْيَةُ كَالْمُعَايَنَةِ مَعَ الْإِبْصَارِ فَقَدْ تَكْذِبُ الْعُيُونُ أَهْلَهَا، وَلَا يَغُشُّ الْعَقْلُ مَنْ اسْتَنْصَحَهُ.

هذا تنبيه على وجوب أعمال الفكر فيما ينبغي، وأنَّ العقل هو مستند الحواسِّ وهو الناقد البصير والناصح الشفيق الذي لا يغشُّ من استنصحه. واستعار لفظ الاستنصاح لمراجعته وإعماله بصدق وتوجُّهه إلى استخراج الآراء الصالحة، ولفظ الغشُّ لكذبه: أي لا يكذب من استنصحه وجعله رائداً له. وأما الحواسِّ فقد تكذب أهلها. واعلم أنَّ البصر وغيره من الحواسِّ الظاهرة لا حكم له، وأما الحكم ببعض المحسوسات على بعض فحكم العقل بواسطة الخيال والوهم، وكلِّما عرض في تلك الأحكام من الغلط فهو من أغلاط الوهم على ما تبين في موضعه، وحينئذ يكون قوله: وقد تكذب العيون أهلها: أي قد يكذب الأحكام الوهميَّة على مدركات العيون كالحكم بكون القطرة النازلة خطأ مستقيماً والشعلة التي تدار بسرعة كالدائرة ونحوه.

٢٦٦ - وقال (عليه السلام)

يَبْنِيكُمْ وَيَبْنِي الْمَوْعِظَةُ حِجَابٌ مِنَ الْغُرَّةِ.

استعار لفظ الحجاب لما يعرض للنفوس من الهيئات البدنيَّة المغفلة عن النظر في العبرة وقبول الموعظة والانتفاع بها.

٢٦٧ - وقال (عليه السلام)

جَاهِلُكُمْ مُزْدَادٌ، مُسَوِّفٌ.

مزداد أي من الإثم. مسوِّف: أي بالتوبة.. وروي: عالمكم مسوِّف.

٢٦٨ - وقال (عليه السلام)

قَطَعَ الْعِلْمُ عُذْرَ الْمُتَعَلِّلِينَ .

أي العلم بالدين وما بلغه الرسول ﷺ من البشارة والندارة فإن ذلك قاطع لعذر من عساه يقول: إنا كنا عن هذا غافلين. كما قال تعالى: ﴿رَسُولًا مَبْشِيرًا وَمُنْذِرًا﴾ (١) الآية.

٢٦٩ - وقال (عليه السلام)

كُلُّ مُعَاجِلٍ يَسْأَلُ الْإِنْظَارَ، وَكُلُّ مُؤَجَّلٍ يَتَعَلَّلُ بِالتَّسْوِيفِ .
وهو توبيخ على ترك العمل الصالح للمعجل والمؤجل.

٢٧٠ - وقال (عليه السلام)

مَا قَالَ النَّاسُ لِشَيْءٍ «طُوبَى لَهُ» إِلَّا وَقَدْ خَبَأَ لَهُ الدَّهْرُ يَوْمَ سُوءٍ .

أي ما استحسّن الناس من الدنيا شيئاً إلا وفي قوّة الدهر إعداد لفساده وإهلاكه يوماً ما. ولا بدّ من خروج ما فيه بالقوّة إلى الفعل.

٢٧١ - وسئل (عليه السلام)

عن القدر فقال: طَرِيقٌ مُظْلِمٌ فَلَا تَسْلُكُوهُ، وَبَحْرٌ غَمِيقٌ فَلَا تَلْجُوهُ،
وَسِرٌّ اللَّهُ فَلَا تَتَكَلَّفُوهُ .

أقول: السؤال عن مهية القدر وكيفية وقوع الأفعال بحسبه. وهذه المسألة من مسائل العلم الإلهي وفيها خبط عظيم بين الحكماء والمتكلمين، وقد نبهنا على ما هو الحق فيها فيما سبق ولصعوبتها كان الخوض فيها مظنة الضلال واليه في بحر لا ساحل له فلذلك نقر عليه السلام عن الخوض فيها بضمائر ثلاثة:

أحدها: أنها طريق مظلم، وتقدير الكبرى: وكلّ طريق مظلم فلا يجوز

سلوكه. وينتجه قوله: لا تسلكوه. واستعار لفظ المظلم له باعتبار كونه كثير الشبهات لا يهتدى فيه للحق.

الثاني: أنه بحر عميق. واستعار لفظ البحر بصفة العمق له باعتبار غرق الأفكار فيه، وتقدير كبراه: وكل بحر عميق فلا يجوز ولوجه. وينتجه قوله: فلا تلجوه.

الثالث: أنه سر الله: أي سر الله قد أحب كتبه ومنع من الخوض فيه، وتقدير كبراه: وكلما كان كذلك فلا يجوز تكلف الخوض فيه وهتكه. وفي معناه كل غامض من غوامض العلم لا يجوز كشفه إلا للأولياء وأفراد العلماء فهو من أسرار الله.

٢٧٢ - وقال (عليه السلام)

إِذَا أَرَدَلَ اللَّهُ عَبْدًا حَظَرَ عَلَيْهِ الْعِلْمَ.

وحظر العلم بإعداده لغيره وتعويق أسبابه بحيث ينصرف عنه فلا يكون له استعداد، وظاهر أن الجهل من أشد الرذائل وأصعبها داء وهو طرف التفريط من فضيلة العلم والأدب كما سبقت الإشارة إليه غير مرة.

٢٧٣ - وقال (عليه السلام)

كَانَ لِي فِيْمَا مَضَى أَخٌ فِي اللَّهِ، وَكَانَ يُعْظِمُهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ، وَكَانَ خَارِجًا مِنْ سُلْطَانِ بَطْنِهِ فَلَا يَشْتَهِي مَا لَا يَجِدُ وَلَا يُكْثِرُ إِذَا وَجَدَ؛ وَكَانَ أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَامِتًا، فَإِنْ قَالَ بَدَّ الْقَائِلِينَ وَنَفَعَ غَلِيلَ السَّائِلِينَ؛ وَكَانَ ضَعِيفًا مُسْتَضْعَفًا! فَإِنْ جَاءَ الْجِدُّ فَهُوَ لَيْثٌ غَابَ وَصِلٌ وَادٍ، لَا يُدْلِي بِحُجَّةٍ حَتَّى يَأْتِيَ قَاضِيًا؛ وَكَانَ لَا يُلُومُ أَحَدًا عَلَى مَا يَجِدُ الْعُذْرَ فِي مِثْلِهِ حَتَّى يَسْمَعَ أَعْتِذَارَهُ؛ وَكَانَ لَا يَشْكُو وَجَعًا إِلَّا عِنْدَ بُرْئِهِ؛ وَكَانَ يَفْعَلُ مَا يَقُولُ وَلَا يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ، وَكَانَ إِذَا غَلِبَ عَلَى الْكَلَامِ لَمْ يُغْلَبْ عَلَى السُّكُوتِ، وَكَانَ عَلَى مَا يَسْمَعُ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ، وَكَانَ إِذَا بَدَّهَ أُمْرَانِ يَنْظُرُ أَيُّهُمَا أَقْرَبُ إِلَى الْهَوَى

فَخَالَفَهُ، فَعَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الْأَخْلَاقِ فَالزُّمُوهَا وَتَنَافَسُوا فِيهَا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوهَا
فَاعْلَمُوا أَنَّ أَخَذَ الْقَلِيلَ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الْكَثِيرِ.

أقول: ذكر هذا الفصل ابن المقفع في أدبه ونسبه إلى الحسن ابن
علي عليه السلام وبد: غلب ونقع الغليل: سكن العطش. وأدلى بحجته: أرسلها
واحتج بها. وبده الأمر: أتاه من غير تأهب له. والمشار إليه قيل: هو أبو ذر
الغفاري. وقيل: هو عثمان بن مظعون. وقد وصفه باثنتي عشرة فضيلة:

إحديها: أنه كان يستصغر الدنيا وينظر إليها بعين الاحتقار، وظاهر أن
ذلك يستلزم عظمه في عيون أهل الله.

الثانية: أنه كان خارجاً عن سلطان بطنه وهو كناية عن خروجه من أسر
شهوته وخلاصه من رذيلة الفجور إلى فضيلة العفة. فكفّ شهوته عما لا يجد
يستلزم عدم رذيلة الحرص والحسد ونحوهما، وعدم إكثاره مما يجد يستلزم
نزاهته عن رذيلة الشره والنهم ونحوهما.

الثالثة: فضيلة العدل في الكلام والسكوت: أي أنه ينطق بالحكمة في
موضعها. وأما غلبة السكوت عليه فلقوة عقله كما قال عليه السلام فيما قبل: إذا تمّ
العقل نقص الكلام.

الرابعة: أنه كان ضعيفاً مستضعفاً: أي فقيراً منظوراً إليه بعين الذلة
والفقر وذلك من لوازم فضيلة التواضع.

الخامسة: فضيلة الشجاعة عند الجدّ في الحرب والغضب لله، وكنتي
عن ذلك بقوله: فإذا جاء الجدّ. إلى قوله: واد. واستعار لفظ الليث باعتبار
سطوته وعدوانه ولفظ الصلّ باعتبار بأسه ونكايته في العدو، والمثل يضرب
بحية الرادي في الشجاعة ونكاية السم.

السادسة: أنه لا يدلي بحجته حتى يجد قاضياً وهو من فضيلة العدل
في وضع الأشياء مواضعها.

السابعة: كونه لا يلوم أحداً على أمر يحتمل العذر إلا بعد سماع

الاعتذار فإن كان هناك عذر قبله . وذلك مع لوازم العدل والإنصاف وفضيلة الثبات واحتمال المكروه .

الثامنة : كونه لا يشكو ما ينزل به من الأمراض لتسليمه أحكام الله ورضاه بها بل لعله يحكيها بعد برئه على سبيل الإخبار دون الشكاية . وإنه كان يكتم مرضه كيلا يتكلف الناس زيارته فيشق عليهم ذلك .

التاسعة : كان يطابق بفعله قوله ، ويحترز عن الكذب والخلف .

العاشرة : كان يترك المماراة والمجادلة والمغالبة في الأقوال ويعدل إلى السكوت إذا غلب في القول ، وذلك من فضيلة الحكمة . لعلمه بمواقع السكوت والكلام ، ومن فضيلته . لقهره قوته الغضبية في المغالبة .

الحادية عشر : وكان أحرص على الإسماع منه على الكلام ترجيحاً لجانب الاستفادة على الإفادة ، والأول أهم من الثاني . وذلك من فضيلة الحكمة .

الثانية عشر : وكان إذا خطر بباله أمران دفعة من غير سابقة فكر في أيهما أصلح . مثلاً كالنزويج وعدمه فكر في أيهما أقرب إلى الهوى وميل الشهوة كالنزويج فخالفه إلى تركه . ولما كان غرض الفصل أن يقتدي السامعون بالفضائل المذكورة أمرهم ^{بترك} بلزومها والتنافس فيها أو في بعضها إن لم يمكن الكل ، ورغب في ذلك بقوله : فاعلموا . إلى آخره . وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان خيراً فينبغي لزومه والتنافس فيه .

٢٧٤ - وقال (عليه السلام)

لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدَ اللَّهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ لَكَانَ يَجِبُ أَنْ لَا يُعْصَى شُكْرًا لِنِعَمِهِ .

لما كان شكر النعمة بالاقوال والأفعال المطابقة لها واجباً عقلاً وجب ترك المعصية الذي هو لازم للطاعة الواجبة لأن الواجب واجب ، ومقتضى الكلمة أنه لو لم يتوعد الله على معصيته لكان يجب تركها شكراً له : أي لأجل شكره فكيف وقد توعد مع ذلك عليها فبالأولى أن يجب تركها .

٢٧٥ - وقال (عليه السلام)

وقد عزي الأشعث بن قيس عن ابن له: يَا أَشْعَثُ، إِنْ تَحْزَنَ عَلَى آيِنِكَ فَقَدْ اسْتَحَقَّتْ مِنْكَ ذَلِكَ الرَّجْمُ؛ وَإِنْ تَصْبِرُ فَقِيَّ اللَّهُ مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ خَلَفَ. يَا أَشْعَثُ، إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ؛ وَإِنْ جَزَعْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَازُورٌ [يَا أَشْعَثُ] آيِنُكَ سَرَّكَ وَهُوَ بَلَاءٌ وَفِتْنَةٌ وَحَزَنُكَ وَهُوَ ثَوَابٌ وَرَحْمَةٌ.

استدرجه ^{استدرجه} أولاً بتحسين الحزن وأنه في موضعه باعتبار أن الرحم يستحق من ذي رحمه ذلك. ثم عقبه بما يدل على قبح الجزع والحزن بأن الصبر به أولى وذلك من وجوه:

أحدها: قوله: وَإِنْ تَصْبِر. إلى قوله: خَلَفَ. وهي متصلة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلما كان في الله خلف عنه فالصبر عنه أولى. والنتيجة إن تصبر على مصيبتك فالصبر عليها أولى.

الثاني: قوله: إِنْ صَبَرْتَ. إلى قوله: وَأَنْتَ مَأْجُورٌ: أي على صبرك وهو صغرى ضمير أيضاً تقدير كبراه: وكل من جرى عليه القدر وهو مأجور على صبره فالصبر به أولى.

الثالث: نَفَرَهُ عَنِ الْجَزَعِ بقوله: وَإِنْ جَزَعْتَ: إلى قوله: مَازُورٌ: أي على جزعه. وأصله موزور فهَمْزٌ لمناسبة القرينة الأولى. وهو ضمير أيضاً تقدير كبراه: وكل من جرى عليه القدر فهو مازور، على جزعه دخل النار.

الرابع: قوله: سَرَّكَ وَهُوَ بَلَاءٌ وَفِتْنَةٌ. وهو تنفير عن إفراط السرور به. ووجه كونه بلاءً أَنَّ الإفراط في محبته يستلزم رذائل خلقية كالجبين عما ينبغي من الجهاد خوف مفارقتة، وكالبخل خوف فقره ونظراً له في عاقبته، وكالحزن في امراضه وأعراضه كما قل ^{صبر} ^{والفهم}: الولد محزنة مجبنة مبخلة. وكذلك بغضه يستلزم رذيلة العقوق وقطع الرحم وصرف المال عنه في غير وجهه. فبالحري أن يبتلي الله الوالد بولده ويطلب منه الوقوف على حد العدل في

حقه. والواو في قوله: وهو. للحال، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلما كان كذلك فينبغي أن لا يأسف على ما فات من السرور.

الخامسة: قوله: وحزنك. إلى آخره: تنفير عن الحزن عليه بما يلزم تركه من الصبر على المصيبة به من ثواب الله ورحمته وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلما هو صبر عن الحزن وهو ثواب ورحمة فينبغي أن يصبر عن الحزن عليه.

٢٧٦ - وقال (عليه السلام)

على قبر رسول الله ﷺ ساعة دفن: إِنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إِلَّا عَنْكَ؛ وَإِنَّ الْجَزَعَ لَقَبِيحٌ إِلَّا عَلَيْكَ؛ وَإِنَّ الْمُصَابَ بِكَ لَجَلِيلٌ؛ وَإِنَّهُ قَبْلَكَ وَبَعْدَكَ لَجَلَلٌ.

الجلل: الأمر الهين والأمر العظيم وهو من الأضداد، وإنما كان الصبر غير جميل في المصيبة به ﷺ، والجزع عليه غير قبيح لأنه ﷺ أصل الدين والقدوة فيه فالجزع في المصيبة به يستلزم دوام تذكره المستلزم لدوام ذكر أخلاقه وسننه وسيرته فكان غير قبيح من هذا الوجه، أو لأن المصيبة به مصيبة عظيمة وهو أعظم فائت فيستحسن الجزع عليه، وأما الصبر فإنه يؤول إلى سلوانه والغفلة عنه فكان غير جميل من هذا الوجه. وقد تعرض لفضيلة القبح من بعض الاعتبارات ولرذيلة الحسن من وجه، وظاهر أن المصاب به أعظم مصاب بأحد من الناس وأن كل مصاب بأحد من قبله أو بعده فهو سهل هين بالنسبة إليه. وقيل: أراد أن المصاب به قبله عظيم على المسلمين لحذرهم منه، وبعده كذلك لاختلال أمرهم وأمر الدين بفقده. والأول أظهر.

٢٧٧ - وقال (عليه السلام)

لَا تَصْحَبِ الْمَائِقَ؛ فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَكَ فِعْلَهُ، وَيَوَدُّ أَنْ تَكُونَ مِثْلَهُ.

المائق: الأحمق. ونفر عنه بضمير صغراه قوله: فإنه. إلى آخره. وذلك لأنه لحمقه يعتقد كمال نفسه وحسن أفعاله ووجوب الاقتداء بها فهو يزينها يحب لمن يصحبه أن يكون مثله فيها، ويدعوه إلى ذلك. وتقدير كبراه: وكل

من كان كذلك فلا تجوز صحبته .

وقد سئل عن مسافة ما بين المشرق والمغرب .

٢٧٨ - فقال (عليه السلام)

مَسِيرَةُ يَوْمٍ لِلشَّمْسِ .

وهو جواب واضح مقنع وغرض الخطابة الإقناع . فأمّا تحقيق ما بينهما باعتبار تعيين مساحة الأرض أو الفلك فأمر يرجع إلى علم الهيئة، ولعله عليه السلام إنما عدل عن الجواب بشيء من ذلك لاستبعاد بعض العوامّ له . ولا نقول : إنه عليه السلام ما كان يعلم ذلك .

٢٧٩ - وقال (عليه السلام)

أَصْدِقَاؤُكَ ثَلَاثَةٌ : صَدِيقُكَ ، وَصَدِيقُ صَدِيقِكَ ، وَعَدُوُّ عَدُوِّكَ . وَأَعْدَاؤُكَ ثَلَاثَةٌ : عَدُوُّكَ ، وَعَدُوُّ صَدِيقِكَ ، وَصَدِيقُ عَدُوِّكَ .

الحكم بأن صديق الصديق وعدو العدو صديق من القضايا المظنونة لاحتمال كون الصديق غير عالم بأن لصديقه صديقاً وكون لعدو غير عالم بأن لعدوه عدواً فضلاً أن يعاديه أو يصادقه، وكذلك الحكم بأن عدو الصديق وصديق العدو عدو للاحتمال المذكور .

٢٨٠ - وقال (عليه السلام)

لِرَجُلٍ رَأَى يَسْعَى عَلَى عَدُوِّهِ بِمَا فِيهِ إِضْرَارٌ بِنَفْسِهِ : إِنَّمَا أَنْتَ كَالطَّاعِنِ نَفْسَهُ لِيَقْتُلَ رَدْفَهُ .

ووجه الشبه قصده لأذى غيره بما يستلزم أذى نفسه .

٢٨١ - وقال (عليه السلام)

مَا أَكْثَرَ الْعَبْرَ وَأَقْلَّ الْإِعْتِبَارَ !

أراد بالعبر محال الاعتبار وهو في معرض التوبيخ للسامعين على ترك الاعتبار .

٢٨٢ - وقال (عليه السلام)

مَنْ بَالَغَ فِي الْخُصُومَةِ أَثِمَ، وَمَنْ قَصَرَ فِيهَا ظَلِمَ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ مَنْ خَاصَمَ.

نفر عن طرفي الإفراط والتفريط في المجادلة والمخاصمة بما يلزم رذيلة الإفراط فيها وهو الظلم من الإثم وطرف التفريط فيها من رذيلة الانظلام، وأشار إلى صعوبة الوقوف فيها على حد العدل بقوله: ولا يستطيع. إلى آخره، وهو كالتنفير عن أصل المخاصمة لما أنها مظنة الرذائل.

٢٨٣ - وقال (عليه السلام)

مَا أَهَمَّنِي ذَنْبٌ أَهَلْتُ بَعْدَهُ حَتَّى أَصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ.

أي لم أحزن من ذنب أهلني الله بعده إلى أن أصلي ركعتين وذلك لأن الصلاة تكفر الذنب فإذا أهمل إلى أن يصليها لم يحزن بسببه.

٢٨٤ - وسئل (عليه السلام)

كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم؟ فقال عليه السلام: كَمَا يَرْزُقُهُمْ عَلَى كَثَرَتِهِمْ، فَقِيلَ: كَيْفَ يَحَاسِبُهُمْ وَلَا يَرُونَهُ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَمَا يَرْزُقُهُمْ وَلَا يَرُونَهُ.

شبهه كيفية محاسبته تعالى للخلق على كثرتهم بكيفية رزقه لهم على كثرتهم وجعل هذا أصلاً في التشبيه لظهوره، وعلم السائل به. وكذلك تشبيهه كيفية محاسبته لهم مع عدم رؤيتهم له بكيفية رزقه لهم من غير رؤية. ووجه الشبه في الموضوعين إمكان ذلك منه تعالى لشمول قدرته وعدم حاجته في شيء إلى شيء.

٢٨٥ - وقال (عليه السلام)

رَسُولُكَ تَرْجِمَانُ عَقْلِكَ، وَكِتَابُكَ أَبْلَغُ مَا يَنْطِقُ عَنْكَ!

استعار للرسول لفظ الترجمان للعقل باعتبار أنه ينبيء عنه، وأما أن الكتاب أبلغ من ينطق عن صاحبه فلضبط مراده فيه دون لسان الرسول لأنه ربما لم يؤد الرسالة على وجهها سهواً أو لغرض فيقع الخلل بسبب ذلك حتى ربما كان فيها هلاك المرسل.

٢٨٦ - وقال (عليه السلام)

مَا الْمُبْتَلَى الَّذِي قَدْ اشْتَدَّ بِهِ الْبَلَاءُ بِأَحْوَجَ إِلَى الدُّعَاءِ مِنَ الْمُعَافَى الَّذِي لَا يَأْمُرُ الْبَلَاءُ!

أي أنهما سواء في الحاجة إلى دعاء الله فذاك لحاجته إلى الخلاص من بلائه وهذا لبقاء عافيته وأمنه من لحوق البلاء. وهو حث لأهل العافية على دعاء الله لغرض الالتفات إليه ودوام قصده.

٢٨٧ - وقال (عليه السلام)

النَّاسُ أُبْنَاءُ الدُّنْيَا، وَلَا يُلَامُ الرَّجُلُ عَلَى حُبِّ أُمِّهِ.

وهو توبيخ للناس على حب الدنيا. ولفظ لأبناء مستعار لهم باعتبار تولدهم منها وميلهم إليها بالطبع.

وقوله: ولا يلام. إلى آخره.

لوم لهم. وهذا كما تقول لمن توبخه مثلاً على النوم: إن طبيعتك اللوم ولا لوم عليك فيما جبلت عليه.

٢٨٨ - وقال (عليه السلام)

إِنَّ الْمِسْكِينَ رَسُولُ اللَّهِ فَمَنْ مَنَعَهُ فَقَدْ مَنَعَ اللَّهَ، وَمَنْ أَعْطَاهُ فَقَدْ أَعْطَى اللَّهَ.

رغب في إعطاء المسكين بضمير صغراه ما ذكر، واستعار له لفظ رسول الله باعتبار أنه طالب لله وبأمر الله. وتقدير الكبرى: وكل من كان كذلك فيجب إعطاؤه وإرضاءه.

٢٨٩ - وقال (عليه السلام)

مَا زَنَى غَيُورٌ قَطُّ.

أي البتة. وذلك أَنَّ الغيور الحق إذا همَّ بالزنا تخيل مثل ذلك في نفسه من الغير فيعارض خياله داعيه فيحجم عنه.

٢٩٠ - وقال (عليه السلام)

كَفَى بِالْأَجَلِ حَارِسًا.

استعار له لفظ الحارس باعتبار أَنَّ الإنسان لا يهلك ما دام أجله كالْحَارِسِ.

٢٩١ - وقال (عليه السلام)

يَنْدُمُ الرَّجُلُ عَلَى الثُّكُلِ وَلَا يَنَامُ عَلَى الْحَرْبِ!!

قال الرضى: ومعنى ذلك أنه يصبر على قتل الأولاد ولا يصبر على سلب الأموال.

وأقول: الحرب: سلب الأموال. وإنَّما كان كذلك وإن كان المال والولد محبوبين للطمع في استخلاص المال بالتهوض له والحرب عنه؛ دون الثكل.

٢٩٢ - وقال (عليه السلام)

مَوَدَّةُ الْآبَاءِ قَرَابَةٌ بَيْنَ الْأَبْنَاءِ وَالْقَرَابَةُ إِلَى الْمَوَدَّةِ أَحْوَجُ مِنَ الْمَوَدَّةِ إِلَى الْقَرَابَةِ.

استعار لفظ القرابة للمودة، المتأكدة بين الأبناء فهي كالقرابة، وأخبر بها عن مودة الآباء إخباراً باللازم عن ملزومه. إذ كانت صداقة الآباء والمودة بينهم يستلزم تأكدها بين الأبناء وشدة اتصالهم. ثم أشار إلى تفضيل المودة على القرابة بكون القرابة أكثر حاجة إلى المودة في الانتفاع بها بين الخلق

والمودة أكثر استغناء عن القرابة في الانتفاع بها.

٢٩٣ - وقال (عليه السلام)

إِتَّقُوا ظُنُونَ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ.

المؤمن لا يكاد يخطأ لصفاء نفسه وكمال استعدادها للفكر الصحيح القريب من الحدس والانتقاش بنور الحق كما قال عليه السلام: اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ. فيفيض الله سبحانه صورة ذلك الحق على لسانه فينطق به.

وقوله: فإنه. إلى آخره.

صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل من كان كذلك فينبغي أن يتقى ظنه. وهو تنبيه لمن عساه ينوي شراً للرجوع عنه خوف ظنون المؤمنين.

٢٩٤ - وقال (عليه السلام)

لَا يَصْدُقُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ.

صدق الإيمان بالشيء يقينه وكماله. ومن كماله حسن الرجاء لله والتوكل عليه حتى يكون أوثق بما في يد الله منه بما في يده. وذلك لتيقن وصول رزقه من الله وجزمه بذلك الاقوى من جزمه ووثوقه بما في يده لجواز تلفه وعدم ثباته. وهي مرتبة عالية من مراتب التوكل.

٢٩٥ - وقال (عليه السلام)

لأنس بن مالك، وقد كان بعثه إلى طلحة والزبير لما جاء إلى البصرة يذكرهما شيئاً مما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم في معناهما، فلوى عن ذلك، فرجع إليه، فقال إني أنسيت ذلك الأمر فقال عليه السلام: إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَضَرْبَكَ اللَّهُ بِهَا بَيْضَاءَ لَامِعَةٍ لَا تُوَارِيهَا الْعِمَامَةُ.

قال الرضي: يعني البرص، فأصاب أنساً هذا الداء فيما بعد في وجهه فكان لا يرى إلى مبرقعا.

أقول: ما كان بعثه إليهما ليذكرهما به هو ما سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال لطلحة والزبير: إنكما ستقاتلان علياً وأنتما له ظالمان. فلما بعثه لقي من صرفه ولوى رأيه عن ذلك فرجع. فدعا عليه واستجيب دعوته. وبيضاء في محلّ الجرّ بدلاً من الضمير في بها.

٢٩٦ - وقال (عليه السلام)

إِنَّ لِلْقُلُوبِ إِقْبَالًا وَإِدْبَارًا: فَإِذَا أَقْبَلَتْ فَاحْمِلُوهَا عَلَى النَّوَافِلِ، وَإِذَا أُدْبِرَتْ فَاقْتَصِرُوا بِهَا عَلَى الْفَرَائِضِ.

وقد مر معنى إقبالها وإدبارها. وخصّ إقبالها بالنوافل لاتساعها فيه لها وللفرائض دون الإدبار.

٢٩٧ - وقال (عليه السلام)

وَفِي الْقُرْآنِ نَبَأٌ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرٌ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ.

فنبأ ما قبلهم أخبار القرون الماضية، وخبر ما بعدهم ذكر أحوال الموت والقيامة والوعد والوعيد، وحكم ما بينهم بيان الأحكام الخمسة المتعلقة بأفعالهم. وهو في معرض مدح القرآن والحث على قراءته وفهمه.

٢٩٨ - وقال (عليه السلام)

رُدُّوا الْحَجَرَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ؛ فَإِنَّ الشَّرَّ لَا يَدْفَعُهُ إِلَّا الشَّرُّ.

فالحجر كناية عن الشر. وردّه من حيث جاء كناية عن مقابلة الشر بمثله. ورغب في ذلك بضمير صغراه: قوله: فَإِنَّ الشَّرَّ: إلى آخره، وتقدير الكبرى: وكلّ ما لا يقطع إلا بالشرّ فواجب أن يقطع به. وليس هذا أمراً عاماً. لأمره ﷺ بالحلم في مواضع كثيرة.

٢٩٩ - وقال (عليه السلام)

لِكَاتِبِهِ عبيد الله ابن أبي رافع: أَلَيْقَ دَوَاتِكَ، وَأَطْلَ جِلْفَةِ قَلَمِكَ، وَفَرَجِ

بَيْنَ السُّطُورِ، وَقَرْمِطُ بَيْنَ الْحُرُوفِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْدَرُ بِصَبَاحَةِ الْخَطِّ.

كان أبو رافع مولى لرسول الله ﷺ وألقت الدواة ولقتها: أصلحتها بالمداد. وجلفة القلم: سنانه. والقرمطة بين الحروف: تقريب بعضها من بعض. والصباحه: الحسن. وفائدة القيد الأول ظاهرة، وفائدة الثاني: أن الجلفة الطويلة تقبل مداداً أكثر فيستمر القلم في كتابة كلمات كثيرة على نهج واحد من غير تقطيع بين المّدات بخلاف الجلفة القصيرة فإن مدادها أقل والمقاطع بين مّداتها أكثر فيكثر التفاوت بين الكلمات في أواخر كلّ مدة وأول الأخرى بعدها، وفائدة الثالث: ظهور الفصل بين السطور وتمييز بعضها عن بعض، وفائدة الرابع: كون الكلمة حسن الهيئة والحسن لها أقرب قسطاً، ولعل بعض هذه القيود أو كلّها شرط في حسن جنس ليس بشرط في حسن بعض أجناس الخطّ المحدثه بعده. ورغب في ذلك بقوله: فإن ذلك: أي فإن هذه الشرائط وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّما كان أولى بصباحه الخطّ ففعله أولى.

٣٠٠ - وقال (عليه السلام)

أَنَا يَعْسُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمَالُ يَعْسُوبُ الْفُجَّارِ. قال الرضي: ومعنى ذلك أن المؤمنين يتبعونني والفجار يتبعون المال كما تتبع النحل يعسوبها، وهو رئيسها.

أقول: استعار لنفسه لفظ يعسوب، ووجه المشابهة ما ذكره السيّد - رحمه الله تعالى -.

وقال له بعض اليهود: ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه؟

٣٠١ - فقال (عليه السلام)

إِنَّمَا اخْتَلَفْنَا عَنْهُ لَا فِيهِ، وَلَكِنَّكُمْ مَا جَفَّتْ أَرْجُلُكُمْ مِنَ الْبَحْرِ حَتَّى قُتِمَ لِنَبِيِّكُمْ: (اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ فَقَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ).

أراد أنا لم نختلف في نبوته ولم نشك في ذلك وإنما وقع خلافنا عنه :
أي بسبب اشتباه بعض ما جاء عنه من كتاب وسنة على من لا يعلم ذلك منا ،
وأما أنتم فقد اختلفتم في أن لكم صانعاً أم لا حتى قلمت لنيكم : اجعل لنا
إلهاً . وذلك يستلزم الشك منكم في نبوة نبيكم بالأولى .

٣٠٢ - وقيل له (عليه السلام)

بأي شيء غلبت الأقران؟ فقال عليه السلام : مَا لَقِيتُ رَجُلًا إِلَّا أَعَانَنِي
عَلَى نَفْسِيهِ .

قال الرضي : يومئذ بذلك إلى تمكن هيته في القلوب .
أراد أن سابق هيته ، وتخيل الأقران ما جرت به عادته من الظفر
بأمثالهم وقتلهم يوجب لنفوسهم انفعالات وضعفاً عن مقاومته . وذلك مما
يعينه عليهم .

٣٠٣ - وقال (عليه السلام)

لابنه محمد بن الحنفية : يَا بُنَيَّ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ مِنَ الْفَقْرِ فَاسْتَعِذْ
بِاللَّهِ مِنْهُ فَإِنَّ الْفَقْرَ مَنْقُصَةٌ لِلدِّينِ مَدْهَشَةٌ لِلْعَقْلِ دَاعِيَةٌ لِلْمَقْتِ .

أمره بالاستعاذة من الفقر لما فيه من المكاره الثلاثة : أما كونه منقصة
للدن فلاشتغال بهمه وتحصيل قوام البدن عن العبادة ، وكونه مدهشة
للعقل : أي محل دهشة العقل وحيرته وضيق الصدر به ظاهر ، وكذلك كونه
داعية مقت الخلق لصاحبه . ورغب في الاستعاذة منه بضمير صغراه ، قوله :
فإن الفقر . إلى آخره ، وتقدير كبراه : وكلما كان كذلك فيجب الاستعاذة بالله
منه .

٣٠٤ - وقال (عليه السلام)

لسائل سألته عن معضلة : سَلَّ تَفَقُّهَا ، وَلَا تَسْأَلْ تَعَتُّا ؛ فَإِنَّ الْجَاهِلَ
الْمُتَعَلِّمَ شَبِيهٌ بِالْعَالِمِ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ الْمُتَعَسِّفَ شَبِيهٌ بِالْجَاهِلِ الْمُتَعَتِّ .

المعضلة: المسألة المشككة. والتعنت: طلب الأمر الشاق على من يطلب منه. والتعسف: الأخذ على غير الطريق. وقد كان عليه السلام فهم من السائل أن غرضه الامتحان فأعرض عن جوابه إلى تأديبه وإرشاده إلى ما ينبغي من وضع السؤال وغرضه وهو التفقه دون التعنت لحصول الفائدة بالسؤال الأول. وتفقهها وتعنتاً مفعولان له أو مصدران سداً مسدّ الحال؛ ورغب في السؤال على وجه التعلم بضمير صغراه قوله: فإنّ الجاهل المتعلّم شبيهه بالعالم، ووجه الشبه اشتراكهما في طلب العلم وقصده. وتقدير الكبرى: وكلّ من كان شبيهاً بالعالم فينبغي أن يسلك مسلكه. ثم نقر عن سلوك غير طريق الحقّ في السؤال والعدول به إلى غير المقصود الأصلي بضمير ثان صغراه قوله: فإنّ العالم. إلى قوله: بالجهل، ووجه الشبه كون ذلك العالم يضع سؤاله في غير موضعه ويطلب ما لا ينبغي كالجاهل بوضع الأسئلة ومواقعها، وتقدير الكبرى: وكلّ من كان شبيهاً بالجاهل فينبغي أن يجتنب طريقه ليخلص من هذا الشبه.

٣٠٥ - وقال (عليه السلام)

لعبد الله بن العباس، وقد أشار عليه في شيء لم يوافق ربه: لَكَ أَنْ تُشِيرَ عَلَيَّ وَأَرَى؛ فَإِنْ عَصَيْتَكَ فَأَطْعِنِي.

روي أنه أشار عليه عند انصرافه من مكة حاجاً وقد بايعه الناس، وقال: يا أمير المؤمنين إن هذا أمر عظيم يخاف غوائل الناس فيه. فاكتب لطلحة بولاية البصرة وللزبير بولاية الكوفة واكتب إلى معاوية وذكره القرابة والصلة وأقره على ولاية الشام حتى يبايعك فإن بايعك وجرى على سنتك وطاعة الله فاتركه على حاله وإن خالفك فادعه إلى المدينة وأبدله بغيره، ولا تموج بحار الفتنة. فقال عليه السلام: معاذ الله أن أفسد ديني بدنيا غيري، ولك يا ابن عباس أن تشير، وأرى. وحذف مفعول أرى للعلم به: أي أنظر في وجه المصلحة. وأوجب طاعة نفسه لأنه الإمام ولأنه أفضل رأياً فإذا رأى المصلحة في شيء فراه أرجح.

٣٠٦ - وروي أنه (عليه السلام)

لما ورد الكوفة قادما من صفين مر بالشبابيين فسمع بكاء النساء على قتلى صفين وخرج إليه حرب بن شرحبيل الشبامي وكان من وجوه قومه فقال **عليه السلام** له: **أَتَغْلِبُكُمْ نِسَاؤُكُمْ عَلَى مَا أَسْمَعُ؟ أَلَا تَنْهَوْنَهُنَّ عَنْ هَذَا الرَّيْبِ، وَأَقْبَلَ يَمْشِي مَعَهُ وَهُوَ **عليه السلام** دَرَاكِب فَقَالَ لَهُ: إِرْجِعْ فَإِنَّ مَشْيَ مِثْلِكَ مَعَ مِثْلِي فِتْنَةٌ لِلرَّوَالِي وَمَذَلَّةٌ لِلْمُؤْمِنِ.**

شباب بكسر الشين: حي من العرب. وقادماً حال، والاستفهام للإنكار دخل على النفي، وقد علمت ما في الجزع من الرذيلة فلذلك نهى عنه، ولأنه يجبن الرجل ويثبطهم عن الحرب وهو في محل الحاجة، ونفره عن المشي معه بضمير صغراه قوله: **فَإِنَّ مَشْيَ مِثْلِكَ**. إلى آخره، وتقدير الكبرى: وكلما كان فتنة ومذلة وجب تركه.

٣٠٧ - وقال (عليه السلام)

وقد مر بقتلى الخوارج يوم النهروان: **بُؤْسًا لَكُمْ لَقَدْ ضَرَّكُمْ مَنْ غَرَّكُمْ، فَقِيلَ لَهُ: مَنْ غَرَّهُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ: الشَّيْطَانُ الْمُضِلُّ وَالْأَنْفُسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، غَرَّتْهُمْ بِالْأَمَانِيِّ، وَفَسَحَتْ لَهُمُ بِالْمَعَاصِي، وَوَعَدَتْهُمْ الْإِظْهَارَ فَأَقْتَحَمَتْ بِهِمُ النَّارَ.**

البؤس: الشدة. ويفهم من تفسيره لمن ضرهم وغرهم بالشیطان المضل والأنفس الأمارة بالسوء أن الشيطان قد يراد به النفس الأمارة. وإن العطف إنما يقتضي التغاير في العبارة. والأمني التي غرتهم بها هي أمني الغلبة والقهر، وفسحها لهم في المعاصي ترخيصها لهم وتوسيعها وتزيينها، وكذلك ما وعدتهم به من إظهارها لهم على من غالبهم. وظاهر أن ذلك مستلزم لدخول النار. ولفظ الاقتحام مستعار لسرعة إدخالها لهم النار.

٣٠٨ - وقال (عليه السلام)

إِتَّقُوا مَعَاصِيَ اللَّهِ فِي الْخَلَوَاتِ : فَإِنَّ الشَّاهِدَ هُوَ الْحَاكِمُ .

أمر بالخشية من معاصي الله ونفّر عنها بضمير صغراه قوله : فَإِنَّ الشَّاهِدَ هُوَ الْحَاكِمُ . وتقدير كبراه : وكل من كان الشاهد عليه هو حاكمه وجب عليه أن يتقيه .

٣٠٩ - وقال (عليه السلام)

لَمَّا بَلَغَهُ قَتْلُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ : إِنَّ حُزْنَنا عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ سُورِهِمْ بِهِ ؛ إِلَّا أَنَّهُمْ نَقَصُوا بَغِيضاً وَنَقَصْنَا حَبِيباً .

قد بينا فيما سلف مكانه منه سنة .

وقوله : فَإِنَّ حُزْنَنا عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ سُورِهِمْ بِهِ .

أي بفقده . أراد أنه يناسبه في الشدة ، وأشار إلى الفرق بين اعتبار نقصانه منهم ونقصانه منه وذلك في معرض التألم لفقده .

٣١٠ - وقال (عليه السلام)

الْعُمْرُ الَّذِي أَعْذَرَ اللَّهُ فِيهِ إِلَى ابْنِ آدَمَ سِتُونَ سَنَةً .

أعذر إليه : أتاه بالعذر ، وإعذار الله إليه : إمهاله إياه المدة المذكورة التي هي مظنة تحصيل الزاد ليوم المعاد فإن ما بعد الستين يضعف فيه القوى النفسانية والبدنية وتكلّ عن العمل فمن قصر إلى تلك الغاية فقد توجه اللوم عليه وانقطعت حجّته بالإعذار إليه .

٣١١ - وقال (عليه السلام)

مَا ظَفِرَ مَنْ ظَفِرَ الْإِثْمُ بِهِ ، وَالْغَالِبُ بِالشَّرِّ مَغْلُوبٌ .

وهو تنفير عن الظلم والبغي وذلك أن الظافر الحق هو من قهر خصمه على وجه العدل فمن لا يكون كذلك يلزمه الظلم ويقهره عند الله الإثم فيكون

مغلوباً بظلمه وهو في صورة غالب، واستعار وصف الظفر لأسره في ربة الإثم وإحاطته به.

٣١٢ - وقال (عليه السلام)

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَرَضَ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ الْفُقَرَاءِ : فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مُتَّعَ بِهِ غَنِيٌّ، وَاللَّهُ تَعَالَى سَائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ.

أراد بذلك الفرض الزكاة، وظاهر أن جوع الفقير إنما يكون بما يمنعه الغني من القوت أو ما هو وسيلة إليه. ورهب الأغنياء بقوله : والله سائلهم عن ذلك. وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من سائله الله فينبغي أن يحذر سؤاله.

٣١٣ - وقال (عليه السلام)

الِاسْتِغْنَاءُ عَنِ الْعُذْرِ أَعَزُّ مِنَ الصَّدَقِ بِهِ.

أراد أن ترك ما يحتاج فيه إلى العذر فيستغنى بتركه عن العذر أعز عليك وأنفع لك من أن تأتيه ويكون لك فيه عذر صادق، ويحتمل أن يريد بقوله : أعز : أي أكثر عزة لك. إذ الإتيان بالعذر يحتاج إلى ذلة ومهانة.

٣١٤ - وقال (عليه السلام)

أَقْلُ مَا يُلْزِمُكُمْ لِلَّهِ أَنْ لَا تَسْتَعِينُوا بِنِعْمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ.

وذلك أن العدل أن تستعينوا بنعمته على طاعته فإن لم تفعل ذلك فلا أقل من أن تستعمل في الأمور المباحة، دون الاستعانة بها على معصيته فإن ذلك مما يعد لسخطه.

٣١٥ - وقال (عليه السلام)

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الطَّاعَةَ غَنِيمَةً الْأَكْيَاسِ عِنْدَ تَفْرِيطِ الْعَجْزَةِ.

طاعته تعالى غنيمة الأكياس باعتبار استلزامها للنعم المقيم في الآخرة

وسبب الغنيمة غنيمة، والأكياس هم الذين استعملوا فطنهم وحركاتهم في
تحصيل ما ينبغي من علم وعمل، وخصّهم الله سبحانه بهذه الغنيمة عند
تفريط العجزة وهم المقصرون عما ينبغي لهم. وهو في معرض ذمهم على
التقصير البالغ المشبه للعجز.

٣١٦ - وقال (عليه السلام)

السُّلْطَانُ وَزَعَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ.
الوزعة: الوازع وهو الرادع المانع: أي أنّ الله تعالى وضعه في أرضه
ليمنع به ما يريد منعه. وأراد السلطان العادل.

٣١٧ - وقال (عليه السلام)

في صفة المؤمن: الْمُؤْمِنُ بِشْرُهُ فِي وَجْهِهِ، وَحُزْنُهُ فِي قَلْبِهِ، أَوْسَعُ
شَيْءٍ صَدْرًا، وَأَذَلُّ شَيْءٍ نَفْسًا، يَكْرَهُ الرِّفْعَةَ، وَيَشْتَأُ السُّمْعَةَ، طَوِيلُ غَمٍّ،
بَعِيدُ هَمٍّ، كَثِيرُ صَمْتَةٍ، مَشْغُولُ وَقْتَةٍ، شَكُورٌ صَبُورٌ، مَغْمُورٌ بِفِكْرَتِهِ. ضَمِينٌ
بِخَلَّتِهِ، سَهْلُ الْخَلِيقَةِ، لَيِّنُ الْعَرِيكَةِ! نَفْسُهُ أَضْلَبُ مِنَ الصَّلْدِ وَهُوَ أَذَلُّ مِنَ
الْعَبْدِ.

يشأ: يبغض. وذكر له في معرض التعريف والمدح ستة عشر وصفاً:
أحدها: أنّ بشره في وجهه. وذلك من تمام فضيلة التواضع ولين
الجانب.
الثاني: وحزنه في قلبه. وذلك من خشية الله ونظره إلى ما عساه فرط
في جنب الله.

الثالث: أوسع صدرًا. وقد علمت أنّ سعة الصدر فضيلة للقوة
الغضبية، وقد يعبر عنها برحب الذراع. أراد أنه مستكمل لهذه الفضيلة.

الرابع: وأذلّ شيء نفساً: أي لتواضعه لله ونظر نفسه إلى محلّها
ومقدارها من الحاجة إلى الله. وصدرًا ونفساً تميزان.

الخامس: كراهيته للرفعة. لأنّها مبدأ الرذائل كالعجب والكبر، وكذلك

بغضه للسمعة احتراز من تلك الرذائل.

السادس: طول غمّه. لنظره دائماً إلى ما بين يديه من الموت وما بعده.

السابع: وبحسب ذلك كان بعد همّته وعلوّها عن دنيا الدنيا ونظره إلى المطلوب الأكمل من السعادة الأخروية الباقية.

الثامن: كثير صمته. وذلك لكمال عقله فهو لا ينطق إلا بما يحتاج إليه ممّا فيه حكمة وصلاح.

التاسع: قد شغل وقته: أي بعبادة ربّه.

العاشر: كونه شكوراً: أي كثير الشكر لله.

الحادي عشر: صبور: أي على بلاء الله

الثاني عشر: مغمور بفكرته في ملكوت السماوات والأرض واستنباط آيات الله وعبره منها.

الثالث عشر: ضنين بخلّته. لترصّده مواقع الخلّة وأهلها الذين هم إخوان الصدق في الله وهم قليلون فلا يضعها كيف اتفق ومع كلّ من طلب مودّته وخلّته، ويحتمل أن يريد أنه إذا خالّ أحداً ضنّ بخلّته أن يضيّعها أو يهمل خليله. وروي بفتح الخاء. والخلّة: الحاجة: أي إذا عرضت له حاجة ضنّ بها أن يسأل أحداً فيها.

الرابع عشر: سهل الخليقة: أي لا جفوة في طباعه ولا خشونة.

الخامس عشر: لين العريكة. وهو كناية عن سهولة تناول ما يراد منه. وأصله الجلد من الأديم يكون ليّناً عند العرك من الدباغ، سهلاً على دابغه.

السادس عشر: نفسه أصلب من الصلد بشجاعته وثبته في طاعة الله، وهو أذلّ من العبد لتواضعه ومعرفته بقدره عند قدرة باريه. والواو للحال.

٣١٨ - وقال (عليه السلام)

لَوْ رَأَى الْعَبْدُ الْأَجَلَ وَمَصِيرَهُ لَأَبْغَضَ الْأَمَلَ وَغُرُورَهُ.

استعار لفظ المسير للأجل وهو زمان الحياة باعتبار تقضي أجزائه وانتهائه بفنائها كما يقطع السائر أجزاء المسافة وينتهي الى غايته بفنائها، ويحتمل أن يريد بالأجل غاية الحياة، واستعار لفظ المسير لدنوها المعقول منه، وأراد أنه لو كان الأجل بصورة سائر محسوس فشاهد العبد سيره به الى الموت، وعلم غايته لقطع آماله الدنيوية ولم يغترر بها.

٣١٩ - وقال (عليه السلام)

لِكُلِّ أَمْرٍ فِي مَالِهِ شَرِيكَانِ: الْوَارِثُ، وَالْحَوَادِثُ.
نَفَرُ عَنْ ادِّخَارِ الْمَالِ بِذِكْرِ الشَّرِيكَيْنِ الْمَكْرُوهَيْنِ.

٣٢٠ - وقال (عليه السلام)

الدَّاعِي بِلَا عَمَلٍ كَالرَّامِي بِلَا وَتَرٍ.

ووجه الشبه عدم إمكان الانتفاع. ونحوه قول الرسول ﷺ: أحمق الناس من ترك العمل وتمنى على الله.

٣٢١ - وقال (عليه السلام)

الْعِلْمُ عِلْمَانِ: مَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعٌ، وَلَا يَنْتَفَعُ الْمَسْمُوعُ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْمَطْبُوعُ.

أراد بالمطبوع العقل بالملكة وهو الاستعداد بالعلوم الضرورية للانتقال منها إلى العلوم المكتسبة والمسموعة من العلماء فإن لا يكون له ذلك الاستعداد لا ينتفع بما يسمعه من العلوم ولا يتمكن من اكتسابه. وقيل: أراد بالمطبوع ما يعلم من الأصول بطبيعة العقل كالتوحيد والعدل، وبالمسموع العلوم الشرعية التي هي فرع العقلية. إذ لا ينتفع بفرع من دون أصله.

٣٢٢ - وقال (عليه السلام)

صَوَابُ الرَّأْيِ بِالدُّوَلِ: يُقْبَلُ بِاقْبَالِهَا، وَيَذْهَبُ بِذَهَابِهَا.

أي أن الدولة مستلزمة لصواب الرأي. إذ كان من تمام السعادة المقتضية للدولة أن يلزمها رأي صواب يكون به تديرها. وتلك السعادة والدولة معدة لاختيار أصلح الآراء وقائدة إليه فهو يقبل بإقبالها لإعدادها له وعند ذهابها يذهب الرأي الصواب وإن عدّ في الظاهر صواباً.

٣٢٣ - وقال (عليه السلام)

الْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ، وَالشُّكْرُ زِينَةُ الْغِنَى.

العفة: فضيلة القوة الشهوية. وظاهر كونها زينة للإنسان وهي مع الفقر أجمل فإنها تفيد الفقير بهاءً محبةً في قلوب الخلق ويكسبه المدح والثناء منهم ويظهر أثرها عليه بسرعة. وإن فقدها الفقير خسر الدنيا والآخرة، وكذلك الشكر من فضائل القوة الشهوية أيضاً وقبيح بالغني مقابلة نعم الله بالكفران. فزينة غناه وتمامه إذن شكره له.

٣٢٤ - وقال (عليه السلام)

يَوْمَ الْعَدْلِ عَلَى الظَّالِمِ أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ الْجَوْرِ عَلَى الْمَظْلُومِ!

فيوم العدل يوم القيامة، ويوم الجور وقت الظلم. وقد مرّ بيانه.

٣٢٥ - وقال (عليه السلام)

الْأَقَارِيلُ مَحْفُوظَةٌ، وَالسَّرَائِرُ مَبْلُوءَةٌ وَ (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)، وَالنَّاسُ مَنْقُوصُونَ مَذْخُولُونَ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ: سَأَلْتُهُمْ مُتَعَنِّتٌ، وَمُجِيبُهُمْ مُتَكَلِّفٌ، يَكَادُ أَفْضَلُهُمْ رَأْيًا يَرُدُّهُ عَنْ فَضْلِ رَأْيِهِ الرِّضَا وَالسُّخْطُ، وَيَكَادُ أَصْلَبُهُمْ عُدَاً تَنْكَرُهُ اللَّحْظَةُ، وَتَسْتَحِيلُهُ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ! مَعَاشِرَ النَّاسِ، اتَّقُوا اللَّهَ فَكَمْ مِنْ مُؤَمِّلٍ مَا لَا يَبْلُغُهُ، وَبَانٍ مَا لَا يَسْكُنُهُ، وَجَامِعٍ مَا سَوْفَ يَتْرُكُهُ، وَلَعَلَّهُ مِنْ بَاطِلٍ جَمَعَهُ، وَمِنْ حَقٍّ مَنَعَهُ: أَصَابَهُ حَرَامٌ، وَأَحْتَمَلَ بِهِ آثَامًا، فَبَاءَ بِوِزْرِهِ، وَقَدِمَ عَلَى رَبِّهِ آيِفًا لَاهِفًا، قَدْ (خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ).

مدخول ومدخل: أي في عقله دخل وعلة. وتنكؤه: أي تؤثر فيه. وتستحيله: تغيره. وباء بثقله: رجع به وحصل عليه. واللاهف: المتحسر.

والفصل في معرض الوعظ فنبه السامعين أولاً على أن أقوالهم محفوظة وسرائرهم مختبرة بما كلفوا به من طاعة الله. والسرائر ما أضمر في القلوب من العقائد والنيات وغيرها. وعن معاذ بن جبل قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾^(١) ما هذه السرائر التي تبلى يوم القيامة؟ فقال: سرائركم هي أعمالكم من الصلاة والصيام والزكاة والوضوء والغسل من الجنابة وكل مفروض لأن الأعمال كلها سرائر خفية فإن شاء قال: صليت ولم يصل، وإن شاء قال: توضأت ولم يتوضأ. واستعار لفظ الرهينة للنفس باعتبار وثوقها في الأسر بما كسبت من الشر كما يوثق الرهن بما عليه من مال. واللفظ من القرآن المجيد. وغرض ذلك التنبيه على العدل في القول وإضمار الخير واكتساب الأعمال الصالحة.

ثم نبه على ما فيهم من النقصان الطبيعي المحتاج إلى التكميل المكتسب ووصف سائلهم بأن سؤاله خارج عما ينبغي لأن غرضه به الامتحان دون العلم، ومحبيهم بالتكلف في جوابه لقلّة علمه، وأفضلهم رأياً بأنه يكاد أن يردّه عن فضل رأيه ما يعرض له من أمر يرضى به أو يسخط له ويرجع عنه وإن كان يشاهد فيه المصلحة، وأصلبهم عوداً: أي أشدهم في الله وأقواهم في طاعته يؤثر فيه اللحظة: أي ممّن ينظر إليه نظر الهيبة وتستحيله الكلمة الواحدة منه فتغيره عن الحق. ويجوز أن يريد اللحظة والكلمة ممّن يستهويه للدنيا ولذاتها. ثم أمرهم بتقوى الله ونفّر عن تقبيح الأمل جذباً إلى التقوى بذكر كثرة من يؤمل ما لا يبلغه ويبني ما لا يسكنه ويجمع ما لا بدّ من تركه مع احتمال أن يكون من باطل جمعه ومن حقّ منعه أهله فأصابه حراماً وحمل ثقل وزره وقدم به على ربّه حزناً متحسراً على ما فرط في جنبه قد خسر الدنيا بموته والآخرة بتفريطه في اكتساب خيرها وذلك هو الخسران المبين.

٣٢٦ - وقال (عليه السلام)

مِنَ الْعِصْمَةِ تَعَذُّرُ الْمَعَاصِي .

أي من أسباب العصمة، وذلك أن الإنسان يتعود بتركها حين لا يجدها حتى يصير ذلك ملكة له وهي المراد بالعصمة .

٣٢٧ - وقال (عليه السلام)

مَاءٌ وَجْهَكَ جَامِدٌ يَقْطِرُهُ السُّؤَالُ، فَانْظُرْ عِنْدَ مَنْ تُقْطِرُهُ .

استعار لفظ ماء الوجه للحياء ونوره على الوجه الذي يذهب من وجه السائل بسؤاله، ورشح بذكر الجمود والتقطير. ويحتمل أن يكون كناية عما يعرض من العرق عند خجل السائل بسؤاله واستحيائه. وغرض الكلمة وضع السؤال موضعه من أهل المروءة والبيوتات، وروي: وجهك ماء جامد. فيكون استعارة للماء في الوجه باعتبار بذله فكأنه ذاب وقطر كالماء الجامد.

٣٢٨ - وقال (عليه السلام)

الْثَّنَاءُ بِأَكْثَرِ مِنَ الْإِسْتِحْقَاقِ مَلَقٌ، وَالتَّقْصِيرُ عَنِ الْإِسْتِحْقَاقِ عِيٌّ أَوْ حَسَدٌ .

فالملق: هو التلطف الشديد بالقول والإفراط في المدح. ونفر عن طرفي الإفراط والتفريط في الثناء فالإفراط بما يلزمه من رذيلة الملوق، والتفريط بما يلزمه من العي عن المدح أو الحسد بالفضيلة الممدوح عليها.

٣٢٩ - وقال (عليه السلام)

أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا اسْتَهَانَ بِهِ صَاحِبُهُ .

وذلك أن استهائه به يستلزم انهماكه فيه واستكثاره منه وعدم إقلاعه عنه حتى يصير ملكة بخلاف ما يستصعبه من الذنوب .

٣٣٠ - (وقال عليه السلام: أربع عشر كلمة:

مَنْ نَظَرَ فِي عَيْبِ نَفْسِهِ اشْتَغَلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ؛ وَمَنْ رَضِيَ بِرِزْقِ اللَّهِ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَهُ؛ وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ؛ وَمَنْ كَابَدَ الْأُمُورَ عَطِبَ؛ وَمَنْ اقْتَحَمَ اللَّجَجَ غَرِقَ؛ وَمَنْ دَخَلَ مَذَاجِلَ السُّوءِ أَتَاهُمْ؛ وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ خَطْوُهُ؛ وَمَنْ كَثُرَ خَطْوُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ؛ وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ؛ وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ؛ وَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ؛ وَمَنْ نَظَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ فَأَنكَرَهَا ثُمَّ رَضِيَهَا لِنَفْسِهِ فَذَلِكَ الْأَحْمَقُ بِعَيْنَيْهِ؛ وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْيَسِيرِ؛ وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَنْبَغِيهِ.

أحدها: من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره. لأنه إنما يذكر عيب الغير غالباً في معرض الافتخار عليه بالبراءة من ذلك العيب فإذا نظر إلى مثله من نفسه شغله اعتبار ذلك النقصان فيها عن الاشتغال بنقصان غيره والنظر فيه.

الثانية: ومن رضي برزق الله لم يحزن على ما فاتته. وذلك أن الحزن على ما فات مستلزم لعدم القناعة والرضى بالحاصل من الرزق فعدم ذلك اللازم مستلزم لعدم ملزومه وهو الحزن على الفائت

الثالثة: ومن سلَّ سيف البغي قتل به. وهو كناية عن الظلم، وظاهر أن الظلم سبب لهلاك الظالم. وقد سبق بيانه مراراً.

الرابعة: ومن كابد الأمور عطب: أي من قاساها بنفسه استعد بها للهلاك.

الخامسة: ومن اقتحم اللجج غرق. استعار لفظ اللجج للأمور العظام كالحروب وتدبير الدول، ولفظ الغرق للهلاك.

السادسة: ومن دخل مداخل السوء أتهم. لأنها مظنة التهمة ودخولها من الأمارات الموجبة للظن ك معاشرة الفساق ونحوه.

السابعة: ومن كثر كلامه كثر خطؤه. لأنه قد مر أن كمال العقل مستلزم

لقلة الكلام فيكون كثرة الكلام مستلزماً لنقصان العقل المستلزم لكثرة الخطأ والقول من غير تروٍّ وثبّت.

الثامنة: ومن كثر خطؤه قلّ حياؤه لأنك علمت أنّ الحياء هو أن يحسن الارتداع عن الأمور التي يقبح تعاطيها والإقدام عليها لملاحظته ما ينتج من ارتكابها من قبح الأحدث. والإقدام على الخطأ بكثرة الكلام ينافي الارتداع عن تلك الأمور وهو من جملةتها.

التاسعة: ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه. لأنّ الورع هو لزوم الأعمال الجميلة والوقوف على حدودها دون الرذائل. والحياء منها. فقلة الحياء مستلزم لقلة الورع. وربما فسّر الورع بالوقوف عن المحارم، وظاهر أنّ قلة الحياء أيضاً مظنة للإقدام على المحارم فكانت مظنة لقلة الورع فأقام الشيء مقام مظنة الشيء وحكم به.

العاشرة: ومن قلّ ورعه مات قلبه: أي لما كانت الفضيلة هي حياة القلب استعار لعدمها أو قلّتها فيه لفظ الموت باعتبار عدم انتفاعه بها كخروج الميت عن الانتفاع بالحياة.

الحادية عشر: ومن مات قلبه دخل النار. لأنّ المزعج له عنها إلى الجنة هو استكمالها بالفضيلة فإذا فقد ذلك فالنار موعده، والكلام في صورة قياس مفصول نتيجته أنّ من كثر كلامه دخل النار. وهو تنفير عن كثرة الكلام.

الثانية عشر: ومن نظر في عيوب الناس فأنكرها ثمّ رضيها لنفسه فذلك الأحمق بعينه. ووجه الحمق أنّ كونه منكراً لها من غيره يستلزم كون الرأي الحقّ أن لا يفعلها، ورضاه بها لنفسه مخالفة للرأي الحقّ له وخروج عن المصلحة لنفسه وذلك حمق ونقصان ظاهر في العقل. والألف واللام في الحمق يفيد حصره في المشاركة إليه، ولذلك أكدّه بعينه.

الثالثة عشر: ومن أكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير. لأنّ الغرض من طلب الكثير منها الاستمتاع والالتذاذ به وذكر الموت كاسر لذلك الالتذاذ مبغض له.

الرابعة عشر: ومن علم أنّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلّا فيما يعنيه.

وذلك أنّ العالم بذلك يرتّب قياساً هكذا: الكلام عمل، والأعمال مؤاخذ على ما لا يعني منها. فينتج أنّ الكلام مؤاخذ على ما لا يعني منه. وذلك موجب للاقتصار على ما يعني منه.

٣٣١ - وقال (عليه السلام)

لِلظَّالِمِ مِنَ الرِّجَالِ ثَلَاثُ عِلَامَاتٍ: يَظْلِمُ مَنْ فَوْقَهُ بِالْمَعْصِيَةِ، وَمَنْ دُونَهُ بِالْغَلْبَةِ، وَيُظَاهِرُ الْقَوْمَ الظَّالِمَةَ.

فظلمه لمن فوقه عصيان الله وتعدّيه لحدوده العادلة. والثانية مستلزمة للأولى والثالثة مستلزمة للأولين.

٣٣٢ - وقال (عليه السلام)

عِنْدَ تَنَاهِي الشَّدَّةِ تَكُونُ الْفَرْجَةُ، وَعِنْدَ تَضَاقُ حَلْقِ الْبَلَاءِ يَكُونُ الرِّجَاءُ.

تناهي الشدة مستلزم للخلاص منها وهو المراد بالفرج وكذلك تضايق الحلق وهو وقت الفزع الخالص إلى الله والرجاء الحق له وذلك معدّ للفرج منه، واستعار لفظ الحلق للأمور الشديدة المحيطة بالإنسان لا يجد عنها محيصاً ملاحظة لشبهها بالحلقة في البطان والحزام.

٣٣٣ - وقال (عليه السلام)

لِيَعُضِ أَصْحَابِهِ: لَا تَجْعَلَنَّ أَكْثَرَ شُغْلِكَ بِأَهْلِكَ وَوَلَدِكَ: فَإِنْ يَكُنْ أَهْلُكَ وَوَلَدُكَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَوْلِيَاءَهُ، وَإِنْ يَكُونُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ فَمَا هُمُكَ وَشُغْلُكَ بِأَعْدَاءِ اللَّهِ؟!

نهى عن كثرة الاشتغال بالأهل والولد لصرف ذلك عن طاعة الله، ونبه على عدم جوازه بما هو في قوّة قياس شرطيّ منفصل تقديره: أنّ أهلك لا يخلو إمّا أن يكونوا من أولياء الله أو أعدائه وعلى التقديرين لا يجوز الاشتغال بهم أمّا الأولياء فلأنّ الله تعالى يكفيهم مؤونتهم فلا حاجة بهم إلى اهتمام

غيره، وأما أعداؤه فلا يجوز الاهتمام بحالهم. و- ما - في قوله: فما همك. استفهام على سبيل التقرير والتوبيخ.

٣٣٤ - وقال (عليه السلام)

أَكْبَرُ الْعَيْبِ أَنْ تَعِيبَ مَا فِيكَ مِثْلَهُ.

وقد مرّ أن ذلك حمق وهو أكبر العيوب.

٣٣٥ - وهناً بحضرة رجل رجلاً

بغلام ولد له فقال له لِيُهَيِّتْكَ الْفَارِسُ فَقَالَ عليه السلام: لَا تَقُلْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ قُلْ شَكَرْتُ الْوَاهِبَ، وَبُورِكَ لَكَ فِي الْمَوْهُوبِ، وَبَنَغَ أَشَدُّهُ، وَرُزِقْتَ بَرَّهُ.

وهذا إرشاد منه للتهنئة بالولد فيها أربع فوائد:

أحدها: تذكير الوالد بشكر الله وإفاته إليه.

والثانية: استئزال البركة منه بالدعاء فيما وهب له.

والثالثة: الدعاء للموهوب بالبقاء وبلوغ الأشدّ وهو كمال القوة لغاية الانتفاع به.

الرابعة: الدعاء بشمرته والانتفاع به وهي أن يرزقه برّه ونفعه.

٣٣٦ - وبني رجل من عماله بناء فخماً فقال (عليه السلام)

أَطْلَعَتِ الْوَرَقُ رُؤُوسَهَا إِنَّ الْبِنَاءَ يَصِفُ لَكَ الْغِنَى.

الفخم: العظيم. وكنتى بطلوع الورق لرؤوسها عن ظهور أثرها في البناء ملاحظة لشبهها بالحيوانات في ظهوره. وكذلك استعار لفظ الوصف ونسبه إلى البناء باعتبار أنه ينبىء عن الغنى كما ينبىء الوصف عن موصوفه.

٣٣٧ - وقيل له (عليه السلام)

لو سد على رجل باب بيته وترك فيه من أين كان يأتيه رزقه؟ فقال عليه السلام: مِنْ حَيْثُ يَأْتِيهِ أَجَلُهُ.

قاس الرزق على الأجل لاشتراكهما في مبدأ واحد وهو قدرة الصانع تعالى . وأشار إلى ذلك بقوله : من حيث .

٣٣٨ - وَعَزَى قوماً عن ميت مات لهم فقال (عليه السلام)

إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَيْسَ بِكُمْ بَدَأُ، وَلَا إِلَيْكُمْ أَنْتَهَى؛ وَقَدْ كَانَ صَاحِبُكُمْ هَذَا يُسَافِرُ فَعُدُّوهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَإِنْ قَدِمَ عَلَيْكُمْ وَلَا قَدِمْتُمْ عَلَيْهِ .

فعدوه : أي افترضوا أنه كذلك . والتعزية فصيحة العبارة جريئة المعنى مفيدة للاقناع والسلو .

٣٣٩ - وقال (عليه السلام)

أَيُّهَا السُّ، لِيَرْكُمُ اللَّهُ مِنَ النَّعْمَةِ وَجَلِيلَ كَمَا يَرَاكُمْ مِنَ النَّقْمَةِ فَرَقِينَ! إِنَّهُ مَنْ وَسَّعَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ يَرِ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجاً فَقَدْ أَمِنَ مَخُوفاً، وَمَنْ ضَيَّقَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ يَرِ ذَلِكَ اخْتِبَاراً فَقَدْ ضَيَّعَ مَأْمُولاً .

الاستدراج : الأخذ على غرة . وأمر بالوجل من نعمة الله حال إفاضةها خوف الاستدراج بها كما يخاف من النقمة وذلك أن لنعمة بلاء يجب مقابلهته بالشكر كما أن النقمة بلاء يجب مقابلهته بالصبر . والغرض الحث على فضيلتي الشكر والصبر . وحذر من الركون إلى النعم والغفلة عن الله بقوله : إِنَّهُ . إلى قوله : أَمِنَ مَخُوفاً، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من أَمِنَ مخوفاً فهو مغرور . وكذلك تضييع المأمول، وذلك أنه يستعدّ باعتقاد أنه اختبار من الله للصبر عليه ويؤمل منه تعالى الأجر الجزيل في الآخرة وإذا لم يعتد ذلك بطل استعداده به فيضيع مأموله منه .

٣٤٠ - وقال (عليه السلام)

يَا أَسْرَى الرَّغْبَةِ أَقْصِرُوا؛ فَإِنَّ الْمُعَرَّجَ عَلَى الدُّنْيَا لَا يَرْوَعُهُ مِنْهَا إِلَّا صَرِيفُ أَنْيَابِ الْجَدَثَانِ . أَيُّهَا النَّاسُ، تَوَلَّوْا مِنْ أَنْفُسِكُمْ تَأْذِيْبَهَا، وَاعْدِلُوا بِهَا عَنْ ضَرَاوَةِ عَادَاتِهَا .

الضراوة: الجرأة على الصيد والولوع به. والضراية - بالفتح - لغة. والضراية - بالكسر -: مصدر ضرى به. والثلاث نسخ وردت بها الرواية، واستعار لفظ الأسرى لمن ملكته رغبته في الدنيا وحبّه لها. وأمرهم بالإقصار عن الإفراط في طلبها ونفّر عن التعرّيج والانعطاف عليها بقوله: فإن المعرج، إلى قوله: والحدثان، واستعار لفظ الصريف والأنياب ملاحظة لشبهه الموت عند قدومه بالبعير الهائج. ثم آيه بالناس وأمرهم أن يتولّوا من أنفسهم تأديبها ورياضتها والوقوف بها على حدّ العدل من الحركات والأفعال وأن يعدلوا بها عن جرأتها وإقدامها على الانهماك في المشتبهات. وقد عرفت معنى الرياضة.

٣٤١ - وقال (عليه السلام)

لَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجْتَ مِنْ أَحَدٍ سُوءًا وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مُحْتَمَلًا.

أي ما دمت تجد لكلام الغير محملاً وتأويلاً فلا تظننّ به سوء فإنّ النفوس السليمة أقرب إلى الله من غيرها. والواو للحال.

٣٤٢ - وقال (عليه السلام)

إِذَا كَانَتْ لَكَ إِلَى اللَّهِ، سُبْحَانَهُ، حَاجَةٌ فَايْذَا بِمَسْأَلَةِ الصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ سَلْ حَاجَتَكَ فَإِنَّ اللَّهَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ حَاجَتَيْنِ فَيَقْضِيَ إِحْدَاهُمَا وَيَمْنَحَ الْأُخْرَى.

أمر بتقديم سؤال الصلاة على النبي ﷺ في طلب الحاجة للاستعداد به، ورغب فيه بقوله: فإن الله سبحانه. إلى آخره: أي أنّ المسألة الأولى مجابة من الله بالاتفاق فيجب من كرمه إجابة الثانية وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّ من كان أكرم من ذلك فينبغي أن يسأل المسألتين ليقضي الحاجة.

٣٤٣ - وقال (عليه السلام)

مَنْ ضَنَّ بِعَرَضِهِ فَلْيَدْعِ الْمِرَاءَ.

وذلك أنه داعية ثوران القوة الغضبية، من الممارين ومبدأ المشاتمة والمساية.

٣٤٤ - وقال (عليه السلام)

مِنَ الْخُرْقِ الْمُعَاجِلَةُ قَبْلَ الْأَمْكَانِ وَالْأَنَاءُ بَعْدَ الْفُرْصَةِ.

الخرق: الحمق. ومعالجة طلب الحاجة والإسراع إليها قبل وقت إمكانها إفراط في طلبها. والأناة فيها إذا أمكنت تفريط فيه وهما مذمومان وصاحبهما واضع للطلب في غير مواضعه وهو حمق ظاهر ونقصان في عقل وجوه التدبير. والحق العدل هو وضع الطلب في وقت الإمكان والفرصة.

٣٤٥ - وقال (عليه السلام)

لَا تَسْأَلْ عَمَّا لَا يَكُونُ فِيهِ الَّذِي قَدْ كَانَ لَكَ شُغْلٌ.

أمر بالسلو عن ما لا يكون من زيادة رزق ونحوه من المطالب الدنيوية بما قد كان ووقع من المطالب التي أعطيها الإنسان. ورغب فيما أمر به من السلو بقوله: ففي الذي. إلى آخره: أي ففي ذلك شغل لك عما تتوقع من غيره، وأراد الشغل بضبط ما في يده من النعمة وما ينبغي من الاشتغال بشكرها واستعمالها في طاعة الله وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلما كان كذلك فينبغي أن يشتغل به عما وراءه ولا يطلب الزيادة عليه.

٣٤٦ - وقال (عليه السلام)

ثَلَاثُ كَلِمَاتٍ: الْفِكْرُ مِرَّاءَ صَافِيَةٍ، وَالْإِعْتِبَارُ مُنْذِرُ نَاصِحٍ، وَكَفَى أَدْبًا لِنَفْسِكَ تَجَنَّبْتُ مَا كَرِهْتَهُ لِغَيْرِكَ.

إحديها: الفكر مرآة صافية.

واستعار له لفظ المرأة باعتبار أنه يرى به المعقولات كما يرى الأشباح في المرأة. وقد سبق بيانه.

الثانية: الاعتبار منذر ناصح. استعار لفظ المنذر الناصح للاعتبار،

وذلك أنه يذكر الآخرة ويفيد الانزجار والاتعاظ عن المناهي كالمنذر الناصح .
الثالثة : وكفى أدباً لنفسك ما كرهته لغيرك . أشار أن تجنب المرء لما يكره لغيره من الرذائل المهلكة أدب كاف له . ونقر عنه بكونه مكروهاً للغير ورغب في تجنبه بكونه أدباً كافياً للنفس .

٣٤٧ - وقال (عليه السلام)

الْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ : فَمَنْ عِلِمَ عَمِلَ ، وَالْعِلْمُ يَهْتَفُ بِالْعَمَلِ : فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ عَنْهُ .

أراد أنه مقرون به في الوضع الذي ينبغي بمقتضى الحكمة الإلهية ، وذلك أنه تعالى جعل للنفس العاقلة قوتين علمية وعملية وجعل كمالها باستكمال هاتين القوتين بالعلم والعمل ولا كمال لها بالعلم دون اقترانه بالعمل .

وقوله : فمن علم عمل .

أي من علم ما ينبغي لزمه في الحكمة أن يعمل بمقتضى العلم وكان ذلك داعياً له إلى العمل مستلزماً لوجوده منه ، ويحتمل أن يكون قوله : عمل . خبراً في معنى الأمر : أي فمن علم فليعمل .

وقوله : والعلم يهتف بالعمل . إلى آخره .

فالهدف النداء وإن لم يرى المنادي ، واستعار لفظه للمعقول من طلب العلم لمقارنة العمل الذي ينبغي له وجذبه الطبيعي له فكأنه يصيح به ويدعوه إلى مقارنته ليكون منهما كمال الإنسان . ومعنى قوله : فإن أجابه وإلا ارتحل . أن العلم الذي ينبغي إذا قارنه العمل تأكد به حتى يصير العلم كأنه برز إلى عالم الحس في صورة الفعل . مثلاً إذا علم الإنسان وجود الصانع وما ينبغي من طاعته ثم قرن ذلك بعبادته استلزم تلك العبادة منه دوام ملاحظته تعالى وإخطار ذكره بالبال حتى لا يصير منسياً له في وقت . فأما إذا ترك العمل لله فلا بد أن يشتغل بغيره عن ذكره وينقطع ملاحظته له حتى يكون ذلك سبباً لنسيانه والغفلة عنه . واستعار لفظ الارتحال لزوال العلم باعتبار عدم استعداد تلك

النفس وصلاحتها، كالراحل عن وطن لا يصلح لاستيطانه. وقيل: أراد بالارتحال عدم المنفعة مجازاً إطلاقاً لاسم ذي الغاية على غايته. إذ كانت الغاية من الارتحال عدم المنفعة بالمرتحل.

٣٤٨ - وقال (عليه السلام)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَتَاعُ الدُّنْيَا حُطَامٌ مُوبِىءٌ فَتَجَنَّبُوا مَرَعَاهُ! قُلِّعْتُهَا أَحْظَى مِنْ طُمَأْنِينَتِهَا؛ وَبُلِّغْتُهَا أَزْكَى مِنْ ثَرَوَتِهَا.

حُكِمَ عَلَى مُكْثِرِهَا بِالْفَاقَةِ، وَأُعِينَ مَنْ غَنِيَ عَنْهَا بِالرَّاحَةِ. وَمَنْ رَاقَهُ زِبْرُجُهَا أَغْقَبَتْ نَاطِرِيهِ كَمَهَا. وَمَنْ اسْتَشْعَرَ الشَّعْفَ بِهَا مَلَأَتْ ضَمِيرَهُ أَشْجَانًا لَهُنَّ رَقْصٌ عَلَى سُودَاءِ قَلْبِهِ. هَمٌّ يَحْزَنُهُ حَتَّى يُؤْخَذَ بِكَظْمِهِ فَيُلْقَى بِالْفَضَاءِ مُنْقَطِعًا أَبْهَرَاءَ، هَيْنًا عَلَى اللَّهِ فَنَاوُهُ، وَعَلَى الْإِخْوَانِ إِلْقَاؤُهُ؛ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ الْمُؤْمِنُ إِلَى الدُّنْيَا يَعْينُ الْإِعْتِبَارَ؛ وَيَقْتَاتُ مِنْهَا بِبَطْنِ الْإِضْطِرَارِ، وَيَسْمَعُ فِيهَا بِأَذْنِ الْمَقْتِ وَالْإِبْغَاضِ إِنْ قِيلَ أَثَرَى قَبْلَ أَكْدَى!! وَإِنْ فُرِحَ بِبَلْقَاءِ حُزْنٍ عَلَيْهِ بِالْفَنَاءِ! هَذَا وَلَمْ يَأْتِهِمْ يَوْمٌ فِيهِ يُبْلِسُونَ.

أقول: القلعة: الرحلة. والحظوة: المنفعة. وراقه: أعجبه والكمه: العمى خلقة. والأشجان: العوارض المهمة. والرقص: الغليان والاضطراب. والأبهران عرقان متعلقان بالقلب. وأكدى: قلّ خيره. والإبلاس: اليأس من الرحمة.

وفي الفصل فائدتان:

إحديهما نقر عن الدنيا بأمور:

أحدها: أَنَّ حَطَامَهَا مُوبِىءٌ: أي مهلك، واستعار لفظ الحطام لمتاعها باعتبار سرعة زواله وقلة الانتفاع به كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾^(١) الآية. وكونه موبئاً استلزم اقتناءه والاعتناء بجمعه

للهلاك في الآخرة ولذلك أمر بتجنب مرعاه: أي رعيه أو محلّ رعيه وهو الدنيا.

الثاني: قلعته وعدم القرار بها أنفع من الطمأنينة إليها لما يستلزمه من الشقاوة في الآخرة بمحبّتها والسكون إليها.

الثالث: أنّ الاقتصار على البلغة من العيش فيها أذكى من الثروة بها لما تستلزمه من الثروة بها من الشقاء الأخرويّ. فالأقتصار على القدر الضروريّ منها أطهر وأسلم من غوائلها.

الرابع: حكم بالفاقة على مكثرها. أمّا فيها فلا أنّ كلّ زيادة منها موجبة للحاجة إلى أخرى فلذلك كان أكثر الناس حاجة فيها الملوك ثمّ من دونهم على اختلاف درجاتهم فيها، وأمّا في الآخرة فلفقر المكثّر فيها المشتغل بها من ملكات الخير والفضائل.

الخامس: أنّ من غنى عنها بزهد فيها أعين من الله بالراحة منها.

السادس: أنّ من أعجبه زيتها فأنصب إليها عمى عمّا فيها من العبر عمّا وراءها من أحوال الآخرة، واستعار لفظ الكمه للمعقول من عمى البصيرة عن الاعتبار لأنّ ذلك أشدّ من العمى كما قال تعالى: ﴿فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ (٢).

السابع: أنّ من اتخذ محبّتها شعاراً ملأت قلبه هموماً وغموماً وأحزانا على ما لم يحصل منها بطلبه، وعلى ما فات منها بالأسف عليه. واستعار لفظ الرقص لتعاقب تلك الأحزان والهموم، واضطرابها في قلبه إلى غاية الأخذ بكظمه، وكنتى به عن الموت، وبإلقائه بالفضاء عن دفنه. ومنقطعاً وهيئاً حالان.

والفائدة الثانية. أنّه أرشد إلى صفات المؤمن في صحبة الدنيا:

إحديها: أنّه إنّما ينظر إليها بعين الاعتبار ليحصل منها عبرة، وذلك هو

الذي خلق لأجله .

الثانية : ويقتات منها بيطن الاضطرار . وكُنِيَ به عن كونه لا يتناول منها إلا ببلغته ومقدار ضرورته .

الثالثة : ويسمع فيها بأذن المقت والإبغاض . وكُنِيَ به عن بغضه لها فهو لا يسمع ما تمدح به ؛ بل معايبها .

وقوله : إن قيل أثرى . إلى قوله : الفناء . أراد أن الإنسان فيها منغص اللذة مكدر العيشة بينا هو مشر إذ لحقه الإكداء والفقر ، وفرح ببقاء حبيب إذ لحقه الحزن عليه . وهذا الكلام لاحق بالفائدة الأولى في وصف حال الإنسان في الدنيا ومن تمامه ، ووصف المؤمن هنا اعتراض .

وقوله هذا ولم يأتهم : أي هذا البلاء ولم يأت الناس يوم القيامة الذي لشدة هوله يأسون فيه من الرحمة .

٣٤٩ - وقال (عليه السلام)

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَضَعَ الثَّوَابَ عَلَى طَاعَتِهِ، وَالْعِقَابَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ؛ ذِيَادَةً لِعِبَادِهِ عَنْ نِقْمَتِهِ، وَحَيَاشَةَ لَهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ .

الذودة : الدفع والمنع . وأشار إلى غايتي الحكمة الإلهية من وضع الثواب والعقاب وهما ردّ عباد الله عن نقمته وجمعهم إلى جنّته .

٣٥٠ - وقال (عليه السلام)

يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ وَمِنْ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَسْمُهُ، وَمَسَاجِدُهُمْ يَوْمُئِذٍ عَامِرَةٌ مِنَ الْبِنَاءِ، خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى، سُكَّانُهَا وَعُمَارُهَا شَرُّ أَهْلِ الْأَرْضِ؛ مِنْهُمْ تَخْرُجُ الْفِتْنَةُ، وَإِلَيْهِمْ تَأْوِي الْخَطِيئَةُ، يَرُدُّونَ مَنْ شَذَّعْنَاهَا فِيهَا، وَيَسُوقُونَ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا إِلَيْهَا، يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: فَبِي حَلَفْتُ لَا أَبْعَثَنَّ إِلَى أَوْلِيكَ فِتْنَةً أَتْرُكُ الْحَلِيمَ فِيهَا حَيْرَانَ وَقَدْ فَعَلَ، وَنَحْنُ نَسْتَقِيلُ اللَّهَ عَثْرَةَ الْغَفْلَةِ .

رسم القرآن: أثره، وهو تلاوته. ولا يبقى من الإسلام إلا اسمه: أي دون العمل. وسكان المساجد وعمارها: القراء السوء وأئمة الضلال الذين وصفهم عليه السلام في صدر الكتاب بقوله: إن أبغض الخلائق إلى الله رجلاً. إلى آخره وبقوله في فصل آخر دائماً لاختلاف الناس في الفتيا: ترد على أحدهم القضية. إلى آخره. وظاهر أن أولئك وأمثالهم شر أهل الأرض لكونهم مبدأ الفتنة في الدين وإليهم ترجع خطايا الخلق. إذ بهم يقتدون وعنهم يأخذون. ومن كان كذلك فقد استعد للفتنة التي يحار فيها الحليم رزين العقل، وروي: الحكيم. وإذا سأل عليه السلام من الله تعالى إقالة عشرة الغفلة فيجب الاقتداء به في ذلك السؤال. اللهم أقلنا من عشرة الغفلة.

٣٥١- وروي أنه (عليه السلام)

قلما اعتدل به المنبر إلا قال أمام الخطبة: أيها الناس، اتقوا الله فما خلق أمرواً عبثاً فيلهو؛ ولا ترك سدى فيلغو! وما دنياه التي تحسنت له بخلف من الآخرة التي قبحها سوء النظر عنده؛ وما المغرور الذي ظفر من الدنيا بأعلى همته كالآخر الذي ظفر من الآخرة بأدنى سهمته.

أقول: السدى: المهمل. والسهمة: النصيب. ولما كان تقوى الله والتزود بها إليه هو المطلوب من خلق الإنسان لا جرم صدر عليه السلام بالأمر بها عامة خطبه، ونبه على ذلك المطلوب وأن الغاية هو الآخرة منه، وأنه ليست الدنيا وإن تحسنت له بخلف من غايته وإن قبحها سوء نظره لها ومعرفته بها، على أنه لا مناسبة بين من ظفر من الدنيا بأعلى مطالبه منها وبين من ظفر من الآخرة بأدنى نصيب لشرف متاع الآخرة فكيف من يظفر منها بأعلى قسط. ونفر طالب الدنيا والمدعي للظفر بها بكونه مغروراً. والفصل ظاهر.

٣٥٢- وقال (عليه السلام) عشر كلمات:

لَا شَرَفَ أَعْلَى مِنَ الْإِسْلَامِ؛ وَلَا عِزٌّ أَعَزُّ مِنَ التَّقْوَى؛ وَلَا مَعْقِلٌ أَحْسَنُ مِنَ الْوَرَعِ؛ وَلَا شَفِيعٌ أَنْجَحُ مِنَ التَّوْبَةِ؛ وَلَا كَثْرَ أَغْنَى مِنَ الْقَنَاعَةِ؛ وَلَا مَالٌ

أَذْهَبُ لِلْفَاقَةِ مِنَ الرِّضَا بِالْقُوتِ؛ وَمَنْ اقْتَصَرَ عَلَى بُلْغَةِ الْكَفَافِ فَقَدْ اُنْتُظِمَ
الرَّاحَةُ وَتَبَوَّأَ خَفْضَ الدَّعَةِ؛ وَالرَّغْبَةَ مِفْتَاحَ النَّصَبِ وَمَطِيَّةَ التَّعَبِ؛ وَالْحَرَصُ
وَالْكِبَرُ وَالْحَسَدُ دَوَاعٍ إِلَى التَّقَحُّمِ فِي الذُّنُوبِ؛ وَالشَّرُّ جَامِعٌ مَسَاوِي الْعُيُوبِ.

إحديها: لا شرف أعلى من الإسلام لاستلزامه شرف الدنيا والآخرة.

الثانية: ولا عزّ أعزّ من التقوى لأن التقوى تستلزم جميع مكارم الأخلاق
الجامعة لعزّ الدنيا والآخرة فكان عزّها أكبر عزّاً من غيرها.

الثالثة: ولا معقل أحصن من الورع. واستعار له لفظ المعقل باعتبار
تحصّن الإنسان به من عذاب الله، ولما كان عبارة عن لزوم الأعمال الجميلة
فلا معقل أحصن منه.

الرابعة: ولا شفيع أنجح من التوبة. وذلك لاستلزامها العفو عن جريمة
التائب قطعاً دون سائر الشفعاء بشفاعتهم. ولفظ الشفيع مستعار لها.

الخامسة: ولا كنز أغنى من القناعة. وذلك لكونها فضيلة مستلزمة
لسكون نفس الإنسان، ورضاه بما قسم له، وغناه عمّا وراءه. ولا شيء من
سائر الكنوز لأبناء الدنيا كذلك. ولفظ الكنز مستعار لها.

السادسة: ولا مال أذهب للفاقة من الرض بالقوت. وهو قريب ممّا
قبله.

السابعة: ومن اقتصر على بلغة الكفاف فقد انتظم الراحة: أي في
سلك الراحة من الهمّ بطلب الدنيا ومجاذبة أهلها وتبوّأ خفض الدعة: أي
اتخذ لين السكون مباءة ومرجعاً.

الثامنة: والرغبة مفتاح النصب ومطية التعب. استعار للرغبة في الدنيا
لفظ المفتاح باعتبار فتحه لباب التعب على الراغب، وكذلك لفظ المطية
باعتبار استلزامها له كالمطية المتعب ركوبها.

التاسعة: والحرص والكبر والحسد دواعٍ إلى التقحّم في الذنوب.
التقحّم: الدخول بسرعة فالحرص على الدنيا داعٍ إلى الظلم والكذب

والفجور والجبن والبخل ونحوها من الرذائل، والكبر داع إلى قلة الإنصاف وعدم التواضع والعجب والتهور وعدم الاحتمال ونحوها، والحسد داع إلى الظلم والكذب والفساد في الأرض وغيرها من الآثام.

العاشرة: والشرّ جامع لمساويء العيوب الشرّ كلي كالجنس لمساويء العيوب ومقابحها. إذ كلّ منها يصدق عليه أنه شرّ مخصوص وهو المعنيّ بكون الشرّ جامعاً لها.

٣٥٣ - وقال (عليه السلام)

لجابر بن عبد الله الأنصاري: يَا جَابِرُ، قَوِّمِ الدُّنْيَا بِأَرْبَعَةٍ: عَالِمٍ مُسْتَعْمِلٍ عِلْمَهُ، وَجَاهِلٍ لَا يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَجَوَادٍ لَا يَبْخُلُ بِمَعْرُوفِهِ، وَفَقِيرٍ لَا يَبِيعُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاةٍ؛ فَإِذَا ضَيَّعَ الْعَالِمُ عِلْمَهُ اسْتَنْكَفَ الْجَاهِلُ أَنْ يَتَعَلَّمَ؛ وَإِذَا بَخَلَ الْغَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ الْفَقِيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاةٍ يَا جَابِرُ، مَنْ كَثُرَتْ نِعَمُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ فَمَنْ قَامَ اللَّهُ فِيهَا بِمَا يَجِبُ فِيهَا عَرَّضَهَا لِلدَّوَامِ وَالْبَقَاءِ، وَمَنْ لَمْ يَقُمْ فِيهَا بِمَا يَجِبُ عَرَّضَهَا لِلزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ.

الدنيا إنما تقوم بالمال، ثمّ بالعلم لوضعه في مواضعه ومعرفة وجوه اكتسابه التي ينبغي أو لا ينبغي من حلال وحرام وهو علم الفقه وأصوله وتفسير كتاب الله وسنة رسوله اللذين منهما تعلم الأحكام، ثمّ ما يلزم ذلك من علم العربية ونحوه. ولما كان العلم لا بدّ له من حال والمال لا بدّ له من قان وجب أن يكون من شرط الأول أن يعمل بعلمه، ومن شرط الثاني أن يستعمل ماله في مصارفه التي ينبغي وإلا لم يكن لهما فائدة ولا قامت بهما أحوال الخلق التي هي الدنيا، ولما كان الموت ضرورياً للعلماء وغيرهم ووجب قيام الدنيا وبقاء نظامها أن يدوم العلم في قرن من الناس بعد قرن وجب أن يكون هناك جهال لا يستكفون عن تعلّمه ولما كانت حاجة البعض إلى البعض في قوام الدنيا ضرورية ولم تجر في نظامها أن يستغني كلّ عن كلّ لأسباب معلومة وغير معلومة وجب أن يكون هناك من لا مال له ليحصل الانتفاع به فيما هو بصدده ومرشّح له من الأعمال الضرورية بالجود عليه فإذن قوام الدنيا لا يحصل بدون

الأربعة. وإنما شرط في الفقير أن لا يبيع آخرته بدنيه لأن يبيع آخرته بدنيه ظالم خارج عن العدل فلا تقوم به الدنيا ولا يصلح لعمارته.

ثم لم يبين ما به قوام الدنيا أشار إلى ما يلزم ضد ذلك من الفساد تنفيراً عنه بقوله: فإذا ضيّع. إلى قوله: بدنيه فلا أن تضييع العلم يستلزم عدم الانتفاع به واستنكاف الجاهل عن تعلّمه لسوء اعتقاده في العلم وأهله لما يراه من تضييعهم له وعدم عملهم على وفقه فيبقى على الجهل بمنفعته، وبخل لغني بمعروفه مستلزم لعدم المنفعة بالمال ويلزم من ذلك شدة حاجة الفقير وبيع آخرته بدنيه فيلزمه الفساد المنافي لمصلحة المعاش والمعاد. ثم أشار إلى ما يلزم كثرة نعمة الله على العبد من كثرة حوائج الخلق إليه ليوضح له وجوب الشكر عليها والقيام بما يجب لله فيها من الإحسان إلى المحتاجين إليه. ورغب في ذلك بما يلزمه من تعريض العبد بذلك نعمة الله عنده للدوام ولمزيد. ونفر عن تضييع ذلك بما يلزمه من تعريضها لزوالها.

٣٥٤ - وروى ابن جرير لطبري في تاريخه عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى الفقيه - وكان ممن خرج لقتال الحجاج مع ابن الأشعث - أنه قال فيما كان يحض به الناس على الجهاد: إني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) يقول يوم لقينا أهل لشم:

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ؛ إِنَّهُ مَنْ رَأَى عُذْوَانًا يُعْمَلُ بِهِ وَمُنْكَرًا يُدْعَى إِلَيْهِ فَأَنْكَرَهُ بِقَلْبِهِ فَقَدْ سَلِمَ وَنَرَى؛ وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِلِسَانِهِ فَقَدْ أُجِرَ وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ صَاحِبِهِ وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِالسَّيْفِ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَكَلِمَةُ الظَّالِمِينَ هِيَ السُّفْلَى فَذَلِكَ الَّذِي أَصَابَ سَبِيلَ الْهُدَى، وَقَامَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَنَوَّرَ فِي قَلْبِهِ الْيَقِينَ.

لما كان إنكار المنكر واجباً على كل مكلف بحسب تمكنه وكان تمكنه من ذلك طرف أدنى وهو الإنكار بالقلب لإمكانه من كل أحد، وطرف أعلى وهو الإنكار باليد وهو لغاية، ووسط وهو الإنكار باللسان كانت درجاته في استحقاق الأجر به مترتبة على درجات إنكاره. وإنما خصص المنكر بقلبه بالسلامة والبراءة: أي من عذاب الله لأنه لم يحمل إثماً وإنما لم يذكر له

أجراً وإن كان كل واجب يثاب عليه لأن غاية إنكار المنكر دفعه والإنكار بالقلب ليس له في الظاهر تأثير في دفع المنكر فكأنه لم يفعل ما يستحق به أجراً وإنما قال: لتكون كلمة الله هي العليا. لأنه إن لم يكن ذلك مقصود المنكر بل كان مقصوده مثلاً الرياء أو الغلبة الدنيوية لا يكون قد أصاب سبيل الهدى، واستعار لفظ التنوير لوضوح الحق في قلبه وجلاته من شبه الباطل.

٣٥٥ - ومن كلام آخر له يجري هذا المجرى

فَمِنْهُمْ الْمُنْكَرُ لِلْمُنْكَرِ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ فَذَلِكَ الْمُسْتَكْمِلُ لِخِصَالِ الْخَيْرِ. وَمِنْهُمْ الْمُنْكَرُ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ فَذَلِكَ مُتَمَسِّكٌ بِخَصْلَتَيْنِ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ وَمُضَيِّعٌ خَصْلَةً؛ وَمِنْهُمْ الْمُنْكَرُ بِقَلْبِهِ وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ فَذَلِكَ الَّذِي ضَيَّعَ أَشْرَفَ الْخَصْلَتَيْنِ مِنَ الثَّلَاثِ وَتَمَسَّكَ بِوَاحِدَةٍ، وَمِنْهُمْ تَارِكٌ لِإِنْكَارِ الْمُنْكَرِ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَبِيَدِهِ فَذَلِكَ مَيِّتٌ الْأَحْيَاءِ. وَمَا أَعْمَالُ الْبِرِّ كُلُّهَا وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عِنْدَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَّا كَنْفَتُهُ فِي بَحْرِ لُجِّي، وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَا يُقَرَّبَانِ مِنْ أَجْلِ، وَلَا يَقْضَانِ مِنْ رِزْقٍ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ كَلِمَةُ عَدْلِ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ.

أقول: إنه عليه السلام جرى في هذه القسمة على الوجه الطبيعي المعتاد، وذلك أن العادة جارية بأن ينكر الإنسان أولاً بقلبه، ثم بلسانه. ثم بيده إذا تمكن وقد يرد القسمة على غير هذا الوجه فيكون الناس على أقسام ستة وهي المنكر بقلبه فقط أو بلسانه فقط أو بيده فقط أو بقلبه ولسانه أو بقلبه ويده أو بلسانه ويده.

واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متلازمان لأن المعروف والمنكر قد يكونان نقيضين أو في قوتيهما فيكون النهي عن المنكر مستلزماً للأمر بالمعروف والأمر بالمعروف مستلزماً للنهي عن المنكر. واستجماعهما لخصال الخير ظاهر لأن كل خصلة منه معروف فالأمر بالمعروف مطلقاً أمر بها وترك كل واحدة من خصال الخير منكر فإنكاره يستلزم الأمر بها. ولما كانت هذه الأنواع الثلاثة من إنكار المنكر فضائل تحت فضيلة العدل وجب عداها

من خصال الخير، ولما كانت مستلزمة لسائر الفضائل كما أشرنا إليه وجب أن يكون المنكر للمنكر مطلقاً مستكماً لجميع خصال الخير وأن يكون التارك له بيده تاركاً لخصلة ومتمسكاً بخصلتين، والتارك بيده ولسانه مضيقاً لأشرف الخصلتين من الثلاث وإنما كانت أشرف لكونهما يستلزمان دفع المنكر أو بعضه غالباً بخلاف الثالثة، ووجب أن يستحق تارك الثلاث اسم الميت في حياته لخلوه عن جميع الفضائل. ولفظ الميت استعارة.

وقوله: وما أعمال البر. إلى قوله: لجي. تعظيم لهاتين الفضيلتين، وشبه أعمال البر كلها بالنسبة إليهما بالنفثة في البحر اللجي، ووجه الشبه أن كل خصلة من أعمال البر جزئي بالنسبة إليهما كالنفثة بالنسبة إلى البحر وعموم الخير منهما [فيهما - خ].

وقوله: فإن الأمر. إلى قوله: رزق.

صغرى ضمير رغب به فيهما، وتقدير الكبرى: وكلما لا يقرب من أجل ولا ينقص من رزق فلا ينبغي أن يحذر منه. ثم أشار إلى أفضل أصنافهما وهو كلمة العدل عند الإمام الجائر لغرض رده عن جوره.

٣٥٦ - وعن أبي جحيفة قال: سمعت أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول:

وَلْ مَا تُغْلِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَادِ بِأَيْدِيكُمْ ثُمَّ بِالْسَيْتِكُمْ ثُمَّ بِقُلُوبِكُمْ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ بِقَلْبِهِ مَعْرُوفًا وَلَمْ يُنْكِرْ مُنْكَرًا قَلْبَ فُجِعِلَ أَغْلَاهُ أَسْفَلُهُ وَأَسْفَلُهُ أَغْلَاهُ.

الجهاد باليد واللسان والقلب هو إنكار المنكر بها. وإنما كان باليد أول مغلوب عيه لأن الغرض الأول للعدو إزالة سلطان اليد ومقاومته فإذا تمكن من ذلك كان زوال سلطان اللسان سهلاً.

فإن قلت: لم قال: ثم بقلوبكم. ومعلوم أن القلب لا يطلع عليه العدو ولا يتمكن من إزالة الجهاد به؟.

قلت: أراد أنهم إذا غلبوا على الجهاد باليد واللسان وطالت المدة عليهم ألقوا المنكر وتكرّر على سمعهم وأبصارهم وقلوبهم فلم يبق إنكاره

وهو معنى غلبهم عليه .

وقوله : فمن لم يعرف بقلبه إلى آخره .

نقّر عن ترك الخصلتين بما يلزمه من قلب أعلى التارك أسفله ، واستعار لفظ القلب للانتكاس في مهاوي الرذائل ودركات الجحيم . وإنما خصّص إنكار القلب بذلك لإمكانه في كلّ وقت وخلوّه عن المضارّ المخوفة التي يخشى في الإنكار باليد واللسان .

٣٥٧ - وقال (عليه السلام)

إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِئْسَ

استعار للحق وصف الثقل باعتبار صعوبته على من يكون عليه فيؤخذ منه ، ولفظ المريء باعتبار استلزامه للراحة في الآخرة . وللباطل وصف الخفة باعتبار سهولته على أهله ، ولفظ الوبيء باعتبار استلزامه لأهلاكم في الآخرة .

٣٥٨ - وقال (عليه السلام)

لَا تَأْمَنَنَّ عَلَى خَيْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَذَابَ اللَّهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) وَلَا تَيَاسَنَّ لَشَرِّ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) .

أدب السامع بهذين الأدبين محتجاً بعموم الآيتين ، ولفظ المكر مستعار لإمهال الله ، ثم أخذه فهو في صورة المكر والخداع . والمراد ظاهر .

٣٥٩ - وقال (عليه السلام)

الْبَخِيلُ جَامِعٌ لِمَسَاوِي الْعُيُوبِ، وَهُوَ زِمَامٌ يُقَادُّ بِهِ إِلَى كُلِّ سُوءٍ .

البخل : رذيلة التفريط من فضيلة السخاء وهي مستلزمة للجهل لأنّ البخل غير عالم بوضع المال موضعه ، وللفجور لعبوره في شهوته ومحبتّه للدنيا إلى طرف الإفراط فيها ، وللجبن لأنّ من بخل بماله فهو بنفسه أبخل ،

وللانظلام والظلم لقصوره عن فضيلة العدل في ماله، ثم للحرص والحسد والشره ودناءة الهمة والكذب والغدر والخيانة وقطع الرحم وعدم المواساة. وكل طرف تفريط لفضيلة من الفضائل فإنه من توابع البخل ولو احقه وهي مساوىء العيوب التي أخبر عن استجماعه لها، وأنه زمام إلى كل منها. واستعار له لفظ الزمام باعتبار أنه يدعو إلى هذه المساوىء ويقود إليها كالزمام.

٣٦٠ - وقال (عليه السلام)

الرِّزْقُ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ فَإِنْ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ، فَلَا تَحْمِلْ هَمَّ سَنَتِكَ عَلَى هَمِّ يَوْمِكَ! كَفَاكَ كُلُّ يَوْمٍ عَلَى مَا فِيهِ، فَإِنْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمْرِكَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَدُّهُ سَيُؤْتِيكَ فِي كُلِّ غَدٍ جَدِيدٍ مَا قَسَمَ لَكَ، وَإِنْ لَمْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمْرِكَ فَمَا تَصْنَعُ بِالْهَمِّ بِمَا لَيْسَ لَكَ، وَلَنْ يَسْبِقَكَ إِلَى رِزْقِكَ طَالِبٌ، وَلَنْ يَغْلِبَكَ عَلَيْهِ غَالِبٌ، وَلَنْ يُبْطِئَ عَنْكَ مَا قَدْ قُدِّرَ لَكَ.

قال الرضي: وقد مضى هذا الكلام فيما تقدم من هذا الباب، إلا أنه هاهنا أوضح وأشرح، فلذلك كررناه على القاعدة المقررة في أول الكتاب.

وأقول: قد مضى تفسير أكثر هذا الكلام. وغرضه التنفير عن الاهتمام بالدنيا والاشتغال بما يرجى منها عن ذكر الله وطاعته. ونهاه أن يحمل هم السنة على هم اليوم لئلا يجتمع عليه أحزان متضاعفة يكفى واحد منها شغلاً. واحتج لذلك بضميرين صغرى الأول: قوله: فإن يكن السنة وتقديرها إن سنتك التي تهتم لها إما أن يكون من عمرك أو ليس، وتقدير الكبرى: وكلما كان على هذين التقديرين فلا ينبغي الاهتمام به أما على التقدير الأول فإن الله يؤتيك في كل يوم منها ما قسم لك لا محالة وما لا بد منه لا يجوز الاهتمام به، وأما على التقدير الثاني فلأنه ليس من العقل أن يهتم المرء بما ليس له. وصغرى الثاني: قوله: ولن يسبقك إلى قوله: قدر لك. وتقديرها أن رزقك لن يسبقك إليه طالب، وتقدير الكبرى وكلما كان كذلك فلا ينبغي أن يهتم به.

٣٦١ - وقال (عليه السلام)

رُبَّ مُسْتَقْبِلٍ يَوْمًا لَيْسَ بِمُسْتَدْبِرٍ، وَمَغْبُوطٍ فِي أَوَّلِ لَيْلِهِ قَامَتْ بَوَاكِيهِ فِي آخِرِهِ.

وغرض الكلمة التنبيه من رقدة الغفلة عن الموت لغاية العمل ولما بعده والمعنى ظاهر.

٣٦٢ - وقال (عليه السلام)

الْكَلَامُ فِي وِثَاقِكَ مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ؛ فَإِذَا تَكَلَّمْتَ بِهِ صِرْتَ وَثَاقَهُ، فَأَخْزُنْ لِسَانِكَ كَمَا تَخْزُنْ ذَهَبَكَ وَوَرَقَكَ، فَرُبَّ كَلِمَةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً وَجَلَبَتْ نِقْمَةً.

الوثاق: الحبل، وأمر بخزن اللسان عما لا ينبغي من القول وفي غير موضعه وشبه خزنه بخزن الذهب، ووجه الشبه شدة الخزن. ونفر عن قول ما لا ينبغي بضميرين صغرى أحدهما: الكلام. إلى قوله: وثاقه، وتقدير الكبرى: وكل كلام كان كذلك فلا ينبغي أن يتكلم منه إلا بما ينبغي، ولفظ الوثاق مستعار، وصغرى الثاني: قوله: فرب كلمة سلبت نعمة: وتقدير الكبرى: وكل كلمة كذلك فيجب الاحتراز منها بقلة القول والتثبت فيه.

٣٦٣ - وقال (عليه السلام)

لَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ بَلْ لَا تَقُلْ كُلَّ مَا تَعْلَمُ فَإِنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَى جَوَارِحِكَ كُلِّهَا فَرَائِضَ يَحْتَجُّ بِهَا عَلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

نهى عن قول ما لا يعلم لأنه كذب أو محتمل للكذب ولأنه قول بالجهل فيجب الاحتراز فيه، وأما النهي عن قول كل ما يعلم فلجواز أن يكون فيه مضرة لنفسه أو لغيره كإداعة سر يستلزم أذاه أو أذى من أسره إليه، ونفر عن ذلك بقوله: فإن الله. إلى آخره، وهو صغرى ضمير. والفرائض التي افترضها الله على كل جارحة هو ما أوجبه على اللسان مثلاً من قول ما ينبغي في موضعه وكذلك ما يتعلق بالعين من النظر الذي ينبغي ونحو ذلك في سائر

الجوارح. وتقدير الكبرى: وكل من فرض الله على جوارحه فرائض كذلك يحتج بها عليه يوم القيامة في تركها والعمل بها فيجب عليه المحافظة عليها.

٣٦٤ - وقال (عليه السلام)

إِحْذَرُ أَنْ يَرَاكَ اللَّهُ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ وَيَفْقِدَكَ عِنْدَ طَاعَتِهِ؛ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ، وَإِذَا قَوِيَتْ فَأَقْوِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَإِذَا ضَعُفَتْ فَأَضْعِفْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ.

حذر من الأمرين بما يلزمه من دخوله في زمرة الخاسرين لثواب الله يوم القيامة. ثم أمر بالقوة على طاعة الله لئتم الاستعداد بها لرحمته وبالضعف عن معصيته ليضعف الاستعداد بها عن قبول سخط الله ونقمته.

٣٦٥ - وقال (عليه السلام) ثلاث كلمات:

الرُّكُونُ إِلَى الدُّنْيَا مَعَ مَا تُعَايِنُ مِنْهَا جَهْلٌ، وَالتَّقْصِيرُ فِي حَسَنِ الْعَمَلِ إِذَا وَثِقْتَ بِالثَّوَابِ عَلَيْهِ غِبْنٌ، وَالطَّمَأْنِينَةُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ قَبْلَ الْإِخْتِبَارِ عَجْزٌ.

إحديها: الركون إلى الدنيا مع ما تعين منها جهل: أي بما ينبغي أن يركن إليه مما لا ينبغي.

الثانية: والتقصير في حسن العمل إذا وثقت بالثواب عليه غبن: أي مستلزم للغبن وهو ترك ما يوفق به من الثواب الكثير في مقابلة العمل اليسير له، وفيه إيماء إلى أن مبدأ التقصير في حسن العمل عدم الوثوق بالثواب الموعود في الآخرة.

الثالثة: والطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبار عجز: أي عن البحث عما ينبغي السكون إليه وعن وضعه موضعه. ونقر عن الركون إلى الدنيا بما يلزمه من الجهل، وعن التقصير في حسن العمل بما يلزمه من الغبن، ومن الطمأنينة إلى كل أحد بما يلزمها من العجز.

٣٦٦ - وقال (عليه السلام)

مِنْ هَوَانِ الدُّنْيَا عَلَى اللَّهِ أَنَّهُ لَا يُعْصَى إِلَّا فِيهَا، وَلَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِتَرْكِهَا.

نُفِّرُ عَنْ الدُّنْيَا بِذِكْرِ هَوَانِهَا عَلَى اللَّهِ مِنَ الْوَجْهِينِ الْمَذْكُورِينَ.

٣٦٧ - وقال (عليه السلام)

مَنْ طَلَبَ شَيْئًا نَالَهُ أَوْ بَعْضَهُ.

كَقَوْلِهِمْ: مَنْ طَلَبَ شَيْئًا وَجَدَ وَجَدَ، وَمَنْ قَرَعَ بَابًا وَلَجَ وَلَجَ. وَظَاهِرُ أَنَّ الطَّلِبَ مَعْدٌ لِحَصُولِ الْمَطْلُوبِ فَإِنْ تَمَّ الاستعداد له نال الكلَّ وإلا فبقدر نقصان الاستعداد يكون نقصان المطلوب.

٣٦٨ - وقال (عليه السلام)

مَا خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ، وَمَا شَرٌّ بِشَرٍّ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ، وَكُلُّ نَعِيمٍ دُونَ الْجَنَّةِ فَهُوَ مُحَقَّقٌ، وَكُلُّ بَلَاءٍ دُونَ النَّارِ عَافِيَةٌ.

نَفَى عَمَّا يَقُودُ إِلَى النَّارِ وَإِنْ عَدَّ فِي الدُّنْيَا خَيْرًا وَلَذَّةً اسْتَحْقَاقَ اسْمِ الْخَيْرِ تَحْقِيرًا لَهُ وَتَنْفِيرًا عَنْهُ بِمَا يُلْزِمُهُ مِنْ غَايَتِهِ الَّتِي هِيَ النِّهَايَةُ فِي الشَّرِّ وَهِيَ النَّارُ، وَكَذَلِكَ نَفَى عَمَّا يَقُودُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنَ الطَّاعَاتِ الشَّاقَّةِ وَإِنْ عَدَّ فِي الدُّنْيَا شَرًّا وَأَلَمًا اسْتَحْقَاقَ اسْمِ الشَّرِّ تَرْغِيْبًا فِيهِ بِمَا يُلْزِمُهُ مِنْ غَايَتِهِ الَّتِي هِيَ دُخُولُ الْجَنَّةِ. وَالتَّقْدِيرُ: مَا خَيْرٌ بَعْدَهُ النَّارُ بِخَيْرٍ، وَمَا شَرٌّ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ بِشَرٍّ.

وَقَوْلُهُ: وَكُلُّ نَعِيمٍ دُونَ الْجَنَّةِ مُحَقَّقٌ.

تَفْسِيرٌ لِلأَوَّلِ.

وَقَوْلُهُ: وَكُلُّ بَلَاءٍ دُونَ النَّارِ عَافِيَةٌ.

تَفْسِيرٌ لِلثَّانِي. وَأَرَادَ عَافِيَةٌ نَسْبِيَّةً.

٣٦٩ - وقال (عليه السلام)

أَلَا وَإِنَّ مِنَ الْبَلَاءِ الْفَاقَةَ ؛ وَأَشَدُّ مِنَ الْفَاقَةِ مَرَضُ الْبَدَنِ ؛ وَأَشَدُّ مِنْ مَرَضِ الْبَدَنِ مَرَضُ الْقَلْبِ . أَلَا وَإِنَّ مِنَ النَّعْمِ سَعَةَ الْمَالِ ؛ وَأَفْضَلُ مِنْ سَعَةِ الْمَالِ صِحَّةُ الْبَدَنِ ؛ وَأَفْضَلُ مِنْ صِحَّةِ الْبَدَنِ تَقْوَى الْقَلْبِ .

أشار إلى درجات البلاء وتفاوتها بالشدة والضعف وإلى ما يقابلها من درجات النعمة وتفاوتها كذلك . وإنما كان مرض القلب بالردائل أشد من مرض البدن لاستلزامه في الآخرة فوات أكمل السعادات وهو الموت الذي لا حياة معه وبحسب ذلك كان تقوى القلب وستكماله بالفضائل أفضل من صحة البدن لاستلزامه لسعادة الباقية والحياة الأبدية .

٣٧٠ - وقال (عليه السلام)

لِلْمُؤْمِنِ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ : فَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ ؛ وَسَاعَةٌ يَرْمُ مَعَاشَهُ ؛ وَسَاعَةٌ يَخْلِي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّتِهَا فِيمَا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ وَلَيْسَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ شَاخِصًا إِلَّا فِي ثَلَاثٍ : مَرْمَةِ لِمَعَاشٍ ؛ وَخُطْوَةٍ فِي مَعَادٍ أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ .

أقول : رمّ المعاش : إصلاحه . والشخص : الذهب من بلد إلى بلد . وقسم زمان المؤمن العاقل إلى ثلاث أقسام بحسب ما ينبغي بمقتضى الحكمة العملية والرأي الحق . فقسم يتوفر فيه على عبادة الله ومناجاته وهذا القسم هو المطلوب الأول ، وقسم يصلح فيه ما لا بد منه في تحصيل القسم الأول من معاشه ، وقسم يخلّي فيه بين نفسه ولذاتها المباحة التي يجمل ويحسن دون المحرمة والمباحة المستهجنة . وهذان القسمان مرادان للأول إذ لا يمكن بدونهما .

وقوله : وليس للعاقل . إلى آخره .

أي ليس له بحسب مقتضى العقل العملي أن يستعمل نفسه إلا في الأمور الثلاثة .

٣٧١ - وقال (عليه السلام)

ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُبْصِرَكَ اللَّهُ عَوْرَاتِهَا، وَلَا تَغْفُلْ فَلَسْتَ بِمَغْفُولٍ عَنْكَ!

لَمَّا كَانَتْ مَحَبَّةُ الدُّنْيَا مُسْتَلْزِمَةً لَاسْتِتَارِ عِيُوبِهَا عَنْ إِدْرَاكِ مَحَبَّتِهَا كَمَا قِيلَ: حَبَّكَ الشَّيْءُ يَعْصِي وَيَصْمُ. كَانَ بَغْضُهَا وَالزَّهْدُ فِيهَا رَافِعًا لِذَلِكَ السُّتْرَ كَاشِفًا لِمَا تَحْتَهُ مِنْ عِيُوبِهَا وَعَوْرَاتِهَا فَأَمَرَ بِالزَّهْدِ فِيهَا لِهَذِهِ الْغَايَةِ الْمُنْفَرَةِ عَنْهَا. ثُمَّ نَفَرَ عَنِ الْغَفْلَةِ فِيهَا عَمَّا وَرَاءَهَا بِضَمِيرٍ صَغِيرٍ قَوْلُهُ: فَلَسْتَ بِمَغْفُولٍ عَنْكَ، وَتَقْدِيرُ الْكِبَرَى: وَكُلٌّ مِنْ لَيْسَ بِمَغْفُولٍ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَغْفَلَ عَمَّا يَرَادُ بِهِ.

٣٧٢ - وقال (عليه السلام):

تَكَلَّمُوا تُعْرِفُوا؛ فَإِنَّ الْمَرْءَ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ.

وَقَدْ مَرَّ تَفْسِيرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ؛ لَكِنَّهُ جَعَلَهَا هُنَا صَغِيرَى ضَمِيرٍ رَغَبَ بِهِ فِي الْكَلَامِ عِنْدَ الْحَاجَةِ لَغَايَةِ أَنْ يَعْرِفَهَا الْمُتَكَلِّمُ، وَتَقْدِيرُ الْكِبَرَى: وَكُلٌّ مِنْ كَانَ مَخْبُوءًا تَحْتَ لِسَانِهِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَظْهَرَ نَفْسُهُ فِي كَلَامِهِ لِيَعْرِفَ.

٣٧٣ - وقال (عليه السلام)

خُذْ مِنَ الدُّنْيَا مَا أَتَاكَ، وَتَوَلَّ عَمَّا تَوَلَّى عَنْكَ فَإِنَّ أُنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ.

أَمَرَ بِالْقَنَاعَةِ أَوَّلًا بِمَا تَيَسَّرَ مِنَ الدُّنْيَا لِمَنْ تَمَكَّنَ مِنْهَا وَقَوَى عَلَيْهَا، وَبِالْإِجْمَالِ فِي الطَّلَبِ لِمَنْ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْهَا. وَالْإِجْمَالُ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا طَلَبُهَا بِرَفْقٍ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي، وَعَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي.

٣٧٤ - وقال (عليه السلام)

رُبَّ قَوْلٍ أَنْفَذَ مِنْ صَوْلٍ.

أَيُّ قَدْ يَبْلُغُ الْإِنْسَانُ بِالْقَوْلِ مَا لَا يَبْلُغُهُ بِالشَّدَّةِ وَالصَّوْلَةِ فَيَكُونُ الْقَوْلُ أَنْفَذَ فِي غَرَضِهِ. وَيُصْلِحُ مَثَلًا يَضْرِبُ لِلرَّفْقِ وَاللِّينِ الَّذِي يَبْلُغُ بِهِ مَا لَا يَبْلُغُ

بالعنف. وروي عوض أنفذ أشد. والمعنى: ربّ قول يقوله الإنسان فيكون ضرره عليه أشدّ من صولة عدوّه، أو ربّ قول يسمعه من غيره ككذف أو هجر يكون أشدّ عليه من صولة العدوّ. والمعنيان منقولان عن ابن آدم الهروي.

٣٧٥ - وقال (عليه السلام)

كُلُّ مُقْتَصِرٍ عَلَيْهِ كَافٍ.

إنّه لا يقتصر الإنسان إلّا على مقدار يمكنه دفع الضرورة والحاجة به وذلك كاف ومغزٍ للقانع عمّا سواه. وفيه إيحاء إلى الأمر بالاعتصار على اليسير من الدنيا.

٣٧٦ - وقال (عليه السلام) كلمات أربعا:

الْمَنِيَّةُ وَلَا الدَّيَّةُ! وَالْتَقَلُّ وَلَا اتَّوَسَّلُ، وَمَنْ لَمْ يُعْطَ قَاعِدًا لَمْ يُعْطَ قَائِمًا وَالْدَّهْرُ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَكَ، وَيَوْمٌ عَلَيْكَ؛ فَإِذَا كَانَ لَكَ فَلَا تَبْطُرْ، وَإِذَا كَانَ عَلَيْكَ فَاصْبِرْ!

إحديها: المنيّة ولا الديّة. فالمنيّة مبتدأ دلّ على خبره بقوله: ولا الديّة. أي أسهل من الديّة، ويحتمل أن يكون التقدير يحتمل المنيّة ولا يحتمل الديّة وهي الخسيّة من الأمر ترتكب في طلب الدنيا. وكثير من الكرام يختارون الموت على ذلك.

الثانية: والتقلّل ولا التوسّل: أي القناعة بالقليل من العيش والتبّلغ به خير من التوسّل إلى أهل الدنيا في طلبها.

الثالثة: ومن لم يعط قاعدة لم يعط قائماً. كنى بالقعود عن الطلب السهل وبالقيام عن الطلب الصعب بتعسّف: أي من لم يرزق بالطلب السهل لم ينفعه التشديد في الطلب. وهذا الحكم أكثرّي كما هو حكم الخطيب حتّى به على الإجمال في الطلب.

الرابعة: والدهر يومان يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر وإذا

كان عليك فاصبر. فالיום الذي هو زمان الضيق والبلاء يجب فيه الصبر للاستعداد به لقبول رحمة الله تعالى كما قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (١) الآية.

٣٧٧ - وقال (عليه السلام)

مُقَارَبَةُ النَّاسِ فِي أَخْلَاقِهِمْ أَمْنٌ مِنْ غَوَائِلِهِمْ.

الغايلة: الحقد، وذلك أن مباحدة الناس في أخلاقهم تستلزم منافرتهم وعداوتهم وأحقادهم. فالعدول عنها إلى المقاربة والمشاكلة لأخلاقهم يستلزم الأمن من ذلك منهم.

٣٧٨ - وقال (عليه السلام)

لبعض مخاطبيه - وقد تكلم بكلمة يستصغر عن مثله - لَقَدْ طَرْتُ شَكِيرًا، وَهَدَرْتُ سَقْبًا.

فالشكير: هو الفرخ قبل النهوض. واستعار له لفظ الشكير والسقب باعتبار صغر قدره عما تكلم به في حضرته، ووصف الطيران والهدير له باعتبار نهوضه إلى ذلك الكلام الذي هو فوق محته وليس أهلاً له كما أن الطيران ليس من شأن الشكير، ولا الهدير من شأن السقب.

٣٧٩ - وقال (عليه السلام)

مَنْ أَوْمَأَ إِلَى مُتَفَاوِتٍ خَذَلَتْهُ الْجَحِيلُ.

المتفاوت: كالأمر لمتضادة أو التي يتعذر الجمع منها في العرف والعادة. واستعار وصف الخذلان لبحيل باعتبار أنها لا تؤاويه ولا يمكنه الجمع بين ما يرومه من تلك الأمور.

٣٨٠ - وقال (عليه السلام)

وَقَدْ سُئِلَ عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِمْ «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» إِنَّا لَا نَمُبِّكُ مَعَ اللَّهِ

شَيْئًا، وَلَا نَمْلِكُ إِلَّا مَا مَلَكَنا فَمَتَى مَلَكَنا مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنَّا كَلَّفَنا وَمَتَى أَخَذَهُ مِنَّا وَضَعَ تَكْلِيفَهُ عَنَّا.

برهان قوله: إِنَّا لَا نَمْلِكُ مَعَ اللَّهِ شَيْئًا. قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ الآية، وظاهر أن التكليف تابع لما مَلَكَنا إِيَّاهُ مِنَ الْجَوَارِحِ وَالْقَوَى وَالْعَقْلِ وَسَائِرِ مُتَعَلِّقَاتِ التَّكْلِيفِ وَعِنْدَ أَخْذِهِ لَشَيْءٍ مِنْهَا يُضَعُّ التَّكْلِيفُ الْمُتَعَلِّقُ بِهِ عَنَّا. وسئل الصادق عليه السلام عن هذه الكلمة فقال: لَا حَوْلَ عَلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي وَلَا قُوَّةَ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ إِلَّا بِاللَّهِ.

٣٨١ - وَقَالَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)

لِعِمَارِ بْنِ يَاسِرٍ، وَقَدْ سَمِعَهُ يَرِاجِعُ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ كَلَامًا: دَعُهُ يَا عِمَارُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ مِنَ الدِّينِ إِلَّا مَا قَارَبَهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَعَلَى عَمْدٍ لَبَسَ عَلَى نَفْسِهِ لِيَجْعَلَ الشُّبُهَاتِ عَازِرًا لِسَقَطَاتِهِ.

أَرَادَ أَنَّهُ لَا يَعْمَلُ مِنَ الدِّينِ إِلَّا مَا يَسْتَلْزِمُ دُنْيَا وَيَقْرُبُ بِهِ مِنْهَا كَعَدَلٍ أَوْ صَدَقٍ يَسْتَلْزِمُ مَنَفْعَةً دُنْيَوِيَّةً دُونَ مَا لَيْسَ كَذَلِكَ. وَهُوَ صَغِيرٌ ضَمِيرٌ نَفَرُ بِهِ عَنْ مَخَاطَبَتِهِ، تَقْدِيرُ كِبَرَاهُ: وَكُلٌّ مِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَيَنْبَغِي أَنْ يَعْرُضَ عَنْ مُرَاجَعَتِهِ وَمُكَالَمَتِهِ.

٣٨٢ - وَقَالَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)

مَا أَحْسَنَ تَوَاضُعَ الْأَغْنِيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ طَلَبًا لِمَا عِنْدَ اللَّهِ! وَأَحْسَنُ مِنْهُ تَبَهُ الْفُقَرَاءِ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ اتِّكَالًا عَلَى اللَّهِ.

تَبَهُ الْفُقَرَاءِ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ أَصْعَبُ عَلَيْهِمْ وَأَشَقُّ مِنْ تَوَاضُعِ الْأَغْنِيَاءِ لَهُمْ. إِذْ كَانَ تَبَهُهُمْ يَسْتَدْعِي كِمَالَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ دَرَجَةٌ عَالِيَةٌ فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهِ فَلِذَلِكَ كَانَ أَفْضَلَ وَأَحْسَنَ لِقَوْلِهِ عليه السلام : أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَحْمَزُهَا.

٣٨٣ - وقال (عليه السلام)

مَا أَسْتَوْدَعَ اللَّهُ أَمْرًا عَقْلًا إِلَّا أَسْتَنْقَذَهُ بِهِ يَوْمًا مَّا!

إمّا من بلاء الدنيا بالحيلة، أو من بلاء الآخرة بالطاعة.

٣٨٤ - وقال (عليه السلام)

مَنْ صَارَعَ الْحَقَّ صَرَعَهُ.

استعار لفظ المصرة للمقاومة، وذلك أنّ الله سبحانه وملائكته وكتبه ورسوله والصالحين من عباده أعوان الحق ولا مقاوم لهم.

٣٨٥ - وقال (عليه السلام)

الْقَلْبُ مُصْحَفُ الْبَصَرِ.

أراد بالقلب النفس أو الذهن، واستعار له لفظ المصحف باعتبار أنّ كلّ تصوّر في الذهن أريد التعبير عنه فلا بدّ أن يتصوّر حروف العبارة عنه في لوح الخيال والحسّ البصريّ يشهدها من هناك ويقرؤها. فالقلب إذن كالمصحف الذي يشاهد فيه الحروف والألفاظ ويقرء منه بالبصر فذلك أضافه إلى البصر.

٣٨٦ - وقال (عليه السلام)

الْتَقَى رَئِيسُ الْأَخْلَاقِ.

ستعار لفظ الرئيس للتعوى باعتبار أفضليّته في استلزامه لرضوان الله وحصول السعادة الباقية ولا شيء من الأخلاق بانفراده يستلزم ذلك.

٣٨٧ - وقال (عليه السلام)

لَا تَجْعَلَنَّ ذَرْبَ لِسَانِكَ عَلَى مَنْ أَنْطَقَكَ؛ وَبِلَاغَةَ قَوْلِكَ عَلَى مَنْ سَدَّدَكَ.

ذرب اللسان: حدّته. وهو أدب يجري مجرى المثل يضرب لمن

يَحْصُلُ مِنْ إِنْسَانٍ عِلْمًا وَفَائِدَةً فَيَسْتَعِينُ بِهَا عَلَيْهِ . كَانَ يَتَفَاصَحُ عَلَى مِنْ عِلْمِهِ
الفصاحة .

٣٨٨ - وقال (عليه السلام)

كَفَاكَ أَدَبًا لِنَفْسِكَ اجْتِنَابُ مَا تَكْرَهُهُ مِنْ غَيْرِكَ .

وأراد بما يكرهه من غيره الرذائل فإنها مكروهة إلى كل أحد من غيره
ومن نفسه أيضاً إذا عقل أنها رذيلة ولذلك إذا عبر بها أنف منها؛ إلا أن بعض
الرذائل قد يخفى على من هي فيه فلا يتصور قبحها من نفسه أو أنه قد يتصور
ذلك لكن يحمله عليها حامل آخر من شهوة أو غضب . ولما كان اجتناب
الرذائل يستلزم الوقوف على فضيلة العدل في كل شيء لا جرم كان اجتنابها
أدباً كافياً لمن يجتنبها .

٣٨٩ - وقال (عليه السلام)

مَنْ صَبَرَ صَبَرَ الْأَحْرَارَ، وَإِلَّا سَلَ سُلُ الْأَعْمَارِ .

وفي خبر آخر أنه عليه السلام قال للأشعث بن قيس معزياً:
إِنْ صَبَرْتَ صَبَرَ الْأَكَارِمَ، وَإِلَّا سَلَوْتَ سُلُ الْبَهَائِمِ .

والأعمار: الجهال جمع غمر . وجذب إلى فضيلة الصبر في المصائب
بإضافته إلى لأحرار والأكارم، وبما يلزم عدمه من الغاية وهي السلو المشبه
لسلو الغافلين أو البهائم . وأصل إلا - إن لا - أي وإن لا تصبر .

٣٩٠ - وقال (عليه السلام) في صفة الدنيا:

نَفَرَتْ عَنْهَا بَثَلَاثَةُ ضَمَائِرَ:

تَغَرَّ وَتَضَرَّرُ وَتَمُوتُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَهَا ثَوَابًا لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَا عِقَابًا
لْأَعْدَائِهِ؛ وَإِنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا كَرَكِبَ بَيْنَهُمْ حَلُوهَا إِذْ صَاحَ سَائِقُهُمْ فَأَرْتَحَلُوا .

أحدها: الدنيا تضرّ: أي بمحتتها، وتغرّ: أي بزييتها. وتمرّ: أي بفراقها. إذ من طبيعتها ذلك. واستعار لها وصف الإمرار باعتبار ما يستلزمه فراقها من ألم الجزع والحزن كالمرارة. وروي: وتمرّ - بفتح التاء - أي تذهب.

الثاني قوله: إنّ الله. إلى قوله: لأعدائه. إذ لو رضىها كذلك لأعطاهما أوليائه وحرّمها أعداءه.

الثالث: قوله: وإنّ أهل الدنيا. إلى آخره فقوله: بينهم. إلى آخره. في تقدير صفة لركب: أي كركب من شأنه كذا، ووجه الشبه بالركب الذي شأنه ذلك سرعة ارتحالهم إلى الآخرة كسرعة ارتحال الركب، وتقدير الكبرى في الضميرين الأولين: وكلّما كان كذلك فينبغي أن يجتنب ولا يحرص على طلبه، وتقديرها في الثالث: وكلّما كان كذلك فينبغي أن يستعدّ فيه للرحيل والسفر.

٣٩١ - وقال لابنه الحسن (عليهما السلام)

لَا تُخَلِّفَنَّ وَرَاءَكَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّكَ تُخَلِّفُهُ لِأَحَدٍ رَجُلَيْنِ: إِمَّا رَجُلٍ عَمِلَ فِيهِ بِطَاعَةِ اللَّهِ فَسُعِدَ بِمَا شَقِيتَ بِهِ، وَإِمَّا رَجُلٍ عَمِلَ فِيهِ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَكُنْتَ غَوْنًا لَهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ؛ وَلَيْسَ أَحَدٌ هَذَيْنِ حَقِيقًا أَنْ تُؤْثِرَهُ عَلَى نَفْسِكَ.

أدبه عليه السلام بالنهي عن ادّخار المال، ونقره عن ذلك بضمير صغراه قوله: فإنّك. إلى آخره.

وقوله: بما شقيت به.

أي شقاء الدنيا بجمعه، وشقاء الآخرة بادّخاره لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفُضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية، وتقدير الكبرى وكل من يخلف مالاً لأحد هذين وليس أحدهما حقيقياً يؤثّر على نفسه فلا يجوز أن يخلفه.

قال الرضي: ويروى هذا الكلام على وجه آخر وهو:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الَّذِي فِي يَدِكَ مِنَ الدُّنْيَا قَدْ كَانَ لَهُ أَهْلٌ قَبْلَكَ، وَهُوَ ضَائِرٌ إِلَى أَهْلِ بَعْدِكَ؛ وَإِنَّمَا أَنْتَ جَامِعٌ لِأَحَدِ رَجُلَيْنِ: رَجُلٌ عَمِلَ فِيَمَا جَمَعَتْهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ فِيهِ فَسُعِدَ وَشَقِيَتْ بِهِ؛ أَوْ رَجُلٌ عَمِلَ فِيهِ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَشَقِيَتْ بِمَا جَمَعَتْ لَهُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ هَذَيْنِ أَهْلًا أَنْ تُؤَثِّرَهُ عَلَى نَفْسِكَ وَلَا أَنْ تَحْمِلَ لَهُ عَلَى ظَهْرِكَ فَارْجُ لِمَنْ قَدْ مَضَى رَحْمَةَ اللَّهِ، وَلِمَنْ بَقِيَ رِزْقُ اللَّهِ.

أقول: في هذه الرواية تنفير عن الدنيا بضميرين: أحدهما: قوله: فإن الذي في يدك. إلى قوله: بعدك، وتقدير كبراه: وكلما كان كذلك فييس لك أن تحبه وتعتمد عليه. الثاني: قوله: وإنما أنت. إلى قوله: ظهرك، وكبراه ما مر في الرواية لأولى وستعار لفظ الحمل لاكتساب آثام جمع المال، ورشح بذكر الظهر. ثم أرشده إلى ما هو خير من المال لمن مضى وهو رجاء رحمة الله، ولمن بقي وهو رجاء رزق الله الموعود لكل حي.

٣٩٢ - وقال (عليه السلام)

لِقَائِلٍ قَالَ بِحَضْرَتِهِ «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ» ثَبَلْتِكَ أَمْكَ أَتَدْرِي مَا الْإِسْتِغْفَارُ؟ الْإِسْتِغْفَارُ دَرَجَةٌ الْعَبِيدِ، وَهُوَ آسَمُ وَاقِعٍ عَلَى سِتَّةٍ مَعَانٍ: أَوَّلُهَا النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى، وَالثَّانِي: الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ إِلَيْهِ أَبَدًا، وَالثَّالِثُ: أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى تَلْقَى اللَّهَ أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ، وَالرَّابِعُ: أَنْ تَعْمَدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَعْتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا، وَالْخَامِسُ: أَنْ تَعْمَدَ إِلَى اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتَ عَلَى السَّحْبِ فَتُذَيِّبَهُ بِالْأَحْزَابِ حَتَّى تُنْصِقَ الْحُلْدَ بِالْعَظْمِ وَنِشْأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ، وَالسَّادِسُ: أَنْ تُدَبِّقَ الْجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ خِلَافَةَ الْمَعْصِيَةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ: «سُتَغْفِرُ اللَّهَ».

أقول: ظاهر كلامه أنه يقتضي أن سم لاستغفار الحق الذي له درجة العليين ويستحقها صاحبها به واقع على مجموع المعاني الستة التي أشار إليها وذكرها ليتعرف حقيقته منها. ويكون إرادة هذا المعنى من لفظ الاستغفار بعرف جديد شرعي إذ مفهومه اللغوي أنه طلب المغفرة؛ إلا أنه لما كان

طلبها مشروطاً بحصول المعاني المذكورة أطلق لفظ المشروط على الشرط واستعمله فيه، ويحتمل أن لا يكون غرضه تفسير مهية الاستغفار بل الإشارة إلى شرائطه التي لا ينبغي إيقاعه من دونها وهي المعاني الستة ويكون معنى قوله: أندري ما الاستغفار: أي الاستغفار التام بشرائطه وأعرض عن مهية العلم بها، وأشار إلى تمامه من الشرائط وقصد بالإشارة إلى صدق لفظه على شرائطه تأكيد أنه لا يتم بدونها حتى كان مجموعها نفس حقيقة الاستغفار، واستعار لفظ الأملس لنقاء الحقيقة من الآثام.

٣٩٣ - وقال (عليه السلام)

الْحِلْمُ عَشِيرَةٌ.

استعار لفظ العشيرة للحلم باعتبار أنه يحمي صاحبه ممن ينافره ويعاديه كما تحميه عشيرته.

٣٩٤ - وقال (عليه السلام)

مِسْكِينُ ابْنِ آدَمَ: مَكْتُومُ الْأَجَلِ، مَكْنُونُ الْعِلَلِ، مَحْفُوظُ الْعَمَلِ، تَوَلِيْمُهُ الْبَقَّةُ، وَتَقَاتُلُهُ الشَّرْقَةُ، وَتَنْتِنُهُ الْعَرَقَةُ.

ذكر كونه مسكيناً ويّين ذلك بضمير عدّد فيه وجوه المسكنة والضعف صغراه قوله: مكتوم الأجل. إلى آخره. وهي ظاهرة، وتقدير كبراه: وكلّ من كان كذلك فهو مسكين. ومسكين خبر المبتدأ قدّم عليه لأنّ ذكره أهمّ. وحذف تنوينه تخفيفاً. وغرض الكلام كسر النفوس من سورة الكبر والعجب والفخر وأمثالها عن الرذائل.

٣٩٥ - وروي أنه (عليه السلام)

كان جالساً في أصحابه، فمرت بهم امرأة جميلة فرمقها القوم بأبصارهم فقال ﷺ: إِنَّ أَبْصَارَ هَذِهِ الْفُحُولِ طَوَامِحُ، وَإِنَّ ذَلِكَ سَبَبُ هَبَابِهَا، فَإِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى امْرَأَةٍ تَعْجِبُهُ فَلْيَلَامِسْ أَهْلَهُ، فَإِنَّمَا هِيَ امْرَأَةٌ كَأَمْرَأَةٍ، فَقَالَ رَجُلٌ

من الخوارج «قاتله الله كافراً ما أفقهه» فوثب القوم ليقتلوه، فقال عليه السلام :
رُوَيْدًا إِنَّمَا هُوَ سَبٌّ بِسَبٍّ أَوْ عَفْوٌ عَنْ ذَنْبٍ!

الرمق: النظر. وطموح البصر: ارتفاعه والهبيب والهباب: صوت التيس
عند هياجه وطلبه للشاة. واستعار الفحول لهم، ولفظ الهباب لطلبهم للنكاح.
وأرشدهم إلى الخلاص من فتنة النظر بملامسة الأهل. ورغب في ذلك بضمير
صغراه قوله: فَإِنَّمَا هِيَ امْرَأَةٌ كَأَمْرَةٍ: أي فَإِنَّمَا أَهْلُ الرَّجُلِ امْرَأَةٌ تُشَبِّهُ الْمَرْأَةَ
المرثية، وتقدير الكبرى: وكل من يشبهها ففيه عوض منها. وإِنَّمَا أَطْلَقَ
الخارجي لفظ الكافر عليه لأنه عليه السلام عند الخوارج مخطيء وكل خطيئة عندهم
كفر. وقوله: إِنَّمَا هُوَ سَبٌّ مَقْتَضِي فَضِيلَةِ الْعَدْلِ.

٣٩٦ - وقال (عليه السلام)

كَفَّاكَ مِنْ عَقْلِكَ مَا أَوْضَحَ لَكَ سُبُلَ غَيِّكَ مِنْ رُشْدِكَ.

الغرض من لعقل العملي هو ما ذكره عليه السلام . وكفى به .

٣٩٧ - وقال (عليه السلام)

إِفْعَلُوا الْخَيْرَ وَلَا تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئًا فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ وَقَبِيلُهُ كَثِيرٌ، وَلَا يَقُولَنَّ
أَحَدُكُمْ إِنَّ أَحَدًا أَوْلَى بِفَعْلِ الْخَيْرِ مِنِّي فَيَكُونَ وَاللَّهِ كَذَلِكَ. إِنَّ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ
أَهْلًا فَمَهْمَا تَرَكَتُمُوهُ مِنْهُمَا كَفَاكُمُوهُ أَهْلُهُ.

أمر بفعل الخير ونهى عن احتقار شيء منه وإن قل، ورغب فيه بضمير
صغراه قوله: فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ وَقَبِيلُهُ كَثِيرٌ: أي في الاعتبار وبالنسبة إلى من
يحتاج إليه. ثم نهى أن يقول أحد: إِنَّ غَيْرَهُ أَوْلَى بِفَعْلِ الْخَيْرِ مِنْهُ. وهو كناية
عن ترك المرء الخير اعتماداً على أن غيره بفعله أولى.

وقوله: فَيَكُونَ وَاللَّهِ كَذَلِكَ.

لأن ذلك القول من القائل التارك للخير يكون باعثاً لمن توسم فيه فعل
ذلك الخير ونسبه إليه. فيصدق قوله وظنه فيه بفعله له فيكون أولى به منه.

وقوله : إِنَّ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَهْلًا . إِلَى آخِرِهِ .

ترغيب في الخير وتنفير عن الشرّ بذكر أنّ لكلّ منهما أهلاً يكتفى فيه إن تركه من ليس أهله فيكون السامعون من أهل الخير يفعلوه ويترك الشرّ لأهله .

٣٩٨ - وقال (عليه السلام)

مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ أَصْلَحَ اللَّهُ عِلَانِيَتَهُ ، وَمَنْ عَمِلَ لِدِينِهِ كَفَاهُ اللَّهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ أَحْسَنَ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ .

فصلاح باطن الإنسان وسره بالأخلاق الفاضلة معدّ لإفاضة الله عليه صلاح أقواله وأفعاله الظاهرة لأنها كالثمرات للباطن ، وكذلك عمل الإنسان لدينه وإقامته لحدود الله معدّ لصلاح حاله في معاشه ومهتّى لعواطف الخلق عليه لاشتغاله بالله عن مجاذبتهم للدنيا . وفي معناه الكلمة الثالثة فإن إخلاص العبودية لله وإصلاح معاملته قاطع عن محبة الدنيا والحرص عليها الذي هو سبب الفساد بين الناس فكان معدّاً لرفع الفساد ودفعه .

٣٩٩ - وقال (عليه السلام)

الْحِلْمُ غِطَاءٌ سَاتِرٌ ، وَالْعَقْلُ حُسَامٌ قَاطِعٌ . فَاسْتُرْ خَلَلَ خُلُقِكَ بِحِلْمِكَ ، وَقَاتِلْ هَوَاكَ بِعَقْلِكَ .

استعار لفظ الغطاء للحلم باعتبار أنه يستر سورة الغضب وقبيح ما يصدر عنه من الأفعال بسببها ، ورشح بذكر الساتر ، وكذلك استعار لفظ الحسام للعقل باعتبار رفعه لبوادر النفس الأمّارة وإفراطها . ورشح بذكر القاطع ولذلك أمر بمقاتلة هواه به

٤٠٠ - وقال (عليه السلام)

إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا يَخْتَصُّهُمْ بِالنَّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ فَيُقْرِئُهَا فِي أَيْدِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا . فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ ثُمَّ حَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ .

أي من عباد الله من يكون مقصوداً بالعناية الإلهية بإفاضة النعمة عليه

وإقرارها في يديه لوصول النفع إلى الغير. ويكون ذلك شرطاً فيها فإذا لم يوجد ذلك ارتفعت تلك النعمة بارتفاع شرطها إلى غيرهم. وغرض الكلمة الحث على النفع المتعدي لتجوز كل عاقل أنعم الله عليه أن تكون نعمته كذلك.

٤٠١ - وقال (عليه السلام)

لَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَتَوَقَّ بِخَصْلَتَيْنِ: الْعَافِيَةِ، وَالْغِنَى، بَيْنَا تَرَاهُ مُعَافًى إِذْ سَقِمَ، وَبَيْنَا تَرَاهُ غَنِيًّا إِذْ أَفْتَقَرَ.

نهى عن الوثوق بالخصلتين المذكورتين لكونهما مع ما يقابلهما من السقم والفقر أموراً غير مقدورة للعبد ولا معلومة الأسباب وهي في معرض التعاقب فالوثوق بما كان كذلك جهل فلا ينبغي أن يثق بالخصلتين المذكورتين.

٤٠٢ - وقال (عليه السلام)

مَنْ شَكَا الْحَاجَةَ إِلَى مُؤْمِنٍ فَكَأَنَّهُ شَكَاهَا إِلَى اللَّهِ، وَمَنْ شَكَاهَا إِلَى كَافِرٍ فَكَأَنَّمَا شَكَا اللَّهَ.

شكاية المؤمن إلى المؤمن شكاية في موضعها. إذ كانت ثمرة الشكاية المعاونة على دفع الأمر المشكوك منه. والمؤمن شأنه ذلك: بخلاف الشكاية إلى الكافر. ورغب في الأول تشبيهها بالشكاية إلى الله، ووجه الشبه أن المؤمن كالصديق لله فإذا شكى المؤمن إليه أمراً من الله فكأنه جعله وسيلة إلى الله في شكواه فأشبهه الشكوى إليه. ونفر عن الثانية بتشبيهها بشكوى الله، ووجه الشبه أن الكافر عدو الله فمن شكى إليه أمراً فكأنما شكى من الله إلى عدوه.

٤٠٣ - وقال (عليه السلام) في بعض الأعياد:

إِنَّمَا هُوَ عِيدٌ لِمَنْ قَبِلَ اللَّهَ صِيَامَهُ وَشَكَرَ قِيَامَهُ، وَكُلُّ يَوْمٍ لَا يُعْصَى اللَّهُ فِيهِ فَهُوَ عِيدٌ.

غرض الكلمة الجذب إلى عبادة الله وطاعته، وكسر النفوس عن الفرح بما ليس لله فيه نصيب سواء كان زماناً أو مكاناً أو غيرهما. ولما كان العيد عبارة عن يوم تسرّ فيه الناس وتفرح فيه فكلّ يوم لا يعصى الله فيه فهو أولى بالفرح والسرور فيه وأن يسمّى عيداً في عرف أولياء الله والطلبين لما عنده.

٤٠٤ - وقال (عليه السلام)

إِنَّ أَكْثَرَ الْحَسَرَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَسْرَةُ رَجُلٍ كَسَبَ مَالاً فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ فَوَرِثَهُ رَجُلٌ فَأَنْفَقَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَدَخَلَ بِهِ الْجَنَّةَ وَدَخَلَ الْأَوَّلُ بِهِ النَّارَ.

غرض الكلمة الجذب عن الكسب الحرام، وإدخار المال والتنفير عنه بما ذكر.

وقوله: أعظم الحسرات.

لا يقتضي أن يكون كلّ ما هو أعظمها. وإنما كان ذلك حسرة عظيمة لعدم منفعتها بالمال في الدنيا، وعذابه في الآخرة، ومشاهدته لانتفاع الغير به هناك.

٤٠٥ - وقال (عليه السلام)

إِنَّ أَخْسَرَ النَّاسِ صَفَقَةً، وَأَخْيَبَهُمْ سَعِيّاً رَجُلٌ أَخْلَقَ بَدَنَهُ فِي طَلَبِ مَالِهِ، وَلَمْ تُسَاعِدْهُ الْمَقَادِيرُ عَلَى إِرَادَتِهِ، فَخَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا بِحَسْرَتِهِ، وَقَدِمَ عَلَى الْآخِرَةِ بِتَبَعَتِهِ.

استعار وصف الأخسر صفقة لمن ذكر باعتبار استعاضته للدنيا عن الآخرة ومع عدم موافقة القدر له في حصول آماله الدنيوية. وظاهر أنه أخسر من اتجر. وتبعته ما يلحقه من عقوبات الآلام المكتسبة له من سعيه.

٤٠٦ - وقال (عليه السلام)

الرِّزْقُ رِزْقَانِ: طَالِبٌ، وَمَطْلُوبٌ؛ فَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا طَلَبَهُ الْمَوْتُ حَتَّى يُخْرِجَهُ عَنْهَا، وَمَنْ طَلَبَ الْآخِرَةَ طَلَبَهُ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَوْفِيَ رِزْقَهُ مِنْهَا.

استعار للرزق وصف الطالب باعتبار أنه لا بد من وصوله فهو كالتالب لصاحبه. ونفّر عن طلب الدنيا بما يلزمها من الغاية المقدّرة وهي الموت فكأنه طالب للمرء لغاية إخراجها من الدنيا بسبب طلبه لها، ورغب في طلب الآخرة بما يلزمه من طلب الدنيا وأهلها لمن انقطع عنها حتى يصل إليه رزقه منها وهو محمود. وقد بيّنا فيما سلف وجه إقبال الناس على من ينقطع عنهم.

٤٠٧ - وقال (عليه السلام)

إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمُ الَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا إِذَا نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا، وَاسْتَغْلَوْا بِأَجْلِهَا إِذَا اشْتَغَلَ النَّاسُ بِعَاجِلِهَا، فَأَمَاتُوا مِنْهَا مَا خَشُوا أَنْ يُمِيتَهُمْ؛ وَتَرَكَوا مِنْهَا مَا عِبَسُوا أَنَّهُ سَيُتْرَكُهُمْ وَرَأَوْا اسْتِكْثَارَ غَيْرِهِمْ مِنْهَا اسْتِقْلَالًا؛ وَدَرَكَهُمْ لَهَا قُوْتًا، أَعْدَاءُ مَا سَأَلَ النَّاسُ وَسَلَّمُ مَا عَادَى النَّاسُ! بِهِمْ عِلْمُ الْكِتَابِ وَبِهِ عِلْمُوَا؛ وَبِهِمْ قَامَ الْكِتَابُ وَهُمْ بِهِ قَامُوا؛ لَا يَرُونَ مَرْجُوءًا فَوْقَ مَا يَرْجُونَ، وَلَا مَخُوفًا فَوْقَ مَا يَخَافُونَ.

أقول: ميز أولياء الله بصفات عشر:

إحداها: أنهم نظروا الى باطن لدنيا: أي حقيقتها، وغرض الحكمة الإلهية من وجودها فعملوا فيها على حسب علمهم إذا نظر لناس الى ظاهرها من زينتها وقيناتها.

الثانية: واشتغلوا بأجلها وهو ما جعله الله نصب أعينهم غرضاً مقصوداً منها ثمرة للاستعداد بها وهو ثواب الله ورضوانه إذا اشتغل الناس بعاجلها وحاضر لذاتها.

الثالثة: فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم. وهو نفوسهم الأمانة بالسوء التي يخشى من غلبتها واستيلائها على العقل موته وهلاكه في الآخرة، ويحتمل أن يريد بما أماتوه منها قيناتها استعارة. فكأنهم لما رفضوها ولم يلتفتوا إليها قد أماتوا ولم يبق لها حياة عندهم.

الرابعة: وتركوا منها ما علموا أنه ستركهم. وهو زينتها وقيناتها التاركة

لهم بالموت عنها. و- من - في الموضوعين لبيان الجنس.

الخامسة: ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالاً - ودركها لها فوتاً: أي استقلالاً من الخير الباقي وفوتاً له إذ كان دركها والاستكثار بها سبباً لذلك.

السادسة: أعداء ما سالم الناس وهي الدنيا، وسلم ما عادى الناس وهي الآخرة.

الثامنة: بهم علم الكتاب. لحفظهم إياه وتفقههم له وإفادتهم به، وبه علموا لاشتغالهم به عند الناس.

التاسعة: وبهم قام الكتاب: أي صارت أحكامه قائمة في الخلق معمولاً بها، وبه قاموا: أي بأوامره ونواهيه وبما ينبغي له. ويحتمل أن يريد أن قيامهم في معاشهم ومعادهم ببركته.

العاشرة: لا يرون مرجواً فوق ما يرجون من ثواب الله، ولا يخافون مخوفاً فوق ما يخافون من عذاب الله والحجب عنه. وذلك لعلمهم بالمرجو والمخوف هناك.

٤٠٨ - وقال (عليه السلام)

أَذْكُرُوا أَنْقِطَاعَ السَّذَاتِ ، وَبَقَاءَ التَّيْبَاتِ .

والغرض التنفير عن الدنيا.

٤٠٩ - وقال (عليه السلام)

أُخْبِرْتُ قَلِيَّ .

قال الرضي: ومن الناس من يروي هذا للرسول ﷺ ومما يقوي أنه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ما حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي، قال المأمون: لولا أن علياً قال: «أخبر قلبي» لقلت: أقتله تخبر.

قله يقلبه قلبي

بالكسر - وقلاء - بالفتح - أبغضه. والهاء مزيدة للسكت وهو أمر في معنى

الخبر يجري مجرى المثل، والمعنى من خبرت باطنه قليته. والحكم أكثرى لكثرة ما عليه الناس من حيث السريرة ورذائل الأخلاق. وما نقل عن المأمون من العكس يريد به أن إظهار البغض للشخص يكشف عنه باطنه لأنه إما أن يقابل بمثل ذلك أو يترك فيعرف خيره من شره. ونقل مثله عن أبي بكر الإصفهاني قال: لولا أن الاعتراض على السلف من الجهالة والسرف لقلت: القلى ثم الخبر؛ حتى لا يكون الإنسان مضيعة وقته، واضعاً في غير موضعه مقتته.

٤١٠ - وقال (عليه السلام)

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَفْتَحَ عَلَى عَبْدٍ بَابَ الشُّكْرِ وَيُغْلِقَ عَنْهُ بَابَ الزِّيَادَةِ، وَلَا لِيَفْتَحَ عَلَى عَبْدٍ بَابَ الدُّعَاءِ وَيُغْلِقَ عَنْهُ بَابَ الْإِجَابَةِ وَلَا لِيَفْتَحَ لِعَبْدٍ بَابَ التَّوْبَةِ وَيُغْلِقَ عَنْهُ بَابَ الْمَغْفِرَةِ.

أشار إلى استلزام أمور ثلاثة وهي الشكر للمزيد والدعاء للإجابة والتوبة للمغفرة. فمن فتح الله له باب إحدى هذه الملزومات فأعده له وألهمه إياه وجب في جوده أن يفتح له باب لازمه ويفيضه عليه. إذ لا بخل في جوده ولا منع في سلطانه. ووصف فتح الباب مستعار لتيسير الله تعالى العبد لذلك وإعداده له.

٤١١ - وسئل (عليه السلام)

أَيُّمَا أَفْضَلُ: الْعَدْلُ، أَوِ الْجُودُ؟ فَقَالَ عليه السلام: أَلْعَدْلُ يَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا، وَالْجُودُ يُخْرِجُهَا مِنْ جِهَتِهَا، وَالْعَدْلُ سَائِسٌ عَامٌّ، وَالْجُودُ غَارِضٌ خَاصٌّ، فَالْعَدْلُ أَشْرَفُهُمَا وَأَفْضَلُهُمَا.

أشار إلى أفضلية العدل بضميرين صغرى لأول: قوله: العدل إلى قوله: جهتها. يريد أن طبيعة الجود يقتضي من صاحبها إخراج كل ما يملكه عن مواضعه ومواضع حاجته التي هي أولى به بمقتضى العدل. الثاني: قوله: والعدل. إلى قوله: خاص. واستعار له لفظ السائس باعتبار أن به نظام العالم

والجود عارض خاصّ بمن يصل إليه من بعض الناس . وتقدير الكبرى فيهما : وكلّ أمرين كانا كذلك فالعدل أشرفهما وأفضلهما .

وقوله : فالعدل . إلى آخره هو النتيجة .

٤١٢ - وقال (عليه السلام)

النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا .

وقد مرّ بيانه .

٤١٣ - وقال (عليه السلام)

الزُّهْدُ كُلُّهُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ : قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ . (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) وَمَنْ لَمْ يَأْسَ عَلَى الْمَاضِي وَلَمْ يَفْرَحْ بِالْآتِي فَقَدْ أَخَذَ الزُّهْدَ بِطَرْفَيْهِ .

الأمران المذكوران في الآية غايتان من الزهد والإعراض عن الدنيا في قوة خاصّة مركّبة تلزم الزهد . ونبّه عليها لتعريفه بها ، وكنتى بقوله : فقد أخذ الزهد بطرفيه . عن استكمال حقيقة الزهد وكمالاتها حينئذ وظاهر أنّ وجود الخاصّة المذكورة مستلزم للإعراض عن الدنيا وطبيّاتها بالقلب وهو الزهد الحقيقي .

٤١٤ - وقال (عليه السلام)

الْوَلَايَاتُ مَضَامِيرُ الرِّجَالِ .

أراد بالمضامير مظانّ معرفة جودة الفرس وهي الأمكنة التي يقرن فيها الخيل للسباق ، واستعار لفظها للولايات باعتبار أنّها مظانّ ظهور جودة الوالي من خستته ورداءته كما أنّ المضامير للخيل كذلك .

٤١٥ - وقال (عليه السلام)

مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ .

أقول: - ما - هاهنا للتعجب. وهذه الكلمة تجري مجرى المثل يضرب لمن يعزم على أمر فيغفل عنه أو يتهاون فيه ويتراخى عن فعله حتى ينتقض عزمه عنه. وأصله أن الإنسان قدينوي السفر مثلاً أو الحركة بقطعة من الليل ليتوفر في نهاره على سيره فيغلبه النوم إلى الصباح فيفوت وقت عزمه فينتقض ما كان عزم عليه في يومه.

٤١٦ - وقال (عليه السلام)

لَيْسَ بِلَدٍّ بِأَحَقَّ بِكَ مِنْ بَلَدٍ، خَيْرُ الْبِلَادِ مَا حَمَلَكَ.

أقول: ما حملك: أي ما وجدت فيه قيام حالك وصلاح معاشك فأمكنك الإقامة به. واستعار الحمل له باعتبار حمل مؤونته ملاحظة لشبهه بالجمل ونحوه. وإلى ذلك أو قريب منه أشار أبو الطيب: وفي بلاد اختها بدل. وكذلك علي بن مقرب البحراني في قوله:

لي عن بلاد الأذى والهون متسع ما بين حرّ وبين الدار من نسب

٤١٧ - وقال (عليه السلام)

وقد جاءه نعي الأشتر رحمه الله: مَالِكٌ وَمَا مَالُكَ لَوْ كَانَ جَبَلًا لَكَانَ فَنَدًا لَا يَرْتَقِيهِ الْحَافِرُ، وَلَا يُوفِي عَلَيْهِ الطَّائِرُ.

قال الرضي: والفند: المصفر من الجبال.

ومالك مبتداً أو فاعل: أي مات مالك. وما استفهامية في معرض التعجب من مالك - رحمه الله - وقوته في الدين.

٤١٨ - وقال (عليه السلام)

قَلِيلٌ مَسْئُومٌ عَلَيْهِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مَمْلُولٍ مِنْهُ.

ودلك من الأمور التي ينبغي أن يفعل. وإنما كان كذلك لأن الدوام على القليل منها يفيد النفس ملكة الطاعة والخير وصيرورتهما خلقاً بخلاف الكثير المملول منه. ونحوه قول الرسول ﷺ: إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ

فيه برفق فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى . وقد مرّ هذا الكلام بعينه .

٤١٩ - وقال (عليه السلام)

إِذَا كَانَ فِي رَجُلٍ خَلَّةٌ رَائِقَةٌ فَانْتَظِرُوا أَخَوَاتِهَا .

والرائقة : المعجبة : أي إذا كان في الإنسان خلق فاضل فإن طبعه مظنة أن يكون فيه جملة من الأخلاق الفاضلة المناسبة لذلك الخلق ويتوقع وينتظر منه . كمن يكون من شأنه الصدق فإنه ينتظر الوفاء وحسن الصحبة وبالعكس ، وكمن يكون من شأنه العفة فإنه يتوقع منه الكرم والمسامحة والبذل والصدقة والمحبة ونحوها ، وكمن يكون شجاعاً فإنه يتوقع منه عظمة الأئمة والحلم والثبات ، وكذلك من كان فيه ضد ذلك من الرذائل .

٤٢٠ - وقال (عليه السلام)

لغالب بن صعصعة أبي الفرزدق في كلام دار بينهما : مَا فَعَلْتَ إِيْلَكَ الْكَثِيرَةُ؟ قَالَ : دَعَدْتُهَا الْحُقُوقُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ عليه السلام : ذَلِكَ أَحْمَدُ سُبُلَهَا .

الكلام الذي دار بينهما أن غالباً دخل على علي عليه السلام وهو شيخ كبير معه ابنه همام الفرزدق وهو غلام يومئذ فقال له عليه السلام : من الشيخ؟ فقال : أنا غالب بن صعصعة . قال ذو الإبل الكثيرة؟ قل : نعم . قال : ما فعلت إيلك؟ قال دعدعتها الحقوق وأذهبتها الحالات والنوائب . فقال : ذاك أحمد سبلها . فقال : من هذا الغلام؟ فقال : هذا ابني همام رؤيته الشعر يا أمير المؤمنين وكلام العرب ويوشك أن يكون شاعراً ميذاً . قال : أقرأه القرآن فهو خير . فكان الفرزدق يروي هذا الحديث ويقول : ما زالت كلمته في نفسي حتى قيد نفسه بقيد وآلى أن لا يفكه حتى يحفظ القرآن فما فكه حتى حفظه . ودعدعتها - بالذال المعجمة مكررة - : فرقتها .

٤٢١ - وقال (عليه السلام)

مَنْ أَتَجَرَ بِغَيْرِ فِقْهِ فَقَدْ آرَتَطَمَ فِي الرِّبَا .

ارتطم في الوحل ونحوه: وقع فيه فلم يمكنه الخلاص. وهو وصف مستعار لغير الفقيه باعتبار أنه لا يتمكن من الخلاص من الربا وذلك لكثرة اشتباه مسائل الربا بمسائل البيع حتى لا يفرق بينهما إلا أكابر الفقهاء مع وقوع الخلاف الشديد بينهم فيها كبيع لحم البقر بالغنم متفاضلاً فجوزه أبو حنيفة قائلاً إنهما جنسان مختلفان ومنع منه الشافعي. إلى غيرها من المسائل.

٤٢٢ - وقال (عليه السلام)

مَنْ عَظَّمَ صِغَارَ الْمَصَائِبِ آتَتْهُ اللَّهُ بِكِبَارِهَا.

وإنما لزمه ذلك لاستعداده بتضجره وتسخطه من قضاء الله لزيادة البلاء ولو قد حمد الله على بلائه لاستعد بذلك لدفعه.

٤٢٣ - وقال (عليه السلام)

مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ هَانَتْ عَلَيْهِ شَهَوَاتُهُ.

وذلك لكونهما عدواناً فإكرام أحدهما يستلزم إهانة الأخرى فمن كرمت عليه نفسه لزمه حفظها وحمايتها من عذب الله وذلك مستلزم لهوان شهوته عليه وعدم مراعاته لأنها تقتضي ضد ذلك.

٤٢٤ - وقال (عليه السلام)

مَا مَزَحَ أَمْرٌ مَزَحَةً إِلَّا مَجَّ مِنْ عَقْلِهِ مَجَّةٌ.

وذلك لأن العقل يقتضي صيانة العرض والبقاء على حد توقر معه صاحبه ولا يستخف به. والمزاح الذي لا ينبغي يقتضي أضداد ذلك فهو مستلزم لمخالفة العقل وتركه. فاستعار لفظ المَجَّ لما يطرحه الإنسان من عقله في مزحه أو مزحاته. فكأنه قد مجّه كما مجّ الماء من فيه ويلقيه.

٤٢٥ - وقال (عليه السلام)

زُهْدُكَ فِي رَاغِبٍ فِيكَ نُقْصَانُ حَظٍّ، وَرَغْبَتُكَ فِي زَاهِدٍ فِيكَ ذُلٌّ نَفْسٍ.

أما الأول فلأن من تمام الحظ كثرة الإخوان للإعانة على صلاح أمر المعاش والمعاد. فالزهد فيهم يستلزم نقصان الحظ، ولأن مجازاة الرغبة بمثلها فضيلة من تمام الحظ النفساني فعدمها يستلزم نقصانه. وأما الثاني فاستلزام الرغبة الزاهد فيك للذل والخضوع له ظاهر. والكلمتان صغرياً ضمير نقر به عن الزهد في الراغب فيك والرغبة فيمن يزهدك.

٤٢٦ - وقال (عليه السلام)

مَا لِابْنِ آدَمَ وَالْفَخْرِ: أَوَّلُهُ نُظْفَةٌ. وَآخِرُهُ جِيفَةٌ، وَلَا يَرْزُقُ نَفْسَهُ، وَلَا يَدْفَعُ حَتْفَهُ.

استفهم تعجباً من وجه الجمع بين الإنسان والفخر وثبته على عدم المناسبة بينهما بضمير صغراه قوله: أوله. إلى آخره. وتقدير الكبرى: وكل من كان كذلك فلا مناسبة بينه وبين الفخر. وروي: الفخر - منصوباً - على المفعول معه.

٤٢٧ - وقال (عليه السلام)

لَغِنَى وَالْفَقْرُ بَعْدَ الْعَرَضِ عَلَى اللَّهِ.

وأراد الغنى الحقيقي بالثواب، والفقير بعدمه في الآخرة.

٤٢٨ - وسئل (عليه السلام)

عن أشعر الشعراء؟ فقال عليه السلام: إِنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَجْرُوا فِي حَلْبَةٍ تُعْرَفُ الْغَايَةُ عِنْدَ قَصَبَتِهَا؛ فَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ فَالْمَلِكُ الضَّلِيلُ (يريد امرأ القيس).

أراد أنهم لم يقولوا الشعر على منهاج واحد حتى يفاضل بينهم بل كان لكل منهم حالة خاصة يجيد فيها وتنبعث فيها قريحته. فواحد يجيد في الرغبة، وآخر في الرهبة، وآخر في النشاط والطرب. ولذلك قيل: أشعر العرب امرء القيس إذا ركب، والأعشى إذا رغب، والنابعة إذا رهب. واستعار لفظ الحلبة وهي القطعة من الخيل يقرن للسباق للطريقة الواحدة، ورشح

بذكر الإجراء والغاية وقصبتها وذلك أنّ عادة العرب أن يضع قصبة في آخر المدى فمن سبق إليها وأخذها فاز بالسبق والغلب.
وقوله: فإن كان ولا بدّ.

أي من الحكم. وإنما حكم له بذلك باعتبار جودة شعره في أكثر حالاته دون غيره كما روي عنه برواية أخرى أن أبا الأسود سأله عن أشعر العرب. فقال: لو رفعت للقوم غاية علمنا من السابق منهم ولكن إن لم يكن فالذي لم يقل عن رغبة ولا رهبة وهو الملك الضليل. وسَمِيَ ضليلاً لكثرة ضلالته وقوتها، وقيل: لأنّه تنصّر في آخر عمره. وقيل: لأنّه كان كثير التهنّك وإعلان الفسق كما في شعره. وروي عن المتنبي: أن امرء القيس استدرّ الناقة وركبها، وأخذ طرفه ما طاب من لحمها، وأخذ لبيد بأمعائها وأكبادها، وبقيت عظامها وأروائها فاقسمناها نحن. قيل للبيد بن ربيعة: من أشعر العرب؟ فقال: الملك الضليل. فقيل: ثمّ من؟ قال: الفتى القليل يعني طرفه. فقيل: ثمّ من؟ فقال: الشيخ أبو عقيل يعني نفسه.

٤٢٩ - وقال (عليه السلام)

أَلَا حُرٌّ يَدْعُ هَذِهِ اللَّمَاطَةَ لِأَهْلِهَا؟ إِنَّهُ لَيْسَ لِأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلَّا الْجَنَّةُ، فَلَا تَبِيعُوهَا إِلَّا بِهَا.

اللماطة: - بضم اللام - ما يبقى في الفم من الطعام. ولفظها مستعار للدنيا باعتبار قلّتها وحقارتها. ودعا إلى تركها ثمّ جذب عنها بضمير صغراه قوله: فإنّه. إلى قوله: الجنة. وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمِ الْجَنَّةُ﴾^(١) وتقدير الكبرى: وكلّما كان ليس لأنفسكم ثمن إلا هو فيبغى أن لا تبيعوها إلا به.

٤٣٠ - وقال (عليه السلام)

عَلَامَةُ الْإِيمَانِ أَنْ تُؤْتِرَ الصَّدَقَ حَيْثُ يَضُرُّكَ عَلَى الْكَذِبِ حَيْثُ يَنْفَعُكَ

وَأَنْ لَا يَكُونَ فِي حَدِيثِكَ فَضْلٌ عَنْ عَمَلِكَ وَأَنْ تَتَّقِيَ اللَّهَ فِي حَدِيثٍ غَيْرِكَ.

أشار من علامات الايمان إلى ثلاث:

أحدها: أن يؤثر الصدق الضار على الكذب النافع محبة للفضيلة وكراهة للرديلة.

الثانية: أن لا يكون في حديثه فضل وزيادة عن علمه وهو العدل في القول والاحتراز من رديلة الكذب.

الثالثة: أن يتقي الله في حديث غيره فلا يخوض في عرضه بغيبة أو سماعها. وقيل: أراد أن يحتاط في الرواية فيروي عنه حديثه كما هو.

٤٣١ - وقال (عليه السلام)

يَغْلِبُ الْمِقْدَارُ عَلَى التَّقْدِيرِ حَتَّى تَكُونَ الْآفَةُ فِي التَّدْبِيرِ.

المقدار: القدر. ولما كان الإنسان جاهلاً بأسرار القدر كان بناء تقديره وتدبيره لنفسه على أوهام لا ثقة بها فجاز فيما دبّره هو لنفسه واعتقده سبباً للمصلحة أن يكون من أسباب مفسدته وهلاكه. وقد مرّ بيان ذلك.

٤٣٢ - وقال (عليه السلام)

الْجِلْمُ وَالْأَنَاءُ تَوَامِنِ يُتَجُهُمَا عُلُوُّ الْهَمَّةِ.

استعار لهاتين الفضيلتين لفظ التوأمين باعتبار استلزام علو الهمة وصدروهما بواسطتها وذلك أن عالي الهمة يستحقر كل ذنب ومذنب في حقه فيحلم عنه ويتأنى عن المبادرة إلى مقابله.

٤٣٣ - وقال (عليه السلام)

الْغِيَّةُ جُهْدُ الْعَاجِزِ.

أكثر ما تصدر الغيبة عن الأعداء والحساد الذين يعجزون عن بلوغ أغراضهم وشفاء صدورهم فيعدلون إلى اظهار معائب اعدائهم لما يجدون فيه

من اللذة. ونقر عنها بنسبة فاعلها الى العجز، وأنها غاية جهده ليأنف من ذلك النقصان ولا يرضى به.

٤٣٤ - وقال (عليه السلام)

رَبِّ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ.

وأصل الفتنة: الانصراف: أي ربّ مصروف عن تحصيل الفضيلة والطاعة وإكمالها وبالمدح والاطراء كمن يمدح بكثرة العبادة مثلاً فيقوده ذلك الى الاقتصار على ذلك القدر منها.

وقال السيد - رحمه الله -: وهذا حين انتهاء الغاية بن إلى قطع المختار من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حامدين لله سبحانه على ما منّ به من توفيقنا لضمّ ما انتشر من أطرافه وتقريب ما بعد من أقطاره. وتقرّر العزم كما شرطنا أولاً على تفضيل أوراق من البياض في آخر كلّ باب من الأبواب ليكون لاقتناص الشارد واستلحاق الوارد وما عساه أن يظهر لنا بعد الغموض ويقع إلينا بعد الشذوذ. وما توفيقنا إلا بالله عليه توكلنا وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أقول: إنه - رضوان الله عليه - بلغ في اختيار كلامه عليه السلام إلى هذه الغاية وقطعه عليها. ثم كتبت على عهده زيادة من محاسن الكلمات إمّا باختياره هو أو بعض من كان يحضره من أهل العلم وتلك الزيادة تارة توجد خارجة عن المتن وتارة موضوعة فيه ملحقة بمنقطع اختياره، وروي أنّها قرئت عليه وأمر بإلحاقها بالمتن. وأولها.

٤٣٥ - وقال (عليه السلام)

الَّذِي خُلِقَتْ لغيرها، وَلَمْ تُخْلَقْ لِنَفْسِهَا.

وأراد أنّها خلقت للاستعداد فيها وبها لدرك ثواب الله في الآخرة لا ليتنّب بها الجاهلون.

٤٣٦ - وقال (عليه السلام)

إِنَّ لِبَنِي أُمِّيَّةٍ مُرَوِّدًا يَجْرُونَ فِيهِ، وَلَوْ قَدْ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ كَادَتْهُمْ
الضَّبَاعُ لَغَلَبَتْهُمْ.

قال الرضي: والمرود هنا مفعول من الإرواد، وهو الإمهال والإنظار، وهذا من أفصح الكلام وأغربه، فكأنه عليه السلام شبه المهلة التي هم فيها بالمضمار الذي يجرون فيه إلى الغاية، فإذا بلغوا منقطعها انتقض نظامهم بعدها.

أقول: استعار لفظ المرود لمدة دولتهم، ووجه المشابهة هو ما ذكره السيد. والكلام ظاهر الصدق فإن دولتهم لم تنزل على الاستقامة إلى حين اختلافهم وذلك حين ولي الوليد بن يزيد فخرج عليه يزيد بن الوليد فخرج عليه إبراهيم بن الوليد وقامت حينئذ دعاة بني العباس بخراسان وأقبل مروان بن محمد من الجزيرة يطلب الخلافة فخلع إبراهيم بن الوليد وقتل قوماً من بني أمية واضطرب أمر دولتهم وكان زوالها على يد أبي مسلم وكان في بدو أمره أضعف خلق الله وأشدّهم فقراً. وفي ذلك تصديق قوله عليه السلام: ثم كادتهم الضباع لغلبتهم. ولفظ الضباع قد يستعار للأراذل والضعفاء. وهذا من كراماته.

٤٣٧ - وقال (عليه السلام)

فِي مَدْحِ الْأَنْصَارِ: هُمْ وَاللَّهُ رَبُّوهُ الْإِسْلَامَ كَمَا يُرَبِّي الْفُلُومَ مَعَ غَنَائِهِمْ
بِأَيْدِيهِمُ السَّبَاطِ وَالسِّنْتِيهِمُ السَّلَاطِ

والفلو: المهر. والسباط: السماح، ويقال للحاذق في الطعن: إنه لسيط اليدين يريد أنه ثقيف فيه. والسلاط: الحديد الفصيح، وشبه تربيتهم للإسلام وحمايتهم له بتربية الفلو، ووجه الشبه شدة عنايتهم به وحسن مراعاته إلى حين كماله.

٤٣٨ - وقال (عليه السلام)

أَلْعَيْنُ وَكَاءُ السَّهْ.

قال الرضي : وهذه من الاستعارات العجيبة ، كأنه يشبه السه بالوعاء ، والعين بالوكاء ، فإذا أطلق الوكاء لم ينضبط الوعاء ، وهذا القول في الأشهر الأظهر من كلام النبي ﷺ ، وقد رواه قوم لأمير المؤمنين عليه السلام ، وذكر ذلك المبرد في كتاب «المقتضب» في باب «اللفظ بالحروف» وقد تكلمنا على هذه الاستعارة في كتابنا الموسوم بـ«مجازات الآثار النبوية» .

وأقول : إنه استعار لفظ الوكاء وهو رباط القربة للعين باعتبار حفظ الإنسان في يقظته لنفسه من أن يخرج منه ريح ونحوها كما يحفظ الوكاء ما يوكى به ، وفي ذلك ملاحظة تشبيه السه بالوعاء كالقربة ، ومن تمام الخبر عن رسول الله ﷺ : فإذا نامت العينان استطلق الوكاء .

٤٣٩ - وقال (عليه السلام)

في كلام له : وَوَلِيَهُمْ وَالٍ فَأَقَامَ وَأَسْتَقَمَ ، حَتَّى ضَرَبَ الدِّينُ بِجِرَانِهِ .

المنقول : أن الوالي هو عمر بن الخطاب . والكلام من خطبة طويلة له عليه السلام في أيام خلافته يذكر فيها قربه من رسول الله ﷺ واختصاصه له وإفضاءه بأسراره إليه إلى أن قال فيها : فاختار المسلمون بعده بارائهم رجلاً منهم فقارب وسدد حسب استطاعته على ضعف وجد كانا فيه . ثم وليهم بعده وال فأقام واستقام حتى ضرب الدين بجرانه على عسف وعجز كانا فيه . ثم استخلفوا ثالثاً لم يكن يملك أمر نفسه شيئاً ، غلب عليه أهله فقاده إلى أهوائهم كما يقود الوليدة البعير المحطوم ، ولم يزل الأمر بينه وبين الناس يبعد تارة ويقرب أخرى حتى نزوا عليه فقتلوه . ثم جاؤا في مدبّ الدبى يريدون بيعتي . في كلام طويل . والجران : مقدّم عنق البعير . وضربه بجرانه كناية بالوصف المستعار عن استقراره وتمكّنه كتمكن البعير المبارك من الأرض .

٤٤٠ - وقال (عليه السلام)

يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ عَضُوضٌ يَعَضُّ الْمَوْسِرُ فِيهِ عَلَى مَا فِي يَدَيْهِ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ تَنْهَدُ فِيهِ الْأَشْرَارُ وَتُسْتَذَلُّ فِيهِ الْأَخْيَارُ، وَيَبَايِعُ الْمُضْطَرُونَ وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ يَبْعِ الْمُضْطَرِينَ.

تنهد: أي ترتفع وتعلو. وذكر للزمان مداماً:

أحدها: استعار له لفظ العضوض باعتبار شدته وأذاه كالعضوض من الحيوان. وفعل للمبالغة.

الثانية: يعضّ الموسر فيه على ما في يديه. وهو كناية عن بخله بما يملك. ونبه على صدق قوله: ولم يؤمر بذلك. بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ فإنه يفيد الندب إلى بذل الفضل من المال وذلك ينافي الأمر بالبخل.

الثالثة: أنه تعلو فيه درجة الأشرار وتستذل الأخيار.

الرابعة: ويبايع فيه المضطرون: أي كرها لأئمة الجور. ونبه على قبح ذلك بنهي الرسول ﷺ.

٤٤١ - وقال (عليه السلام)

يَهْلِكُ فِي رَجُلَانِ: مُحِبُّ مُطَرٍ وَبَاهِتٌ مُفْتَرٍ.

قال لرضي: وهذا مثل قوله: هَلَكَ فِي رَجُلَانِ: مُحِبُّ غَالٍ، وَمُبْغِضُ قَالٍ.

فالمحبّ المطري بكثرة المدح كالغلاة هم في طرف الإفراط، والذي يبهته ويفتري عليه بأنه كافر ومخطيء كالخوارج هم في طرف التفریط. وكلاهما رذيلتان خارجتان عن فضيلة العدل فيه. وقد علمت أنّ الرذائل مهاوي الهلاك الأخرى. وقد سبق مثله.

٤٤٢ - وسئل عن التوحيد والعدل فقال (عليه السلام)

التَّوْحِيدُ أَنْ لَا تَتَوَهَّمَهُ، وَالْعَدْلُ أَنْ لَا تَتَّهَمَهُ.

وهاتان الكلمتان على وجازتهما في غاية الشرف، وعليهما مدار العلم الإلهي. والكلمة الأولى أجل كلمة ربى بها على التوحيد والتزيه، وقد بينا مفهومها في أول الخطبة الأولى من الكتاب. وحملة القول فيها هاهنا أنه لما كان الوهم إنما يدرك المعاني الجزئية المتعلقة بالمحسوس ولا بد أن يستعين في إدراكه وضبطه بالقوة المتخيلة حتى يصوره ويلحقه بالأمور المحسوسة وكان البارئ تعالى منزها بمقتضى لعقل الصرف عن المحسوسات وما يتعلق بها لا جرم لم يجز أن يوجه الوهم في تصوّره تعالى ويجري على ذاته المقدسة أحكامه. إذ لا يكون في حقه إلا كاذبة لاقتضائها كونه محسوساً أو متعلقاً بالمحسوس الذي من شأنه الكثرة والتركيب المنافيان للوحدة المطلقة. فيكون قد عرّف التوحيد بخاصة من خواصه وهي لازم سلبى.

وأما الكلمة الثانية: فلمراد من العدل اعتقد جريان العدل في جميع أفعاله تعالى وأقواله ومن لوزم ذلك الخاصة به أن لا يتهمه العبد أنه يجبره على القبيح ثم يعاقبه عليه، أو أنه يكلفه ما لا يطيقه، ونحو ذلك من مسائل أصول الدين التي اعتمد فيها المعتزلة على ظواهر كلامه تعالى.

٤٤٣ - وقال (عليه السلام)

لَا خَيْرَ فِي الصُّمْتِ عَنِ الْحُكْمِ، كَمَا أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي لَقَوْلِ الْجَهْلِ.

لصمت عن الحكمة رذيلة تفريط من فضيلة القول. والقول بالجهل رذيلة إفراط ولا خير فيهما بل فيم يتوسطهما من القول بالحكمة.

٤٤٤ - وقال (عليه السلام)

فِي دَعَاءِ اسْتَسْقَى بِهِ: اَللّٰهُمَّ اَسْقِنَا ذُلَّ السَّحَابِ دُونَ صَعَابِهَا.

قال الرضي: وهذا من الكلام العجيب الفصاحة، وذلك أنه شبه السحاب ذوات الرعود والبورق والرياح والصواعق بالإبل الصعاب التي

تقمص برحالتها وتقص بركبانها، وشبه السحاب خالية من تلك الروائع بالإبل الذلل التي تحتلب طيعة وتقتعد مسمحة.

وأقول: إن لفظي الذلل والصعاب مستعاران للسحاب لمكان المشابهة التي ذكرها السيد. وقصت به راحلته: رمت به وتتوقص بركبانها: أي تنزوا بهم نزواً يقارب الخطو. والروائع: الأمور المخوفة.

٤٤٥ - وقيل له (عليه السلام)

لو غيرت شبيك يا أمير المؤمنين، فقال عليه السلام: أَلْخَضَابُ زِينَةٍ وَنَحْنُ قَوْمٌ فِي مُصِيبَةٍ! (يريد وفاة رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم). وهو ظاهر.

٤٤٦ - وقال (عليه السلام)

مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ، وَطَالِبُ دُنْيَا.

النهم بالفتح: إفراط الشهوة في الطعام، ولفظه مستعار لشدة طلب المتعلم وحرصه على العلم وطلب صاحب الدنيا، وكذلك وصف عدم الشبع بهما. والكلمة مروية عن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم: منهومان لا يشبعان منهوم بالمال ومنهوم بالعلم.

٤٤٧ - وقال (عليه السلام)

أَنْقَاعَةُ مَالٍ لَا يَنْقُذُ.

قال الرضي: وقد روى بعضهم هذا الكلام لرسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم. واستعار لفظ المال للقناعة بوصف عدم النفاذ باعتبار أن بها الغنى الدائم كالمال الباقي أبداً.

٤٤٨ - وقال (عليه السلام)

لزياد بن أبيه - وقد استخلفه لعبد الله بن العباس على فارس وأعمالها،

في كلام - طويل كان بينهما نهاه فيه عن تقدم الخراج : إِسْتَعْمِلِ الْعَدْلَ ،
وَأَحْذَرِ الْعُسْفَ وَالْحَيْفَ ؛ فَإِنَّ الْعُسْفَ يَعُودُ بِلَجَلَاءٍ وَالْحَيْفَ يَدْعُو إِلَى
السَّيْفِ .

أمره باستعمال العدل وحذره من حيف الناس وعسفهم وهو حملهم
على مكاره . ونفّر عن ذلك بضمير صغراه قوله : فَإِنَّ الْعُسْفَ . إلى آخره : أي
يعود بجلاء المعسوف بهم عن أوطانهم ، وظاهر أَنَّ الظلم معدّ لذلك ، أو
لقيام السيف على الظالم من غيره . وتقدير الكبرى : وكلّما كان كذلك فيجب
اجتنابه .

٤٤٩ - وقال (عليه السلام)

أَثْبُدْ الذُّنُوبَ مَا اسْتَخَفَّ بِهِ صَاحِبُهُ .

وذلك أنه يدوم عليه لاستسهاله إياه حتى يصير مئكة وخلقا لا ينفك عنه
بخلاف ما يستصعبه فإنه يوشك أن يقلع عنه قبل استحكامه وقد مرّ تفسيره .

٤٥٠ - وقال (عليه السلام)

مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْجَهْلِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أَخَذَ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ
أَنْ يُعَلَّمُوا .

لَمَّا كَانَ التَّعَلُّمُ عَلَى الْجَاهِلِ فَرِيصَةً وَلَا يُمْكِنُ إِلَّا بِمَعْلَمٍ عَالِمٍ كَانَ
وَجُوبُ التَّعَلُّمِ عَلَى الْجَاهِلِ مُسْتَلْزِمًا لَوَجُوبِ التَّعْلِيمِ عَلَى الْعَالِمِ ، وَفِي الْخَبَرِ
الْمَرْفُوعِ : مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا فَكُتِمَ أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ . وَرَوَى
مَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ حَسَنَةٌ ،
وِدْرَاسَتُهُ تَسْبِيحٌ ، وَابْحَثْ عَنْهُ جِهَادٌ ، وَطَلَبُهُ عِبَادَةٌ ، وَتَعْلِيمُهُ صَدَقَةٌ ، وَبَذَلُهُ
لِأَهْلِهِ قَرَبَةٌ ؛ لِأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَبَيَانُ سَبِيلِ الْجَنَّةِ ، وَالْمُونِسُ فِي
الْوَحْشَةِ ، وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخُلُوعِ ، وَالْجَلِيسُ فِي الْوَحْدَةِ ، وَالصَّاحِبُ فِي
الْغُرْبَةِ ، وَالِدَلِيلُ عَلَى لِسْرَاءٍ ، وَالْمَعِينُ عَلَى الضَّرَاءِ ، وَالزَّيْنُ عِنْدَ الْأَخْلَاءِ .
وَالسَّلَاحُ عَلَى الْأَعْدَاءِ .

٤٥١ - وقال (عليه السلام)

شَرُّ الْإِخْوَانِ مَنْ تَكَلَّفَ لَهُ .

أي من أحوج إلى الكلفة له . وذلك أنَّ الأخوة الصادقة تستلزم الانبساط بين الإخوان وترك التكلف من بعضهم لبعض . فكان عدم هذا اللازم ووجود التكلف مستلزماً لعدم ملزومه وهو صدق الإخاء ومن لا يكون أخ صدق فهو شرَّ الإخوان . والكلمة في قوَّة صغرى تبه به على اجتناب أخ كذلك ، وتقديرها : من أحوج إلى التكلف له فهو شرَّ الإخوان ، وتقدير الكبرى : ومن كان شرّاً لزم مجانبته .

٤٥٢ - وقال (عليه السلام)

إِذَا أَحْتَشَمَ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ فَقَدْ فَارَقَهُ .

حشمه ، أحشمه : بمعنى أغضبه ، وقيل : أخجله .

والكلام صغرى ضمير نفربه عن احتشام الأخ لأخيه ، وذلك أنَّ احتشامه له على كلى المعنيين يوجب نفرتة وعدم أنسه به وهو من دواعي مفارقتة وموجباتها وتقدير ما هو في قوَّة الكبرى : ومفارقة الأخ لا يجوز فاحتشامه لا يجوز . وبالله التوفيق والعصمة .

هذا آخر ما وجدناه من اختيار السيّد الرضي - رضي الله عنه - من كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وإذ وفقني الله تعالى لإتمام شرحه فله الحمد سبحانه على ما أعدّ لي له من مننه الجزيلة وأفاضه عليّ من نعمه الجليلة ، ومنه أطلب وإليه أرغب أن يجعل ما كتبت حجة لي لا عليّ إنّه المنان ذو الفضل والإحسان . وكتب عبد الله الملتجئ إلى رحمته ، المستعيز من ذنوبه بعفوه وكرمه ميثم بن علي بن ميثم البحراني في منتصف ليلة السبت سادس شهر الله المبارك رمضان - عمّت بركته - من سنة سبع وسبعين وستمائة . والحمد لله كما هو أهله وصلى الله على سيّدنا محمد النبي الأمي وعلى آله الطاهرين الأكرمين وسلّم تسليمًا .

فهرس ما في هذا الجزء من الكتب والوصايا والمختار من حكمه (ع)

الصفحة	العنوان
٣	الفصل الاول من وصية له لابنه الحسن (ع)
٦	لفصل الثاني منها
٧	الفصل الثالث منها
١٢	الفصل الرابع منها
١٤	بيان بعض العلل الحاملة له على هذه لوصيه
	إشارة الى كمال عنايته عليه ووجوه اختياراته له ما هو أولى
١٧	به من العلوم
٢١	شرح ما شار اليه من فضيلة الرسول (ص) على سائر الانبياء
٢١	الفصل الخامس منها
٢٥	الفصل السادس منها
٢٨	الفصل السابع منها
٣٦	الفصل الثامن منها
٤٠	الفصل التاسع
٥٥	الفصل العاشر
٥٦	شرح ما نبه عليه من مكارم الاخلاق التي بها ينتظم امر المعاش والمعاد
٦٥	كتاب له (ع) الى معاوية في الموعظة وتذكيره بحال الدنيا
٦٨	كتاب له (ع) الى قثم بن العباس وهو عامله على مكة
٧٠	كتاب له (ع) الى محمد ابن ابي بكر لما بلغه موجدته من عزله بالأشتر
٧٢	كتاب له (ع) الى عبد الله بن العباس بعد مقتل محمد ابن ابي بكر

كتاب له (ع) الى عقيل بن ابي طالب في ذكر جيش أنفذه الى	
بعض الأعداء	٧٣
كتاب له (ع) الى معاوية نبيكيتاً له	٧٧
كتاب له (ع) الى أهل مصر لما ولي عليهم الاشر (رحمه الله)	٧٨
كتاب له (ع) الى عمرو بن العاص	٨١
كتاب له (ع) الى بعض عماله	٨٣
كتاب له (ع) الى عمر ابن ابي سلمة المخزومي	٨٨
كتاب له (ع) الى مصقلة بن هبيرة الشيباني	٨٩
كتاب له (ع) الى زياد بن أبيه حين بلغه أن معاوية يريد	
خديعته باستلحاقه	٩٠
كتاب له (ع) الى عثمان بن حنيف الأنصاري وفيه الاشارة الى	
أمر فذك، وما جرى على فاطمة (ع)	٩٣
كتاب له (ع) الى بعض عماله	١١٢
وصية له (ع) للحسن والحسين (ع) لما ضربه ابن ملجم (لعنه الله)	١١٣
كتاب له (ع) تبّه فيه على معائب الدنيا	١١٨
كتاب له (ع) الى أمراءه على الجيوش	١٢١
كتاب له (ع) الى عمّاله على الخراج	١٢٣
كتاب له (ع) إلى أمراء البلاد في معنى الصلاة	١٢٥
عهد له (ع) كتبه للأشر النخعي (رحمه الله) لما ولّاه مصر	١٢٧
كتاب له (ع) الى طلحة والزبير	١٧٧
كتاب له (ع) الى معاوية أمره بتقوى الله	١٧٩
كلامه (ع) وصّى بها شريح بن هاني لما جعله على مقدّمته الى الشام	١٨١
كتاب له (ع) الى أهل الكوفة	١٨٢
كتاب له (ع) كتبه الى أهل الأمصار يقصّ فيه ما جرى بينه	
وبين أهل صفين	١٨٢
كتاب له (ع) الى الأسود بن قطيبة صاحب جند حلوان	١٨٤
كتاب له (ع) الى العمال الذين يطأ الجيش عملهم	١٨٦
كتاب له (ع) إلى كميل بن زياد النخعي	١٨٧
كتاب له (ع) الى أهل مصر مع مالك الأشر لما ولّاه إمارتها	١٨٨
كتاب له (ع) إلى أبي موسى الأشعري وهو عامله على الكوفة	١٩١

كتاب له (ع) إلى معاوية جواباً	١٩٤
كتاب له (ع) إلى معاوية يأمره بالتقوى ويرشده إلى الإمساك	
عن دعوى ما ليس له	١٩٩
كتاب له (ع) إلى عبد الله بن العباس	٢٠٢
كتاب له (ع) إلى قثم بن العباس	٢٠٣
كتاب له (ع) إلى سلمان الفارسي (رحمه الله) قبل أيام خلافته	٢٠٤
كتاب له (ع) إلى الحارث الهمداني	٢٠٥
كتاب له (ع) إلى سهل بن حنيف الأنصاري	٢١١
كتاب له (ع) إلى المنذر بن الجارود العبدي	٢١٢
كتاب له (ع) إلى عبد الله بن العباس	٢١٤
كتاب له (ع) إلى معاوية يوبّخه على ترك الطاعة	٢١٥
حلفه (ع) كتبه بين ربيعة واليمن	٢١٦
كتاب له (ع) إلى معاوية في أول ما بويع له	٢١٧
كتاب له (ع) لعبد الله بن العباس عند استخلافه إياه على البصرة	٢١٨
وصية له (ع) لعبد الله بن العباس لما بعثه	٢١٩
كتاب له (ع) إلى أبي موسى الأشعري جواباً في أمر الحكمين	٢٢٠
كتاب له (ع) لما استخلف إلى أمراء الأجناد	٢٢١
باب المختار من حكم أمير المؤمنين (ع)	٢٢٢
فهرس ما في الجزء الخامس	٤٣٨





100

